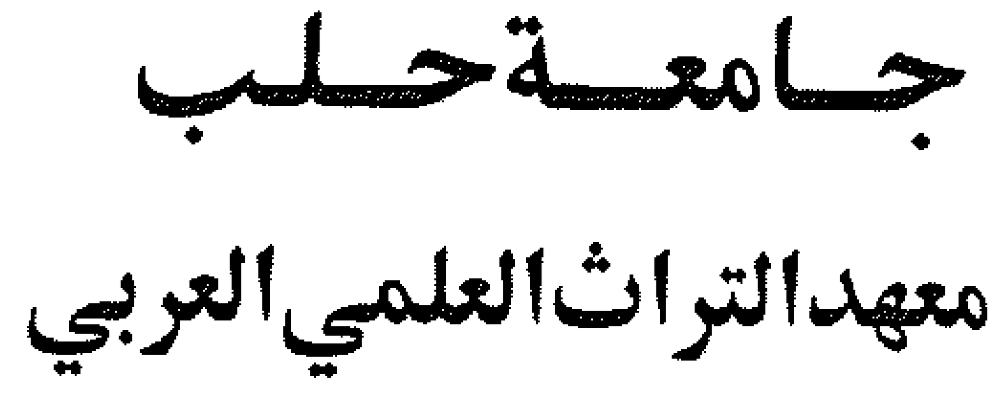
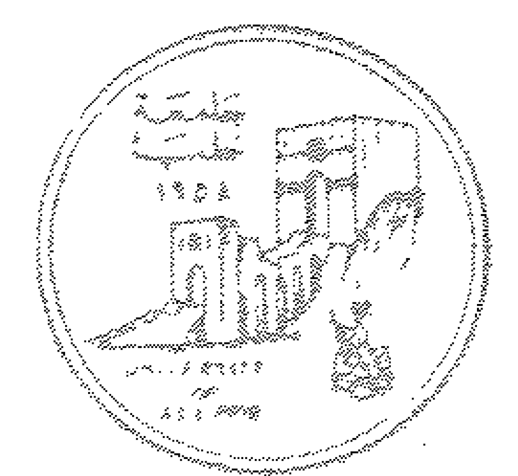
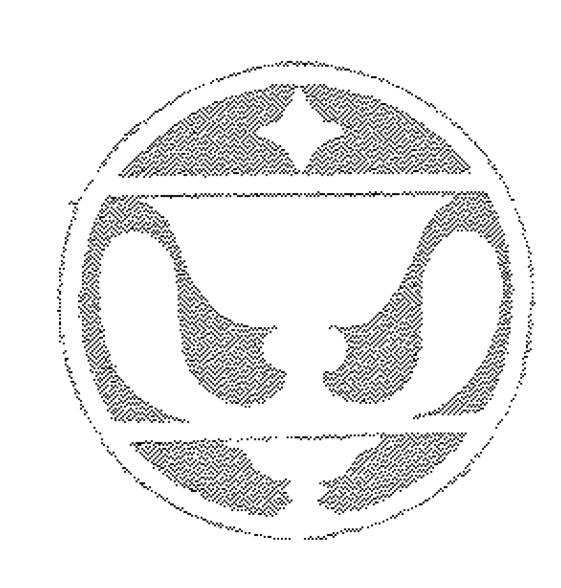




جمعية العاديات بحلب

1924



عاديات حلب

حولية تبحث في تراث العرب العلمي والحضاري

تصدر عن جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات

الكتاب العاشر

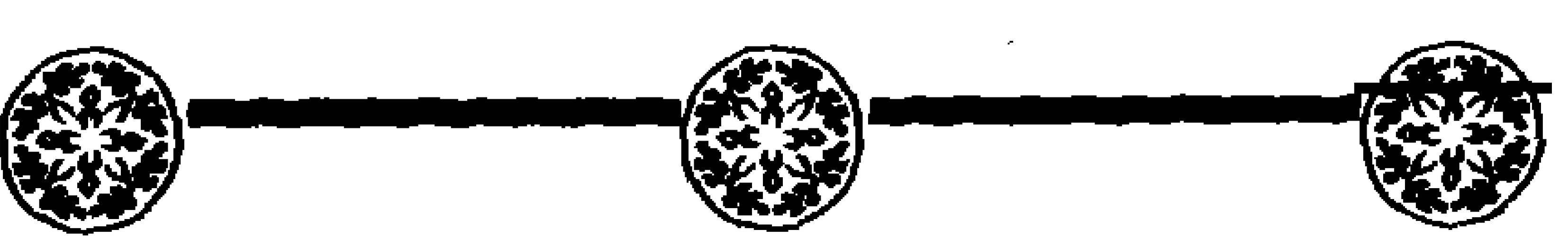
2003

عاديات حلب

عاديات حلب

حولية تصدر بيبع كل عام

تقبل البحوث بالعربية أو الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية



المراسلات باسم: رئيس جامعة حلب - سورية
ورئيس جمعية العاديات

اهـداء2004

جمعيه العاديات

جامعـــة حلـــب
معهد التراث العلمي العربي



جمعية العاديات بحلــب
1924



عاديّات حلب

حولية تبحث في تراث العرب العلمي والحضاري
تصدر عن جامعة حلب و جمعية العاديات

الكتاب العاشر

2003

المحتـــوى

هذا الكتاب

يأتي الكتاب العاشر من "**عاديات حلب**" إضافة مستمرة لهذه الحولية المحكّمة التي تصدرها جامعة حلب وجمعية العاديات.

ومع صدور هذا الكتاب، تقترب جمعية العاديات من عامها الثمانين، فقد ولدت الجمعية يوم 1924/8/2 على يد نخبة من أبناء مدينة حلب الغيورين على التراث والآثار. واستمرت خلال مسيرتها الطويلة تمثّل الوجه الحضاري للمجتمع العربي، كمنظمة أهلية تعمل تطوعاً وتستقطب صفوة المثقفين المدافعين عن تراث أمتهم.

ولعل ما يميز هذا الكتاب أنه يضم ملفاً عن احتفال جمعية العاديات بالذكرى الماسية لتأسيسها ومرور خمسة وسبعين عاماً على هذا التأسيس.

فلقد شهدت قاعة العرش في قلعة حلب احتفالاً كبيراً يوم 1999/8/2 بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس الجمعية. ودلّت الكلمات التي ألقيت على مدى المكانة التي تتمتع بها الجمعية، ومدى وجودها الفاعل في شرائح المجتمع المثقفة. واستمر الاحتفال أسبوعاً شهد إقامة معرض للتراث، وحفلات فنية، ولقاءات تعارف.

وقد كانت إقامة الحفل في قاعة العرش في قلعة حلب ذات دلالة كبرى على الأهمية التي تكتسيها المناسبة. وقد شهدت قاعة العرش في القلعة أحداثاً كبرى خلال تاريخها الطويل والغني.

ومن المعلوم أن قلعة حلب هي الأقدم والأضخم من نوعها على مستوى العالم. وقد دلت التنقيبات الأثرية الجارية فيها على وجود أحجار صوّانية تعود إلى الألف السابع ق.م. كما تم اكتشاف معابد تعود إلى الألف الثالث ق.م.

إلى جانب الميزات الدفاعية والمعمارية والتاريخية التي تشتهر بها قلعة حلب، ووجودها في قلب أقدم مدينة ما تزال مأهولة عبر آلاف السنين رغم كل أشكال التدمير والحروب والزلازل والكوارث.

وإذا كانت الجمعية قد ولدت في "**حلب**" لتكون الصوت العالي المدافع عن آثارها وتراثها،فأن مجال عمل الجمعية لم يبق محصوراً في إطار مدينة حلب، بل امتد اهتمامها إلى آثار سورية عموماً وإلى التراث العربي بوهجه الباهر، وإلى آفاق الحضارة الإسلامية في ميادينها المتسامحة الواسعة.

ويكتمل عمل الجمعية بأبعاده المتنوعة من خلال التعاون الوثيق مع جامعة حلب، الصرح الأكاديمي العملاق، وبخاصة مع معهد التراث العلمي العربي في الجامعة، الذي يعتبر نموذجاً فريداً في جامعات الوطن العربي، من حيث اهتمامه بالتراث العلمي توثيقاً وتحقيقاً ونشراً ودراسة، ومن حيث التركيز على المؤتمرات والندوات المتصلة بالتراث العلمي الغربي.

ويأتي الكتاب السنوي "**عاديات حلب**" ثمرة مثلى لهذا التعاون بين جامعة حلب وجمعية العاديات، إلى جانب التعاون في ميادين علمية وأكاديمية أخرى.

فلقد دأبت جمعية العاديات على تنظيم ندوات علمية ذات طابع دولي بالتنسيق والتعاون مع جامعة حلب، ومن أبرز أمثلة تلك الندوات خلال العامين الماضيين:

1-ندوة "الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي".

2-ندوة "الحياة الفكرية في بلاط سيف الدولة الحمداني".

3-ندوة "خالد بن الوليد" بمناسبة مرور 14 قرناً على وفاته.

4-ندوة "قراءة معاصرة في تاريخ الدولة العثمانية".

5-ندوة "ابن حزم الأندلسي" بالتعاون مع معهد ثربانتس الأسباني إلى جانب جامعة حلب وجمعية العاديات. وقد شارك فيها أربعون باحثاً من خمسة عشر بلداً.

* * *

هذا الكتاب العاشر حاولنا أن يضم جملة من الموضوعات تتوزع بين حفل الذكرى الماسية، ودراسات وبحوث في التاريخ القديم آثارياً وتراثاً وحضارة، وجاء في هذا الموضوع بحوث حول شريعة حمورابي، وقرطاجة، والحضارة الكنعانية، والمفاهيم التوراتية في منظور علم الآثار، وأسطورة كيرت الأوغاريتية ونساك الأبراج.

بينما ركزت دراسات أخرى على التاريخ الإسلامي، مثل بيت المقدس، والفترة المملوكية، والفترة الزنكية، وعلاقات البندقية مع حلب، وابن عربي،

ودراسات ركزت على قضايا متصلة بالتاريخ الاجتماعي: كالألعاب الشـعبية فـي حلب، والتحولات الاقتصادية في حلب، ودور العرب في المنطق، ودور المرأة في تاريخ الحضارات، وصورة حلب لدى الرحالة.

إن هذه الموضوعات التي يضمها الكتاب كان أكثرها محاضرات ألقيت فـي جمعية العاديات، وقد تم اختيارها من بين عشرات المحاضرات لتكون المحور الذي يشكل الإطار العام لهذا الكتاب.

* * *

وفي الكتاب القادم، ننوي- بعون الله- أن نخصص ملفاً واسعاً تحت عنوان:

"حلـب على صفحات التاريخ".

ونرجو من السادة الباحثين الذين لديهم اهتمام بهذا الموضوع أن يرسلوا إلينا بحوثهم لتكون موضع تحكيم، ثم موضع نشر في الكتاب القادم.

ولا بد لنا أن نتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إصدار هـذا الكتـاب: هيئة التحرير وباحثين وإداريين وفنيين، ونخص بالشكر الأستاذ الـدكتور رئـيس جامعة حلـب، والأستاذ الدكتور مدير معهد التراث العلمي بجامعة حلـب وإدارة جامعة مطبعة حلـب. وكل من له دور في إصدار هذا الكتاب.

رئاسة التحرير

ملف

الذكرى الماسية

75 عاماً

على ولادة جمعية العاديات

2-8- 1924

2-8-1999

محمد قجة	رئيس جمعية العاديات
جبرائيل غزال	أكبر الأعضاء سناً
عائشة دباغ	كاتبة وباحثة
يوحنا جنبرت	مطران الروم الكاثوليك
د.صفوان شريتح	رئيس جمعية العاديات- فرع اللاذقية
محمد وفا بطيخ	مدير الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب
د.محمد مصطفى ميرو	محافظ حلب
وحيد خياطة	المدير العام للآثار والمتاحف
سعد زغلول كواكبي	رئيس سابق لجمعية العاديات

كلمة رئيس جمعية العاديات
محمـــد قجــة
في مهرجان الذكرى الماسية
1999/8/2

في هذه البقعة من أرض مدينة حلــب ولدت جمعية العاديات. قبل 75 عاماً في الثاني من شهر آب عام 1924 تداعت مجموعة من أبناء المدينة بمبادرة مــن الشيخ كامل الغزي لتستنكر ما قامت به سلطات الاحتلال الفرنسي من عبث بآثــار المدينة وسطو على بعض هذه الآثار، ومنها المحراب الخشبي الجميل في الجــامع الصغير في القلعة المعروف بجامع الخليل.

كان هذا الحادث نقطة البداية في ولادة جمعية (أصدقاء القلعة والمتحف) التي تحوّل اسمها إلى جمعية العاديات عام 1930 باقتراح من رئيسها الشــيخ المــؤرخ العلامّة كامل الغزي.

وفي هذا المكان من قلعة حلــب (قاعة العرش) كان الملك الظــاهر غــازي الأيوبي يستقبل الوفود والسفراء، ويصدر القرارات ويرسم سياسة الدولة.

هذه القاعة العريقة الباذخة..قاعة العرش في قلعة حلب..مرت عليها القرون وهي تستقبل السلاطين والأمراء والولاة والقضاة، ويغيبون جميعــا وتبقــى هــي شامخة تطال السماء كبرياء وعنفواناً.

هذه القاعة نقف فيها اليوم لنحتفل بابنة حلــب البارّة (جمعية العاديات) وهي تتم عامها الخامس والسبعين ممشوقة القامة تفيض حيوية وشباباً متجدداً. وتتــدفق عطاءً ومحبة للوطن الغالي وتراثه المجيد. وتتفانى تضحية وبذلاً لخدمة هذا الوطن الغالي.

حلب المحروسة نلتقي اليوم في قاعة عرشها في القلعة الغرّاء التي استعصت على الغزاة والطغاة، وتساقطت أطماعهم دون أبراجها وأسوارها. وبقيت حجارتها الشهباء تصافح الشمس وتعانق التاريخ وتكتب اسمها في سِفر الخلود.

حلب سيف الدولة والمتنبي...حلــب بلاط الفكر المســتنير والأدب الرفيــع والجهاد الصادق، حلب المركز الاقتصادي العالمي النشط بأسواقها وخاناتها وحركة أبنائها التي لا تفتر.

حلب التي تصدت للحصار الأوربي خلال الحروب الصــليبية (518هــــ - 1124م) وأسقطت ذلك الحصار، وحولت وجهة تلك الحروب مــن الــدفاع إلــى الهجوم حينما اتخذها عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين عاصمة لمقاومة العــدوان

الفرنجي، ومنها انطلقت الجيوش تحرر"الرها". وفيها بني المحراب الذين زيّن المسجد الأقصى في بيت المقدس بعد تحريره على يد صلاح الدين.

حلب الشهباء...بحجارتها البيضاء التي تحمل عبق التاريخ....الحجارة التي تذكر سلاطينها العظماء الذين تركوا بصماتهم على أبنية المدينة وفي طليعتهم الظاهري غزي الأيوبي الملك المعمار.

حلب مركز التجارة العالمية عبر القرون، وهي تستقبل آلاف القوافل رائحة غادية بين آسيا وأوربا...بين جزيرة العرب والأناضول...بين المتوسط والفرات والخليج ...قوافل تحمل الحرير والتوابل والأقمشة والعطور والصناعات اليدوية المختلفة...ولا تزال أسواق المدينة وخاناتها وقيسارياتها شاهداً حياً على ذلك...

حلب الضاربة في أعماق الدهر تستقبل السومريين والأكاديين والكنعانيين والعموريين والبابليين والحثيين والميتانيين والآشوريين والمصريين والآراميين والاخمينيين والإغريق والسانيين والرومان والبيزنطيين.. وسواهم..ثم تحط الرحال مع دوحة الحضارة العربية لتغدو نخلة سامقة في جنبات تلك الدوحة..

* * *

ألقت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وانحسرت عن هزيمة ألمانية والدولة العثمانية، مما أتاح المجال لدول الحلفاء أن تنفذ مشاريعها الخبيثة في وعد "**بلفور**" واتفاقية "**سايكس بيكو**" التي آلت بموجبها سورية إلى الانتداب الفرنسي. وفي مدينة حلب، وفي مطلع العشرينات بدأ الفرنسيون عمليات تنقيب وتفتيش في قلعة حلب، وبدأت الأحمال تنتقل من القلعة إلى الشاحنات العسكرية الفرنسية بإشراف الجنرال "فيغان" ثم تأخذ هذه المقتنيات طريقها إلى فرنسا.

وكان من أبرز تلك الآثار المسروقة من القلعة المحراب الخشبي والمكتبة الخشبية من المسجد الصغير المعروف بمسجد الخليل. ويعود المحراب والمكتبة إلى العهد الزنكي في القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي.

وفي كتاب "هيرزفلد" عن مدينة حلب صورة لذلك المحراب.

أثارت هذه السرقة الوقحة غيرة بعض أبناء المدينة فتداعوا إلى تأسيس جمعية تحت اسم "جمعية أصدقاء القلعة" ولما كان هناك سعي لإنشاء متحف في بهو القلعة فقد أصبح اسم الجمعية "جمعية أصدقاء القلعة والمتحف".

قبل خمسة وسبعين عاماً..وفي الثاني من آب 1924 اجتمع نفر من أبناء حلب البررة ليشكلوا جمعية تحفظ تراث المدينة، وهم الشيخ كامل الغزي - الأب جبرائيل الرباط - الشيخ راغب الطباخ - الشيخ عبد الوهاب طلس، الأب جرجس منش - المهندس صبحي مظلوم، وكان معهم الفرنسي دو روترو مفتش الآثار.

وأصدرت الجمعية العدد الأول من مجلتها في شهر آيار 1931 بصورة شهرية تحت اسم "مجلة العاديات السورية" وبقيت تصدر حتى عام 1940 حيث توقفت بسبب الحرب العالمية الثانية.

استعادت الجمعية نشاطها بموجب المرسوم التشريعي رقم 47 لعام 1950 برئاسة الدكتور عبد الرحمن الكيالي.

* * *

وفي فترة الوحدة بين مصر وسورية أعيد تنظيم الجمعيات وتم إشهار جمعية العاديات تحت رقم 77 بتاريخ 1959/12/15 ونشر ذلك في 1959/12/24 واعتمد النظام الداخلي للجمعية على أساس ذلك.

ومنذ عام 1975 شرعت الجمعية بإصدار كتاب سنوي باسم "عاديات حلب" بالتعاون مع جامعة حلب التي تتولى طباعته مشكورة. وقد صدر منه حتى اليوم عشرة أعداد.

تعمل الجمعية من خلال مجلس إدارة ينتخب انتخاباً ديموقراطياً كل سنتين، ويتألف المجلس من تسعة أعضاء ينتخبون رئيساً ونائباً للرئيس.

ويمارس المجلس نشاطه من خلال اللجان التالية:

-اللجنة الثقافية:وتتولى تنظيم المحاضرات الأسبوعية والندوات وإعداد البرنامج السنوي اللازم لذلك.

- اللجنة الإعلامية:ومهمتها معاودة إصدار مجلة العاديات السورية، والاتصال بوسائل الإعلام من تلفزيون وإذاعة وصحافة ووكالات الأنباء وتغطية أنشطة الجمعية من خلال وسائل الإعلام المختلفة محلياً وعربياً وعالمياً.

- اللجنة الاجتماعية:وتنبثق عنها لجنة العلاقات العامة واللجنة الفنية ولجنة المعارض.

-اللجنة القانونية: وتشرف على تنظيم عمل الجمعية إدارياً ومالياً وعلاقاتها بالمؤسسات الأخرى.

- لجنة الكتاب السنوي:ومهمتها تهيئة المادة العلمية للكتاب والإشراف على طباعته وإخراجه.

- لجنة الرحلات: وهي التي تنظم الرحلات الأثرية العلمية داخل سورية وخارجها وتضع لذلك برنامجاً سنوياً.

- لجنة حماية المدينة القديمة: وتتولى متابعة ما يجري في المدينة القديمة من خلال الزيارات والدراسات وتقديم التوصيات والاقتراحات اللازمة.

- لجنة حماية البيئة: وتتولى متابعة شؤون البيئة وبخاصة في المدينة القديمة.

- لجنة الأدلاء: ومهمتها تقديم النشرات اللازمة للزيارات الأثرية والرحلات والقيام بالشرح العلمي والأثري خلال تلك الرحلات.
- لجنة التزكية: وهي التي تدرس طلبات الانتساب المقدمة إلى الجمعية وتوصي بقبول من تتوفر فيهم شروط العضوية.
- لجنة المشتريات: وتشرف على شراء لوازم الجمعية ونفقاتها.

وتستعين الجمعية بعدد من المستشارين ذوي الاختصاص من أساتذة الجامعات والخبراء والباحثين والعلماء في شتى المجالات.

تضم الجمعية منذ نشأتها حتى اليوم أكثر من 2500 عضو يتوزعون على الشرائح الثقافية العليا في المجتمع من أساتذة جامعيين ومؤرخين واثاريين ومهندسين وأطباء ورجال قانون واقتصاد وأدباء وفنانين وغيرهم من الفعاليات الفكرية بحيث تغدو بهم الجمعية الوجه الثقافي والتراثي لمدينة حلب والقطر العربي السوري.

وإننا بحمد الله تعالى وبدعم مشكور من المسؤولين وأصدقاء الجمعية وأعضائها تمكنا من تطوير أنشطة الجمعية وتوسيعها وتنظيم أمورها الإدارية والمالية والتقنية وفق أسس منهجية. حيث شهدت الجمعية في السنوات الأخيرة انفتاحا واسعا على الشرائح المثقفة العليا. وتطويراً للعمل في مجال التراث والاثار وتوسيعا لمجال العمل الفكري والثقافي والتراثي والفني والإداري.

وتجلى ذلك في الأمثلة التالية:

1-تم تطوير المكتبة بحيث قفز عدد الكتب من 359 كتابا عام 1994 إلى أكثر من 4000 كتاب عام 2003 بالعربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية وذلك بالشراء والإهداء. وتمت فهرسة المكتبة وتزويدها بجهاز كمبيوتر. وتفريغ موظف خاص بها. وهي غنية بالمراجع التاريخية والأثرية والأجهزة اللازمة الحديثة للمحاضرات والأعمال التوثيقية والإدارية.

2-تم تنظيم الأمور الإدارية والمالية وفق أسس منهجية وعلى أيدي مختصين وغدا لدى الجمعية كل السجلات اللازمة لتنظيم عملها وفق مبادىء مبرمجة.

3-تم تزويد الجمعية بما يمكن من أدوات ووسائل لازمة كأجهزة الكمبيوتر وعرض الشرائح الضوئية وعرض الشفافيات والفاكس وأجهزة الصوت والفيديو والتلفزيون والتسجيل المتطورة.

4-تم توثيق أرشيف الجمعية بالكمبيوتر.

5-نفذت الجمعية عدداً من الرحلات الكبرى التي تقوم بها لأول مرة في تاريخها مثل رحلة المغرب - إسبانيا- إيران.الهند. ماليزيا. تونس.

6-أحدثت الجمعية عدداً من اللجان لأول مرة مثل: لجنة حماية المدينة القديمة ولجنة حماية البيئة واللجنة القانونية واللجنة الإعلامية.

وإن الجمعية لتعتز كل الاعتزاز بأنها ممثلة في لجنة صيانة وترميم الجامع الأموي الكبير بحلب التي تشكلت بموجب القرار رقم 3 لعام 1999 الصادر عن السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية. وهذه اللجنة وسام شرف على صدر مدينة حلب ومكسب تاريخي لها ومأثرة تظل تذكرها لقائد سورية الحديثة الرئيس حافظ الأسد.

والجمعية ممثلة في هذه اللجنة بشخص رئيس مجلس الإدارة محمد قجة، كما أنها تضم في عضويتها عدداً من أعضاء الجمعية منهم مدير الآثار بحلب وحيد خياطة ورئيس قسم التاريخ بجامعة حلب د.عبد الرحمن دركزنلي ورئيس الوحدة الهندسية في جامعة حلب د.مروان حمزة.

والجمعية عضو في اتحاد الجمعيات الأثارية العربية وقد ترأست هذا الاتحاد غير مرة. ولها صلات وثقى مع الجمعيات الأثارية والتراثية المماثلة في عدد من بلدان العالم.

وجمعيتنا لها فروع في عدد من المحافظات السورية أنشطها فرع اللاذقية الذي يعود الفضل في إنشائه للمرحوم جبرائيل سعادة واستمرار نشاطه حالياً بمجلس إدارته برئاسة د.صفوان شريتح.

* * *

لقد عرفت الجمعية خلال تاريخها الطويل كثيراً من الأعلام والمفكرين والمؤرخين والباحثين منهم:

الشيخ كامل الغزي الرئيس الأول للجمعية، والأب جبرائيل الرباط المربي والأديب والرئيس الثاني للجمعية، والشيخ راغب الطباخ المؤرخ والرئيس الثالث للجمعية، والعلامة خير الدين الأسدي نائب رئيس جمعية العاديات، والدكتور عبد الرحمن الكيالي الرئيس الرابع للجمعية، والأديب سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث والأب جرجس منش والشيخ عبد الوهاب طلس والمهندس صبحي مظلوم والباحث أسعد عنتابي والباحث صبحي الصواف والدكتور أدولف بوخه الرئيس الخامس للجمعية، وجبرائيل ميكائيليان وهؤلاء جميعاً من مؤسسي الجمعية لعام 1930. والشيخ محمد الحكيم مفتي حلب الأسبق، والقانوني اسعد الكوراني. والمطران ناوفيطوس ادلبي- ومن رجالات الجمعية: فؤاد عنتابي- د.عبد الرحمن الكواكبي- جبرائيل غزال- سعد زغلول كواكبي الرئيس السادس للجمعية- الباحث د.عمر الدقاق- د.أنور دويدري- د.طه الكيالي- د.إحسان الرفاعي- الفنان وحيد مغاربة- الشاعر عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد- المهندس مصطفى حكمت اليازجي والمهندس عبد المنعم حربلي المعروفان بتصميم الجوامع الجميلة

في حلب. والأستاذة الباحثة عائشة الدباغ- الأديب خليل هنداوي- الأديب جورج سالم- الأديب وليد إخلاصي- الدكتور أحمد يوسف الحسن- الأستاذ جورج انطاكي- الدكتور روبير جبه جيان، الأستاذ جلال الملاح.

* * *

في هذه المناسبة النادرة لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من يمد يد الدعم والعون لهذه الجمعية الوطنية التراثية العريقة.

كما نتقدم بالشكر لأصدقاء الجمعية وأعضائها الذين تبرعوا للجمعية تبرعات نقدية أو عينية.

كما أشكر كل من ساهم في الإعداد لهذا المهرجان وإنجاحه من الزملاء والأصدقاء في مجلس الإدارة والجمعية ولجانها المختلفة وبخاصة العلاقات العامة. وأثني ثناء حاراً على الدكتور عبد الرحمن دركزنلي لدوره في تقديم الحفل.

* * *

تبقى جمعية العاديات وجها ثقافيا تراثيا يعكس صورة الوطن وتبقى منتدى للفكر والآثار والتاريخ القديم المتجدد.

وتبقى تعمل لمصلحة الوطن والأمة، تلتقي في ذلك مع كل العاملين المخلصين في هذا الميدان.

كلمة الأستاذ جبرائيل غزال*
أكبر الأعضاء سناً

سيداتي سادتي أيها الحفل الكريم:

يطيب لي بمناسبة الاحتفال بعيد جمعية العاديات الماسي أن اقف بين أخواني أعضاء جمعية العاديات شاكراً المولى عزّ وجلّ على نعمته بالصحة والعمر لأحضر هذا الاحتفال العزيز على قلبي .. وعلى رعايته لهذه الجمعية التي، رغم العوائق التي صادفتها ما زالت قائمة مزدهرة سائرة دوماً إلى الأحسن.

نعم إخواني الأعزاء لقد حظيت بمعرفة هؤلاء الأعلام مؤسّسي جمعية العاديات وعملت معهم ومع من تلاهم ستين عاماً في خدمة جمعية العاديات.

أذكر حتى اليوم ذلك الشيخ الجليل كامل الغزي الذي التقيت به في حفل في دار آل غزالة، قال لي، رحمه الله، بعد أن علم إنني آت من فرنسة مكملاً دراستي الجامعية: مع ذلك أنصح لك أن تنتسب إلى جمعية العاديات فمن أهدافها تعريف المواطنين بتراث بلدهم ووطنهم فقبلت النصيحة وانتسبت إلى الجمعية وكان ذلك عام 1932. ولقد أتيح لي أن صادفته مراراً في المطبعة المارونية يشرف بنفسه على تصحيح وطبع مجلة العاديات.

كما رحب بانتسابي إلى الجمعية نائب رئيسها حينذاك الخوري جبرائيل ربّاط أستاذي في ثانوية الروم الكاثوليك صاحب النشاطات الأدبية والآثارية المعروفة والخطيب المفوّه الشهير في حلب الذي لقب بسيد الكلمة وخطيب المنابر، فشجّعني ودعاني للاشتراك بنشاطات الجمعية، وبالفعل كان أول عمل لي في الجمعية مقالاً حررته باللغة الفرنسية عن العالم الراحل عضو جمعية العاديات الأستاذ كبرئيل ميكائيليان المختص بعلوم اللغات الشرقية القديمة. ثم عهد إلي الإشراف على ترتيب وتحرير وطبع القسم الفرنسي من مجلة العاديات حتى توقفها عن الصدور عام 1938 مع بداية الحرب العالمية الثانية.

لقد تعرّفت أيضاً على العالم الكبير والشيخ الوقور محمد راغب الطباخ في ثانوية الفاروقية فكان أستاذ اللغة العربية وكنت أستاذ اللغة الفرنسية ورغم مكانته

---

* **توفي عام 2000.**

الدينية والعلمية والاجتماعية السامية، كان رحمه الله، متواضعاً بشوش الوجه لطيف المعشر يجاملني وأنا شاب ويحدثني عن ولعه بالتاريخ والتراث وعن مؤلفاته عديدة المواضيع ولقد حفظت له مودة صادقة وكنت أزوره في مطبعته (المطبعة العلمية) خلف خان الحرير وأذكر له محاضرته القيّمة عن الأمويين والعباسـيين فـي دار الكتب الوطنية.

لقد شهدت جمعية العاديات نشاطاً مرموقاً في عهد الدكتور عبد الرحمن الكيالي في أوائل الخمسينات، وأذكر له، وأنا أمين السر، اهتمامه بأعمال الجمعية رغم انشغاله بعمله المهني وبالقضايا الحزبية والسياسية، وحرصه على حضور جميع جلسات الهيئة الإدارية. كما نظّم برنامج المحاضرات ودعا أعلام التاريخ في سورية ولبنان لإلقاء المحاضرات في حلب وأذكر منهم المؤرخ الأستاذ أسد رستم أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت والمؤرخ الشهير عيسى اسكندر المعلوف وألقيت تلك المحاضرات في دار آل دلال في حارة السيسي ثم نظراً لإلغاء نظام الجمعية القديم عمدت الهيئة الإدارية لوضع نظام جديد جاء مؤلفاً من ثلاث وخمسين مادة نشر في الجريدة الرسمية عام 1959 وهو نظام الجمعية الحالي مع بعض التعديلات.

لقد انتخب الدكتور أدولف بوخه رئيساً للجمعية خلفاً للدكتور الكيالي ورغم انشغال الدكتور بوخه بمهنته الطبية وكبر سنه والأوقات التي يضطر ليخصصها لاستقبال العلماء والرحالة والمستشرقين المرموقين الذين يزورون مدينة حلب في داره الأثرية فقد خصص رحمه الله يوماً كاملاً من كل أسبوع للاطلاع على أعمال الجمعية والتقاء الهيئة الإدارية في داره وكان ذلك يوم الجمعة ليتسنى للأعضاء الوصول إلى خان النحاسين بسياراتهم والأسواق مغلقة وكان يحلو للدكتور أن يقص علينا بعض الأحداث التي عاشها وهو شاب في أواخر القرن الماضي ثم يطلعنا على مقتنيات داره الغنية بالعاديات ولكل عاديّة عنده حكاية، وقبيل الانصراف كانت زوجته المرحومة بتي تقدم لنا ما طاب من الحلويات من صنع يديها، وعند انتهاء مدة رئاسته سمّته الجمعية الرئيس الفخري مدى الحياة.

لقد عانت جمعيـة العاديـات كثيراً من عدم وجود مقر ثابت خاص بها، لقد استضـافها المجمـع العلمـي فـي مقره فـي خـان الجمـرك مـدة مـن الـزمن إكراماً للشيخ الغزي عضـو المجمـع العلمـي ولكـن، بعـد حـين، اضـطرت الجمعيـة لمغـادرة المكـان

فاستأجرت داراً بالقرب من المتحف الوطني القديم في حي الناعورة فجعلته مركز تحرير مجلة العاديات ومقر اجتماع الهيئة الإدارية إلى ان توقفت أعمال الجمعية عقب إعلان الحرب العالمية الثانية فوضع المتحف الوطني يده على أموالها وممتلكاتها كما هو منصوص عليه في نظام الجمعية الداخلي.

وهكذا غابت الجمعية عن الوجود زمن الحرب العالمية الثانية، إلى أن استعادت نشاطها في أوائل الخمسينات واتخذت المكتبة الوطنية مقراً مؤقتاً لها ولكن لم تخصص غرفة لحفظ ممتلكاتها ومقراً لاجتماع هيئتها الإدارية وبقي الحال على ما ذكرت من الخمسينات حتى السبعينات حين قبلت وزارة الثقافة أن تخصص غرفة من غرف المتحف الوطني مقراً للجمعية ولكن لم يطل الزمن سنة واحدة حتى أخرجنا من المقر المذكور فلجأنا إلى لجنة حماية المسجد الأقصى .... رئيس الجمعية عندئذ .

وبعد جهود مضنية وبمساعدة الحزب مشكوراً تمكنا من إشغال ثم استئجار الطابق الأول من البناء المميز بطابعه الأثري في محلة الجميلية مقر الجمعية الحالي فقمنا بترميمه وتزيينه وتأثيثه أملين أن يبقى مقراً دائماً للجمعية.

لقد أدت جمعية العاديات لهذا البلد العتيد وهذا الوطن الحبيب خدمات جلى تذكر لها باعتزاز وفخر ومازالت الجمعية جادة في تحقيق أهدافها النبيلة بإحياء التراث والمحافظة عليه ونشره على أوسع مدى وزرع روح التفاهم والتآلف والمحبة في قلوب المواطنين جميعاً ولله الحمد أن الجمعية اليوم بأيدي رجال صادقين مخلصين ساعين لازدهارها والعمل لتحقيق أهدافها بما هو الأحسن برعاية راعي الثقافة والأدب الرئيس المناضل حافظ الأسد حفظه الله.

شابة في الخامسة والسبعين

إلى جمعية العاديات في عيدها الماسي

حكاية من ضمير الأمس أحكيها ... صبية حلوة رقت حواشيها

نديّة الحُسن رغماً من تقادمها ... من عين كل حسود بتُّ أرقيها

خمساً وسبعين من أعوامها قطعت ... نحن الوفيون للذكرى نحييّها

معطاءة في شباب ماله هرم ... وكيف تهرم والأكباد تسقيها؟

بوركت يا عيدها، عمر الزمان ندى ... هوى، وفاء وتقديراً يوشّيها!

من كرمة للتراث الثر أترعها ... جهد الرجال وراح الكل يعطيها

تترى تتابع أخيار بذي بلد ... كانوا شموعاً أضاءت في مغانيها!

في مربع الخلد شهباء وما برحت ... نبض القلوب على الأيام يثريها!

"للعاديات" نشاط ليس ينكره ... أهل الحصافة، ولتشهد نواديها

فليرعَ ربّي الإله كلّ من عملوا ... في خير أمّتهم تعلو، ويُربيها

أفدي الأمانة أدّاها أولو همم ... بالعزم والرأي ما شاعت معانيها

وليرعَ مولاي ربّي جهدَهم أبداً ... فالمجد يكتب تاريخاً بأيديها !!

عائشة الدباغ-حلب 1999/8/2

كلمة مطران الروم الكاثوليك

المطران يوحنا جنبرت

نحتفل اليوم بالذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس جمعية أصدقاء القلعة والمتحف في حلب، حيث التفّ حول العلامة المرحوم كامل الغزي، نخبة من رجالات المدينة المثقفين البارزين، الذين عقدوا العزم على حماية آثار قلعة حلب وتأسيس المتحف الوطني.

ولم تمض سنوات قلائل حتى اتسعت رقعة اهتمامات هذه الجمعية الناشئة، لتشمل سائر الآثارات التي تزين كل بقعة من بقاع هذا الوطن العزيز، فأضحت جمعية العاديات كما نعرفها اليوم.

وإني، إذ أهنئ القائمين على هذه المؤسسة اليوم، وفي طليعتهم سيادة الأستاذ محمد قجة، والأستاذ جبرائيل غزال، وجميع السادة الإداريين، وجمهور الأعضاء، في عيد جمعيتهم الماسي، لا يسعني إلا أن أترحم على أرواح المؤسسين، الذين كان لهم الفضل في تأسيس هذه المنشأة الثقافية الراقية، وقيام هذا الصرح الحضاري الرائع، موضوع فخار واعتزاز لمدينتنا العريقة ووطننا الخالد.

ولي في هذه المناسبة ثلاثة خواطر، وردت إلى ذهني، وأود أن انقلها إليكم، أيها الأصدقاء الأكارم.

<u>أولاً- نظرة إلى ماضي الجمعية</u>، أريد من خلالها أن أحييّ جميع الذين عملوا، وجاهدوا، كي تنشأ وتنمو فتتقدم، لأبناء حلب خاصة، وسوريا عامة، عطاءات لا حصر لها، وخدمات جلّى، سطّرها لها تاريخ هذه المدينة، في صفحاته النيرة، لن تمحى على مدى الدهر، فالوعي الذي خلقته في الأذهان حمل عدداً كبيراً من المواطنين على الاهتمام بالآثارات العظيمة، وهذا التراث الرائع والذي يغمر بلادنا ويشرّفها، كما أن تكوينها الوطني العلماني، وتنوع منابت أعضائها جعل منها بوتقة وحدة وائتلاف يجسّد كيان الأسرة الوطنية الواحدة، التي تضم في رحابها، سائر الأخوة المواطنين، دون تمييز أو استثناء، وفي ذلك خير كبير لأمتنا وشعبنا.

<u>ثانياً- نظرة إلى الحاضر</u>، حيث نرى جمعية العاديات على أشدها، تضم مئات الأعضاء والمناصرين، يلتفون بثقة حول أعضاء مجلس إدارتها الحالي المكوّن من خيرة أبناء هذه المدينة، يدأبون، بجد وإخلاص، في سبيل تحقيق أهدافها الأساسية، وخطة عملها الراهنة التي تقوم على المحاور التالية:

-العمل الثقافي وتنظيم الندوات والمحاضرات.
-زيارة المواقع الأثرية، والرحلات العلمية.
-النشاط الفني والاجتماعي.
-النشاط الأكاديمي للمحافظة على عراقة المدينة القديمة، وحمايتها من العبث والتنكيل، وقد حققت الجمعية أهدافها في هذه المجالات، وأبلت بلاء حسناً في الفاعليات المتعددة التي خططت لها، خلال السنوات المنصرمة، حتى أن صيتها انتشر في البلاد، وخارج البلاد. وأشار إليها الجميع على أنها منتدى الوحدة الوطنية والتآخي، والحداثة الفكرية والثقافية في حلب الحضارة.

ثالثاً- نظرة إلى المستقبل:

قال الباحث العلامة جان سوفاجيه، فيما قال عن مدينة حلب:
"لن نبالغ في شيء، إذا قلنا إن حلب هي أقدم وأعرق مدن الدنيا، وإنه ما من حاضرة مسكونة ومزدهرة في عالمنا المعاصر تستطيع أن تفخر بتاريخ يوازي تاريخها، وتراث يضاهي تراثها...

فلا غرابة في أن تضعها منظمة الأونسكو في مطلع لائحة أقدم مدن العالم حيث يُقدَّر عمرها بأكثر من سبعة آلاف سنة، كما أن بلادنا تذخر بمئات، لا بل بآلاف المواقع الأثرية الهامة التي تجعل من سوريا إحدى أغنى دول العالم في أوابدها وعادياتها. ومن هنا الاهتمام الحثيث الذي يبديه نحوها مثقفو العالم، ومن هنا أملنا بمستقبل زاهر، إن **"لجمعية العاديات"** أو لصناعة السياحة التي سوف تكون في السنوات القليلة المقبلة، ركناً اقتصادياً هاماً، يأتي في طليعة محصلات الدخل القومي لبلادنا، لاسيما وأن الدراسات الأخيرة التي أجريت في عالم النقل والسياحة تتوقع أن يبلغ عدد المسافرين والسياح المليارين، في غضون عام 2005، في مطلع الألفية الثالثة، وسوف يكون لسورية حصة كبيرة من هذه الحشود، تفوق قدرتها على الاستيعاب، نظراً لما يجد فيها السواح الأجانب عامة، والأوربيون خاصة من غنى أثري وتنوع حضاري.

ونجد في هذا ما يدفعنا اليوم، إلى دعوة المواطنين إلى العمل والاستعداد لهذا الاستحقاق، إنها الفرصة المواتية لانطلاقة اقتصادية، نحن أحوج ما نكون إليها».

وهنا نرى دور "**جمعية العاديات**" المستقبلي، فهي مدعوّة للعمل على توعية شعبنا لمواجهة التحدي بجاهزية فكرية وتقنية ومناقبية، تجعل ضيوف بلادنا يرتاحون إليها.ويتعلقون بها وبشعبها المضياف. كما أنها مدعوة، مع وزارة السياحة إلى القيام بحملات إعلامية، في الخارج، عن طريق المؤتمرات، والمحاضرات، والمهرجانات، والمعارض المتنقلة، والمنشورات، والبرامج التليفزيونية، تعرض من خلالها على أبناء العالم العربي، عيّنات من كنوز معالمنا الأثرية، وتحفها الفريدة فتحفزهم بذلك على ركوب الطائرة نحو مطار حلـــب أو دمشق، حيث شعبنا بانتظارهم.

إننا نرى، اليوم، لجمعيتنا العزيزة، دوراً استراتيجياً، في المعركة الاقتصادية المقبلة، إضافة إلى ما لها من دور ثقافي، وتراثي، واجتماعي، وهي مطالبة، اليوم، بقفزة نوعية في أدائها، فمهمتها لم تعد تنحصر في أبناء هذه المدينة، وعليها أن تتطلع إلى العالم لتخاطبه وتعرّفه على كل ما أورثنا الأجداد من كنوز لا حصر لها...إنها مطالبة بكتابة تاريخ الرقي الإنساني، الذي ما انفكّ ينمو ويتطوّر في بلادنا منذ آلاف السنين، دون انقطاع حتى اليوم.

إن هذا التراث والأوابد الشامخة التي تجسّد حقبات تطوّره، من شأنها أن ترفع رأسنا عالياً، وهي أيضاً عنصر من عناصر وحدة أبناء هذا البلد العريق والغالي، وعنصر من عناصر التلاقي بين الأمم، وعنصر صداقة وسلام بين الشعوب، فأجدادنا هم الذين صنعوا هذا التاريخ الزاهر، وذكراهم ونتاج عملهم الرائع يوحّدنا، ويجعلنا نتخطى كل الفوارق التي حصلت في القرون الوسطى المظلمة وفي عصر الانحطاط. فنتطلع معاً، بقيادة رئيسنا المفدى، حافظ الأسد، نحو الألف الثالثة بثقة واعتزاز...إننا أبناء شعب صنع التاريخ والحضارات في الماضي، وهو سوف يقدّم، مستقبلاً، المزيد ثم المزيد، من العطاءات الثقافية لشعوب العالم...

كلمة فرع اللاذقية

الدكتور صفوان شريتح*

أيها السادة الحضور – أسعد الله أوقاتكم

من شواطئ اللاذقية وأطلال أوغاريت الغافية على كتف البحر أحمل إليكم باقة حب وجذوة إيمان بالأرض التي أعطت فكان عطاؤها ينابيع ضياء لا يطفئها الزمن ولا تعدو عليها الأيام..جئنا نشارككم احتفالكم بالذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس"جمعية العاديات" نحمل أبجدية الحب وأمواج اللهفة ونسائم زهر الليمون هدية عيد للجمعية التي ضربت جذورها عميقاً في تاريخنا فكانت مشعل نور أضاء دروب الماضي ووصلتها بعطاءات الحاضر لتكون رفداً للمستقبل ومنارة للأجيال...

ليست جمعية العاديات مجرد نشاط اجتماعي ثقافي تراثي، بل هي في مفهومنا العميق جذع يلوذ به اللائذون من طوفان العولمة الذي يمحو الملامح المميزة ويضفي على الشعوب نكهة موحدة لا معنى لها..نعم هي جذع يضرب جذوره عميقاً في تاريخ هذه الأرض ليؤكد أن الحضارة بكل أشكالها نشأت هنا في سورية وعلى ضفاف أنهارها وخلجان شواطئها دون أن يكون هذا التشبث بماضينا وأصالتنا تعنتاً ضد معطيات العصر ومتطلباته وإنما عقلنتها ووضعها في حجمها وتأثيرها العادي.

فنحن عندما ندخل عصر العولمة وفي ذاكرتنا رصيد حضارة عمرها من عمر الإنسان العاقل نمتلك قوة وتأثيراً يدعم موقفنا الإنساني، هذا ما تعنيه وتُعنى بتثبيته في الأذهان جمعية العاديات.

أيها السادة

وإذا كانت الجمعيةُ الأم تحتفل بالعيد الماسي لنشأتها فإن فرع العاديات في اللاذقية والذي تأسس عام 1976 برعاية الباحث والعالم الأثري المرحوم جبرائيل سعادة كان فرعاً نبيلاً من الجذع الأصيل وهي اليوم تشكل علامة مميزة في المشهد الثقافي والاجتماعي لمحافظة اللاذقية إذ قارب عدد أعضائها الخمسمائة وغطت نشاطاتها السياحية مختلف المناطق الأثرية في سوريا.

كما تطور نشاطها الثقافي ليشمل موسماً يمتد عشرة أشهر في العام. بمعدل محاضرتين كل شهر.

---

* – رئيس جمعية العاديات – فرع اللاذقية.

أيها الأعزاء:

إننا إذ نفخر بما وصل إليه فرع جمعية العاديات في اللاذقية إنما لنؤكد لكم جدارة الفرع بالأصل والابنة بالأم.

وإذا كانت جمعية العاديات قد كبرت وترعرت فروعها في العديد من المحافظات فإن نهضتها تلك إنما هي جزء لا يتجزأ من نهضة هذا الوطن العظيم في ظل القيادة الحكيمة للرئيس **حافظ الأسد** الذي فهم التاريخ وأدرك دوره في تمتين الحاضر وبناء المستقبل فكان لمواقفه المشرفة الدور الأكبر في خروج سوريا من حيز الجغرافيا المحدود إلى محيط التاريخ اللامتناهي لتؤكد من جديد أن: **أهمية الأوطان ودورها الحضاري لا يقاس بالمساحات وإنما بالعطاءات.**

أيها الأخوة:

رغبتنا أن نشارككم احتفالكم هذا أردنا ترجمتها بصور شتى منها المشاركة في معرض التصوير الضوئي وفي باقة من تراثنا الغنائي تحمل إليكم أبناء اللاذقية ونبض قلوبهم المفتوحة دائماً على المحبة والوفاء وهم يحتفلون اليوم بمهرجان المحبة مهرجان الباسل في دورته الحادية عشرة لتظل اللاذقية كما كانت أوغاريت منارة تتلألأ على الشاطئ الشرقي لهذا البحر الجميل الذي نريده ((**بحر محبة وسلام ترفرف فوقه النوارس لا طائرات الموت والدمار**)).

تحية لكم ولجمعية العاديات الأم التي أثبتت أنها أم بكل ما في الأمومة من معنى ونتمنى للجمعية الأم ولفروعها المزيد من التقدم والعطاء لتؤدي الرسالة التي وجدت من أجلها

والسلام عليكم

كلمة
مدير الشؤون الاجتماعية والعمل
بحلـــب

محمد وفـــا بطيخ

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن تحتفل هذه الجمعية جمعية العاديـــات بعيد ميلادها الخامس والسبعين وهي منتصبة تؤدي دورها التراثي والثقـــافي فـــي خدمة الثقافة العربية وإحياء التراث العربي الأصيل تلم شمل المثقفـــين والبـــاحثين الحريصين على تقديم نتاج عقولهم وإبـــداعاتهم الفكريـــة مـــن خـــلال النـــدوات والمحاضرات التي يساهمون بها في بناء لبنات جديدة لإشادة صرح الثقافة العربية المعاصرة وإحياء التراث العربي والفكر العربي الذي تركه أجدادنا والذي نعتز به ونفخر لما قدّم من علوم ومعارف أفادت العرب والإنسانية عامة.

إن الدور الثقافي الخلاّق والمبدع الذي تقوم به جمعية العاديات يجعلنا نفخر بأبنائنا ومثقفينا في هذه المحافظة (مدينة حلـــب) فـــإنهم يبـــذلون جهـــوداً كبيـــرة ونشاطات واسعة تعدت ساحة المدينة لتتصل بمدن أخرى كجمعية أصدقاء دمشـــق وجمعية العاديات في اللاذقية وغيرها من المدن السورية الحبيبة.

ولقد أضافت جمعية العاديات بعدا اجتماعيا رائعا من خـــلال هـــذا الجـــو الأسري الذي يعيشه أعضاؤها ومن خلال الرحلات التي تقوم بها والحفلات الفنية والأمسيات الشعرية والقصصية حيث تولّدت الألفة والمحبة والصداقة بين أعضائها وأصبحت أسرة العاديات.

فهنيئاً لك يا جمعيتنا الحبيبة بعيدك الخامس والسبعين

وإن مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل تتمنى كل التوفيق والنجـــاح لهـــذه الجمعية وتشكر إداراتها المتعاقبة التي ساهمت في تعزيز الأهداف الثقافية النبيلـــة لهذه الجمعية. وبناء الإنسان العربي بناء ثقافيا تجعله متمسكا بأرضه، صوفيا فـــي حب وطنه، غيورا على ثقافته العربية متحمسا للرد على كل ثقافة دخيلة تريد تشويه المضمون للإنسان العربي.

كل عام وأنتم بخير أيها الأخوة أعضاء الجمعية وإلى مزيد مـــن العطـــاء والثقافة.

كلمة السيد محافـظ حلـب
بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين
لتأسيس جمعية العاديات

د.محمد مصطفى ميرو*

الرفيق أمين فرع الحزب في محافظة حلـب الأكرم، السيد رئيس جمعية العاديات، أيها الأخوة الأعزاء:

اسمحوا لي أن أبدأ بقوله تعالى بعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والفجر وليال عشر۞ والشفع والوتر۞ والليل إذا يسر۞ هل في ذلك قسم لذي حجر۞ ألم تر كيف فعل ربك بعاد۞ إرم ذات العماد۞ التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾

صدق الله العظيم

في ذلك ما يثير لكل ذي بصيرة تساؤلات كثيرة ومتعددة، ما عمر الـبلاد، وما فيها من الأوابد التي توارثتها الأجيال، وكم مر على هذه الأجيال من العـاديين الذين نظروا لإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، والتي تتكـرر لآلاف المرات في بلادنا لتحدّثنا عن حضارة أولئـك الـذين زرعـوا الأرض، ودجنـوا الطيور، وألفوا الحيوانات، وقرأوا الشمس والقمر، ورسموا مداريهما قبـل مئـات السنين لتتناوب العاديات على قلعة سمعان وقلعة حلـب ونظائرهما وليقف عمر أبو ريشة مخاطباً نفسه:

قفي قدمي إن هذا المكـان   يغيب به المرء عن حسـه
رمال وأحجار طود هوت   أعاليه تبحث عن أسّـه

ملخصاً في ذلك الحالة والزمن.

الحالة فيما حل بالأوابد، وما أثار ذلك في نفوس العاديين، الذين يرون في العاديّات ما يسهم في الحفاظ على تراث الأمة، وهويتها، وشخصيتها مـن خـلال اهتمامها بتلك الأوابد وإحاطتها ببيئة محبة ومتفاعلة مثاقفة، بدأب عمـره خمسـة وسبعون عاماً مضت بوجه وطني صادق حرص على نقاء الهوية وصفائها مؤكداً ارتكازها إلى تاريخ قومي عريق.

---

* - **محافظ حلـب، آنئذ.**

إنها جمعية هامة تضم أساتذة جامعيين ومـؤرخين وآثـاريين ومهندسـين وأطباء وأدباء وفنانين ورجال قضاء ورجال اقتصاد وغيرهم من أصحاب الاهتمام بقضايا الوطن الفكرية والتراثية.

كما أنها تسهم في أعمال اللجان المختلفة التي تعنى بحماية حلـب القديمـة وحماية الآثار وصيانة الجامع الأموي الذي يشكل عملها تنفيـذاً لعطـاءات القائـد المناضل **حافظ الأسد**، وتعبر عن حرصه على الآثار وحمايتها بما فيها مـن قـيم وطنية وقومية وإنسانية وروحية.

الاخـوة الأعـزاء:

إن قيام الجمعية في مدينة حلـب يعبر عن الوعي العميق الذي يتمتع بـه الحلبيون، وعن عمق فهمهم للتاريخ وعن دور مدينتهم ومحـافظتهم فـي تجـذير الحضارة البشرية وفيما تمثله من مركز استراتيجي عرف كثيراً من الحضـارات والدول والغزاة، حيث تكسرت على جدران قلعتها أنصال سيافهم، وخـرّ كمـاتهم صرعى في ساحتها أمام صمود أهلها ومِراسهم فـي الحـرب، ثـم ذاب البـاقون وانصهروا في بوتقة حضارة حلـب لتعكس حضارة الأمة العربية المتميزة بمذاق خاص يعكس طعم عاصمة الثغور وينشد أبيات المتنبي وأبي فراس وابـن نباتـه ليفوح منها عبق سيف الدولة وصهيل جواده مقتحماً الحديد وهازماً القوائم، لتتساقط أمام بطولاته وعلى أسوار حلـب أطماع الغزاة، ولتستمر في نشر ما تمثلته مـن حضارات وما وعته من ثقافة من خلال إحدى ركائزها جمعية العاديات في عامها الخامس والسبعين ومن خلال القائمين على العمل بها وفروعها ولجانها وبجهـود متميزة الثقافة تنهل من معين حزب البعث وتاريخ الأمـة، مجسـدة قـول القائـد المناضل **حافظ الأسد** "الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية".

تحية لجمعية العاديات في عامها الخامس والسـبعين، وتحيـة لكـم أيهـا الحلبيون ولمدينتكم درة الشرق، وصانعة الرجال في ظل القيادة التاريخيـة للقائـد العظيم **حافظ الأسـد**.

والسـلام عليـكم

كلمة المديرية العامة للآثار والمتاحف

وحيد خياطة*

باسم السيد المدير العام للآثار والمتاحف وباسمي الخاص أرحب بكم أجمل ترحيب في قاعة سيف الدولة الحمداني، هذا البلاط العظيم الذي شهد مجلس سيف الدولة، مجلس العلم والشعر والأدب.

لقد كانت جمعية العاديات أقدم جمعية في الوطن العربي أخذت على عاتقها مهمة الحفاظ على الأوابد الأثرية وتراث الأمة، التي ما هي في الواقع إلا مرآة صادقة تعكس تاريخ الأمة المجيد، لقد كانت جمعية العاديات ومازالت رديفاً قوياً ومشجعاً لمديرية الآثار في نشر الوعي الحضاري والوجداني والثقافي لهذه الأمة.

ولا أظنني مبالغاً إذا قلت أنها من الجمعيات القلائل في الوطن العربي بل في العالم كله التي تسعى جاهدةً للحفاظ على التراث ونشره والتعريف به، ولم تتوان في ذلك حتى في ظل حكم الانتداب الفرنسي، يتبارى أعضاؤها من مختلف الطوائف والملل في وحدة وطنية لا مثيل لها في توعية الأجيال الناشئة وتعريفها بتاريخها وأسس مقومات حياتها.

وإذا مضى الآن من عمرها المديد خمسة وسبعون عاماً فهي لم تزل شابة تعمل على تأسيس وترسيخ حب الوطن والاعتزاز بتراثه ومآثره، وإن كان المؤسسون الأوائل من طبقة اجتماعية معينة واعية ومثقفة إلا أن الوعي امتد إلى طبقات المجتمع الأخرى، دون استثناء، ولم يعد حب الآثار ترفاً تتمتع به فئة أو نخبة واحدة من المجتمع، وأصبح بابها مفتوحاً لكل من له اهتمام بتاريخ الأمة العظيم. وأحب أن أنوّه في هذا المقام إلى أن مجلة العاديات في أعدادها الأولى، والتي كانت تصدر بالعربية والفرنسية كانت المرجع الوحيد لنا في تحصيل بعض المعلومات المتعلقة بالكشف الهام عن معبد إله الطقس الحلبي، الذي يعود بتأريخه إلى الألف الأولى ق.م، وكانت قد تشكلت بعثة آثارية سورية ألمانية مشتركة لتكشف عن ماضي هذه الأبدة الخالدة، التي بدأت في الكشف عنها بعثة فرنسية في الثلاثينات من هذا القرن، ثم توقفت بعد زمن قصير لأسباب نجهلها، ولكنها كانت الفاتحة لنا في بدء أعمالنا منذ ثلاث سنوات، وقد أصبح هذا الاكتشاف حديث الأوساط العلمية الاثارية في كل أرجاء العالم الأثري مشرقه ومغربه، ويحق

---

* – مدير آثار ومتاحف حلب، آنئذ.

للحلبيين الآن أن يفخروا بأن مدينتهم هي حقا أقدم مدينة في التاريخ ما زالت عامرة بأمجادها إلى اليوم.

لقد كان لجمعية العاديات دورها البارز والهام في بث الوعي لوقف الزحف العمراني على المدينة القديمة، وكانت تشد من أزر مديرية الاثار التي كانت تقف وحيدة أمام إعصار التحديث في المدينة العتيقة، مدينة الاباء والأجداد، وأصبحت جمعية العاديات مثلاً يُحتذى في كل محافظات القطر حيث أسس لها فروع سارت على منهجها، ولنا وطيد الأمل أن يكون للجمعية فروع أخرى في الوطن العربي وخارجه، ويكون لها حولية كحوليات المديرية العامة للاثار والمتاحف بلغات متعددة تتبادلها مع أدبيات جمعيات وجامعات الدول الأخرى.

وكلي أمل أن تستقطب جمعية العاديات كل الكفاءات العلمية والفنيـة فـي القطر، رائدها في ذلك رفع راية الثقافة عملاً بقول قائد هذه الأمة وعظيمها الرفيق المناضل حافظ الأسد

"الثقافة هي الحاجة الأعلى للبشرية"

وباعتقادي أن الاثار هي قمة الثقافة لأنها تشمل كـل جوانـب نشـاطات الإنسان الفكرية والعقيدية والحضارية والسلام عليكم.

كلمتي
في حفل التكريم الخامس والسبعين
لجمعية العاديات
2 آب 1999

سعد زغلول الكواكبي*

أحييكم أجمل التحية وأكبر فيكم أريحيتكم التي تجلت بعرفانكم بالجميل بتكريمي شخصياً لبلوغي الخامسة والسبعين (وأنا لا أزال شاباً كما ترون) عضواً في جمعية التي ولدت سنة ولادتها الرابعة والعشرين بعد تسعماية وألف ورأستها خمسة عشر عاماً، كان لي الشرف خلالها بزمالة أعضاء الإدارة الحاليين والغائبين والراحلين، وتكريم أعضاء أعتزّ بأياديهم الكريم في مساعدتي، متذكراً من سبقني من الرؤساء ومن شاركني في الإدارة بالخير والعرفان بالجميل.

زملائي الأحبة:

يحسُن بي – في هذه المناسبة السعيدة – أن استعيد مع بعضكم ممن عاصرني وبعضكم ممن سمع عن الرعيل الأول في جمعيتنا، ذكريات عزيزة على تاريخ الجمعية، عزيزة لا لأنها سعيدة كلها، وإنما لما احتوته من كفاح وشدة في أوقات عصيبة بالإضافة إلى مناسباتها السعيدة.

فأول مناسبة سعيدة مرت بي بعد انتسابي للجمعية في مطلع الخمسينات هي أني شاركت في رحلة إلى الساحل السوري فمررنا بجبلة وزرنا مدرجها الروماني ثم شاركنا باحتفالات العيد الشعبية وركبنا الناعورة "القلابة" التي يركبها أطفال العيد" وسجل صورتنا مدير المنطقة المقدم إسماعيل النابلسي مع زملائي. وبعد أن رجعنا إلى حلب فوجئت بشكوى إلى وزارة العدل مؤدّاها أنني كنت في ذلك اليوم أشارك في مظاهرة مع شباب مثقفين ومحامين من سائر الأحزاب ضد سلطة الشيشكلي. وطالبت قيادة الجيش الإدعاء علي مع الآخرين. فكانت صورتي في "القلابة" مع زملائي وسائر صور رحلة العاديات إلى قلاع الساحل مبرراً لإهدار الشكوى. والفضل، دون ريب، كان لانتسابي إلى جمعية العاديات! أو ليست هذه ذكرى جميلة؟.

---

* – رئيس جمعية العاديات سابقاً.

كنا أعضاء الجمعية قلة لا يتجاوز عددنا الثلاثين. وكنت أنا قد انتخبت عضواً في الإدارة في الستينات، وفي ذلك الحين بدأت جائحة هدم الأبنية القديمة التي تشغل أرضاً لو بني عليها بناء حديث لحصلت منه ثروة تفوق قيمة البيت القديم بعشرات آلاف الأضعاف.

ولما كنت متأثراً من حادثة هدم دار أهلي التي ابتناها جدي عبد الرحمن في حي الفرافرة، لأننا اضطررنا إلى بيعها بسبب ضيق ذات اليد واضطرارنا للدراسة، لرجل غني لم يخطر في بالنا أنه سيهدمها عن بكرة أبيها ويقيم مكانها ثلاثين بيتاً، لأن تلك العادة لم تكن معروفة في مطلع الخمسينات."وهُدم البيت العتيق و" لم ينتطح فيها عتران".

أقول: بسبب ذلك الحادث، وبمناسبة إقدام تاجري بناء على شراء بعض الدور الأثرية في حلب ومباشرتهم، ليلاً حتى الصباح، بتخريب زخارفها ومعالمها الأثرية، وباعتباري عضو إدارة، فقد هرعت أسأل عن رئيس البلدية محافظ حلب فقيل لي إنه في اجتماع المجلس البلدي فأنفذت إليه برقعة أطلب فيها الدخول على اجتماع المجلس لأمر ينذر بخطر المدينة. فاستجاب الأستاذ احمد اسماعيل واستقبلني مع أعضاء المجلس فبادرتهم قائلاً: هولاكو قد دخل حلب ونحن نيام. فتعجبوا فحدثتهم بما يحصل فأوقف المحافظ الجلسة وأمر بالتحقيق فوراً، ذهب المحققون فوراً وعادوا بتقرير يفيد بأن الأبنية المذكورة غير مسجلة بدائرة الآثار.

وهكذا كرّ الحبل على الجرّار، وتدخل القضاء مستعيناً بخبرة فنية أفاد خبراؤها أن الأبنية غير أثرية، فهُدمت، فاحتججنا وأبرقنا إلى رئيس الحكومة الذي ذكّر المحافظ بحضور أمين فرع الحزب بحلب بلزوم الوقوف بحزم ضد تلك الجائحة، فرأيت أن من الأدب عدم تذكيره بأنه كان هو أحد خبراء اللجنة التي سمحت بهدم البناء!.

ومن مثل ذلك إزالة أقدم مدرسة إسلامية في حلب كنا نعتز بوجودها كمفخرة إسلامية أثرية هي المدرسة العصرونية لتشاد مكانها ناطحة التراث الإسلامي ذات الأرباح التجارية العظيمة.

وفي مناسبة أخرى، أيقظني مدير الآثار الأستاذ وحيد خياطة ليبشّرني باكتشاف سور باب الفرج الأثري والأيوبي، وكنت يومئذ رئيساً للجمعية فطرت إلى باب الفرج فإذا بي أشاهد مدير مؤسسة الإسكان العسكرية المهندس السيد مأمون

المدرس يشرف على محاولة اقتلاع أحجار سورٍ لم نشاهد لها مثيلاً في الضخامة بحلــب، مما أثار خشيته من عاقبة التنفيذ التي قد تسيء إلى تاريخ البلد. بينما افتقدنا السور الكبير الطويل الممتد على طول ساحة باب الفرج والذي كان مخفياً بالدكاكين والمتاجر وبائعي اللحوم والمستت، ومرائب السيارات، كما هي الحال الآن في سور باب الجنان وباب انطاكية، فلا يشاهده أي مشترٍ أو سائل إلا إذا كان صاحب المحل. أما أنا فكنت أعرف هذا السور الذي لا يعرفه من أهل حلــب إلا أصحاب الدكاكين المذكورة، لأن لوالدتي حصة إرثية في أحد هذه الدكاكين. فصحت بالويل والثبور، فطمأنني مأمون المدرس أن أحجار السور مرمية في مكان معروف خارج المدينة، فإذا حصلت على أمر حكومي فهو مستعد لإعادتها. قلت والسور أين ذهب؟ فقال: لم يخبرنا أي إنسان أن هناك سوراً أثرياً في ظهر الدكاكين، ولهذا فقد قصمنا ظهرها صباح اليوم، ثم لم نتمكن من إقتلاع هذه الحجار التي لا مثيل لها، فقلنا لو نستشر دائرة الآثار، وهاأنذا بانتظار قرارها.

لم يكن يخطر في بال أحدنا يوم أن غُرس الحجر التذكاري أمام مخفر باب الفرج معلناً البدء في "مشروع باب الفرج" تحت رعاية رئيس الدولة أن المشــروع سيهدم تاريخ حلــب..ثم قرأنا أن رئيس الدولة سيحضر يوم السبت ليدشن افتتــاح المشروع، فأبرقت إليه فوراً ببرقية أقول فيها بصراحة:"البطل مــن يوقــف تنفيــذ مشروع باب الفرج ونستمهل لموافاتكم بمذكرة بهذا الشأن". فما كان مــن رئــيس الحكومة آنئذ المهندس عبد الرؤوف الكسم إلا أن استجاب للطلــب قبــل وصــول المذكرة إليه وأمر بتأجيل الافتتاح. وقامت الدنيا وقعدت. وبينما كنــا نســير أنــا والمرحوم محمد كامل فارس أمين سر الجمعية في شارع الخندق عند نهاية شارع عبد المنعم رياض فوجئنا بعمال البلدية يهدمون بوابة الحصن البيبرسي الذي يحمل نحت أسدي الملك الظاهر بيبرس، وهو الأثر الوحيد لبيبرس في حلب، فصحنا بهم وألقينا درساً طويلا لهم عن تاريخ الملك الظاهر وذكرّناهم بقصة الملك الظاهر التي يعرفونها، فتألموا وتوقفوا عن العمل. بينما رحنا نراجع الأستاذ سماقية الموظــف بالآثار الذي يعرف هذا الأثر مثلنا نحن منذ القديم، فانتقل إلى المكان ولم نتمكن إلا من حمل الأسدين المهدومين إلى مستودع الآثار بالمتحف.

وفي هذا الوقت وصلت احتجاجات من أوربا من جمعية الآثار الدولية إلى العماد مصطفى طلاس – ولا أعرف سبب توجيهها إليه بالــذات – فأحالهــا لــي

فتابعت نشاطي بحماس أكثر، ، ووصل الخبر إلى المسؤول، فجـاء إلـى العمـال وأنذرهم بأنه سيربط أرجلهم بالفلق إذا لم يعودوا إلى العمل في الهدم.

ولما راجعنا المسؤول مبدين فداحة الخطب باستعمال الجرافات في جرف الآثار، سألني عما إذا كانت رغبتي في أن يكون الجرف بالمعاول اليدوية، فأجبته معتذراً عن سوء فهمي وقلت له: لا أقصد ذلك، وإنما أقصد أن نفعل مثلما تفعل البلديات في المناطق الأثرية، فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: يحفرون بفرشاة الأسنان والمعالق عند اللزوم. فظن أني أمزح، فسكت على مضض.

وفي اجتماع رسمي كان يرأسه أحدث الأعضاء عن الرسالة التي أرسلها إلي العماد طلاس فما كان منه إلا أن أعلن أنه"سيلعن أبي على أبي مصطفى طلاس".

واستمرت الجائحة، واقتربت الساعة من ساعة باب الفرج الأثريـة التـي تبرعت شركة ساعات أوميغا أو وكيلها باستبدالها بساعة جديدة من لدنها، بعد تمهيد الساحة، تشاد في ساحة باب الفرج التي ستصبح ساحة عظيمة، في مكان جديد.

وقامت قائمتنا، وناصرتنا جريدة البعث وسواها وكبار رجال الدولة، فاتسع الخرق على الراتق، وأنقذت الساعة.

ولئن لم نربح معركة" باب الفرج بأكملها" إلا أننا – بقدر المستطاع – لفتنا النظر إلى المشروع الذي تتابعت الإساءة إليه، ولديّ مخططـات سـرية أجراهـا المهندسون البولونيون لأسس السور من قديسة الملكة هيلانة إلى باب الفرج والذي أمروا بهدمه فصوروّها وأعلموا جمعية الآثار العالمية التي نصحتهم بترك العمل.

ومن خسارة إلى أخرى أعظم:

فلقد رأت شخصية معروفة أن تشرف على إنشاء مسرح في قلعة حلـب تغنّي فيه فيروز كما تغنّي في مسرح قلعة بعلبك ويشيد الصـحافيون باسـم تلـك الشخصية التي تمتعت بنفوذ لا بأس به فيما كان بين أكثرية ممن يجهلون قيمة قلعة حلـب وتمكنت من تكليف إدارة الإسكان العسكرية بحفر سطح القلعة مما أدى إلى هدم منشآت سيف الدولة وحمام كبيرة له، أخبرتني عنها ابنتي سلمى التـي كانـت موظفة لدى المؤسسة فذهبت إلى هناك، فصورت تلك الآثار قبل إزالتهـا تمامـاً، وأنقذت كوز الماء من الحمام. ولمّا أخبرت مدير الآثار العام لم يصدق فجاء إلـى بيتي، وأريته كوز المجرى للحمام مع كرة حجرية لمنجنيق مسـتقرة داخـل أحـد

الجدران التي بوشر بهدمها من آثار سيف الدولة، فضرب كفاً بكف. وقد قدمتُ إلى مديرية الآثار هذا الكوز وهو لديها مع سائر آثاري التي تبرعت بها لدائرة الآثـــار منذ ثلاثين سنة. فوا خجلتاه!.

إن هذا هو سبب عدم إقامة حفلكم هذا اليوم في مدرج!!!(من لـــن أســـمي اسمه) لأن جمعية العاديات لا تزال متخذة موقفاً احتجاجياً ضد وجوده.

هذه نماذج من كفاح الجمعية. وهي مهما اتصفت بالإخفاق تارة وبخسران المعركة إلاّ أن كفاحنا فيها يشرّفنا أبداً.

وإلى جانب خسراننا فلقد ربحنا أرباحاً عظيمة. ذلك عندما شكلّنا لجنة في جمعية العاديات في عضويتها مطران القدس هيلاريون كبوجي نزيل سجنه في اسرائيل (وقد أبلغته قرار انتخابه عضو شرف في الجمعية وعضواً في لجنة المنبر، فبلغه المطران إدلبي بواسطة الصليب الأحمر. فلما أفرج عنه ونفي انتسب رسمياً إلى جمعيتنا). ومعنا الدكتور دقاق والمرحومين الشيخ محمد الحكيم والمطران ناوفيطوس إدلبي ومحافظ حماه الزميل منير بريخان الذي استضاف مؤتمر الاتحاد العام للجمعيات الآثارية العربية، والمرحوم محمد كامل فارس، لتسعى إلى إعادة منبر المسجد الأقصى الذي أحرقه اليهود. وكتبتُ إلى سائر البلاد العربية أعلم الجمعيات الآثارية بذلك. فإذا بقاضي قضاة الأردن رئيس لجنة إعمار المسجد الأقصى يوفد إلينا وفدين متتاليين، ليبحثوا معنا هذه الفكرة المشرّفة التي كانت تراودهم مسبقاً باعتبار المنبر حلبي الصناعة والمواد وعرضوا علي ثمانية ملايين درهم أردني وافق عليها المرحوم الملك الحسين، للشروع في صناعة المنبر وجاؤوني بالمخططات اللازمة و الصور الشمسية، فأجبت بأن التمويل لا يكون إلا بإذن من الحكومة السورية. ومن أجل ذلك نشرت بحثاً تاريخياً مصوراً في جريدة تشرين عن هذا الأمر، توجهّت فيه إلى رئيس البلاد حافظ الأسد، فما كان منه إلا أن أمر بالمثول لديه لتسلّم المرسوم الجمهوري الذي تبنّى تسمية أعضاء لجنة منبر المسجد الأقصى برئاسة وزير شؤون رئاسة الجمهورية، وجعل الإنفاق مطلقاً من أي قيد ومن ميزانية رئاسة الجمهورية. وباشرنا العمل في حينها.

ومن أعز الأخبار التي وصلتنا أن "تيدي كولك" الرئيس اليهـــودي لبلديـــة القدس الذي حل محل المرحوم روحي الخطيب، وعد أنور السادات المقتول أثنـــاء زيارته المشؤومة للقدس بأن بلديته ستسعى إلى ترميم المنبر والمسجد المحـــروق،

فانبرى له المهندس عصام المشرف على الترميم والذي وافاني بالمخططات قـــائلاً إن في حلـــب لجنة تقوم بهذه المهمة بصورة رسمية بأمر رئيس الجمهورية حافظ الأسد. فخرس الاثنان.

ومن أهم أعمالنا إصدار دورية عاديات حلـــب بالتعاون مع جامعة حلـــب. يشرّفني أنني أدخلت العنصر النسائي لأول مرة في عضوية الإدارة ممثلاً بالمؤرخة الحلبية الأستاذة عائشة الدباغ.

ومن النتائج الهامة لأعمال جمعيتنا أنني كُلفت للمشاركة في المؤتمر العربي السابع للآثار في مدينة العين سنة 1972، وهناك تمكنت من إصدار توصية من المؤتمر بتشكيل اتحاد للجمعيات الآثارية العربية. فلما عدت إلى حلـــب باشرت إدارتنا بدعوة الجمعيات العربية الآثارية إلى عقد مؤتمر في حلـــب، فلبّت الدعوى الجمعيات من المغرب وتونس والسودان والأردن وفلسطين، وعقد المؤتمر برعاية السيدة وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار ممثلة بالمدير العام الدكتور بهنسي والسيد محافظ حلـــب الأستاذ احمد إسماعيل ومحافظ حماه الأستاذ منير بريخان، في مدرج كلية الطب بجامعة حلـــب، وأقرّ مشروع دستور الاتحاد العام للجمعيات الآثارية العربية، الذي نص على أن تكون أمانته العامة في مدينة حلـــب، ويتولى رئاسته رؤساء الجمعيات الآثارية المؤتمرة والتي ستنضم إلى الاتحاد بالترتيب الأبجدي. ثم جرى انتخابي أميناً عاماً دائماً لهذا الاتحاد. ونحن الآن بانتظار تسليم رئاسة الاتحاد إلى الجمعية التاريخية بتونس في أول مناسبة يساعدني عليها السيدان أمين فرع الحزب ومحافظ حلـــب لأطلب من الرئيس الحالي الأستاذ قجـــة الموافقة على عقد المؤتمر العام للاتحاد في تونس الشقيقة.

كما أنني كُلفت بتمثيل الجمعية بالمشاركة بمؤتمر المدينة العربية في المدينة المنورة، حيث تمكنت من إقرار توصية بإنشاء صندوق مشترك للبلديات لمســـاعدة البلدية العربية المحتاجة مالياً إذا اضطرها الأمر للحفاظ على أبنية مدينتها القديمـــة (إلا أنني فشلت في إقرار توصية بحرمان بلدية تساهم أو تسكت عن هدم بناء أثري في مدينتها، وأُقرّ الرفض باقتراح سوري، ولم يؤيّدني إلاّ الوفد التونسي)!.

هذا ما حدثتكم به عن بعض شؤوننا الكبرى على نطاق الدفاع عن الآثار.

وأحدثكم عن شؤون الثقافة الآثارية، فأقول إن إدارتنا، في عهد خدمتي ولا تزال تعلم الأعضاء، ثم تذكرهم، بتاريخ بلادنا، بزيارات مبرمجة للمعالم الآثارية في حلب وسائر البلاد السورية، حتى العربية والأجنبية.

ففي عهد خدمتي قامت الجمعية بزيارة العراق للمرة الثانية والأردن للمرتين الثالثة والرابعة، ومصر مرتين، ولبنان مرتين، وتركية مرتين، ومصر مرتين، والأندلس مرة أولى، وأوربا مرة أولى، وكانت هذه بتنظيم وإشراف الزميل المكرم صلاح الدين الخطيب والمرحوم محمد كامل فارس عضوَي مجلس الإدارة.

ولئن كان قد أحزنني أنني لم أشارك في رحلتَي أوربا والأندلس، إلا أنني سعيد لتمكّني من مشاركة الجمعية في زيارتها العام الماضي للأندلس والمغرب مع الأستاذ قجة أثابه الله، تلك الرحلة التي يحتاج إلى مثيلاتها كل عربي ماية مرة!.

ومن حسن حظ الجمعية أنها قد كتب الله عليها الاستمرار، من مقام رفيع إلى مقام أرفع، ساتراً ومتجاوزاً بعض العيوب القاهرة التي لم يكن لأعضائها فيها يد ولا وسيلة، والتي أزيلت بعد جهد عنها إزالة شوك القتاد بأيدٍ لا تتلمها الأشواك. فعدت معزّزاً مكرماً.

إنني أحيّي رجالاً نصبوا نفسهم لخدمة العلم في نطاق الوطنية الحقة فهم ليسوا بحاجة إلى من يدرّبهم في هذه السبل، يسعون في دربهم كسعيي محرومين – خلقاً – من النفاق والرياء ولم تنبت في جنوبهم أيادٍ سفلى.

وأوجه لكم شكري، وأقبلكم جميعاً، رجالاً ونساء وشيوخاً وشباناً وأعضاء ومحبين، وعلماء دنيا، وعلماء دين، ورجال دين، متمنياً لجمعيتنا اطراد الرقي بخدمة العلم والبلاد. أمد الله في حياتكم.

الدراسات والأبحاث

(صنفت الموضوعات لاعتبارات فنية ولا علاقة لها بالقيمة العلمية للمادة)

التاريخ القديم

-المفاهيم التوراتية من منظور علم الآثار	لطفي السومي
-الحضارة الكنعانية	د.أحمد ارحيم هبو
-أسطورة الملك كيرت الاوغاريتية	د.محمد مصطفى
-شريعة حمورابي	أ.إحسان الكيالي
-تاريخ فلسطين: الجدل	توماس.ل.تومبسون
-العلاقات بين جنوب غرب الجزيرة العربية القديمة وبلاد الشرق الأدنى	ادوار ليبنسكي ت:عبد الله حجار
-حصيلة البعثات الوطنية في أعمال التنقيب (1945-1995) في مواقع عصر البرونز	د.ميشيل مقدسي ت.عبد الله حجار
-صفحات من تاريخ قرطاجة وحضارتها	أ.د.عيد مرعي
-دورة المرأة في عالم الشرق القديم (سورية وبلاد الرافدين)	د.جباغ قابلو
-منحوتة من الفترة الحثية الحديثة في حلب	مورتيس فان لون ت:عبد الله حجار
ـ السقّاطات	هوري بارسوميان

المفاهيم التوراتية
من منظور علم الآثار

لطفي السومي

أقرر بادئ ذي بدء أن الحديث في نطاق علم الآثار الفلسطيني يشكل معضلة بالغة التعقيد وذلك لأسباب ثلاث :

1 -لا أظن أن أية منطقة في العالم قد نقبت بالكثافة والإصرار مثلما جرى التنقيب في فلسطين وذلك لأن المؤمنين بتاريخية التوراة كانوا لا يملون البحث عن جذور معتقداتهم في هذه البقعة من الأرض وبالتالي فإن الكم الهائل من الأبحاث والدراسات التي تناولت الآثار الفلسطينية أكبر من أن تحيط به محاضرة بل وحتى عدد من الدراسات.

2 -من المعروف أن فلسطين هي جزء من سوريا التي هي بدورها جزء من ما يسمى بالشرق الأدنى والذي يتواصل التواجد الحضاري فيه مدة عشرة آلاف سنة إذا تجاوزنا المرحلتين الكبارية والنطوفية وقصرنا التأريخ على البدايات الحضرية المتمثلة في أريحا مثلاً، مما يجعل التأريخ لتلك المرحلة من خلال علم الآثار عملية معقدة إلى حد الاستحالة.

3 -لم تتعرض أية دراسات وتنقيبات أثرية إلى نفس الدرجة من التشويه والأفكار المسبقة كما تعرض علم الآثار الفلسطيني، فلقد جاء المنقبون وهم يحملون التوراة بيد والمعول باليد الأخرى كما يقال وادي ذلك إلى كم هائل من التصنيفات والاستنتاجات الخاطئة التي تراكمت على مدى يزيد عن القرن، ومما يزيد الأمور تعقيداً أن علم الآثار الفلسطيني ونتائجه قد اختلط بصورة كبيرة ببعض المعتقدات الدينية والموروث الشعبي حتى عند العرب المسلمين والمسيحيين.

وسنعرض الآن بصورة موجزة لبدايات الاهتمام بفلسطين[1] من قبل الغربيين :

لا بد قبل التعرض إلى بدايات التنقيب الأثري من الإشارة إلى أن أقدم الإشارات إلى المدن الفلسطينية كانت من قبل هيرودتس من منتصف القـــــــرن الخامس ق.م ثم نجد الوثائق المعروفة ببرديات زينون من منتصف القـــــــــرن.

1 -الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 5-6.

الثالث ق.م ثم تواريخ بوليبيوس 208-126 ق.م وديودوروس الصقلي 80-20 ق.م ثم يأتي دور الجغرافيين الرومان سترابو 21-63 م ثم بليني 79 م ثم بطليموس من منتصف القرن الثاني الميلادي وغيرهم.

ثم اشتهر كل من يوسيبيوس أسقف مدينة قيسارية وماركيلنوس الإيطالي وكلاهما من القرن الرابع الميلادي.

أما الجغرافيون العرب فمنهم الاصطخري والبلاذري والمقدسي وابن حوقل والذين تحدثوا عن عدد من المدن الفلسطينية.

ولقد أدت الحروب الصليبية من جهة وبدايات عصر النهضة الأوروبية إلى تطور دور الرحالة الأوروبيين مثل السويسري فابري 1480-1483 م والألماني فولف 1575 م والبلجيكي زولارت والهولندي كوتفيك في أواخر القرن السادس عشر ثم الهولندي ريلاند 1709 م. وبدأ الرحالة يتزايدون مع تقدم العصر. ولعل أهم الرحالة على الإطلاق هو الأمريكي إدوارد1 رنبسن من ولاية نيوانفلاند، فلقد جاء مسلحاً بمعرفة غير عادية لجغرافية التوراة وحاول أثناء رحلة إلى فلسطين عام 1837 كشف العلاقة بين بعض الأماكن العربية في فلسطين والأسماء الواردة في التوراة من خلال كتابه مع إيلي سميث " أبحاث كتابية في فلسطين وجبل سيناء وبلاد العرب الصخرية ". ولقد علق أحد البريطانيين على الكتاب قائلاً "لم يخطر لهما أنهما كانا ينفذان مشيئة سماوية وأن يهوه أراد يجعلهما شاهدين على حقيقته هو أمام أجيال العالم اللاحقة". ولكن ما يهمنا هو العمل الأثري والذي بدأ عندما تأسس عام 1865 صندوق استكشاف فلسطين PALESTINE EXPLORATION FUND في بريطانيا تحت رعاية الملكة فكتوريا، وكان الهدف المعلن لهذا الصندوق هو البحث في الآثار والجغرافيا والجيولوجيا والتأريخ الطبيعي لفلسطين، ولكن الهدف الحقيقي ظهر على غلاف أول مجلة صدرت عن الجمعية عام 1869 " جمعية من أجل البحث الدقيق والمنظم والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليد الأراضي المقدسة لغايـــــــــــة التوضيح التوراتي " [1]. ولعل الخطاب الذي ألقاه وليم طمسن رئيس أساقفة يورك ورئيس الجمعية يكشف بوضوح عن أهداف الجمعية. إن هذا البلد فلسطين عائدٌ لكم ولي أنه لنا أساساً فلقد منحت

1 -بحثا عن إله ووطن، نيل سيلفر، ص 145.

فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات التالية"[1] هيا امش في الأرض طولا وعرضا لأنني سأعطيك إياها " ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين بالطول والعرض لأن تلك الأرض منحت لنا، إنها الأرض التي تأتي أنباء خلاصنا منها إنها الأرض التي نتوجه إليها بوصفها منبعا لجميع آمالنا. وتوالى بتسارع ملفت للنظر تأسيس مثل هذه الجمعية فتأسست جمعية استكشاف فلسطين PALESTINE EXPLORATION SOCIETY في العام 1870 م في أمريكا وتضمن برنامجها نداء " إلى الضمير الديني مسيحيا كان أم يهوديا من أجل البرهنة على صحة الكتاب المقدس " وفي نفس السنة أيضا 1870 م تأسست جمعية الآثار التوراتية SOCIETY OF BIBLICAL ARCHEOLOGY في بريطانيا أيضا كما أسس الفرنسيون الدومينيكان عام 1890 م المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والأثرية والمدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية عام 1892 م وأسس الألمان كلا من الجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية عام 1877، ولقد كانت هذه البدايات المرتبطة بإثبات تاريخية التوراة السبب في كثير من الخلط وسوء الفهم والتجاوزات وإعطاء التنقيبات الأثرية طابعا سياسيا يعنى بخلق استمرارية كاذبة للوجود الإسرائيلي في فلسطين وعلى حساب التاريخ الفلسطيني الحقيقي كما سنرى فيما بعد.

بدأ الإنكليزي وارن موفد صندوق استكشاف فلسطين عمليات التنقيب في القدس عام 1867م إلا أن عدم القدرة على ربط المكتشفات بالتوراة أدى إلى توقف دام حتى 1909م عندما بدأ الكابتن الإنكليزي باركر تنقيباته جنوبي منطقة الحرم وليلا تحت جناح الظلام في منطقة الحرم ومن خلال سراديب تحت الحرم والمدينة القديمة حتى اكتشف أمره وغادر المكان هاربا حيث أن فلسطين كانت لا زالت جزءا من الإمبراطورية العثمانية.

ولعل من المناسب أن نورد تقسيمات مراحل التاريخ الفلسطيني على يد المنقبين التوراتيين والتي تظهر بشكل لا لبس فيه أن التاريخ الحضاري لفلسطين والذي يمتد عشرة الاف سنة قد صودر لمصلحة تاريخ لا يكاد يمتد لأكثر قليلا من القرن الواحد لكل من مملكتي يهوذا وإسرائيل المنفصلتين واللتين لم تكونا أكثر من

---

1 - سفر التكوين اصحاح 13 ص 20 طبعة جمعيات الكتاب المقدس المتحدة 1956.

مملكتين هامشيتين في التاريخ الفلسطيني. فمثلا قام مكلستر وبليس باعتماد التقسيم التالي:1

- عصر ما قبل الإسرائيليين المبكر حتى 1500 ق.م
- عصر ما قبل الإسرائيليين المتأخر 1500 - 800 ق.م
- المرحلة اليهودية 800 - 300 ق.م
- ثم المرحلة السلوقية بعد 300 ق.م

واستعمل الألمانيان سيلين وفاتسنغر2 اصطلاح - كنعاني - إسرائيلي يهودي - يهودي متأخر حتى أن بعض لقى الألف الثالث ق.م قد نسبت إلى الإسرائيليين. كان فليندرز بتري3 الإنكليزي أول من حاول عام 1890 الربط بين الآثار الفلسطينية القديمة من خلال تنقيباته في تل الحسي، والإطار الحضاري الشامل للشرق الأدنى القديم وكان ذلك هو الخطوة الأولى لإخراج علم الآثار الفلسطيني من دائرة الدراسات التوراتية.

كانت التنقيبات حتى الآن تتم بإذن من السلطات العثمانية حتى انتهت الحرب العالمية الأولى ودخل الإنكليز إلى فلسطين عام 1917م وانتدبت بريطانيا من قبل عصبة الأمم على فلسطين عام 1920 ومما هو ملفت للنظر أن صك الانتداب قد نص على تأسيس دائرة للآثار في فلسطين ولا يخفى طبعاً أن الهدف منها هو إثبات تاريخية التوراة والحقوق التاريخية لليهود في فلسطين. ولقد كان هيربرت صموئيل البريطاني اليهودي أول مندوب سام على فلسطين ولم يتأخر أبداً في تأسيس هذه الدائرة أي في نفس سنة الانتداب 1920م باسم دائرة الآثار الفلسطينية بإدارة جون غار ستانغ حيث أطلق العنان للتنقيب الأثري، ولعل أهم المنقبين التوراتيين هو وليم اولبرايت مدير المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس بين 1919 و 1936م والذي يعتبر بحق المؤسس الحقيقي لعلم الآثار التوراتي في فلسطين، ولقد أصدر الصهاينة مجلدا خاصا لتخليد ذكراه جاء فيه :

" لن يجد اليهود والإسرائيليون صديقا مثل ما وجدوه في وليم اولبرايت ".

إن نطاق هذه المحاضرة لا يتسع للكم الهائل من المنقبين الذين عملوا في فلسطين في المواقع الكثيرة المنتشرة فيها ولقد ساهم عدد من المنقبين اليهود في هذا

---

1 - مقال: قدس داوود خيال أم حقيقة، ص 27، عدد تموز - آب ، 1996، مجلة علم الآثار التوراتي.

2 - الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، ص 9.

3 - بحثا عن إله ووطن، ص 232.

العمل ولعل من أقدمهم ييغال يادين الذي كان أول رئيس لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي. لقد أدى الإمعان في الاعتماد على التوراة في تصنيف الطبقات واللقى الأثرية إلى بداية التململ من هذا المنهج، ولعل الألمانيان ألبرشت آلت ومارتن نوث أول من حذر من الربط بين التوراة والآثار، وإن الموضوع أكثر تعقيداً مما يتصوره التوراتيون الأمريكان، وجاء بعدهم الفرنسي رولاند ديغو وهانك فرانكلين الهولندي ليحاولوا الفصل بين التوراة وعلم الآثار دون أن يصلوا إلى مستوى الخروج الكامل على هذه الخلفية.

ولقد تأسس معهد للآثار في جامعة لندن سار على نفس الخطى بإدارة غوردن تشايلد وتلميذته كاثلين كينيون التي قامت بالتنقيب في القدس وأريحا حتى العام 1967 م، ورفضت استئناف العمل بعد الاحتلال الإسرائيلي لكامل فلسطين في العام 1967 لأنها ظلت ترفض أسس علم الآثار التوراتي.

ولقد توفيت كاثلين كينيون عام 1978 دون أن تقوم بإنجاز كل ما يتعلق بحفرياتها مما جعل معهد الآثار في جامعة لندن يحيل بعضاً من اللقى الأثرية والتقارير البحثية إلى العالمة الهولندية مارغريت ستاينر التي أصبحت مقتنعة بأن مدينة داوود (القدس) والتي اعتبرت عاصمة إمبراطورية في عهدي داوود وسليمان لم يكن لها وجود في القرن العاشر قبل الميلاد أو أنها كانت مركزاً إدارياً عادياً في أحسن الحالات وفي ذلك تقول مارغريت ستاينر:1 " لا أثر لمدينة صغيرة، ناهيك عن مدينة كبيرة، قد وجدت أصلاً، لا أثر بالمرة لأسوار دائرية، لا بوابات، لا بيوت، لا أي أثر معماري ببساطة لا شيء ".

التوراة وعلم الآثار :

لقد أسلفنا أن علم الآثار الفلسطيني قد بدأ على خلفية البحث عن إثبات تاريخية التوراة وهنا لا بد من تناول الجزء الأول من هذا التاريخ بصورة سريعة كي نرى كيف يتناقض هذا التاريخ مع النتائج الحقيقية لعلم الآثار.

يبدأ التاريخ العبري كما يقدمه الآثاريون التوراتيون (الكتابيون) بما يسمى مرحلة الآباء بدءاً من إبراهيم الذي يقال أنه هاجر من أور إلى فلسطين وأنه قد

---

1 - مقال : قدس داوود خيال أم حقيقة ص27 عدد تموز/اب1996 مجلة علم الاثار التوراتي.

أنجب اسحق من زوجته سارة وهي في سن المائة عام ثم يعقوب وأولاده الذين هم فروع (أسباط) الشعب الإسرائيلي وأنهم هاجروا إلى مصر حيث استعبدوا ثم خرجوا هاربين بقيادة موسى وبعد مرحلة التيه دخلوا إلى فلسطين عنوة بقيادة يوسع بن نون الذي احتل ودمّر وحرّم عدداً من المدن بحد السيف مثل أريحا (تل السلطان) وعي (التل شرقي تبنين قرب القدس) والجيب وعدد آخر من المدن الفلسطينية وقسم فلسطين بين الأسباط وبدأت مرحلة ما يسمى بالقضاة أي شعب يحتكم للقضاة بدون وجود دولة حتى جاء شاؤول في نهاية القرن الحادي عشر ق.م فأقام مملكة إلاّ أنه قتل مع ثلاثين ألفاً من جنوده في معركة جلبوع وخلفه داود وسليمان في القرن العاشر ق.م ودخلت إسرائيل مرحلة المملكة الموحدة وعصرها الذهبي عندما احتل داود القدس وبنى سليمان الهيكل الذي استعمل في بنائه ثلاثين ألف عامل ورصعه بالحجارة الكريمة وجدد بناء وتحصين المدن الفلسطينية وعلى رأسها مجدو (تل المتسلم) بين جنين وحيفا وبنى قصراً عظيماً استغرق بناؤه ثلاث عشر سنة ووسع مملكته لتشمل كل ما هو غربي الفرات وسيطر على العمونيين والمؤابيين والأدوميين في الشرق والجنوب الشرقي وعلى الفلسطينيين في الجنوب الغربي، وتزوج وتسرى بألف امرأة وكان أن انشقت المملكة الموحدة من بعده وبدأت بالتراجع إلى أن قام شلمناصر الخامس باكتساح مملكة السامرة عام 722 ق.م بعد أن كانت قد أصبحت مقاطعة آشورية منذ عهد بيلاصر الثالث 745-727 ق.م بينما لقيت مملكة يهوذا نفس المصير على يد نبو خذ نصر في العام 586 ق.م وانتهى الوجود السياسي لليهود وتم السبي البابلي.

حاولت أن ألخص بشكل مكثف جداً التاريخ التوراتي لأشرح في المقابل ما يعلمنا إياه علم الآثار والذي يشكل صدمة عنيفة للمعتقد التوراتي السائد.

يقول جان بوتيرو 1 " بتاريخ 3/ك1872/1 م فقدت التوراة نهائياً الصفة التي كانت تتمتع بها إذ كانوا يعتبرونها قبل ذلك التاريخ أقدم كتاب معروف كتاب يختلف عن بقية الكتب، كتاب أملاه الله أو كتبه بنفسه ". ومنذ ذلك التاريخ ظل علم الآثار يزودنا يوماً بعد يوم بمختلف الشواهد الأثرية على سقوط تاريخية الكتاب

---

1 - كتاب ولادة إله (التوراة والمؤرخ) ص17 - جان بوتيرو وهو ينوه إلى المكتشفات التي تمت في جنوب العراق والتي جرى من خلال رقمها التعرف على العلاقة بين التوراة وميثولوجيا الشرق الأدنى القديم.

(التوراة) رغم الجهود التلفيقية الهائلة التي بذلها الكثيرون من علماء الآثار التوراتيين لترسيخ هذه التاريخية الملفقة.

أود في هذا الجزء المتعلق بالتاريخ التوراتي أن أعتمد بصورة شبه كاملة على مقال نشر بتاريخ 2000/3/29 في النسخة الإنكليزية من جريدة هاأرتس وقام بتوزيعه على المهتمين يهودي أمريكي من أصل حلبي هو جاك ساسون وكاتب المقال هو عالم الآثار الإسرائيلي زائيف هيرتزوغ الذي يقول

" هذا ما تعلمه علماء الآثار من الحفريات في أرض إسرائيل، لم يكن الإسرائيليون قط في مصر، ولم يتيهوا في الصحراء، ولم يحتلوا الأرض في حملة عسكرية ويوزعوها بين قبائلهم الأثنى عشر، وربما كان الأصعب على الابتلاع أن مملكة داوود وسليمان الموحدة والتي وضعها التوراة كقوة إقليمية كانت في أحسن الحالات مملكة قبلية صغيرة، وستكون صدمة غير محببة للكثيرين أن إله الإسرائيليين يهوه كان متزوجاً من أنثى وأن الإسرائيليين الأوائل قد تبنوا فكرة التوحيد في فترة تراجع الملكية فقط وليس على جبل سيناء ".

ويتابع زائيف هيرتزوغ تفصيل طروحاته بالقول أن وليم فوكسول أولبرايت قال أن هدفه المعلن هو دحض الانتقادات المتعلقة بتاريخية حوادث التوراة وخاصة المتعلقة بمدرسة ويلهاوزن الألمانية. ولقد قام أولبرايت وتلامذته بحفريات كبيرة في مجدو / ولاكيش / وجيزر / وشكيم / أريحا / والقدس /وعي / وجفيون / وبيسان / وبيت شمس / وهازور / وتعنك / وغيرها وكان على كل ما وجدوه أن يكون منتمياً ومتناسقاً مع صورة بناءهم للماضي. وتدريجيا بدأت الشقوق تظهر في هذا البناء وتؤثر على درجة الثقة في الوصف التوراتي بدلاً من أن تؤكده وإليكم الأمثلة التالية : لقد وجد الباحثون أن من الصعوبة بمكان تحديد الفترة التاريخية لمرحلة الاباء (PATRIARCHAL AGE) متى عاش ابراهيم واسحق ويعقوب ومتى.

استعملت مغارة (المكفيلة MACPHELAH) لتكون مكان الدفن للاباء والأمهات الأوائل (وهي التي تقع في الحرم الإبراهيمي في الخليل)، وحسب التأريخ التوراتي فإن سليمان قد بنى الهيكل بعد (480) سنة من الخروج من مصر وعلينا ان نضيف (430) سنة أخرى للاقامة في مصر بحيث نصل إلى أن ابراهيم قد جاء الى أرض كنعان في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ولقد تبنى أولبرايت هذا التاريخ، إلا أن بنامين مازار أب علم الاثار التوراتي في إسرائيل قد أرجع إبراهيم

ألف سنة إلى الوراء أي إلى القرن الحادي عشر ق.م. أما عن تواجد الإسرائيليين في مصر فليس هناك أي مستند مصري يشير إلى ذلك (رغم أن المصريين من أكثر الشعوب التي سجلت كل جزئيات التاريخ المصري القديم) ولقد حاول عدد كبير من الباحثين التحقق من جبل سيناء فاعتبره البعض في شمال الحجاز والبعض الاخر اعتبره جبل كركوم في صحراء النقب.

أما عن احتلال أرض كنعان (فلسطين) والوصف التوراتي المفصل لاحتلال كل من أريحا وعي ورغم الحفريات المكثفة في كل منهما فإنه لم يوجد أي أثر لهاتين المدينتين في نهاية القرن الثالث عشر ق.م وبالتالي لا أسوار ولا ما يحزنون، وبالتالي فإنه لا يوجد أي سند للقصة التوراتية حول احتلال البلاد من قبل القبائل الإسرائيلية بقيادة يوشع بن نون، تلك البلاد التي احتوت على عدد من المدن العظيمة ذات الأسوار التي تطاول السماء والتي لم تثبت الحفريات شيئا من ذلك.

ويتحدث زائيف هيرتزوغ عن القدس قائلا : تصبح الصورة أكثر تعقيدا على ضوء الحفريات في القدس والمفترضة أنها عاصمة المملكة الموحدة حيث لم يوجد أية بقايا لأبنية، فقط القليل من قطع الفخار من مراحل سابقة أو لاحقة ولقد أصبح واضحاً أن القدس في المرحلة المفترضة لداود وسليمان لم تكن في أحسن الحالات أكثر من مدينة صغيرة لا يمكن أن تكون عاصمة لإمبراطورية وربما أصبحت القدس مدينة مركزية بعد تدمير السامرة في عام 722 وبذلك فإن مملكة داود وسليمان العظيمة الموحدة هي عبارة عن مغالطة تاريخية متخيلة. ويصبح بالتالي الحديث عن إمبراطورية سليمان الممتدة من الفرات حتى غزة ضرباً من الهذيان.

والان ننتقل إلى الحديث عن إله اسرائيل المدعو يهوه والذي من المفترض أنه الإله الأوحد وهنا يقول زائيف هيرتزوغ :

" في موقع كونتيلة عجرود في جنوب غرب صحراء النقب وفي خربة الكوم وجدت كتابة عبرية تذكر يهوه وعشيرة زوجته وهذين النصين من القرن الثامن ق.م مما يثير الاحتمال بأن فكرة التوحيد هي ابتكار جاء بعد دمار مملكة إسرائيل 722 ق.م ".

والآن نشير إلى أن اسم إسرائيل قد وجد في وثيقة مصرية وحيدة من عهد ميرنبتاح عام 1208 ق.م حيث تقول: " نهبت كنعان من كل شيطان وعسقلان قد

احتلت، وقبضت جيزر ويانوم قد أصبحت. كما لم تكن يوماً ما (وإسرائيل) اقفرت وبذورها كأن لم تكن، ويسمي مرنبتاح البلاد بكنعان"1. ورغم أن هذا هو الذكر الوحيد لإسرائيل في هذا الوقت المبكر فإن بعض علماء المصريات يقرأون النص على أنه يزراعيل بدلاً من إسرائيل، ومن المعروف أن يزراعيل هو أهم سهل في فلسطين ومما يؤيد هذه القراءة أنه يتحدث عن البذور أي عن الزراعة في سهل يزراعيل (المدعو حاليا مرج ابن عامر بين جنين وحيفا).

رغم وجود شبه إجماع بين علماء الآثار على هذه الحقائق فإن هذه الرؤيا لم تستطع النفاذ إلى الضمير الشعبي رغم أن واحدا كالمؤرخ البروفسور ناداف نتعمان نشر مقالا في صحيفة ها أرتس طالب فيه بإزاحة التوراة من رفوف الكتب اليهودية بينما يرى البعض أن هذه الحقائق ستقلص ما يدعى بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، ثم يشير زائيف هيرتزوغ أن هذه الحقائق تلاقي نفس ردود الفعل السلبية لدى بعض أصحاب الديانات الأخرى المؤمنين بالتوراة لأنها تتحدى الأسس التي قامت عليها معتقداتهم الدينية، وبصورة خاصة أتباع المذهب البروتستانتي الذين يبالغون في الاعتماد على ما يسمونه العهد القديم والذي يعتبر الإيمان به جزءاً لا يتجزأ من إيمانهم.

والآن نتناول بعض أوجه الشبه بين التوراة وميثولوجيا الشرق الأدنى القديم، هذا الشبه الذي بدأ يتكشف مع إعلان سميت في 3/ك1/ 1872 عن الاكتشافات الهامة في العراق (ميزوبوتاميا) والذي ظل يزداد مع اكتشاف المزيد من الرُقم في المواقع المختلفة من أرض الشرق الأدنى القديم، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أوجه الشبه بين ما ورد في التوراة والتي من المفروض أنها كتبت بعد عام 586 ق.م. وخلال مراحل طويلة متتالية كما أثبت علماء اللسانيات امتدت حتى المرحلة الهلنستية – وبين عدد من الرُقم والتي يسبق بعضها تاريخ كتابة التوراة بأكثر من ألف سنة أن أوجه الشبه هذه تصل أحياناً إلى ما هو قريب من الترجمة الحرفية، ولأن وقت هذه المحاضرة محدود فلا بد أن نشير بسرعة واختصار إلى أهم الموضوعات المتشابهة :

---

1 - مجلة علم الآثار التوراتي تموز/آب 1997 ص 30.

1 - قصة الطوفان : وردت هذه القصة في الرُقم السومرية والبابليـــة وهنـــاك تشابه كبير بين زيوسدرا الســـومري واتونابشـــتم البـــابلي واثراخاســـيس التوراتي1 وفي كل ما يتعلق بالقصة من أسباب الطوفان كعقاب إلهـــــــي للبشر والطريقة التي نجا بها رجل الطوفان وأزواجا من جميع المخلوقات، وكيـــف استطاع رجل الطوفان أن يعلم ببداية انحسار المياه حتى تكاد تكون قصة التـــوراة في معظم أجزاءها مأخوذة عن القصص القديمة.

2 - قصة الخليقة:تتشابه القصة السومرية البابلية مع القصة التوراتية2 في أن المياه هي أصل الوجود وأن السماء والأرض قد خلقتا بعد فصل المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوقه، وكذلك في خلق الإنسان من طين3.

3 - قصة قايين وهابيل4 أولاد أدم وعلاقة الصراع بين الراعي والفلاح أي الراعي انكي - امدو والفلاح دموزي.

4 - قصة الملك سرجون الاكادي الذي وضعته أمه الألهة في السلة وشبهها مع قصة موسى الذي وضعته أمه في السلة في نهر النيل5، علما بأن سرجون قد حكم بين 2370 - 2316 ق.م.

5 - غضب الإله وإنزال العقوبات الجماعية في الميثولوجيا السومرية والتوراتية مثل الطوفان والسنوات العجاف والسبي وغير ذلك من العقوبات الجماعية.

6 - التشابه بين عالم الأموات في الميثولوجيا البابلية والتوراة إذ أنه عالم الظلام واللاعودة والأبواب الموصدة والعالم السفلي.

7 - العلاقة بين سفر أيوب في التوراة وقصيدة " لأمجدن رب الحكمة " البابلية إذ تبدأ كل منهما بوصف الرفاه الذي كان يعيش به كل من أيـــــوب وشبشبي-مشـــــرى-شـــــكان6 ثم زوال النعمـــــة والابتـــــــداء.

بالأمراض وابتعاد الناس ثم الشفاء الكامل وعودة الرفاه مضاعفاً. لا بد من الإشارة إلى هراء في النص التوراتي الذي يعتبر أيوب من سكان الجولان

---

1 - سفر التكوين الإصحاح 6/ من 1 إلى 22 والإصحاح 7/ من 1 إلى 24 والإصحاح 8/ من 1 إلى 22.

2 - سفر التكوين ، الإصحاح 2-7.

3 -سفر التكوين، الإصحاح 1/ من 1إلى 21.

4 -سفر التكوين، الإصحاح 8،9/4.

5 - سفر الخروج، الإصحاح 22/1، والإصحاح 2/2.

6 - كتاب من سومر إلى التوراة - د. فاضل عبد الواحد علي ص 296

ولكن السبئيين (من سكان اليمن) قد أخذوا بقره وحميره، بينما أخذ الكلدانيون (من سكان العراق) جماله وذلك مذكور في سفر أيوب الإصحاح الأول/15 بالنسبة للسبئيين و 17 بالنسبة للكلدانيين وما أكثر مثل هذه المغالطات فلقد أمر الفرعون الإسرائيليين في مرحلة استعبادهم وقبل الخروج المزعوم من مصر ببناء مدينة بيثوم1 أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد في أقرب احتمال ما داموا قد خرجوا من مصر في تلك الفترة إلا أن علم الآثار قد أثبت أن هذه المدينة قد بنيت في القرن السابع قبل الميلاد بأمر من الفرعون نيقو أي بعد الخروج المفترض لليهود بأربعة قرون.

8 - ولا بد من الإشارة إلى الشبه بين نشيد الإنشاد في التوراة وتراتيل الزواج المقدس لدى السومريين والبابليين والكنعانيين. فمن المعروف أن تراتيل الزواج المقدس كانت تتم في احتفال سنوي يتم فيه دخول الملك ممثلاً للإله دموزي على الكاهنة ممثلة للالهة انانا (عشتار) وكانا يتبادلان التراتيل التي يشيد كل منهما أثناءها بحبه وهيامه واشتياقه للاخر، ولقد لاحظ الأستاذ ميك2 منذ العام 1923 أن نشيد الإنشاد هو صورة مشابهة لطقوس زواج اله الشمس من الالهة الأم، كما نشر الأستاذ كريمر3 عام 1962 مقالة عن نشيد الإنشاد وأناشيد الحب السومرية أفضت الى نفس استنتاجات الأستاذ ميك.

9 - قصة جنة عدن وخروج الدم وأنهارها الأربعة دجلة والفرات وفيشون وجيحون وكذلك قصة الثعبان لوثان في الأسطورة الكنعانية والتي يقابلها الثعبان لوياثان في التوراة في مجال الصراع بين قوى الخير والشر.

---

1 - سفر الخروج، الإصحاح الأول، ص 87.

2 - المرجع رقم 1 في ص 283.

3 - م.ن، ص.ن.

خاتمة :

بعد كل ما تقدم أود أن أشير إلى الأهمية البالغة والتي تترتب على إسقاط تاريخية التوراة من جهة وعلى علاقة كتاب التوراة بمثيولوجيا الشرق القديم.

مما لا شك فيه أن علم الاثار هو علم كبقية العلوم إلاّ أن علم الاثار الفلسطيني بصورة خاصة قد بدأ علما سياسيا ولا زال يؤثر بصورة كبيرة في المواقف السياسية للكثيرين، فلقد جاء المنقبون كما أسلفنا يحملون التوراة بيد والمعول باليد الأخرى معتبرين أن إثبات تاريخية العهد القديم هو جزء من المعتقد الديني، وعلى خلفية عصر القوميات فإن علم الاثار التوراتي جاء ليبني تاريخاً قوميا متصلا للشعب اليهودي بحيث يصبح إيجاد دولة إسرائيل الحديثة مجرد استمرارية منطقية لهذا التاريخ، ولقد كان ذلك كما عنون[1] كيث وايتلام كتابه على حساب طمس التاريخ الفلسطيني في مقابل اختلاق التاريخ الإسرائيلي، وإذا كان التاريخ الفلسطيني الحضري يبدأ مع أسوار أريحا من الألف الثامن ق.م ويستمر خلال المرحلة التاريخية بدءا من الألف الثالث ق.م وتظل فلسطين جزءاً من الشرق الأدنى القديم والذي هو الان جزء لا يتجزأ من عالمنا العربي فإن التاريخ اليهودي لا يشكل في الحقيقة أكثر من فترة قصيرة جداً من هذا التاريخ المتكامل خاصة إذا علمنا أن المملكة الشمالية تبدأ تاريخيا مع مملكة عمري 878 - 842 ق.م وتنتهي عام 722 ق.م عندما قام شلمناصر الخامس باجتياحها، بينما يرجح الكثيرون أن المملكة الجنوبية لم تبدأ إلاّ بعد سقوط المملكة الشمالية لتنتهي أيضاً عام 586 ق.م عندما سحقها نبوخذ نصر وبالتالي فإن عشرة الاف سنة من التاريخ تصادر لحساب ما يزيد عن المائة سنة بقليل لكل من المملكتين الصغيرتين. إن إعادة الاعتبار للتاريخ الحقيقي لفلسطين كجزء من الشرق الأدنى القديم هو مهمة أساسية، وسيتراجع مع إنجاز هذه المهمة الكثير من التعاطف البريء القائم على الإيمان بتاريخية التوراة، وإن عدداً من الأثاريين والمؤرخين يقومون بصورة حثيثة بالكثير في هذا المجال وعلى رأسهم كل من ستروم، ليمكه فنكلشتاين، كوت، وايتلام، طومسون، ديفر... وغيرهم، حتى أن بعض الأثاريين والمؤرخين اليهود قد بدأوا يصبحون جزءاً من هذا التيار كما رأينا في زائيف هيرتزوغ وفنكلشتاين وساسون

---

1 - كتاب " تلفيق إسرائيل التوراتية - طمس التاريخ الفلسطيني - كيث وايتلام - دار قدمس - دمشق.

واخرين، ونرجو أن يساهم العرب ببعض الجهد في هذا الاتجاه، وعلى الأقل في تمويل بعض الدراسات والمطبوعات المتعلقة بهذا المجال والذي يمثل جزءا من صراعنا الحضاري مع الوجود الصهيوني، وأود أن أنهي هذا المقال بما يقوله توماس طومسون"[1] واليوم لم يعد لدينا تاريخ لإسرائيل، لم تتحول قصة أدم وحواء وقصة الطوفان إلى خرافة فحسب، بل لم يعد بإمكاننا أن نتحدث عن زمن الأباء الأولين (ابراهيم – إسحق – يعقوب). لم يكن ثمة (ملكية متحدة) في التاريخ ولم يعد هناك معنى للكلام عن أنبياء ما قبل السبي وكتاباتهم. فتاريخ فلسطين العصر الحديدي لا يعرف اليوم عن إسرائيل أي شيء إلا بوصفها محمية صغيرة من المرتفعات تقع شمال أورشليم وجنوب وادي سهل يزراعيل (مرج ابن عامر) ولم يكن ليهوه ذاك الإله المهيمن في عبادة شعب إسرائيل علاقة كبيرة يفهم الكتاب (التوراة) للرب. إن أي تاريخ تكتبه عن هذا الشعب لن يشبه إلا بشق النفس إسرائيل التي كنا نظن أننا نعرف عنها الكثير.

1 – كتاب الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ، توماس طومسون، دار قدمس ص 37

الحضارة الكنعانية

د.أحمد ارحيم هبو
أستاذ في كلية الآداب-جامعة حلب

يفترض الباحثون المختصون أن شبه الجزيرة العربية شهدت موجات من الهجرات التي انطلقت في فترات متباعدة إلى الأطراف الشمالية منها، ولا سيما إلى البادية السورية التي تعد امتداداً لبواديها، ويعدها بعضهم جزءاً منها. ثم كان أولئك المهاجرون يتوجهون من البادية السورية شرقاً وشمالاً وغرباً. هم من القبائل البدوية أصلاً، ولكنهم بعد أن يستقر بهم المقام في القرى والمدن يتحولون إلى قبائل متمدنة، وسكان متحضرين، يمارسون أنواعاً شتى من المهن والحرف، ولا يلبثون أن يصلوا إلى سدة الحكم، ويؤسسوا سلالات حاكمة، وقد يقدر لهم أن يمتد حكمهم عدة قرون.

هكذا كانت الهجرة الأكدية أولاً في القرن الرابع قبل الميلاد إلى جنوبي العراق، ثم الهجرة العمورية(الأمورية) في الألف الثالث، ثم الهجرة الآرامية في الألف الثاني.1 وكانت هجرة العموريين/الأموريين من البادية السورية باتجاه الشرق، أي بلاد ما بين النهرين، ومن هنا جاءت تسمية العموريين/ الأموريين نسبة إلى الجهة التي قدموا منها وهي الغرب، إذ سماهم أشقاءهم الأكديون أمورو بلغتهم أي "الغربي"، وهي الغرب، كما سماهم السومريون، وهم سكان جنوبي بلاد ما بين النهرين أيضاً، مارتو، أي "الغرب" كذلك.2 كما انطلقت قبائل منهم باتجاه الشمال، وبعضهم الآخر باتجاه الغرب، إلى الساحل السوري في الوقت نفسه. وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم "الكنعانيين". ولفظة كنعان معروفة في كتاب اليهود المقدس، العهد القديم، من اسم الأرض التي اغتصبها العبرانيون، وكانوا يطلقون عليها في أم كتابهم اسم"أرض كنعان". وقد يعود اسم كنعان هذا إلى اشتقاق من مادة (كنع) السامية التي تعني "انخفض، تواضع". وسميت أرض كنعان لانخفاضها عما يجاورها بالقياس إلى الجبال والمرتفعات التي يقع إلى شرقها. وتذكر التوراة أن الكنعانيين كانوا يسكنون السهول والأراضي المنخفضة، بينما كان الأموريون يستوطنون الجبال والمرتفعات. وتسمي النصوص الحورية كنعان كناجي Knaggi، والنصوص الأكدية تسميها

1 -احمد ارحيم هبو، تاريخ الشرق القديم(1) سورية، بيروت و صنعاء 1993، ص 96 وما بعد.
2 Kupper, Les Nomades Mesopotamie. 1954
Edzard, Die Zwischenzeit Babylonies, 1957

كِناخني Kinakhni وفي نصوص تل العمارنة المسمارية يشار إلى هذه الأرض بلفظة كِناخي Kinkhkhi، أي كناعي، إذ أن الكتابة المسمارية تعبر عن العين بالخاء، كما في اسم خموررابي بالمسمارية، وهو عمورابي باللفظ الصحيح. وتعني لفظة كناجي"الصباغ الأرجواني". ويبدو أن الكنعانيين اشتهروا بهذا اللون من الصباغ حتى أطلقه الآخرون عليهم، ومنهم الإغريق(اليونان) الذي سموهم بلغتهم"فينيقيين"[1]، إذ عرفوا هؤلاء القادمين إليهم من البحر بأشرعة سفنهم الأرجوانية، وأقمشتهم التي كانوا يبيعونهم إياها. وهكذا طغى هذا الاسم"الفينيقيون" على اسمهم الأصلي "الكنعانيين"، وشاع في التاريخ على حساب اسم الكنعانيين.

قدم الكنعانيون إذن مع الأموريين أصلاً من شبه الجزيرة العربية إلى بادية الشام، في الألف الثالث قبل الميلاد، ثم توجهوا بعدئذ إلى الغرب، وانتشروا على طول الساحل السوري من خليج الاسكندرون في الشمال إلى غزة ورفح في الجنوب، حيث صار دار مستقر لهم دون غيرهم. ويسمي بعض الباحثين لشدة صلتهم بالأموريين، يسمى الأموريين كنعانيين شرقيين، أي يجعلون الأموريين فرعاً من الكنعانيين، وليس العكس. وما يؤكد الصلة الوثيقة بين القومين اللغة التي تجمع بينهما، وتميزهما من اللغات السامية الشقيقة.

وقد تمكن الأموريين من إقامة ممالك قوية في العراق وسورية، ومنها المملكة الآشورية في شمالي العراق والجزيرة السورية، وفي بابل أقام الأموريون المملكة العظيمة التي اشتهر من ملوكها حمورابي. وفي سورية قامت دولة يمحاض في الشمال وعاصمتها حلب، وكذلك دولة ماري على نهر الفرات، وقطنا على نهر العاصي.

أما الكنعانيون فقد أقاموا دويلات لهم على طول الساحل السوري، في رأس شمرة وأوغاريت، وإلى الجنوب منها أرواد التي كانت تسيطر على ما يقابل الجزيرة من أراض، ويقوم معبدها الرئيس في عمريت(قرب طرطوس). وإلى الجنوب منها جبيل، وصيدا وصور. ومن بعد بيروت وطرابلس.

وقد خضع الكنعانيون لاتصالهم الوثيق بالبحر، ولا سيما بمصر إلى التأثير الحضاري. وتأكدت علاقتهم بالمصريين سياسياً من خلال تبعيتهم الطويلة لمصر في

---

1 أحمد ارحيم هبو، المصدر السابق، ص 105.

Fischerweltgeschichte, 3, P181
Bockelmann, In Hanndbuch Der Orientalistik, 3.P40

عصر الدولة المصرية الحديثة، وهو عصر التوسع المصري الكبير (1575 – 1080 ق.م)، وخضوع معظم مناطقهم الفينيقية للنفوذ المصري. ولم تنقطع العلاقات التجارية والثقافية بينهم وبين مصر، ودول العالم الايجي(اليوناني)، بل استمرت وتواصلت دون انقطاع حتى عصر البطالمة والسلوقيين بدرجات متفاوتة من القوة والضعف. وكان لهذه العلاقات أن تبدأ منذ عصر الأسرات الفرعونية الأولى الذي عرف أول اتصال تجاري بين مصر وجبيل بخاصة التي كانت الميناء المفضل عند المصريين حيث كانت لهم جالية كبيرة فيها طوال تاريخهم القديم.

وتظهر آثار الكنعانيين الدينية واللغوية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بوضوح في المنطقة. وهذا يعني أن وجودهم في المنطقة يعود إلى حقبة زمنية أقدم، إذ تؤكد أسماء المدن الكنعانية التي يعود تاريخها إلى ما قبل عام 3000 ق.م، مثل أريحا، بيت شان، مجيدو أن أسلاف الكنعانيين سكنوا المنطقة وعمروها في فترة سابقة لظهور الوثائق الكتابية.

-اللغة الكنعانية:

هي إحدى اللغات السامية وتشكل مع اللغة الآرامية ولهجاته شعبتي اللغات السامية الشمالية الغربية. والسامية أو الساميون مصطلح ظهر لأول مرة في عام 1781م على يد عالم نمساوي اسمه شلوتزر 1، ابتدعه عندما كان يبحث عن اسم يجمع اللغات المعروفة في منطقة جنوب غربي آسية، بما تضم من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد الشام، وهي لغات تأكد له أنها متقاربة، متشابهة، وكأنها لهجات تشعبت عن لغة واحدة، من حيث الأصوات، والألفاظ، والتراكيب، والبناء بشكل عام، كما هو حال اللغة العربية الفصحى اليوم ولهجاتها المنتشرة بين الخليج والمحيط. وقد اهتدى إلى مصطلح السامية بعدما رجع إلى نص في التوراة يذكر اسم نوح عليه السلام، وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث، وعثر على أسماء أولاد سام، وهم الشعوب التي انحدرت منه، آشور، وآرام، وعابر، ويقطان(أو قحطان). ثم أضاف إلى الآشوريين والآراميين والعبرانيين، والقحطانيين، أي العرب، أضاف إلى لغاتهم اللغة الحبشية، وأضاف الآخرون اللغة الأكدية بفرعيها البابلية والآشورية عندما ظهرت

Schlozer und Eichhorn in: Repetorium für biblische und morgenlandische Letteratur -1 VIII , Leipzig. 1781, s.161

آثارها الكتابية المسمارية. فاكتملت معرفتهم بهذه اللغات التي دعيت نسبة إلى أهلها، وإلى أمكنتها، بظهور آثار الشعوب الأخرى، وآخرها اللغة الإبلانية، أو الابلوية التي ظهرت آثارها في تل مرديخ قرب سراقب، جنوبي غربي حلب، وقد نعثر على لغات أو لهجات أخرى، كلما انكشفت آثار حواضر أخرى في المنطقة.

إذن اللغة الكنعانية هي لغة سامية غربية، وتشتمل على لهجات أو لغات تتفرع عنها، وهي:الأوغاريتية، والفينيقية، والعبرية، والمؤابية، والأدومية.

أما كتاباتها فكانت تصويرية في البداية، ومسمارية، ثم أبجدية، ألفبائية سنتحدث عنها لاحقاً.

-الديانة الكنعانية:

دان الكنعانيون كأشقائهم الساميين بالوثنية، وكانت آلهتهم كثيرة، إذ وصل عددها في أوغاريت إلى حوالي السبعين من الآلهة على الأقل وبينها عدد من الإلهات. وتذكر النصوص الأوغاريتية الإلهة أثيرت "خالقة الآلهة" وزوجة الإله الأب إيل.

وتدعى أحياناً إيلات، أي الإلهة ببساطة. ولكن الإلهة عنات هي التي تحتل مركزاً هاماً في عالم الآلهة، ومن صفاتها"البتول"، وهي إلهة الحب والجمال والخصوبة، وفي الوقت نفسه إلهة الحرب. إنها ربة متناقضة الطباع والصفات، تذرف الدموع بسخاء على موت أخيها بعد مقتله، ويهفو قلبها إليه بحب جارف، وينبض بعاطفة صادقة، وتبدو في شخصية مغايرة تتسم بحب الانتقام الشنيع من قاتل أخيها. وثمة شواهد كثيرة على حبها للعنف، ومنها تهديدها لوالدها إيل نفسه مرتين بضربه على الرأس حتى ينزف دمه إن لم يستجب لطلبها. ويرد في أحد النصوص أن عنات تسلي نفسها بمذبحة يسقط ضحيتها"ناس من الشرق وناس من الغرب"، أي من جميع جهات العالم، وتتخذ لنفسها من أيديهم المقطوعة ورؤسهم المفصولة زينة، وهي تخوض في دمائهم. وتظهر في الرسوم الأوغاريتية في الغالب عارية، وأحياناً وهي تحمل خوذة على رأسها، وتلوح بيديها بالأسلحة. وقد وصلت عبادة عنات إلى مصر مع الهكسوس، وتدعوها النصوص الهيروغليفية"ربة السماء، وسيدة الآلهة"، وسمى الفرعون سيتي الأول عربة القتال الخاصة به باسمها تيمناً بها، كما دعا رعمسيس الثاني إحدى بناته"بنت عنات"، ولقب نفسه"بطل عنات"، وسيفه"عنات المنتصرة"1.

---

1 –Pope, woterbuch der Mythologie. s.235.236

وهناك أسماء أمكنة في فلسطين وأسماء علم ورد ذكرها في أسفار العهد القديم باسمها، مثل "حصن بيت عنات"، وعناتوت (اليوم عناتا)، وبن عنات....وعنات هذه هي عشتار في بلاد ما بين النهرين، وعشتروت في كتاب العهد القديم، وتقابل الإلهة أفروديت عند الإغريق، وفينوس عند الرومان، وايزيس عند المصريين القدماء، وتمثل كوكب الزهرة، ومن اللافت أن تأثر الوثنية عند اليهودية لم ينقطع حتى في زمن سليمان الملك في كتاب العهد القديم حيث يبني سليمان للربة الكنعانية معبدا في شرقي أورشليم[1]، كما بنى لغيرها من الالهة، وفعل مثله غيره من الملوك.

يقف الإله (إيل) على رأس مجمع الآلهة الكنعاني، ويعد أبا للآلهة وللبشر، وملكاً عليهم جميعاً، ما عدا (بعل) الذي أزاح الإله الطيب والعجوز (ايل) عن الحكم جانباً، فهو الإله الشاب الممتلئ قوة وحيوية الذي يبدو في الرسوم الأوغاريتية شاباً منتصب القامة، ويتقدم بخطى موزونة، وهو يضع قلنسوة مذهبة على رأسه، ويرتدي إزارا مطرزا، ويمد يده اليسرى إلى الأمام وفيها رمح أو يصدر عنها البرق، ويحمل في اليد اليمنى هراوة أو أداة أخرى للقتال. إنه يمثل إله الطقس برعده وبرقه، وصواعقه كل التمثيل. أحبه السكان في كل مكان من الشرق القديم، وفي سورية خاصة، وفي آسية الصغرى، وبلاد الرافدين، وكان يحمل أسماء أخرى، مثل: أدد، ادو، اد يتشوب، حدد. ومرد ذلك إلى وضع المنطقة المناخي التي كانت تعتمد على السقاية الطبيعية بمطر السماء اكثر من اعتمادها على ري الأنهار. ويعني اسم الإله بعل"الرب،السيد" وكثيراً ما كان يعرف في النصوص نسبة إلى الأماكن التي كان سيدها، فهو بعل صيدون(صيدا)، وبعل جبل (جبلة/جبيل/بيبلوس) وبعل لبنان، وبعل حران...كما كان للمدن الفينيقية (بعلة)، وأشهرها كانت بعلة جبيل.

كان الأوغاريتيون يعتقدون أن مسكن (بعل) على جبل صفان (الأقرع اليوم) الذي يبلغ ارتفاعه 1770م فوق سطح البحر. وكأن الأوغاريتيون يرونه من بعد (50كم) بوضوح ويعتقدون أن قصره الذي بناه بإشراف إله الحرف والفنون كوثر كان المكان الذي يصدر عنه صوت بعل، فيدوي الرعد، ويلمع البرق، وتنهمر الأمطار، وترتعش أبدان البشر خوفاً وهي تتطلع إلى السماء. وإذا اختفى(بعل) حل الجفاف، والقحط، والمجاعة، والبؤس. والإله(بعل) هو بطل الأسطورة المشهورة في أوغاريت. أما رمز الإله(بعل) فهو الثور الذي يعد رمزاً للخصوبة في الشرق الأدنى

1- سفر الملوك الأول 11، 5، 33. سفر الملوك الثاني 23، 13.

القديم. وينسب0(بعل) إلى (داجان)، كما تذكر الكتابات الأوغاريتية، الذي يعد والده المباشر. ومن صفة(السيد) أدون بالكنعانية اتخذ الفينيقيون، أي سكان الساحل اللبناني بخاصة اسم الإله(أدونيس) المرادف لاسم بعل، كما صار يلفظ باليونانية بوجود النهاية(يس)، والأصل ادوني، أي "سيدي"، وهي اللفظة التي كانوا يخاطبون بها ربهم، ودعوه أيضاً باسم ملك أي ملك، وكذلك دعي إله صور ملقارت(بالفينيقية: ملك قرت، أي ملك المدينة)، وهو إله انتشرت عبادته في المستوطنات الفينيقية التي أنشأتها مدينة صور على سواحل البحر المتوسط، ولا سيما في قرطاجة (في تونس اليوم).

كما عبد الكنعانيون آلهة أخرى كالإله(موت) الذي يلعب دور الخصم والعدو الأول لبعل، فهو إله العالم السفلي، ويتبين من اسمه انه رب القحط والجفاف والموت. والإله (يم) الذي هو رب البحر الذي يصرعه(بعل) ويلجمه. وعبدوا الشمس (شبش)، والقمر(يرخ) و(إشمون) إله الشفاء، وداجان إله الحبوب...وغيرهم،

الأدب الكنعاني:1

لم يصلنا من الأدب الكنعاني قبل قراءة النصوص الأوغاريتية شيء يذكر. وقد ازدهر الأدب الأوغاريتي كما ازدهرت التجارة في عهد الملك نيقمادو الثاني حوالي(1350 ق.م) الذي شهد تدوين الأساطير الأوغاريتية، وهي تمثل بحق نموذج الأدب الكنعاني، بملاحمه الشعرية وأساطيره التي ابتكرتها مخيلة الأوغاريتيين عن عالم الأرباب ومصير الآلهة وأشباههم من الأبطال الخالدين.

وتمثل الموضوعات الأدبية فكر الكنعانيين ومعتقداتهم، وتعكس آراءهم حول الكون ومظاهره التي تتبدى في طبيعة أرضهم التي تعتمد في خصوبتها على مياه الأمطار والندى أكثر من اعتمادها على مياه الجداول والأنهار ـ وتختلف بذلك عن طبيعة الأرض في بلاد الرافدين ووادي النيل، لذلك نجد شخصية الإله(بعل)، وهو إله المطر والصواعق والسحاب، تحتل مركز الصدارة في الميثولوجيا الكنعانية، وتستقطب اكثر المدونات الكنعانية، وفي مقدمتها الأوغاريتية. وقد دون الأوغاريتيون أسطورته التي تدور أحداثها حوله على مجموعة متعددة من الرقم إلا أنها تنتظم في مسار واحد يؤدي إلى فكرة الصراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين

1- انظر: أحمد ارحيم هبو، المصدر السابق، ص 233 وما بعدها.

الخصب والقحط. أو هي فكرة صراع قوى الحضارة والبناء والنظام من جهة مع الموت والدمار والفوضى من جهة ثانية، قصة بلا نهاية.

يبدأ صراع(بعل) مع قوى الشر والدمار بالهجوم على الإله(يم) الذي كان يسعى إلى السيطرة على (بعل)، ويساعده في الانتصار عليه(كوثر) الذي يزوده بأسلحة سحرية تكفل له التغلب على خصمه. فيبدو(بعل) على هيئة النسر الذي ينقض على خصمه الجبار المرة بعد المرة حتى يتمكن منه ويرديه أرضاً. لكم(بعل) لا يزهق روح (يم) نزولاً عند نصيحة الإلهة عشتروت، بل يبقي على حياته أسيراً ملك يديه، ويكتفي بتحديد إقامته ضمن البحر ويحد من طغيانه على اليابسة.

بعد انتصار بعل على يم يقرر بناء قصر له أسوة بالأرباب العظام الذي غدا سيدهم بعد أن انتزع السلطة من إيل أبي الأرباب الكنعانيين. ويرمز انتصاره على يم إلى انتصار قوى النظام والحضارة على قوى الفوضى والدمار. كما يرمز بناء القصر إلى تصميم قوى البناء والحضارة على السعي الحثيث لترسيخ أسس العمران والتقدم، وتبدأ بذلك دورة الحياة المتواصلة، وانتظام أمور الكون، واستتباب الأمان والاستقرار. ولكن لا بد من مواجهة قوى الشر والموت التي تتربص بالخير وبالحياة على وجه الأرض بمختلف أشكالها في كل مكان وزمان. فيتحدى بعل الإله(موت بن إيل)، رب العالم السفلي ورب الجفاف والقحط، ويبعث إليه رسله الذين ينقلون إلى (موت) تحديه، وأنه رب الأرباب من دون منازع. فيدور صراع بين الخصمين الكبيرين، وينتصر الإله(موت) في البداية. فتهرع أخته وحبيبته الربة عنات مسرعة إلى 0(موت) ترجوه إعادة بعل الذي أهلكه(موت) إلى الحياة. ويصور كاتب النص جزعها على (بعل)، ويصف عاطفتها وتضرعها بلغة شعرية وأسلوب بلاغي رفيع إذ نقرأ:

كقلب البقرة على عجلها
وكقلب الشاة على حملها
كذلك كان قلب عناة على بعل

ولكنها عبثاً تحاول مع (موت) الشرير، إذ تمر شهور دون أن تلقى توسلاتها لدى (موت) أية استجابة. ولما عيل صبرها، وطال انتظارها، ثارت ثائرتها على (موت)، وقررت اللجوء إلى العنف والمجابهة، وهي إلهة الحرب والانتقام الرهيب، كما بينا من قبل، وهاجمت (موت) كما يصورها كاتب الأسطورة إذ يقول:

فأمسكت بموت بن إيل

بالسيف شطرته
بمذراة الحبوب ذرته
بالنار شوته
في البرية نثرت رفاته...

وتعود الحياة إلى (بعل) من جديد، ويباشر نشاطه المعتاد، فتهطل الأمطار، وتعود الخصوبة إلى الأرض، وينتعش الإنسان والحيوان والنبات، ويعم الخير وتكثر الغلال والمحاصيل، وتتكاثر الأنعام بعد تغلب عنات على موت، وقضاء بعل هو الآخر على قوى الشر الموالية لموت، وتكتمل بذلك الدورة الزراعية السنوية. ولكن الأسطورة لا تفسر الدورة الزراعية السنوية فحسب، بل الغاية منها في الواقع البحث عن تفسير لأدوار الخصب والجفاف التي تمر بها أراضي سورية التي تعتمد على أمطار الشتاء والخريف، وبعدها أمطار الربيع القليلة نسبياً في حياتها الزراعية. فالإله بعل يحييها بهطولاته ويسقيها.

وقد احتفظ السكان في بلاد الشام حتى عصرنا بتسمية الأراضي التي تعتمد على الأمطار في ريّها باسم"الأرض البعلية". ويبدو أن سكان سورية القدماء من الكنعانيين والآراميين قد توصلوا إلى أن دور الخصب كان يدوم سبعاً من السنين، وهي المدة التي بقي فيها موت عاجزاً عن التصدي لبعل، كما يتضح من الأسطورة. وبعد انقضاء المدة يعود القتال بين بعل وموت من جديد، وينتصر موت على بعل الذي يختفي في عالم الموت السفلي، فتنحبس الأمطار، وتجف الأرض، ويموت النبات، ويجوع البشر والحيوان، ويسود القحط، ويحل دور الجفاف والجدب مدة من الزمن تطول أحياناً أو تقصر. وهكذا يتناوب الدوران اللذان يسود في كل واحد منهما بعل أو موت، إشارة إلى أوضاع سورية المناخية التي تتميز بتعاقب سنوات العطاء والخيرات، وسنوات القحط العجاف. ويؤكد ما ذهبنا إليه في التراث الأسطوري الأوغاريتي قصة أقهات، وقصة النبي يوسف في القرآن الكريم وفي التوراة التي تتحدث عن سنوات القحط السبع، وغيرها من الشواهد التوراتية.

وعلى الرغم من وضوح الموضوع في أسطورة بعل التي تشبه المأثور من أساطير الشرق القديم، وأقربها أسطورة دوموزي/تموز 1 السومرية البابلية، وادونيس

---

1 - فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، 1982، ص 272 يرى اختلافا واضحا بين بعل الأوغاريتي وتموز البابلي يتمثل في شخصية بعل القوي الجبار الذي يتغلب على يم، وينظم أحوال الكون وينصب نفسه ملكا على

الفينيقية، وحدد الآرامية، فإنه يتعذر التوصل إلى ترتيب الرقم المتعددة بحيث يتضح تسلسل فصول القصة الأسطورية كما كانت في الأصل، إضافة إلى أن قدراً كبيراً من التشويه والنقص قد أصاب الرقم المذكورة بمرور الزمن، وبفعل عوامل الطبيعة.

وتتحدث أسطورة أقهات التي صيغت بأسلوب شعري أخاذ عن رجل صالح اسمه دانيال لم ترزقه الآلهة بولد. فيتدخل الإله إيل ويلبي رغبته في الولد بإيعاز من الإله بعل الذي تضرع إليه دانيال. فينشأ الولد أقهات نشأة الرجال الشجعان، ويهديه والده قوساً صنعه له رب الفنون كوثر. وعندما تراه عنات تطمع في امتلاك القوس وتعرض عليه فضة وذهباً، ثم الحياة الأبدية، فيأبى التنازل عن القوس، ويتهمها بالكذب لأنها لا تملك منحه الحياة الأبدية، ولا تعرف استخدام القوس. عندئذ تشعر عنات بالإهانة وتقرر الانتقام من أقهات العنيد الذي تطاول على الربة واقترف بذلك إثماً لا يغتفر. فاتجهت إلى أبيها إيل وهددته بأنها ستدمي رأسه إن لم يستجب لطلبها ويوافق على انتقامها. عنات توقع بالشاب العقاب عن طريق صقر ينقض عليه ويخطف حياته. ثم تندم وتبكي حزناً لما حل بأقهات الذي لم تكن قد خططت لإزهاق روحه، بل الاكتفاء بإيذائه. فتجذب الأرض ويحل بها القحط. ويبلغ دانيال خبر القحط، ثم خبر موت ابنه الوحيد. فيعلن الحزن سبع سنوات. ولكن أخت أقهات تنتقم من القاتل الذي أوكلت عنات أمر التصرف مع أقهات والانتقام منه...

وثمة أسطورة كرت التي تتحدث عن ملك أسطوري نكبته المصائب وتسلطت عليه الأوبئة، ثم تزوج ابنة ملك أنجب منها سبعة أولاد، ذكوراً وإناثاً، كما أشار عليه الإله إيل، خلال سبعة أعوام عوضته عما حصل، ثم يقع كرت في المرض، فتسوء أحوال البلاد وتحل بها المجاعة إلى أن ينقذه الإله إيل بعد أن يسأل الأرباب أن تشير عليه بما يجب فعله. ولكن القصة تبقى من دون نهاية، لأن الرقم غير كاملة، وكذلك البداية التي تبدو لنا أيضاً ناقصة. ومن المعتقد أن قصة كرت فيها من النقاط ما نجده في الأساطير الأخرى والقصص المعروفة لدى شعوب الشرق القديم، وفي أسفار العهد القديم، ولدى الإغريق، وغيرهم من الشعوب. فالمصائب التي حلت بكِرت تذكرنا بالمحن التي حلت بأيوب (التوراتي).

الأرباب...بينما كان تموز مغلوبا على أمره، لا حول له ولا قوة. إذ أن عشتار هي التي تنزله إلى العالم السفلي ثم تعمل على إعادته من هناك.

-الكتابة لدى الكنعانيين:1

مرت الكتابة بمراحل متعددة حتى وصلت إلى ما نعرفه اليوم من كتابات تدعى أبجدية أو ألفبائية. المرحلة الأولى هي المرحلة التصويرية التي كان يعبر فيها الإنسان عن الأشياء التي يريد أن يكتبها بصورتها.

والمرحلة الثانية هي المرحلة المقطعية، وكانت طريقتها تعتمد على كتابة الألفاظ بعد تقطيعها إلى مقاطع صوتية تذكرنا بالتقطيع العروضي في الشعر إلى حد كبير.

أما الألفبائية أو الأبجدية فهي التي تعرفها اليوم معظم كتابات العالم، ويرمز فيها إلى كل صوت على حدة برمز هو الحرف. ولعل الكنعانيين لم يقدموا للإنسانية هدية أجل وأعظم من الكتابة الأبجدية التي كان لهم الفضل الأول في ابتكارها: في اوغاريت، وفي جبيل التي يدعوها الإغريق بيبلوس **Byblos** التي اشتقوا منها لفظة Bible المعروفة بمعنى "الكتاب المقدس".

ففي أوغاريت عثر علماء الآثار في عام 1929 على رقم مسمارية تختلف في أشكالها عن الكتابات المسمارية المألوفة من سومرية وأكدية. فظنوا أنها كتابات مقطعية. ولكن بعد عدة أشهر توصل علماء الكتابة المسمارية، وفي مقدمتهم ألماني هو Hans Bauer باور، والفرنسيان دورم Edward Dhorme و فيروللو Charles Virolleaud إلى فك طلاسم هذه الكتابة التي تشتمل على ثلاثين شكلاً مسمارياً. بينها ثلاثة أشكال تمثل الهمزة بأشكال مختلفة: مفتوحة ومضمومة ومكسورة. وبعد حوالي ست وعشرين سنة من العثور على أول تلك الرقم اكتشفت كسرة من رقيم تضمنت قسماً من الأحرف المذكورة وإلى جانبها ما يقابلها من المقاطع الأكدية (البابلية – الآشورية)، فتأكدت صحة قراءة العلماء المذكورين للنصوص المكتوبة بهذه الحروف المسمارية. ثم تم العثور على رقيم يحتوي على أشكال الحروف جميعها تتضمن بالترتيب:

أ، ب ، ج، خ، د، هـــــ، و ، ز ، ح، ط، ، ي، ك، ، ش، ل، م، ذ، ن، ظ، س، ع، ف، ص، ق، ر ، ث، غ، ت، أ، إ، س2.

وتأكد لنا أن هذه الكتابة هي أقدم كتابة أبجدية (ألفبائية) عرفها تاريخ البشرية. وتكتب حروفها من اليسار إلى اليمين، ويعتقد أن تاريخ اختراع هذه الكتابة في أوغاريت يعود إلى القرن (15) ق.م. ثم تقلص عدد حروف الأوغاريتية في الزمن

1– انظر كتابنا: الأبجدية ونشأة الكتابة لدى الشعوب، 1984.

القريب من هلاك أوغاريت في نهاية القرن(13) وبداية القرن (12) ق.م إلى (22 حرفاً)، وغدت قريبة من الكتابة الفينيقية والعبرية الكنعانيتين.

أما الكتابة الفينيقية التي يمثل هيئتها القديمة نص فينيقي وجد على قبر ملك جبيل أحيرام يرقى تاريخه إلى عام 1000 ق.م تقريباً، فقد تم اختراعها قبل ذلك طبعاً، في مدينة جبيل. وتختلف عن الكتابة الأوغاريتية من حيث الشكل تماماً: فقد ذكرنا إن الكتابة الأوغاريتية ذات شكل مسماري. أما الكتابة الفينيقية فيبدو لنا إن أشكال الحروف فيها يدل على أصل صوري. فشكل حرف الألف أصله شكل رأس الثور، والثور في اللغة الكنعانية اسمه(الألف). وحرف الباء أصله شكل صورة البيت، والبيت في اللغة الكنعانية اسمه (بيت). وشكل حرف الجيم أصله صورة الجمل، والجمل في اللغة الكنعانية اسمه (جيمل)...وهكذا حتى نصل إلى (24) حرفاً. وقد استدل الباحثون على أن أسماء الحروف مشتقة من الأشكال المأخوذة منها، أما لفظها فيعود إلى لفظ الصوت الأول من الصورة أ، ب، ج، د....الخ. وبذلك استدل الباحثون على تأثير الكتابة الهيروغليفية المصرية، أو على تأثر بالهيروغليفية من حيث الشكل، لا من حيث المبدأ بهذه الكتابة التصويرية، كما نجد تأثر الأوغاريتية بالسومرية/الأكدية من حيث الشكل المسماري، أما المبدأ فمختلف كلية.

بقيت الكتابة الأوغاريتية محلية، ضمن حدود المملكة الصغيرة، بينما انتقلت الكتابة الفينيقية عن طريقة التجار الفينيقيين (الكنعانيين) إلى العالم القديم غرباً إلى المستعمرات الفينيقية، وإلى شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها. فأخذها الإغريق (حوالي القرن التاسع قبل الميلاد)، واحتفظوا بأسماء حروفها، فقالوا: ألفا، بيتا، جاما، دلتا... وبترتيبها إلى حد كبير بعد أن طوعوها بحيث تناسب لغتهم وأصواتها، واستخدموا حروف الحلق للتعبير عن الأصوات الصائتة. ثم نقل الرومان عن الإغريق، وغيرهم من الشعوب الأوربية هذه الكتابة، بعد أن طوروا أشكالها ومنهم انتشرت فيما بعد، واستخدمتها لغات العالم الغربي: الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية...واقتبسها الأشقاء الآراميون ونشروها في العالم الشرقي. ووصلت هذه الكتابة إلى العرب العدنانيين عن طريق السريان في الحيرة فنشأ الخط الكوفي، وعن طريق إخوانهم الأنباط فنشأ الخط النسخي الحجازي...

دونت الكتابة الفينيقية بحروف منفصلة من اليمين إلى اليسار، بينما سلك الإغريق، ومن تبعهم لاحقاً اتجاهاً معاكساً من اليسار إلى اليمين بعد أن كتبوا في البداية من اليمين إلى اليسار.

ولا بد أن نذكر أخيراً أن الفينيقيين اشتهروا بقدرتهم الملاحية. فكانوا أول من قام في بداية القرن السادس ق.م بالدوران حول إفريقية، وذلك بتكليف من الفرعون نيخاو الثاني، كما وصل أهل قرطاجة الفينيقيون في بداية القرن الخامس ق.م إلى جنوب غربي بريطانية بسفنهم التي علموا فن صناعتها للإغريق كما علموهم الكتابة، ونقلوا إليهم الحضارة، وتاجروا بالزجاج والأنسجة، وجلبوا المعادن التي صنعوها في مدنهم، ثم أعادوا بيعها في الأسواق العالمية آنذاك، فكانوا بحق أول شعوب العالم في فن الملاحة والتجارة. وقد عبر عن ذلك حزقيال في السفر الذي يجمل اسمه من أسفار الكتاب بالعهد القديم (الإصحاح 27-28) حين ذكر صور التي ترمز لكل الفينيقيين: يا صور، أنت قلت أنا (سفينة) كاملة الجمال. تخومك في قلب البحار. بناؤوك تمموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو حرمون. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك صواري. صنعوا من بلوط باشان(حوران والجولان) مجاذيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البقس من جزائر كتيم. كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الأسمانجوني والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك. حكماؤك يا صور الذي كانوا فيك هم ربابنتك. شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا قلافوك. جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك...ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك...بنية النحاس أقاموا تجارتك...ومن بيت توجرمة...بنو ددان. جزائر كثيرة تجار يدك. أدوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس. أرام تجارتك بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت...تاجروا في سوقك بحنطة...وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك...الخ [أسماء مدن ودول وبضائع شتى يذكرها حزقيال وهو يرثي صور بعد سقوطها على يد نبوخذ نصر الثاني لتكون عبرة لليهود المتمردين على إرادة الله]0

أسطورة
الملك كيرت الأوغاريتية

د.محمد مصطفى

كان كيرت ملكا ورعا يسوس بلادا تسمى مملكة خابر، ولا يعرف من هذه المملكة سوى اسمها، ولكننا نعتقد أنها تقع على الساحل السوري بين مدينتي اللاذقية وصور.

هذا الملك دهمته الرزايا وحلت به النكبات فاغتالت يد المنون زوجته بادئ ذي بدء ثم قضى أبناؤه نحبهم، إذ حصدهم منجل الموت واحدا تلو الآخر ولم يبق له ولد يخلفه ولا وريث يأتي من بعده، فانتابه اليأس وأمضّه الحزن،.دخل مخدعه ليستعيدَ ذكرياته ويتخيل الأحداث والدموع تنهمرْ من مآقيه كحبات البرد ولنسمع الأسطورة تروي ذلك:

-أمة كيرت انقرضت

-بيت الملك ثُلَ

-ذي الأخوة السبعة والأبناء الثمانية

-كيرت مولانا قد تحطمَ، قد جرِّد من قدرته الملكية

-هلكت أسرتُهُ على بكْرةِ أبيها.

-دخل خدره يبكي.

-والدموع تتساقط من مقلتيه كحبات البرد

وفيما هو في سباته اقترب منه الإله إيل فرثى حاله وعطف عليه ورأف به وقال له سائلا:

لم تبكي يا كيرت ومم تشكو؟

أتريد مُلكا أم تبغي جاها ومالا؟

فأجاب كيرت:

لا أرغب في مال أو جاه ولا أريد ذهبا ولا فضة، أريد ولدا يخلفني ويملأ عليَّ بيتي.

فواساه إيل وطيّب خاطره، وطلب منه أن يغتسل ويتحنأ، ويغسلَ يديه، ويدخلَ في ظل الخيمة ويأخذ خروفا ويقدم القرابين للآلهة ويجهز جيشا من النجباء والمرتزقة وعامة الناس وأعطى أوامره بأن يغلق العازب بيته والأرملة تخلدُ في بيتها والمريض على

فراشه والأعمى رهينُ منزله والعروس تودَعُ في مكانٍ آخرَ. ثم يزحف كيرت بجيش عرمرم جرّار، وبعد مسيرة ثلاثة أيامٍ يصلُ إلى معبد الآلهة أثيرة في صور فينذرُ النذورَ لها، وفي اليوم السابع يتعبُ ملكُها فابيلُ من قلة النومَ، بسبب الحصار المضروب على المدينة، وأصواتِ الحيوانات فيرسلُ إلى كيرت رسلاً يعرضون عليه الذهب والفضة والعبيد والغلمان والخيولَ والمركبات ويحاولون إغراءه بكلِّ شيء فيرفضُ كيرتُ هذه العروضَ، فتقول الأسطورة:

نزل كيرت من عليائه..
أحضر الطعام للقرى...
والقمح لبيت خابر...
صنع خبزاً للجيش
ومؤونة لستة أشهر
أعد جيشاً من النجباء وخرج
ذهبوا بالآلاف مثل الزوابع
وجماعاتٍ مثلَ بواكير المطر

وبعد مسيرة ثلاثةِ أيام وصل إلى معبد الآلهة أثيرةِ فدخل المعبد ونذر ضعفي وزن الحوريةِ فضة ومثلَ وزنها ذهباً إن هو ظفر بها، تتابع الأسطورة:

كالجنادبِ على تخوم الصحراء، كالجراد المنتشر في الحقول، ذهبوا...مثنى وثلاث إثر بعضهم.

وفي اليوم السابع وصل إلى مملكة أدوم فحاصرها وشدد الحصار عليها فأرسل ملكها فابيلُ رسلا إلى كيرت قائلين:

خذ يا كيرتْ فضة وذهبا
ذهبا من منجمه
وعبيدا أبديين
مركبات ذات احصنة
خذ يا كيرتْ سلاما
لا تخاصم الدوم العظيمة، ادوم الثرة، أدوم أعطية ايل، وهبة أبي البشر.

لكن كيرت وبحسب وصية الإله أبي البشر رفض عروض الملك فابيل وطلب منه أن يهبهُ حورية:

فلتهبني ما ليس في بيتي
أعطني حورية زوجة
ابنتك البكرَ الجميلة

التي جمالثها جمال عناة
وحسنُها حسنُ عشتاروت
صاحبة العينين اللازوردتيين
والجفون العقيقية المحدبة
أسلو بصفاء عينيها
وفي حُلمي ايل وهبني إياها
ويبدو أن حورية كانت عزيزة على أبيها وعلى أبناء شعبها وعزَّ عليهم فراقُها لـذا حاولوا عبثاً إقناع كيرت بالعدول عن طلبه لكنه أصرَّ على هذا الطلب.
ونال كيرت بغيته وزفت حورية وعلا الحزن وجوه أبناء أدوم وناحوا عليها كما ينوح المحاربون على أمهاتهم، وأقيمت الأفراح والولائم في خابر ابتهاجاً بهـذا الحدث العظيم، وقامت الآلهة بزيارة كيرت وباركت له زواجه ووعدته بإنجـاب سبعة أبناء احدهم يدعى ياصيب يرضع من حليب أثيرة وعناة مربيتـي الآلهـة وثماني بنات تحظى صغراهن بحقوق الولد البكر:
دخل بيته وشرب
دخل بيته ووزع الأعطيات
واندفع إلى الخارج
واخيرا وصلت الآلهة
أجاب بعل المعظم
لتتقدم أيها الإله اللطيف ذو الرحمة
لتبارك كيرت النبيل
بارك إيل كيرت النبيل وقال:
الزوجة التي تأخذها يا كيرت
الغلامة التي تبوئها عرش بلاطك
ستلد سبعة أبناء لك وثماني بنات
ستلد الغلام ياصيب يرضع حليب أثيرة ويرضع ثديي العذراء عناةَ وعادت الآلهـة أدراجها إلى قصرها.
ومرت سبع سنوات وولدت حورية الأبناء الذين وعدت بهم الآلهة وكذلك البنات.
لكن كيرت نسي أن يفي نذره لأثيرة آلهة صيدا وصور فقررت الانتقام منه وأوقعته في مستنقع الأمراض فساءت حالته الصحية فطلب ايل إلـى الآلهـة أن تمـد يـد المساعدة إلى كيرت لكن أحداً لم يتقدم إلى مساعدته لأنه أخلف وعده وحنث عهده.
وطلب كيرت من زوجته حورية أن تعد وليمة كبيرة دعى إليها وجوه مملكة خابر وأعيانها وتروي الأسطورة تفصيلات هذا الحفل:
-وضع قدميه على المصطبة
-ونادى زوجته بصوت مرتفع

-اطبخي احسن الخراف
-وافتحي دنان الخمر
-واستدعي ولاتي السبعين
-ونبلائي الثمانين
-سادة خابر العظيمة
-خابر الثرة
فسمعت الزوجة حورية كلامه وطبخت احسن الخراف وفتحت خوابي الخمر الكبيرة واستدعت ولاته ونبلاءه، سادة خابر العظيمة:
-دخلوا بيت كيرت
-وتقدموا إلى قاعة الطعام والشراب
-وخاطبتهم السيدة حورية
-دعوتكم لتأكلوا وتشربوا
-ولتقدموا أضحية لسيدكم كيرت
-وأعلمتهم حورية أن كيرت مريض وأن مرضه عضال وأنهم سيبكونه بكاء مراً لأنه موشك على الهلاك وأن ياصيب يهيأ نفسه للاستيلاء على العرش واغتصاب السلطة من أبيه وفي ذلك دمار المملكة وخرابها:
لتبكوا على كيرت
بعويل مثل خوار الثيران
دنا غروب شمس كيرت
سيدنا سيمضي إلى حيث تأفل الشمس
-ويتوج ياصيب ملكاً علينا
وهنا تهشيم في النص بحدود ثمانية عشر سطراً، ولا ندري لم كان استلام ياصيب دماراً للملكة وخرابها...
غير أن كيرت يستدعي ابنه الأصغر "إلحو" وأخته" ثتمانة" ليشرفا على علاجه فيذرف الابن الحنون دموعاً غزيرة، ويبكي أباه بكاء مراً فقد كان يظن أن والده ليس من جنس البشر وأنه خالد لا يموت:
-إذا مت سوف نطرد من بيتك كالكلاب
-وتؤول ممتلكاتك إلى النساء والنائحات
-هل تموتن يا أبي كما يموت البشر
-حجارة بعل تبكيك يا أبتاه
-جبل صافون، أرض الأحلام المقدسة
-تئن الأحلام العظيمة
-ليتك تبقى على قيد الحياة
لكن كيرت يزجر ابنه وينهاه عن البكاء، ويطلب منه أن يترك البكاء لأخته:

-يا بني لا تبكني
لا تنح عليَّ
ناد اختك ثتمانة
بنت ذات عاطفة صادقة
دعها تبكي وتنح علي
يا صغيري لا تقل لأختك...
-لقد عرفت انها رقيقة القلب
-يجب ألا يدوي فوق الحقول صراخها
-وألا تصل إلى السماء آهاتها
وتسأل ثتمانة اخاها عن حال أبيها، ولكنه يحاول ان يتهرب من الإجابة ولا يريـد إعلامها حقيقة الأمر:
-لماذا تخدعني؟
-كم شهراً مضى على مرضه؟
-كم قضى كيرت طريح الفراش؟
-فأجاب البطل إلحو:
-ثلاثة أشهر بات مريضاً...
أربعة أشهر قضى كيرت طريح الفراش...
-لاشك أن كيرت سيموت...
-ويجب أن تهيئي له قبراً...
تبكي وتتحشرج بصوت عال وتقول:
-يا أبانا بحياتك نشمخ
-بخلودك نبتهج
-هل الآلهة تفنى
ويعتور النص تشويه ولا نعرف تتمة الحوار.
وتشارك الطبيعةُ كيرت مرضه، فيعم الجدب والقحط البلاد، وتنفذ مخزونات القمح والنبيذ، ويخشى الناس غائلة الجوع:
-ليسكب زيت السلام في القصعة
-عيون الأرض والسماء
-ونقل ناظريه عبر الأفق
للأرض مطر بعل
وللحقول مطر العلي
نعمة للأرض مطر بعل
وللحقول الذي أرسله العلي
نعمة للقمح في الأخاديد

-وللبذور في الأرض المحروثة
-رفع الفلاحون رؤوسهم نحو السماء
-نضب الدقيق من عنابرهم
-وجفت دنانهم من الخمر
-وخلت قلالهم من السمن
وهنا تشويه اخر في النص
ولكننا نقرأ بعد ذلك حزن الإله ايل لمرض كيرت فينادي الالهة ويسألهم من يداوي كيرت ويطرد الشيطان، فلا يجيب أحد من الالهة ويكرر السؤال مرات عديدة، وليس في الالهة من مجيب، وفي المرة السابعة يقول ايل: عودوا إلى دياركم، وأنا سأداوي المريض وأطرد الشيطان.
-فيرسل اليه شعتقات ويعتقد أنها ساحرة أو جنية، ويدل اسمها على أنها تعتق المرضى من مرضى فتقدم إلى كيرت شراب الخطمي فيشرب وينضح جسمه عرقا، وتفارقه الحمى ويتماثل من مرضه وتعود اليه شهيته إلى الطعام وفي الأسطورة تصوير لذلك:
تناول ايل كأسا بيده
كوزا بيمينه قائلا:
أنت يا شعتقات
طيري خلسة إلى المدينة
طيري خفيفة عبر القرى
اسقيه شراب الخطمي
سيخرج المرض من صدغيه
والوباء من رأسه
وتجلسين حتى يجلله العرق
حوالي ثمانية أسطر مفقودة
ثم تصف الأسطورة انتصار شعتقات على المرض:
-هنيئا لشعتقات المظفرة
لأن الموت سيندحر
وغادرت شعتقات
يممت وجهها شطر منزل كيرت
لقد طارت خفية إلى المدينة
طارت خفية عبر القرى
تطلب الخطمي لتطرد المرض
-وداوت المريض في رأسه
-وجلست حتى جلله العرق

-وفتحت شاهيته إلى الطعام
-وهكذا الموت اندحر
وشعتقات باتت منتصرة
ثم أمر كيرت زوجته حورية أن تعد له طعاما فاخراً من لحم الخـروف المسـمن فقامت الزوجة الوفية بإعداد الطعام وعادت إلى كيرت قوته وبعد يومين نزل مـن بيته وجلس على كرسي العرش ليسوس البلاد من جديد، تقول الأسطورة:
ورفع كيرت النبيل صوته عاليا
ونادى زوجته:
اسمعي يا زوجتي خورية
اطبخي خروفا فآكل، وحملاً فأتغذى
وسمعت الزوجة حورية
طبخت خروفا فأكل، وحملاً فالتهمه
وبعد يوم وثان
تربع كيرت على عرشه
جلس على عرش مملكته
على وسادة مملكته
وبينما هو جالس على العرش، دخل ابنه ياصيب وطلب منه أن يتخلى عن العرش لنه أصبح أليف المرض وطريح الفراش، ولا يستطيع أن ينهض بأعباء الحكم:
-أودت بك قواك الخائرة إلى الحضيض
-أنت لا تنصف الأرملة
-ولا تقضي قضاء القاصر
-لقد ألفت فراش المرض
-ولأنك عاشرت الوباء
-فانزل عن العرش لكي ملكاً املك
-وعن كرسي الحكم كي أتربع أنا عليه
ويكرر القول ثانية:
اسمع يا كيرت النبيل
وأعرني أذناً صاغية
-عندما يغزو الغزاة تدبر
-وبالأغوار تختفي
-مغلولة يدك
-أنت لا تنصف الأرملة
-ولا تستطيع أن تحمي الضعيف
-الذي هو أمامك

-أو تطعم اليتيم حين يحضر
ولا المسكينة حين تغيب
لأنك ألفت فراش المرض
وعاشرت الوباء
فانزل لأملك ملكاً
تنح لأجلس أنا مكانك
فيستشيط كيرت غضبا، ويلعن ابنه، ويخاطبه قائلا:
أيها الولد العاق
هيا انصرف من أمامي
وليكسرن حورون رأسك
وعشتاروت سمية بعل هامتك
فتسقطن من جبل أو هامك
بخبثك خالي الوفاض
ذليلا...

وهنا تنتهي الأسطورة دون إتمام القصة، ولكننا نعتقد أن لهذه الأسطورة بقية لم يعثر عليها بعد...

شريعة حمورابي

المحامي إحسان الكيالي

سنستعرض في هذا البحث وبشكل موجز المواضيع التالية:

شخصية حمورابي، الزمان والمكان الذي عاش فيه، ولأي قوم ينتمي، وما هي الظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في المنطقة قبل حمورابي، وفي حياته وبعده، وما هي شريعته وأهم مواضيعها وخصائصها؟ وهل هي أول شريعة مكتوبة أم هل هي مستمدة من شرائع سابقة عليها؟ وهل أثرت في الشرائع التي أتت بعدها؟

<u>الملك حمورابي:</u>

حمورابي هو سادس ملك من ملوك بابل، ولقد اختلف المؤرخون في تحديد الفترة الزمنية التي تربع فيها على عرش بابل، فمنهم من قال بأن فترة حكمه امتدت ثلاثين عاماً من عام 2342 ق.م حتى 2312 ق.م ومنهم من قال بأن حكمه امتد اثنين وأربعين سنة. من عام 1732 ق.م حتى 1750 ق.م.

ومنهم من قال أنه امتد ثلاثة وأربعين عاماً، من 2123 ق.م حتى 2080 ق.م ونحن نميل إلى هذا الرأي الأخير والذي هو وسط بين الرأيين.

<u>أين تقع مملكة بابل:</u>

بلاد بابل كانت تقع بين نهرين عظيمين دجلة والفرات. وكانت تقسم بحسب طبيعة الأراضي وتكوينها إلى قسمين: المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية.

فالقسم الشمالي من الوادي كان يمثل (آشور القديمة)، وهو عبارة عن سهول متموجة تقطعها في بعض المواقع مقاطع جبلية. أما القسم الجنوبي من الوادي المعروف ببابل فهو يعتبر من اخصب بقاع العالم بسبب ما يحمله النهران العظيمان من رواسب وطمي. وكان سكان بابل شعباً زراعياً مشهوراً في أعماله الزراعية، ساعده في ذلك، شبكة الأقنية الواسعة، والسدود التي أقيمت لمنع الفيضانات، ومن أهم محاصيلها القمح والشعير، وكانت بلاد ما بين النهرين تسمى (بلاد الفردوس)، لكثرة خصبها وانباتها، حتى قالت الأساطير عنها، بأن، الإله أنبت في أراضيها كل شجرة راقت له.

ولقد امتدت أراضي مملكة بابل جنوباً حتى خليج البصرة، وغرباً حتى البحر المتوسط، أما مدينة بابل نفسها فإنها تبعد (95 كم) عن بغداد، وإن كلمة بابل مأخوذة من لفظ سامي معناه (باب ايلي) أي باب الآلهة، أي مكان تجمع الآلهة.

مملكة بابل والبابليون:

بدأ اسم مملكة بابل يشرق حوالي الألف الثالثة إلى الألفين وثمانمائة وخمسين قبل الميلاد، وكانت مجزأة، ثم عظم سلطانها من عام 2450 ق.م وحتى 2150 ق.م، حيث ظهرت أول سلالة لمملكة بابل، وتعاقب عليها الملوك حتى جاء حمورابي، الذي وحد مملكة بابل بعد أن كانت مجزأة بعد انتصاره على العيلاميين، وانتصار أسلافه على السومريين والعاموريين، والأكاديين وأسسوا دولتهم العظيمة التي امتدت من العراق حتى سواحل البحر المتوسط وسوريا وفلسطين وأرمينيا، ولقد اتخذ حمورابي مدينة بابل عاصمة لمملكته والتي ارتقت في أيامه علماً وعمراناً، وازدهرت صداقة وتجارة، وسادها الأمن في الداخل، وعززت جيشها على الحدود، فلم يجرؤ أحد على غزوها، حتى غدا عصر بابل في أيام حمورابي عصر بابل الذهبي، ولكن بعد وفاة حمورابي لم يحافظ الملوك من أبناءه وأحفاده على عظمة هذه المملكة، وبدلا من أن تتقوى وتتسع، أو على الأقل تحافظ على حدودها، فإنها أخذت تضعف، ولم تحافظ على استقلالها أكثر من خمسمائة عام، حيث هاجمها الكيسانيون وتغلبوا عليها، إلى أن ظهرت دولة (آشور) في الشمال من وادي الرافدين، فحاربتهم وتغلبت عليهم، ونقلت العاصمة من بابل إلى نينوى الواقعة على نهر دجلة شرقي الموصل.

والبابليون ساميون وقيل أنهم هاجروا من الجزيرة العربية بحالة البداوة، وبصورة قبائل احتلت جنوبي العراق فيما بين النهرين، ولغتهم هي فرع من فروع اللغة السامية، وأنهم بعد هجرتهم هذه واستقرارهم، فإنهم أصبحوا أصحاب مدنية عظيمة فاقت جميع الحضارات التي سبقتها والتي عاصرتها بما أبقته للأجيال من تراثها الخالد في الري والزراعة والطب وعلم الفلك والأساطير والأدب والإدارة والبناء وأصول الحكم والقضاء والحرب وغيرها ولقد أكد ذلك الأستاذ هاليفي، استاذ التاريخ في "**الكوليج دو فرانس**" بقوله:

"الأمة البابلية أعطانا شعبها الكتابة المسمارية، وأورثنا الشريعة الحمورابية، وأبقى آثار المدن، والأقنية والهياكل، والمعابد التي شيدها، وحفظ لنا منها

أسفاراً مدونة، مكتوبة بالحرف المسماري، على ألواح الآجر المشوي، من الصكوك والعقود ومراسلاته مع ملوكه وقضاته، والمرافعات التي كان يقوم بها المحامون أثناء المحاكمات والأحكام التي كان يصدرها القضاة، وأسماء الملوك التابعين له، إذ كان لكل مدينة حاكم أو ملك مستقل، وكان اتحاد بضعة مدن يشكل دولة، وكان يتبع حمورابي العديد من الملوك في دولته".

كما كانت هذه الألواح تتضمن المعاهدات بينه وبين الدول المجاورة ووقائع الحروب بينهم في ماري ودمشق وشمال سوريا، وفي شرقها الحضارة التدمرية، وفي جنوبها الحضارة النبطية والكنعانية. والبابليون وإن كانوا قد اخذوا عن السومريين الشيء الكثير من حضارتهم فإنهم فاقوا السومريين في حضارتهم: سياسة وإدارة وعلماً واجتماعاً وعمراناً كما تدل عليه آثارهم، علماً بأن السومريين ليسوا من العرق السامي، بل يقال أنهم من العرق الآري، وبعضهم يقول أنهم من العرق الصيني الذين هاجروا من الشرق الأقصى وسكنوا جنوب العراق، وامتدت مملكتهم حتى شمال سوريا، حيث وجد المنقبون آثاراً خزفية للسومريين في تلك المناطق السورية ومنها ما هو محفوظ في متحف حلب.

المدخل إلى شريعة حمورابي ومقدمتها ونهايتها:

قبل أن ندخل في شرح شريعة حمورابي وموادها ومواضيعها، لا بد من وقفة سريعة عن كيفية نشوء التشريعات وعلاقتها بالعادات والتقاليد وأين وكيف وصلت إلينا شريعة حمورابي، وهل أخذت من التشريعات السابقة؟.

التشريع في الأصل مصدره العادات والتقاليد التي تتحول مع الأيام إلى مفاهيم وأعراف حسب الحاجة والظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ويوضع التشريع عادة لتنظيم العلاقات والحقوق والواجبات بين السلطات والمواطنين.

ولا شك أنه كانت هنالك عدة شرائع ونظم وقوانين وأعراف وحضارات في مختلف بلاد الشرق قبل حمورابي، ومنها ما كان مكتوباً جزئياً، ومنها غير مكتوب كلياً، ولكن ما يميز شريعة حمورابي من بقية الشرائع القديمة، فضلاً عن أنها وصلت

إلينا مكتوبة، فإنها كانت تلخيصاً لأعراف وعادات شعوب هذه المنطقة وهي الأصل لما أتى بعدها من الشرائع في تلك المنطقة.

وإن وضع هذه الشريعة استغرق معظم حياة حمورابي، ولم ينته منها ومن تدوينها إلا قبل وفاته، أي حتى فتحه بلاد آشور ونينوى.

ولقد أمر حمورابي بتدوين هذه الشريعة المنسوبة إليه في (300) مادة. ولم يرد في شريعة حمورابي ما يشير إلى السلطة أو الجهات أو الأشخاص الذين أعانوه في سن هذه الشريعة، سوى قوله أن الآلهة قد انتخبته لسن هذه الشريعة للشعب الجاهل من أجل تحقيق العدل والسلام.

وأغلب الظن أن الكهان الذين كانوا يتمتعون بسلطات هامة أيام حمورابي، هم الذين عملوا على سن وجمع هذه الشريعة وفق توجيهات الملك حمورابي والأسياد وبيت الكهانة.

وتعتبر شريعة حمورابي تتويجاً للفكر التشريعي القديم، لأنها أول مجموعة شاملة أو شبه كاملة من النصوص القانونية التي وصلت إلينا، ولكنها ليست اقدم التشريعات والقوانين كما بينا، إذ قبل حمورابي وجدت عدة تشريعات في بلاد الرافدين، ولكنه لم يصلنا منها إلا أجزاء مبعثرة، كقوانين عهد (أور كاجينا) في لاجاش (لغش تللو) عام 2360 ق.م. وسرجون الأكادي (2300) ق.م. وأورنامو في مدينة (أور) 2100 ق.م. وغيرهم.

وتبعاً لذلك يمكننا أن نؤكد أن بعض ما ورد في شريعة حمورابي من قوانين وأحكام ونظم وعقوبات وأعراف، كان مستمداً من الشرائع التي سبقته كالسومريين والآشوريين والفرس. إذ هنالك تشابهاً كبيراً في الأعراف والعادات في بلاد ما بين النهرين، مثل قوانين القصاص التي غالباً ما يكون العقاب فيها مماثلاً للجريمة (النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن).

كيف تم اكتشاف شريعة حمورابي:

لقد تم اكتشاف النسخة الرئيسية والأكثر كمالاً لشريعة حمورابي ما بين عامي 1901 – و1902 من قبل بعثة تنقيب فرنسية، وذلك في منطقة سوسا Susa في إيران، عاصمة عيلام، وفي منطقة الهضاب الواقعة إلى الشرق من بابل، ولقد نقشت هذه الشريعة على ثلاث كتل كبيرة من حجر الديواريت (Duorite) وجمعت مع بعضها

البعض لتشكل مخروطياً، نجد في أعلاه صورة لشمش إله الشمس وإله العدل جالساً على عرشه، يتلقى الولاء من حمورابي، وهذا النصب كان مقاماً في الأصل في معبد سيبارا (Sippora) الكائن بالقرب من بغداد، وبقي ما يزيد عن ألف سنة هناك أي حتى (1176) ق.م، ثم نقله أحد الملوك العيلاميين بعد غزوه لمملكة بابل وعاصمتها، وهدم معبد سيبارا، ونقله إلى عاصمة ملكه سوسة.

ونظراً لأهمية هذا النصب وهذا الاكتشاف، فلقد نسخت الحكومة الفرنسية نسخاً عن الكتابة الموجودة عليه، ونقلته إلى متحف اللوفر في باريس، وكذلك يوجد صورة أخرى عنه في المتحف البريطاني في لندن.

وقبل أن نبحث في أحكام ومواد هذه الشريعة، نبين أنه كانت تغلب عليها الصفة الدينية والقسوة والتمييز الطبقي بين الطبقة المالكة الأسياد والبيت العظيم والكهان وبين طبقة العامة وهذه كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: الرجل الحر Amalu، الرجل العامي Muskino، العبد Wardu، والرجل العامي لا يعتبر من الضعفاء أو المتسولين أو كما نفهم نحن لفظ المسكين، بل هو رجل يملك الفضة والأراضي وعنده عبيد، وهم طبقة أصحاب الحرف والصناع والعمال، كما أن طبقة العبيد أيضاً كان يحق لهم امتلاك الثروة والمال، والأراضي والتزوج من النساء الحرائر، وأولادهم يصبحون أحراراً، ولم نجد نصوصاً في شريعة حمورابي تبين كيفية تحرر العبد ولكن العقود الفخارية التي وجدت تدل على أما أن يشتري العبد حريته من سيده، وأما أن تعاد إليه من سيده منة وتفضلاً، وإذا تزوج الحر من عبدة، وولدت له أولاداً فتصبح هي وأولادها من الأحرار، ويميز العبد عن الحر بقص شعره على شكل خاص، وبوشم جبهته، وإذا أقدم حلاق بإزالة إشارة العبد تقطع يده ويشنق العبد(مادة 227/226) هذا ولقد فرضت عقوبة الإعدام لمن يسهل هروب عبد من عند سيده أو إخفاءه في بيته (مادة 16/15)

هذا وإن قراءة جزءاً يسيراً من مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها تعطينا فكرة عنها وعن المعتقدات الدينية التي كانت سائدة حينئذ وسنورد فيما يلي مقتطفات قليلة منها:

المقدمـــة:

فلقد ورد في المقدمة: بعد أن يذكر بعض الآلهة يقول:

أنا حمورابي الملك الحامي، لم أحجم نفسي عن الشعب الجاهل الذي وضعه سيد السماء (بل) أمانة في يدي وجعلني راعيا له ومكنني الإله (مردوخ) من العناية به... وسميا بابل باسمها العلي ووضعاها في موضع الصدارة في أنحاء العالم الأربع، وأقاما له مملكة خالدة ثابتة الأسس راسخة كرسوخ الأرض والسماء، ناداني آنو وانليل من اجل الشعب ورخانه باسم حمو – رابي أي الأمير الذي يخاف الله، وأمرني أن أقيم العدل في الأرض، وأن أقتلع جذور الشر والأشرار حتى لا يضطهد القوي الضعيف، وحتى أعلو كشمش (إله الشمس) فوق الرعية...وحتى أهب الأرض نوراً على نور.

أنا حمورابي ...الذي يجمع الوفرة إلى الكثرة...أنا المحترم...أنا الملك القادر الذي استرد ايريدو (مدينة في سومر)...والذي عصف بأركان الكون الأربع، والذي أخذ على عاتقه حماية (أي – ساجيل) حتى الموت (أي معبد مردوخ في بابل)...أنا الأمير المتواضع المستغرق في الصلاة، واهب الثروة الفياضة،...أنا الملك ذو السطوة المطيع لشمش (إله الشمس)...أنا مصمم بيت أي – بابار (معبد الشمش) الذي يبز مساكن السماء في ابهته، انا البطل الذي مَنَّ بنعمته على لارسا (مدينة في بابل)...أنا التنين بين الملوك...أنا الذي أتممت عدة أشتار العسكرية العظيمة...أنا الثور البري الجبار الذي يناطح العدى...أنا السيد الذي لا زينة له إلا الصولجان والتاج الذي وهبتها له الآلهة الحكيمة.. .أنا من يمسك برقاب الأعداء. ...أنا الحاكم المستغرق في الحكمة المتحمل لمسؤولية الحكم، أنا من اكتسب الحكمة من منبعها...أنا الأول بين الملوك، أنا من أخضع سكان المدن بجانب الفرات...أنا من وجد شعبه وقت الشدة، ومن لطفه أصل جذورهم في وسط بابل...أنا من ينير درب الحقيقة ويرشد الشعب إلى جادة الصواب...أنا الأمير المحترم الغارق في الصلوات للآلهة العظيمة...أنا الملك الذي طيّع أركان العالم الأربع أنا ولي عشتار عندما امرني مردوخ أن أهيئ العدل لشعب الأرض فيفوز بحكم خير، قمت بإحقاق الحق والعدل في أرجاء الأرض وقمت بإسعاد الشعب.

الخاتمـة:

ثم نستعرض في بعض ما جاء في الخاتمة وهي طويلة أيضاً نقتطف منها ما يلي:

إن أحكام العدالة التي وضعها حمورابي العظيم تمنح البلاد قيادة أمينة وحكماً كريماً...أرجو أن تشرق عدالتي على البلاد، وبتوجيه سيدي مردوخ الخالق، سوف لا يهدم نصبي، وسيبقى اسمي خالداً...فالمظلوم الذي له دعوى سيأتي أمام تمثالي كملك للعدالة، وسيقرأ ما كتبته على الذهب، وسيرى كلماتي الثمينة، وستبين له الشريعة المحررة قضيته، وسيجد حقه مسطوراً فيها، فيفرح قلبه ويقول: إن سيدي حمورابي قد عاد أباً صادقاً لشعبه...وفي الأيام المقبلة سيرعى الحاكم الذي يحكم البلاد كلمات العدل المنقوشة على نصبي دائماً...أنا الملك حمورابي سلطان العدل الذي منحني الإله شاماش الاستقامة قد وزنت كلماتي، وجعلت أعمالي لا يعاد لها شيء، وأصبحت كالإعصار الذي يطوف السماء والأرض...وإذا كان من سيأتي بعدي سيرعى كلماتي التي نقشتها على نصبي ولا يبتعد عن شريعتي، ولا يبدل كلماتي...فالإله شاماش سيحفظ صولجانه...ولكن إذا لم يبال ولم يراع كلماتي...بل أهانها...وأبطل الشريعة...أو محا اسمي ليكتب اسمه...فذاك الرجل سواء كان ملكاً أو سيداً...فإنني أرجو الإله "آنو"...أن يزيل مجد عرشه وأن يكسر صولجانه ويلعن نهايته...وأن يجعل الثورة من نصيبه، فتهب نارها عليه ولا يستطيع إخمادها، وتعصف ريح الخراب بعرشه ويبليه بالحسرات، ويقصف عمره ويبليه بالسنين العجاف...ويميته مفتوح العينين...وأن تجعل آخرة ذلك الرجل سيئة عند سيدي "بل".

ثم يرجو جميع الآلهة ويذكر أسماء كل واحد منهم ويطلب من كل واحد منهم أن يفعل كذا وكذا من اللعنات بمن يعتدي على هذا المنصب أو يمحي أي كلمة منه وبعد كل واحد من هذه الآلهة أنو وليلتي وايما وشاماش وسين وهاداد وزاماما وأشتار، ونيرنحال ونيو، دثين كاراشا،...ثم يختم كل ذلك بقوله وأرجو بل الذي لا راد لكلماته أن يلعنه بأعظم اللعنات التي تصيبه حالاً.

المبادئ العامة وأصول المحاكمات في شريعة حمورابي:

لقد تناولت شريعة حمورابي معظم المواضيع والاتجاهات التشريعية والحقوقية التي نجدها اليوم في التشريع العالمي الحديث، وإن كانت تختلف عنها في الأحكام والعقوبات والتعويضات والغرامات.

ولقد كانت التشريعات الجزائية في شريعة حمورابي أكثر من التشريعات المدنية والتجارية – وحتى هذه كان بعضها ينص على عقوبات جزائية – وطغيان العنصر الجزائي في هذه الشريعة سببه مساسه بسيادة الملك، والبيت العظيم والكهان، ومصالح الأسياد ولتعلقها أيضاً بحياة كافة الناس وأمنهم وممتلكاتهم، فقد بلغت العقوبات الجزائية في شريعة حمورابي عن جرائم القتل والإيذاء والشتم والسرقة والزنا، ومسؤولية أهل الحرف والمهن أكثر من مئتي مادة من أصل (300) مادة، وأغلب العقوبات تكون بما يماثل الجرم وخاصة عقوبات القتل والإيذاء أي النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن.

وإن أهم المبادئ التشريعية العامة وأصول المحاكمات التي أخذت بها هذه الشريعة هي التالية:

المساواة:

من المبادئ الأساسية في القضاء أن تكون هنالك مساواة بين المتقاضين، ولكن شريعة حمورابي، ومعظم شرائع الشرق القديمة التي كانت قبل وبعد حمورابي لم تأخذ بهذا المبدأ، بل كانت تقوم على أساس طبقي تميز بين طبقة الملك، والبيت العظيم والأسياد والكهان الذين هم شعب المملكة، أما العامة من العمال والصناع والفلاحين والعبيد فليسوا من عداد الشعب وتختلف العقوبة في حالة الطبقات فإذا كان المعتدي من الأسياد والمعتدي عليه من العامة فلا يطبق مبدأ المثل بالمثل بل يستعاض عنه بالتعويض (مادة 198، 199، 209، 218، 229).

تولية القضاة وحصانتهم:

القضاء عند حمورابي هو تفويض من الآلهة، وكان القضاة يختارون من الكهان ورجال الدين، وكانت حصانتهم مستمدة من صفتهم الدينية ومن إرادة الملك وكانت أحكامهم واجبة النفاذ.

الرقابة على القضاة والطعن بأحكامهم:

كانت الرقابة الأولى على القاضي هي رقابة ذاتية لإيمانه بالالهة، وخشيته من عواقب ظلمه وخطئه، ولكن كان على القضاة رقابة من الملك، والسلطة الحاكمة، في أحكامهم ومسيرتهم وصلاتهم بالناس، وبأطراف الخصومة، وكان القضاة يتحملون مسؤولية أحكامهم الخاطئة والباطلة والظالمة، فلقد نصّت المادة (5) من هذه الشريعة، انه إذا حكم القاضي بالباطل، فإن حكمه ينقض، ويغرم اثني عشر ضعف الجزاء موضوع الدعوى، وينحي عن كرسي الحكم، ويطرد من مجلس القضاء.

اجراءات التقاضي والمحاكمة:

كانت المحاكمات علنية وتجري في بيت الكهان وكان يتوجب على المدعي أن يحدد بينته في متن دعواه، وأن يقدم ما لديه من إسناد ووثائق مكتوبة، ويسمي شهوده، وفي حالة إنكار المدعى عليه للدعوى، وعلى سبيل المثال في جرم السرقة، ولم يستطع المدعي إثبات دعواه، فيعتبر المدعي مفتريا، ويعاقب بعقوبة الإعدام (المادة11).

إثبات الدعوى:

لقد أخذت شريعة حمورابي بنفس وسائل الإثبات الأساسية السائدة في تشريعاتنا الحديثة، كالإسناد الكتابية والشهادة والإقرار واليمين وكان الإقرار سيد الأدلة، كما أوجبت شريعة حمورابي إثبات العقود كتابة، كالقرض والمداينة والشراكة وتوثيقها من الكاهن أو القاضي، كما اعتمدت الشهادة للإثبات أو النفي في الجرائم الجزائية والقضايا المدنية، وعاقبت شريعة حمورابي على الشهادة الكاذبة وشهادة الزور بعقوبات شديدة، ففي الأمور الجزائية إذا كانت الشهادة تتعلق بحياة إنسان وثبت كذبها فيعدم الشاهد(المادة 3)، أما في القضايا المدنية فيغرم الشاهد الكاذب ما ينتج عن الدعوى من أضرار (مادة 4)، وكانت اليمين من أهم ادلة الإثبات في الشرائع القديمة التي كانت تستمد مفاهيمها من الأديان، وتفترض عمق الإيمان في نفوس الناس ووجدانهم(26) وكان اليمين يقبل كحل نهائي في أي

دعوى، وذلك يماثل كافة التشريعات المعمول بهـا الآن (المـواد 20، 23، 103، 120، 131، 266).

وحلف اليمين المقدسة يكون باسم الإله وأمام الملـك، وورد فـي بعـض النصوص أن من يحلف كذباً فليبليه الرب بماء الزفت المغلي يصب على رأسه أو في عينيه، وكان القاضي يتحرى الصدق بواسطة الماء، فيأمر المتهم أو المدعى بأن يوضع على سطح الماء في النهر المقدس، فإذا لم يغرق عد صـادقاً، وإذا غـرق ومات عد مجرماً (المادة 1/133) (28)، وكذلك إذا اتهم رجل زوجته بالزنى دون أن يضبطها بالجرم المشهود، وادعت المرأة البراءة، فعليها أن تقسم بحياة إله على براءتها فيحكم ببراءتها وتعود إلى بيتها (المادة 131).

تنفيذ الأحكام:

نظمت شريعة حمورابي في المواد (112-122) أصول التنفيـذ والحجـز والاحتجاز والارتهان لشخص المدين أو أمواله وزوجته وأولاده إن كانوا من العبيد أو العامة.

فلقد خولت الدائن احتجاز المدين نفسه أو ولده أو عبده، لمدة أقصاها ثلاث سنوات، وله أن يرغمه على العمل لديه، وله أن يبيعه أو يبيع امرأته أو ولـده أن كانوا من العبيد وفاء لحقوقه.

لكن المادة (113) منعت الدائن من استيفاء دينه بالذات (29).

أهم المواضيع الحقوقية التي تضمنتها شريعة حمورابي:

من الصعب أن نشرح كل مادة من المواد الثلاثمائة من شريعة حمـورابي في الحيز المتاح هنا، كما انه يصعب تقسيم المواضيع إلى جزائية ومدنية، نظـرا لتداخل بعضها ببعض، فمثلا حينما ينص على الشراكة التجارية، وهـو موضـوع مدني نجد ان هنالك مؤيدات جزائية نتيجة لسوء التصرف بأموال الشراكة، لـذلك سنعمد لبحث أهم المواضيع في هذه الشريعة بحسب ترتيبها الأصلي قدر الإمكان.

الخدمة العسكرية وحقوق الجنود وأحكام الأسر:

(المواد من 26 حتى 41) ان التجنيد كان إجباريا في مملكة حمورابي، وأنه إذا دعي رجل للجندية أي خدمة الملك ولم يذهب لأدائها، أو استأجر بـديلا عنـه، يعدم الرجل المطلوب للخدمة، والبديل يأخذ بيته (مـادة 26، 30) وأنـه إذا أسـر

الجندي لدى العدو، وسلمت أراضيه لشخص آخر لإدارتها فعندما يعود الجندي من الأسر تعود إليه أراضيه مادة (27)، وإذا أسر أحد الجنود، ودفع أحد التجار فدية فك أسره، فعلى الجندي أن كان لديه مال أن يعيده للتاجر، وإن لم يكن لديه مال فعلى المعبد، أو البيت العظيم أي الملك أن يؤدي الفدية عنه.

وفي جميع الأحوال لا يجوز أخذ بيت الجندي أو أرضه أو بستانه لتأدية الفدية مادة (32)، وإذا اخذ أمير اللواء هدية (رشوة) من الجندي، أو صادر أرضه أو أضره بشيء يعدم أمير اللواء مادة (34) وانه لا تباع مزرعة الجندي ولا بيته ولا بستانه تحت طائلة فسخ البيع و إعادتها للجندي مادة (36 و37)

أي أننا نرى انه بجانب تأدية الخدمة الإلزامية فإن شريعة حمورابي حفظت للجندي حقوقه وأراضيه وتعهدت بدفع الفدية إذا أسر.

الأراضي الزراعية وحقوق المزارعين:

(المواد 42 حتى 67)

نظراً لأهمية الزراعة باعتبارها الثروة القومية الأولى في بلاد ما بين النهرين، فلقد اهتمت شريعة حمورابي بتنظيم العلاقات الزراعية بقصد زيادة الإنتاج، فحددت عقود المزارعة بالمحاصة، والمغارسة أي غرس الشجر، وكذلك أصول السقاية والري، وضرورة زراعة الأرض المستأجرة تحت طائلة وضع الغرامات على المهملين وتحميلهم المسؤولية عن حماية الأرض والغراس من القطع والرعي، علماً بأن الزراع كانوا من الطبقة العامة أي من الفلاحين والعبيد، وكانوا يستأجرون الأراضي من المالكين لقاء نصف المحصول أو قيمته، وكانت أهم المزروعات من القمح والشعير والسمسم والتين والعنب والنخيل، الذين كانوا يستخرجون منه الزيت، إذ لم يكونوا يعرفون الزيتون وزيته.

ولقد اعتبرت شريعة حمورابي أن الكوارث الطبيعية والأوبئة من فعل الألهة، فإذا غرقت المزروعات بسبب الفيضانات وغيره، فالمستأجر يتحمل الخسارة(م45) وأن حكومة الملك هي التي تقدر أسعار المحصولات الزراعية والحاجات الضرورية(31).

الشركات التجارية:

(من المادة 98 حتى 107) لقد حددت شريعة حمورابي أصـول وأحكـام الشراكة التجارية، ونوعها، وكيفية اقتسام الأرباح والخسائر، كمـا نصـت علـى مسؤولية مستلم أموال الشركة عن ضياعها أو سرقتها، أو سوء أمانته بها، إلا فـي حالات القوة القاهرة، كفقدان البضاعة بسبب من العدو في حالـة الحـرب، فعلـى الوكيل المستلم للبضاعة، أن يحلف أمام إله عما حدث، وتبرأ ذمته.

البيع والشراء والديون وتحصيلها والرهونات والربا:

نظمت شريعة حمورابي المعاملات اليومية بين الناس كـالبيع والشـراء، والديون وتحصيلها والرهونات والربا، وكان التعامل التجاري يتم بمقـادير وأوزان من الفضة، ومعظم البضائع كانت من المنتجات الزراعية والخمور، وكانت معظم العقود التجارية كالبيع والشراء والمداينة والرهن تتم كتابة وتوثق من قبل الكاهن أو القاضي، وكذلك الأمانات فيجب تسليمها واستلامها بين الطرفين أمامهمـا (مـادة 122).

وفي هذه الحالة وإذا أساء المستلم الأمانة فيحكم عليه بخمسة أضعاف قيمتها (مادة 124).

أما إذا لم تكن الأمانة موثقة من الكاهن أو القاضي فلا يجوز للمودع أن يقيم الدعوى على المودع لديه (مادة 123).

ولقد أجازت شريعة حمورابي الربا (الفائدة) وجعلتها من الأرباح المضـافة إلى رأس المال، ولم تكن الفائدة مكروهة، وكانوا يسمونها المعلـوم(Sibutur)، وكانت نسبة الفائدة للقمح ثلاثين بالمائة، وللفضة عشرين بالمائة، علماً بأنه وجدت بعض عقود المداينة بدون فائدة. (المواد 108 حتى 126) وكان الـدائن يسـتطيع حبس المدين في بيته حتى يوفي الدين، وإذا مات المدين أثناء الحجز فيسقط حـق الدائن بالمطالبة بدينه (مادة 114) وإذا ثبت بأن الموت كان نتيجة للضرب أو سوء المعاملة فيقتل الدائن وإذا كان المحجوز عبداً وتوفي فيسقط عنه الدين ويجبر الدائن على دفع 239 غرام فضة لورثته (مادة 116). ويستطيع المدين وضـع نفسـه أو زوجته أو ابنته في خدمة الدائن حتى يوفي الدين ولمدة أقصاها ثلاث سنوات (مادة 117)، ولكن إذا اشترطت الزوجة في عقد زواجها ألا تحتبس أو ترتهن مقابل دين

زوجها، فلا يحق للزوج أن يسلمها للدائن لخدمته(مادة 151)، أما إذا قدم المـــدين للدائن امرأة أو رجلاً من عبيده فيحق للدائن أن يبيعها استيفاء لدينه (مادة 118).

لقد كان للخمر والحانات نصيباً في شريعة حمورابي، فحددت كيفيـــة إدارة الحانات والبيع والشراء للخمور، وكانت الحانات تدار من قبل النساء، وكن يوصفن بصفات غير مستحبة، كالاشتباه بأمانتهن حين كيلهن أو وزنهن للخمر الذي كان من الجعة، ومن مشروب (التودي) المستخرج من التمر، لذلك فرضت عليهن عقوبات شديدة فمثلاً إذا أخذت بائعة الخمر ثمن الشراب قمحاً، وثبت أن قيمة الخمر أدنـــى من قيمة القمح فترمى بالنهر(مادة 108) وأنه إذا دخل بعض العصاة إلى الحانة ولم تقبض عليهم صاحبة الحانة وتسلمهم للقصر تقتل (المادة 109).

وتعاقب الأميرات أو الكاهنات إذا فتحن حانات بالموت حرقاً (مادة 110)

<u>الزواج والطلاق وحقوق المرأة والإرث والتبني والزنا:</u>

لقد أولت شريعة حمورابي أمور الزواج والطلاق والتبني و حقوق المـــرأة اهتماماً بالغاً كما وضعت عقوبات شديدة على الزنا والعلاقات غير المشـــروعة إذ كرست (68 مادة) من أصل (300) لذلك، أي ربع شريعة حمورابي (127 حتـــى 194) وسنعطي صورة موجزة عن ذلك فيما يلي:

<u>الزواج:</u>

نظراً للنظام الطبقي في بابل فلقد كانت أحكام الزواج والطلاق تختلف بـــين طبقة الحكام والكهان والبيت العظيم وبين طبقة العامـــة والعبيـــد، ولكـــن البائنـــة (الدوطة) كانت ركناً أساسياً من أركان الزواج لدى الجميع، إذ كان يتوجب علـــى والد العروس أن يعطي ابنته _دوطة(حين الزواج، وهذه البائنة تبقى ملكها حتـــى في حالة طلاقها، أما إذا توفيت فتعود لأولادها فقط دون زوجها، وإن لم يكن لهـــا أولاد، فتعود لوالدها، وإذا لم يخصص والد الفتاة بائنة لها وتوفي، فتـــرث الابنـــة حصة مماثلة لحصة الأولاد الذكور (مواد 180، 181، 182).

من الأركان الأساسية في الزواج عقد الزواج الرسمي، فإذا تـــزوج رجـــل بامرأة دون عقد رسمي فالمرأة لا تعتبر زوجة له (مادة 128)، وإذا تزوج رجـــل من كاهنة فليس له أن يتزوج امرأة أخرى أو يعاشر خليلة، إلا إذا كانت الكاهنة لم

تلد له أولادا، فيحق له أن يتزوج ولكن تبقى الزوجة الثانية أو الخليلة دون مستوى الكاهنة ولو ولدت له أولادا، أما إذا لم تنجب فتعتبر من العبيد ويحق للكاهنة أن تبيعها (مادة 144- 145)، أما إذا كانت الزوجة مهملة وتدمر موجودات البيت فيجب رميها في الماء (مادة 143)، ولقد أجازت شريعة حمورابي للزوج أن يتزوج بزوجة ثانية، إذا مرضت زوجته، ولكن لا يحق له تطليق زوجته المريضة وعليه أن يعيلها و يرعاها (مادة 148) إلا إذا أرادت هي أن تعود لبيت أبيها، فعلى الزوج أن يعيد لها بائنتها(مادة 149) وإذا أعطى الزوج لزوجته عقارات أو أراضي أو منقولات فجميع ذلك يبقى ملكاً خالصا للزوجة إذا مات الزوج وليس لأولادها حق فيها إلا إذا أرادت هي أن تعطيهم شيئا من ذلك(مادة 150) وفي الخطبة إذا جلب الخطيب أشياء للخطيبة ثم عدل عن الخطبة وأراد الزواج بأخرى فلا يحق له استرداد الأشياء التي جلبها (مادة 159) أما إذا رفض الأب تزويج ابنته لهذا الخاطب، فعلى الأب أن يعيد هذه الأشياء مضاعفة للخاطب (مادة 160 ومادة 161).

الطلاق:

الطلاق كان معروفاً عند البابليين، ولقد قننته شريعة حمورابي فالمادة (138) تنص على أنه إذا طلق رجلاً زوجته التي لم تلد له أولاداً فعليه أن يعيد لها الفضة التي كانت مهراً لها، وبائنتها (الدوطة)، أما إذا كان لها أولاد وطلقها فإضافة لما تقدم فعلى الزوج أن يمنحها حق استثمار الأرض والبستان أو الملك الذي له (مادة 137) أما إذا لم يكن للزوجة مهر معين حين زواجها فعلى الزوج أن يدفع لمطلقته مينا فضة أي قرابة 700 غرام فضة، وإذا كان الزوج من العامة فيدفع نصف هذه الكمية (مادة 140) أما إذا كان الزوج (له عين في غير زوجته ويهملها) وهكذا وردت في نص المادة 142، وأرادت الزوجة أن تتطلق منه لأنها تبغضه، فتأخذ بائنتها (الدوطة) وتعود لبيت أبيها، ونفس الشيء إذا كانت الزوجة مريضة وغير راضية عن سكناها في بيت زوجها (مادة 149).

الإرث:

من المبادئ التشريعية الهامة التي أخذ بها تشريع حمورابي والتي تعتبر من احدث المبادئ التشريعية والتي تبناها القضاء السوري، هو حرية الإنسان بالتصرف بأمواله حال حياته، كان يفرغ لولد من أولاده ببعض أو كامل ملكيته، ولو أدى ذلك لحرمان بقية أولاده منها، فليس لبقية الأولاد الحق في نقض ذلك بعد وفـاة الأب، لأن حقهم ينحصر بالتركة أي بالأموال التي خلفها لهم الأب بعد وفاته، وليس لهـم الحق في نقض تصرفات الأب بأمواله حال حياته، (المادة 167).

ولقد ساوت شريعة حمورابي في الميراث بين الأولاد الحاصلين للمتوفى من زوجته ومن الحاصلين له من خادمته او عبدته إذا اعترف بهم (مادة 170)، أما إذا لم يعترف بأولاد الخادمة والعبدة فلا يرثوه، ولكن يحق لهم ولوالـدتهم أن يعتقـوا ويصبحوا أحراراً (مادة 171).

هذا ولا يحق للأب أن يتبرأ من ابنه ويحرمه من ميراثه، إلا إذا ارتكب ذنباً خطيراً يقدره الحاكم (مادة 169،168).

التبنـــي:

أخذت شريعة حمورابي بمبدأ التبني فأجازته وبينت حقوق الولـد المتبنـى وحقوق متبنيه، فإذا تبنى رجل ولداً ورباه وعلمه صنعة أو حرفة فلـيس لأبويـه الأصليين حق استرداده من المتبني (مادة 185) إلا إذا كان أخذه من والديه قسراً أو لم يعلمه صنعة أو لم يعترف به كولد من أولاده فيحق لوالديه الأصليين اسـترداده (مادة 186)، أما الولد المتبنى إذا قال للمتبني أو لزوجته أنت لست والدي وللوالدة أنت لست أمي فيقطع لسانه (مادة 192) أو إذا هرب من بيت متبنيه فتسمل عينيـه (مادة 192).

أما المرضعة إذا أهملت الرضيع ومات بين يديها أو بدلته بغيـره فتعاقـب بقلع ثدييها.

الزنـــا:

حظرت شريعة حمورابي الزنا والعلاقات غير المشروعة، والسـفاح بـين المحارم وفرضت على مرتكبها عقوبات صارمة نبين بعضها: فإذا وجدت امـرأة

مضطجعة مع غير زوجها يربطان معاً ويرميان بالمـــاء(المـــادة 128)، وإذا راود رجلاً امرأة غيره عن نفسها بالإكراه أعدم الرجل (مادة 130)، وإذا اتهـــم رجـــل زوجته بالزنا ولم يكن لديه دليل، فعليها أن تحلف أمام إله على نفي التهمة وتعـــود إلى بيتها (مادة 131)، أما إذا اتهمها أي رجل آخر بدون حق فيحاكم ويكوى جبينه (مادة 127)، أما زوجة الأسير فإذا كانت حاجياتها مؤمنة (في بيتها طعـــام كمـــا وردت في المادة 173) ولم تحافظ على عرضها فتحاكم وترمى بالماء، وإذا لم يكن في بيت الأسير طعام وذهبت لبيت آخر فلا تلام (مادة 134)، أما إذا هاجر الزوج من بلده وبيته وذهبت زوجته لرجل آخر فلا يحق له مطالبتها بالعودة إليه إذا عـــاد (مادة 136).

وإذا تركت الزوجة بيت الزوجية وذهبت لبيت رجل آخر فللزوج أن يقـــيم الدعوى عليها ويطلقها، ولا يعطيها أي شيء من حقوقها، وإذا لم يشأ تطليقها، فله أن يتزوج غيرها وتبقى الأولى عبدة في بيت زوجها (مادة 141).

وفي حال إقدام الزوجة على قتل زوجها بسبب رجل آخر شـــنقت المـــرأة وعلق جسمها على الخشب (مادة 153).

أما السفاح بين المحارم فلقد حرمته شـــريعة حمـــورابي تحريمـــاً مطلقـــاً وفرضت على مرتكبيه عقوبات صارمة تتراوح بين النفي والتقييد والرمي بـــالنهر والحرق (المادة 154 حتى 158).

الجرائم والعقوبات:

العقوبات في شريعة حمورابي تختلف من جريمة لأخرى وهي تتراوح بين الغرامة النقدية، وبتر العضو، والقتل والحرق والإغراق في النهر، وسنســـتعرض فيما يلي بعض الجرائم وعقوباتها:

الســـــرقة:

حددت شريعة حمورابي عقوبات السرقة وقطع الأطراف فأعدمت السارق الذي يسرق شيئاً مهما كان ثمنه يعود للآلهة أو الملك أو البيت العظيم، وعاقبت من يشتري الأموال المسروقة بقطع يده (المادة 6)، أما إذا كانت السرقة واقعـــة علـــى حيوانات فيدفع السارق ثلاثين ضعفاً من قيمة المسروق، وإذا لم يكن لديه مال يؤديه

فيقتل (المادة 8) وكذلك إذا ادعى شخص أن أشياءه المسروقة موجودة عند شخص آخر، فإذا أثبت ملكيته لهذه الأشياء أمام المحكمة فيعدم الحائز، وإذا عجز عن ذلك يعدم المدعي (المادة 9- 11)، كما ويعاقب بالإعدام الشخص الذي يسرق ولداً قاصراً (مادة 14)، وإذا قبض على السارق داخل البيت فيعدم في نفس البيت ويدفن في حفرة فيه (مادة 21) وكذلك إذا سرق شخصاً أشياء أثناء إطفاء الحريق في أحد البيوت فيلقى السارق في النار ذاتها (المادة 25)، ولقد أخذت شريعة حمورابي بمبدأ العقوبة الجماعية ففي البلدة التي تقع فيها السرقة أو القتل ولم يعرف السارق أو القاتل، فإن جميع سكان البلدة ملزمون بتعويض قيمة الأموال المسروقة ودفع الدية لورثة المقتول (المادة 23-24).

القتل:

لقد رأينا فيما سبق أن الجرائم التي هي أقل من القتل بكثير تكون عقوبتها الإعدام، وتبعاً لذلك فإنه من الطبيعي أن تكون عقوبة القتل هي الإعدام، وبشكل عام فإن العقوبات كما بينا تكون مماثلة للجريمة أي (النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن) ولكن الأمر مختلف إذا كان المعتدي سيداً والمعتدى عليه من العامة، فيلجأ للتعويض العادي حينئذ، ولكن هنالك جرائم يختلف فيها الموضوع والعقوبة، فمثلاً إذا ضرب ولداً أباه تقطع يده (مادة 195) وإذا ضرب إنسان ابنة رجل حامل وتسبب في إجهاضها يدفع 10 شيكل فضة مقابل دية الجنين، أما إذا ماتت الابنة المضروبة فتقتل ابنة الضارب (مادة 210/209).

أصحاب المهن والحرف وأجورهم ومسئوليتهم:

نظمت شريعة حمورابي علاقات العمل والعمال وأصحاب المهن والحرف وحددت أجورهم بمقادير من الفضة، كما نصت على مسؤولية هؤلاء عما يعملون أو يصنعون(331) فمثلاً حددت مسؤولية الطبيب عن عملياته الجراحية، فإذا أخطأ الطبيب ومات المريض نتيجة للعملية الخاطئة، فتقطع يدا الطبيب (مادة 219) أما إذا كان المريض عبداً وتوفي نتيجة لعملية جراحية خاطئة فعلى الطبيب أن يعوض مالك العبد بعبد آخر (مادة 219) كما عالجت شريعة حمورابي أجور ومسؤولية الأطباء البيطريين (مواد 224 – 225).

في البنائين والبناء وعمل القوارب والأجور:

لقد حددت شريعة حمورابي أجور البناء ومسؤولية البناء ومسؤولية البنائين وحقوقهم، فمثلاً إذا تبين أن البناء قد انهدم وقتل صاحب البيت من جـراء ذلـك، فيعدم البناء، وإذا قتل ابن صاحب البيت فيعدم ابن البناء (229، 230) ولكـن إذا قتل عبد صاحب البيت أو تلفت محتوياته فعلى البناء أن يعوضـه بعبـد آخـر أو بمحتويات مماثلة مع إعادة بناء البيت (مادة 231-233) ولم يقتصر الأمر علـى بناء البيوت، بل حددت شريعة حمورابي أجور صنع القوارب ومسؤولية الصـانع عنها، وأجور الملاحين ومسئوليتهم واقتصرت العقوبات في حالة سوء الصنع على الإصلاح ودفع الأضرار الناتجة عن سوء الصنع (مادة 234 حتى 240) وكـذلك حددت شريعة حمورابي أجور العمال ورعاة المواشي والفلاحين وأجور الحيوانات المستأجرة للفلاحة أو النقل وكانت تلك الأجور مقادير معينة من القمح أو الفضة.

هذه هي لمحة عن شريعة حمورابي بمواضـيعها وأحكامهـا وعقوباتهـا استعرضناها بإيجاز حسب ما سمح به الوقت.

شريعة حمورابي وتأثيرها بالشرائع التي جاءت بعدها:

وأخيراً هل أثرت شريعة حمورابي في الشرائع التي جاءت بعدها؟ لقد بينا فيما سبق أن التشريع في الأصل مصدره العادات والتقاليد التي تتحول مع الأيام إلى مفاهيم واعراف حسب الحاجة والظـروف والأوضـاع السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية والدينية، وأن الكثير من شريعة حمورابي مأخوذ عن الشرائع القديمة، ولكن ما ميز هذه الشريعة أنها وصلتنا كاملة أو شبه كاملة وأنها هي الأصل لمـا أتى بعدها من الشرائع في تلك المنطقة فمثلاً يعتقد اليهود بـأن جميـع الشـرائع الإسرائيلية، موحاة عن إله إسرائيل إلى سيدنا موسى الذي جـاء بعـد حمـورابي بخمسمائة عام، ويعتقد الكثير من الباحثين في الأديان والشرائع وعلماء الآثار أن ما جاء من قصص وأساطير واحكام بالأسفار الخمسة (التكوين، الخروج، واللاويين، والعدد والتثنية) أصلها بابلي وقسم كبير منها مأخوذ عن شريعة حمورابي، ونظراً للتشابه الكبير بين أحكام الشريعتين فمما لا شك فيه أن التشريع العبري قـد اخـذ الكثير من أحكامه عن تشريع حمورابي، لأنه أقدم منه بخمسمائة عام، والأمثلة على

ذلك كثيرة فطبقات الشعب عند حمورابي ثلاثة كما بينا: الرجــل الحــر والعــامي والرقيق و نفس التصنيف نجده في الشريعة الإسرائيلية: (الحر، والعامي، والعبــد (الغريب والنزيل).

وأحكام الرقيق وتحريره متشابهة في الشريعتين (كتاب الخروج الآية 11/2) الإصحاح 21) مشابهة للمادة 177 من شريعة حمورابي.

وكذلك التشابه في العقوبات المتماثلة في الشريعتين بل أن شريعة موســى كانت في بعض العقوبات أقسى من شــريعة حمــورابي ويغلــب عليهــا القســوة والتعصب.

وهنالك الكثير من الأمثلة لا مجال الآن لتعدادها ولكننا نؤكد أن العديد مــن الشرائع التي جاءت بعد حمورابي أخذت الكثير من المبادئ والمواضيع والعقوبات من شريعته.

مراجـــــع البحـــــث

1-شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم – مجموعة مـن المـؤلفين ترجمة أسامة سراس. دار علاء الدين – دمشق 1993.

2-التشريعات البابلية – عبد الحكيم ذنون

3-شريعة حمورابي – أقدم الشرائع العالمية – الدكتور عبـد الـرحمن الكيـالي 1958.

4-أقدم شرائع العالم بالإنكليزية – ف – إدوارد.

5-تاريخ سوريا – د.فيليب حتي.

6-التشريع عند العرب – حسن الخطيب.

A History of Palestine: The Debate

By:Thomas L.Thompson

(Aleppo, March 2001)

تاريخ فلسطين: الجدال

من الصعب التحدث إليكم عن موضوع الجدال القائم حالياً حول تاريخ فلسطين. ولكي نكون رأياً حول الجدال الذي نشرته الصحف والمجلات العلمية منذ عشر سنوات تقريباً، فإن ما قمت به و زملائي في كوبنهاغن وشفيلد، ليس أقل من الهجوم على الكتاب وتحطيم العلاقات بين علم الآثار القديمة والتاريخ وأسلوب فهمنا إسرائيل القديمة. لقد وُصفت النتائج التي توصلنا إليها بأنها مقلة(من مغزى الكتاب التاريخي – ز.م) وسلبية، هدفها ضعضعة عمل الدراسات الكتابية والآثارية والتي كانت أساس البحث النقدي لقرن خلا من الزمن. لقد أولي انتباه كبير في هذا الجدال إلى مسألة إذا كان "الآباء الأولون" أو داود وجدوا كأشخاص، وما إذا كان من الممكن قراءة "الكتاب" على أنه تاريخ، أو كان ثمة أسس واضحة في التاريخ لروايات"الكتاب" عن الماضي، وقد احتد الجدل في السنوات الأخيرة إلى حدّ جعل الحديث عن تاريخ فلسطين عملاً سياسياً في حد ذاته، مهما تكن أهداف المتحدث. وعندما قررت تناول المسألة تلك، لم يكن بإمكاني تجنب تلك التحريفات. إنها تشكل جزءاً من السياق الذي أتكلم عليه. فمسألة التاريخية، فيما إذا وجب فهم التعبير الكتابي الأدبي للعالم اللاهوتي على أنه تاريخ، هي، في اعتقادي، تساؤل باطل. وقد وصلت إلى هذه القناعات منذ خمس عشرة سنة مضت. إن التاريخ هو ذلك الذي لا يتناوله الكتاب المقدس. إنه يتناول شيئاً آخر، والتساؤل حول ما هو الكتاب إن لم يكن تاريخاً، كان مصدر اهتمام أساسي لمؤلفي الذي ظهر الآن باللغة العربية. ومن البدهي انه في حالة أن الكتاب ليس رواية لماض تاريخي، فإن الدور الذي يمارسه في تاريخ فلسطين مرتبط بتاريخها الأدبي والفكري: أي بالعالم اللاهوتي لمؤلفي الكتاب.

لا يعني هذا القول أن ليس ثمة كثير في الكتاب يستقي مصادره من الماضي، فإن له، في الواقع جذوراً عميقة في الماضي من المثير أن نستكشفها. أما من وجهة النظر الأدبية فإننا نستطيع أن نربط الكتاب بكتابات تعود إلى القرنين الثاني والثالث قبل التقويم المعاصر [قبل الميلاد] على الأقل. ففي هذه الفترة تحديداً

نجد مخطوطات نصوص توراتية بين لفافات البحر الميت، كما نجد أيضاً كتابات شبيهة تماماً بـ"الكتاب" مثل سفر التهاليل و(ميثاق دمشق) والنص الذي يطلق عليه أهل الاختصاص اسم (QMMT4) .

إن القول بأن أسفار التوراة عموماً جاءت مبكرة قول مشكوك فيه تماماً، لكن كثيراً من التراث الذي جمعه "الكتاب" جاء مبكراً جداً. أفكر هنا في نصوص قصيرة نجدها في صلب الشريعة(التوراة) مثل أجزاء من اللاويين تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وسلالة إسماعيل تعكس صلة بالقبائل العربية في العهد الآشوري، كذلك أسماء مواقع مثل عسقلان وشكيم وأورشليم تظهر في (نصوص اللعن) من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وغالباً ما أعيد استخدام أسماء أقوام وردت في الكتاب مثل الفلسطينيين/ الفلسة والكنعانيين والآموريين والعبريين والدنايين العائدة إلى العصر البرونزي، وأعطيت وظائف أدبية في القصص الكتابية لمملكتي إسرائيل ويهوذا تزامنياً مع قوائم ملوك من الماضي. كما ورد أيضاً أسماء سلالات مثل بيت عمري وبيت داود في نقوش العهد الآشوري والتي أدمج بعضها بعد قرون في إعادة تأويل إشعيا للماضي. إنني مهتم هذه اللحظة بتأثير النقوش القديمة على القصص "الكتابية" ونصوص التراث الأخرى. وهنا لا يتوافر لدينا فقط تكرار لأنشودة إخناتون العظيمة على المزمور (104) أو استرجاع "الكتاب" قصة الطوفان من مصادر بلاد ما بين النهرين السابقة له، بالإضافة إلى الأرضية المشتركة العميقة القائمة بين خرافات أوغاريت و"الكتاب"، بل هناك أيضاً كثير من الارتباطات الأدبية مع قصص أقل أهمية مثل محاربة إسرائيل الملك ميشع المؤابي أو قصص النبي بلعام. تقدم لنا منقوشة النصر العائدة إلى مرنفتاح الطريقة التي تم فيها التوظيف المجازي الأول للاسم إسرائيل، والذي ربما يكون مشتقاً من الاسم يزرعيل، أو من اسم أشير الجغرافي الذي هو زوج حورو(أي:أرض فلسطين) وأب شعبها، العائد إلى العنصر البرونزي، إن دور هذا الأدب يمكن مقارنته تماماً بالدور الذي لعبه الأب الأعلى "الكتابي" يعقوب، حيث أضحى أبناؤه أجداد قبائل إسرائيل.

هذا مجرد ملخص مقتضب ولا نستطيع القول إنه كامل، لكن هناك شيء واحد واضح. عن قضية الجدال ليست ولن تكون ما إذا كان للكتاب جذور تاريخية، فمن ناحية بدأت القضية في السؤال حول تاريخية الروايات الكتابية فإن الافتراض بأن يكون التراث نفسه قابلاً للاستعمال كسرد تاريخي للماضي تمتع منذ الثمانينات،

بسند ضعيف في الدراسات الكتابية. ومن ناحية أخرى هنالك نقاش حقيقي حول الطريقة التي يؤول بها "الكتاب" ماضيه ويوظفه ويغيره. كان موضوع الجدال منذ السبعينات، الإدراك النقدي لعلاقة فهمنا لإسرائيل، كما ترد في الكتاب بتاريخ الإقليم. ومن غير الممكن تقويم علاقة الكتاب بالتاريخ ما لم يتوافر لدينا تاريخ مستقل لفلسطين يمكننا أن نقارنه بالرواية "الكتابية".زد على ذلك، فإن "الكتاب" لا يتعامل إلا مع جزء صغير من تاريخ أعظم، والذي فهم من وجهة نظر دينية ولاهوتية متأخرة لمؤلفيه اليهود.

لقد استوعب كيث وايتلام هذا الأمر جيداً عندما تعامل مع قضية التواريخ المفقودة لفلسطين. وهناك ثلاثة أمثلة مختصرة توضح بشكل مبسط مدى تشويه تقاليدنا المدرسية لفهمنا لدى عرض التاريخ "الكتابي" على أنه تاريخ فلسطين.

1-ففي عام 1977م نشر كتاب تاريخي هام بعنوان:**[تاريخ إسرائيلي ويهوذي]**. فعنوان المؤلف وحده يدل على وجهات النظر ويمهد الطريق لزرع الشكوك في الثمانينات حول تاريخ المملكة الموحدة. فمنذ ذلك الحين اصبح تاريخ إسرائيل تاريخاً لدولتين.

2-ويختتم تاريخ إسرائيل فلسطين تاريخ سماريا ومنطقة نابلس بتدمير الآشوريين في عام (722 ق.م) ومع أن المدينة والمنطقة قد استمرتا في لعب دور مهيمن بعد ذلك. فإن المنطقة قد اختفت كشأن معرفي لأن اهتمام الكتاب صوب نحو أورشليم. والاهتمامات الأخيرة وحدها النابعة من الأبحاث عن سامريا هي التي أحيت التفكير النقدي لتاريخ تلك المنطقة المفقود.

3-من الواضح أن كتاباتنا التاريخية الأولى عن تاريخ إسرائيل وحتى بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. أنجزت في وقت كان فيه المسيحيون المتدينون يهيمنون على الدراسات التاريخية والكتابية.

فكتاباتنا الأولى اختتمت تقليدياً بسقوط أورشليم أو النفي البابلي لأن المسيحيين كانوا مهتمين بإسرائيل والأنبياء. وليس باليهودية بحد ذاتها. وكان الاهتمام بالعهدين الفارسي والهلنستي جزءاً من دراسات(بين العهدين) وهي حقل بحثي يحظى بأهمية أقل عند علماء الدين [المسيحي].

مكاسب كثيرة تحققت خلال السنوات الثلاثين المنصرمة أثناء انتقالنا خطوة فخطة بعيداً عن تساؤلاتنا عن الأصول الكتابية والخاضعة للمصالح الدينية، وبدأ

تطوير تاريخ مستقل لفلسطين عن المنظور الكتابي. ومن المؤكد أن المجال لن يكون نفسه مرة ثانية. إن الاندماج المسكوني للدراسات البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية بعد الحرب تبني فهماً لتاريخ منطقتنا أقل انحيازاً على الصعيد اللاهوتي. ونتيجة لذلك فإن إعادة بناء تاريخ اليهودية الأول إبان العهدين الفارسي والهلنستي ربما كان التطور الوحيد والبعيد الأثر في تاريخ فلسطين خلال العقود الحديثة.

ومع ذلك فنحن بعيدون عن نهاية الجدال، وما زلنا كذلك بعيدين عن تاريخ لفلسطين يكون مستقلاً عن وجهات النظر الكتابية واللاهوتية. لقد عززت علمنة التنقيب الأثري الكبيرة من استقلالية البحث التاريخي عن تقاليده الموجهة لاهوتياً. وبدأت عوامل أخرى تلعب أيضاً دوراً في كل من البحث الأثري والكتابة التاريخية اللذين يبحثان عن سبل تركيب تلك الاستقلالية: وأخيراً، وليس أخراً، فإن الدور المهيمن باطراد للتنقيبات الأثرية الإسرائيلية، وكذلك التطور الأخير للتنقيبات الأثرية الفلسطينية، اللذين أثارا اهتماماً علمانياً بسط ظله على تطلعات الدراسات الكتابية، مثل هذه الأشكال العلمانية للبحث التاريخي تحضر معها، أيضاً، ادعاءات تاريخية بالماضي، يمكنني أن أقول إنها ذات مفارقة تاريخية، تماماً كالاهتمامات الموجهة لاهوتياً للمسيحيين واليهود. ولا يتفوق على مثل هذه الادعاءات سوى الانحياز الذي تحمله بدورها إلى تاريخنا. قد تكون الاهتمامات الجديدة أنهت الجدال حول تاريخ فلسطين، لكنه سيستمر ما دمنا نحاول امتلاك الماضي.

أود هنا أن استخدم ما تبقى من هذا العرض لمحاولة إعادة توجيه المحاورة صوب بعض القضايا التاريخية التي تهيئ مناسبات من أجل الجدال. وبدلاً من تقديم نتائج للنقاش، أود أن أوجز بعض المعضلات الهامة جداً للتفسير التاريخي الذي يجبر أي مؤرخ لفلسطين القديمة يرغب في الوقوف بعيداً عن التأريخات الكتابية والتقاليد التاريخية القديمة الأخرى، على التعامل معها.

1)-استخدام الكتاب وتماسك تاريخ فلسطين القديمة:حتى الستينات، كان الأسلوب التقليدي (الكلاسيكي) للتعامل مع ظهور شعب جديد في فلسطين، قائماً على هذه أو تلك من نظريات الهجرة. وكان المهيمن على تلك النظريات الافتراض الرومانسي للبداوة أصولاً. وقد أدى مهمة مزدوجة هي توضيح عهدين وسيطين ضمن إطار الهجرة الأمورية بهدف شرح المرحلة الانتقالية بين العصرين البرونزي المبكر والوسيط، وكذلك هجرة أمورية لمرحلة انتقالية مشابهة بين العصرين البرونزي

المتأخر والحديدي. كان هذان التفسيران أنيقين من حيث دمجهما تاريخ فلسطين بالتاريخ المعروف للشرق الأدنى القديم، وقدّما توضيحاً للتطور اللغوي للغات السامية الغربية. لقد تم عرض نظرية الهجرة من وجهة نظر (عقب أخيل) نجاحاً باهراً: يحتكم لـ(الكتاب) بحثاً عن تماسك منطقي وتوكيد: وعثرت الحركة الأولى على انعكاسها في قصص الأباء الأولين عن إبراهيم واسحق ويعقوب، والثانية في غزو الأسباط الاثني عشر فلسطين تحت قيادة يشوع. وتم الالتفاف على مسألة أصول (الأموريين) و (الآراميين) وكذلك مسألة التطور التاريخي للسامية الغربية عبر الاستنجاد بأصول مشتركة خارج فلسطين، حيث قادت كلتا الحركتين إلى غزو مؤكد للبدو انطلاقاً من جبل بشري وسهول سورية.

حلت تلك النظرية مشكلات عديدة للمؤرخين إذ ساعدت على تثبيت الصحة التاريخية الأساسية للرواية (التوراتية) وكذلك أقدميتها:انهيار الحضارة البرونزية المبكرة من خلال التدمير الذي ألحقه البداة الغزاة؛ والنظر إلى العصر البرونزي الوسيط الأول على أنه ذو طبيعة بدوية، وأنه مرحلة انتقال إلى أشكال من الاستيطان في العصر البرونزي الوسيط، كما أوضحت تلك النظرية الترابط الثقافي بين سورية وبلاد ما بين النهرين، والأسماء السامية الغربية الأولى التي جاءت في (نصوص اللعن)، والكلمات السامية في مصر، والتدمير المماثل الذي قام به يشوع لمدن العصر البرونزي المتأخر، والمستوطنات الجديدة في المرتفعات الفلسطينية إبّان العصر الحديدي الأول، والتأثير الآرامي على الكنعانيين الأوائل، واللغة العبرية، والكثير الكثير.

وقد كشف هجوم جون فن سيترز وهجومي الناجحان في أواسط السبعينات على عقب أخيل التفسير الحرفي للكتاب الانحياز المنهجي لهذا المشروع المصطنع. لقد حدّ إبعاد الكتاب عن نموذجيته من تماسكه الكلي ولم يبق بين أيدينا سوى كل مشاكلنا التاريخية حيث أجبرت كل واحدة منها على البحث عن تفسيرها المستقل عن الأخريات. وهكذا تمت صياغة المبادئ الأولى لمنهجية المقارنة: بسبب محدودية المعطيات الأولية، وجب إيلاء عناية خاصة عند فرز المواد المتوافرة لدينا وكيفية تقويمها بشكل مستقل. وقبل التمكن من استنباط أية استنتاجات عامة تشمل كل المواد المتاحة، علينا توخي الحذر في أن يتوافر برهان على العلاقات التي نستشفها بين مجموعة من الدلائل المتميزة.

2) بنيات بديلة لدليل تاريخي:لقد انتقلت مسألة الفترات الانتقالية في التاريخ الفلسطيني بقوة نحو شرح محلي لمثل هذا التغيير. تتصف أشكال الاستيطان بفترات الرخاء الكبير في العصر البرونزي الثاني والعصر البرونزي الوسيط الثاني والعصر الحديدي الثاني بتشابهها البنيوي، كما هي الحال بالنسبة إلى الفترات الانتقالية التي تفصلها بعضها عن بعض. إن إدماج المعطيات المستنبطة من المعاينة الأثرية مع ما يعرف عن القيود التي تفرضها التكنولوجيا والجغرافية على عملية الاستيطان طوّر فهماً جوهرياً للأشكال الزراعية الأولى. لدينا الآن مدى واسع من إمكانات الكتابة حول التغيير الإقليمي وبنى المجتمع الاقتصادية والسياسية جنباً إلى جنب مع علم الأنثروبولوجية التاريخية ذات العلاقة برعي الماشية والأغنام وكذلك العلاقة الزراعية مع أشكال الاستيطان. لكن هذا التحليل الطيفي لا يقدم تفسيراً تاريخياً. فلا دراسة الرموز ولا الأنثروبولوجية قادرة على تقديم براهين محددة. طبعاً يمكن الحديث عن دورات التغيير المناخي وعن الحاجة للتكيف مع مثل هذه التغيرات، لكن ما تحققه هذه التغيرات والقرار الذي يتخذه السكان تحت وطأة الجفاف يبقيان أمرين لا يمكن التنبؤ بهما. إن إقامة تماثل بين نماذج الاستيطان في المرحلة الانتقالية بين العصرين البرونزي المبكر والبرونزي الأخير لا يمدنا إلا بإمكانات لتاريخ ما زال علينا كتابته.

3) مفارقات مسائل الأصول:بينما من الممكن فهم الأرضية المشتركة القائمة بين العصرين البرونزي المبكر والبرونزي المتأخر على أنها نتاج تطورات ناتجة عن تغييرات مشابهة في المناخ والاقتصاد، وعن دورات متعددة تصيب التوازن غير المستقر للاقتصاديات الزراعية والرعوية السائدة أيضاً التي يمكن وصفها بأنها عوامل حقيقية متغيرة تماماً كأحداث جيولوجية ومناخية وثروات محددة للتجارة الدولية، وعن تبدل السلطة الإقليمية وحركة المجموعات السكانية داخل وخارج المنطقة وعن التغييرات التي تصيب التكنولوجيا.

كل ذلك يساعد على التفسير السببي الحقيقي الذي يغذي كتابة التاريخ. إن أساس التفسير التاريخي لا يكمن في طبيعة النص الأدبية، وإنما في التغييرات المحددة لخصائص الأحداث ضمن بنيتها الدورية للتغيير التاريخي بديمومة أكبر. وهنا تبرز الحاجة لوجود معطيات عن الاندماج والتركيب، حيث وجب أولاً فهم كل

منها ضمن مداه الخاص للحقائق من البيانات المقارنة. ويقف هذا النوع من التاريخ معارضاً تماماً للتواريخ المفارقة الموجهة نحو نصوص أدبية لاحقة.

وهكذا على سبيل المثال، وجب إدماج دليل ظهور مجموعات جديدة من الناس مثل(فلست/فلشت) وتجكر في السهل الساحلي، أو شاسو وعفيرو في المرتفعات إبان العهد البرونزي الأخير في إطار فهمنا التغييرات واستقرار مجموعات سكانية أخرى داخل فلسطين. من المؤكد أن وجود حساسية أكبر إزاء التغييرات في معاني هذه الأسماء على مر الزمن أمر يجب أن ينأى بنا عن التسرع في الحديث عن الفلسة/الفلستين أو العبريين في الأسطورة أو القصة اعتماداً على مثل هذه العلامة. كما يجب أن نكون حذرين فيما يتعلق بالمفارقات التي تهيمن على المشاهدات الخاصة بالاستيطان الجديد للأراضي الفلسطينية في العصر الحديدي الأول، وذلك عبر تفسير ذلك في إطار منحنى من التطور نحو دول العصر الحديدي الأخير مثل إسرائيل ويهوذا. هذا هو جوهر المفارقة التاريخية التي تقدم توجهاً لتفسير الدليل الذي لا يمت بشكل مناسب إلى المرحلة التي نحن بصدد بحثها. كما تعمي هذه المفارقة أبصارنا عن المعطيات وثيقة الصلة الواقعة داخل طيف شكل التوطن الذي نحن في صدد تفسيره. تم تجاهل التغييرات المقارنة في مرتفعات الأردن وعبر الشرق. وتم تجاهل التوطنات الجديدة في الإقليم الساحلي والسهول، التي بدأت في أواخر العصر البرونزي الأخير. كما تم تجاهل التباينات الكبيرة في شكل التوطنات وصلاتها ضمن أقاليم فلسطين المتمايزة. ومن الأمور المعروفة تماماً أن توطنات المرتفعات اليهوذية تختلف عن توطنات جبال نابلس بعدة قرون، وأن توطنات الجليل الأعلى قد شيدت وفق الأسلوب الفينيقي، وأن توطنات الجليل الأدنى قد شيدت وفق أسلوب يزرعيل، لقد تم تجاهل مثل هذه المعطيات، التي تتدرج في إطار طيف أنماط التوطن الجديدة، لأنها تستعصي على تشويهات أصول بني إسرائيل ومفارقاتها.

4)-**المستقبل بديلاً للدليل:**إنه لأمر شائع أن نكتب تاريخ فلسطين القديمة دون دليل. والطريقة المفضلة هي استخدام"المسار التاريخي" والذي يمكن مقارنته بدقة بالفراغات الواردة في المضاربات على الأراضي. وهي لا تعمل بشكل أفضل فيما يتعلق بالماضي. والمثال الأفضل الذي أعرفه عن تاريخ دون دليل هو أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد. تتوافر لدينا رسائل من العهد البرونزي الأخير من حاكم

اورشليم أرسلها للفرعون المصري، ولدينا فخاريات من العصر البرونزي المتأخر. ولدينا أيضاً جدار محفوظ من القرن العاشر، ولدينا بقايا مدينة صغيرة من القرنين التاسع والثامن، وبقايا مدينة أكبر من القرن السابع. ليست المسألة هنا في ما نعرفه عن أورشليم القرن العاشر، ما نعرفه ليس ذا تأثير ويجب ان نبقى على ما نحن عليه من معرفة. لقد أصبح السؤال:إلى أي حد يمكن لمدينة أن تكون مدعومة بفضل جدار محفوظ من القرن العاشر؟ يؤيد فنكلشتاين، واضعاً عينه على مدينة أصغر من القرن التاسع إلى الثامن قبل الميلاد، وربما يفكر في قصص داوود في الخليل، يؤيد تعريفها بأنها مشيخة صغيرة، بينما يرفض الآخرون تاريخ الحوادث التي آتى بها فنكلشتاين، معتمدين على التثبيت الأبكر لجازر وحاصور وبوابات مجدو(تل المتسلم) يعلقون المدينة بأكملها على ذلك الجدار المحفوظ. أخشى ألا يكون هذا القلق حول الثغرات في تاريخنا قد نشأ من روح تاريخية. لماذا نحتاج مثل هذه التفسيرات أن ترى أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد كعاصمة لشيء، حتى لو كان مشيخة صغيرة؟ نحن نواجه ثغرة مثيلة في توطن المرتفعات اليهوذية في العصر الحديدي الأول، وهي إقليم رعوي ومنتج للزيتون لا يكاد سكانه يقدرون على البدء بتزويد مساحة كبرى مثل مركز إقليمي قبل بدء العصر الحديدي الثاني. ما الذي يمنعنا من تفسير دليلنا الراهن على أنه يعكس المراحل الأولى من التوطن؟ نحن نعلم أن الأطلال الأثرية توحي بشكل ساحق أن الاستيطان في المرتفعات الجنوبية متخلف بقرون عن الشمال. إذا كان ذلك صحيحاً فنحن بحاجة إلى كتابة تاريخنا هكذا وكما هو، وبكل ما فيه من ثغرات.

5)-**الإفراط في الدليل**:تعاني معظم مشاكل تاريخ فلسطين نقصاً في الأدلة، سواء الأثرية أم المكتوبة. والثغرات التي تعانيها معرفتنا، كتلك المتعلقة بأورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، أمر شائع حقاً. ونحن نتعامل أحياناً مع مشكلة الإفراط. فمنذ عشر سنوات مضت، وبينما كنت أتعامل مع مسألة العرقية التي تتعلق بالتشكل والاستمرارية، وجدت أن موضوع ترحيل السكان ونفيهم قد أمدني بمثل هذا الإفراط. ففي شكواي في مطلع هذه المحاضرة حول قلة الاهتمام التاريخي بكتابة تاريخ سماريا وروابي نابلس في الحقبة التي تلت عام (722م) فوراً، أو في أورشليم ويهوذا بعد دمار عام (587م) كشفت نصف مسألة التركيز التوراتي على تاريخ فلسطين: التاريخ المخفي. أما النصف الثاني من المشكلة، ومع قصر النظر

هذا، فإننا نجد أن القصص التوراتية ذات المغزى الكبير للجانب الأدبـــي للكتـــاب جاءت لتسيطر على تصوراتنا التاريخية مهما كان دليلنا التاريخي معقداً. إن التفكك التاريخي المرتبط بترحيل السكان ونقلهم داخل وخارج فلسطين، والـــذي يناقشـــه العلماء الكتابيون بالنغمات التوافقية اللاهوتية مثل"النفي والعودة" وحتى الحديث عن مراحل ما قبل السبي/النفي وما بعد السبي/النفي في تاريخ فلسطين، تجد صـــعوبة كبيرة في فهمها تاريخياً بشكل كاف بالعلاقة مع أحداث سنوات (722، 587م). كما لم تتحسن رؤيتنا التاريخية بشكل جوهري عند إضافة سنة (539م) مهما اعترفنـــا بالتأويلات ذات العلاقة التي أوجدت الدعاوة الإمبريالية عبرها لغة كل من النفـــي والعودة.

ومن بين الترحيلات الأولى المبكرة لسكان فلسطين التـــي لـــدينا معلومـــات واضحة هي تلك التي استمددنا معرفتنا عنها من قائمة بأسماء الأرقاء المصريين في القرن الثامن عشر. ولم يأت هذا الدليل كمفاجأة في العصر البرونزي إذ انه يعكـــس واحداً من الأهداف الرئيسة للحرب في السياسات الإمبريالية القديمة للشرق الأدنـــى. ومع حلول الحقبة الآشورية، كان ترحيل السكان سياسة إمبريالية قياسية، واســـتمرت ممارستها في فلسطين لأكثر من ألف عام. ويشير الكتاب والتراث المتصل بـــه إلـــى اكثر من اثنتي عشرة حادثة عن ترحيل سكاني جماعي داخل فلســـطين وخارجهـــا، ويعرف غيرها الكثير من النقوش. ومن الأمور المثيرة تأمل آثار مثل هذه الأحـــداث على تاريخنا، ويمكنني هنا أن أضيف أن معضلة التأويل التاريخي لا يمكن تجنبهـــا، مهما كان تقويم المرء للتقاليد الكتابية. المسألة ليست النزعة إلى التشـــكك، وهـــي لا تتطلب خيالاً نقدياً بشكل خاص. المطلوب منا ألا نصرف النظر عن الدليل أو الشاهد الذي هو متوافر لدينا.

لقد كانت الدراسة التاريخية متفقة منذ فترة على أن موضـــوع (الترحيـــل الجماعي) وبشكل عام يغرق أكثر مما يصف. إن (ترحيلاً جماعيا) مثـــل ترحيـــل مرنفتاح وميشع الجماعيين، مجاز أدبي. ففي كافة الأحوال، تتحدث قصـــة ســـقوط أورشليم كما وردت في سفر الملوك الثاني عن ترحيلين اثنـــين متتـــاليين لســـكان أورشليم كافة، ويبقى مع ذلك ما يكفي من "الشعب" من الصغير إلـــى الكبيـــر..." ليرحلوا إلى مصر "سفر الملوك الثاني25". أما فيما يتعلق بترحيل عام (722ق.م) من سماريا والآخر عام (587ق.م) من أورشليم، فقد مال أهل الاختصـــاص إلـــى

المجادلة بأن مجموعات صغيرة فقط من السكان كانت في واقع الأمر مستهدفة للترحيل، وتدعي تلك المجادلة أخيراً بأن البرهان الأثري يدعم استنتاج بأن سكان أورشليم استمروا كما هم بعد عام (578ق.م). يثير مثل هذا الجدل أسئلة جوهرية حول هوية سكان فلسطين في العصر الحديدي واستمراريتهم.

ومن الأمور الأكثر أهمية إننا غير قادرين بعد على تأسيس علاقة تاريخية بين ترحيل تاريخي معروف وعودة تتعلق به. فالاستمرارية اللغوية والاجتماعية توحي بأن سكان فلسطين الأصليين بقوا مستقرين بشكل كاف مع أنواع كثيرة من المهاجرين، كان كثير منهم أجانب، لكن كثيراً آخرين منهم يمكن أن يكونوا قد وفدوا من مناطق سامية غربية من الشرق. وبقيت ثقافة أهل البلاد هي المهيمنة. ويبدو أن التغيير كان تحويل فلسطين ثقافات الأقاليم المحلية، إلى إقليم إمبراطوري اكثر تجانساً. إن الاستمرارية الإثنية للشعب العائد إلى فلسطين، وتحديداً إلى أورشليم خلال العهد الفارسي مع سكان أهالي فلسطين، أمر يتم نفيه في سفري عزرا ونحميا، وهما حكايتان كتابيتان رئيستان تركزان على موضوع عودة بقايا إسرائيل. بدلاً من ذلك نجد أن هذه القصص تفضل فهماً ذاتياً لأولئك الذين عادوا على أنهم إسرائيل الحقيقية، ويتم الإشارة إليهم بصفة "شعب الأرض". وهذا يعني أن النفي/السبي أصبح مظهراً أساسياً للهوية الذاتية للذين تعزو القصة إليهم إعادة بناء أورشليم.

في الوقت الذي تمت فيه كتابة هذه الأعمال، أي في الحقبة الهلنستية، كان هناك فهم محدود لليهودية وارتباطها بإسرائيل الماضي، وذلك لا يحول دون تميز سكان فلسطين. وفي الوقت الذي يضطر المرء فيه إلى الحديث عن يهوديات كثيرة داخل فلسطين في هذه الحقبة المبكرة، فعليه ألا يماثل اليهودية بأي مظهر إثني محدد بسكان فلسطين، ويخطئ من يعتقد أن اليهودية الحاخامية التي تشكلت في القرن الثاني للميلاد أو السمارية التي حددت خط بقائها من أصولها في الفترة الرومانية- اليونانية تحتضن كامل إرث اليهودية وإسرائيل الجديدة.

6)-فلسطين والتاريخ الإقليمي:بينما تمنحنا مشكلة اليهوديات الكثيرة الفرصة لتقديم منظور اوضح لتعدد الأصوات في النصوص الهلنستية والعهود الرومانية - اليونانية، فإنها أيضاً تعيدنا إلى التنوعات الكبيرة بين أقاليم فلسطين، ولكي تذكرنا كيف أن افتراضاتنا القديمة عن يهودية رسمية مركزية حرفت الأصوات المتنافسة

الكثيرة الضمنية في التقاليد "الكتابية" وأخفتها، فإن فهمنا لتاريخ إسرائيل الموجه لاهوتياً قد سمح لتقاليد إقليمين فقط من أقاليم فلسطين الكثيرة أن يعكس الكل ويمثلها. وبينما كان أهل الاختصاص على علم بوجود فلسطين أكبر، وفي الوقت الذي ظهرت فيه أعمال رئيسة كثيرة عن التواريخ الإقليمية في حقل بحثنا، فإن عدم التناغم البدهي في التفاتنا التاريخي تجاه الأقاليم الجبلية لغربي فلسطين يتطلب تأملاً مستمراً. وهذا التفاوت زمني وجغرافي. وبصور عديدة فإنه مستوطن، ذلك أنه يتم تسوية كل التقاليد الكلاسيكية والمصالح المعاصرة لإرث فلسطين الديني والثقافي عبر الكتابات الكتابية وما ارتبط بها و التي وصلتنا من العهدين الهلنستي والروماني – اليوناني.

ومن غير الممكن وضع تلك التراثات في مكانها تاريخياً أو فهمها في سياقها الخاص بها إلا إذا استطعنا أن نفهمها ضمن سياق أرحب لكل ما نعرفه عن فلسطين. هنالك صعوبة إلى حد ما في أن نفهم كيف تناول مؤلفو الكتاب مثلا التراث من عهود غابرة ما لم نرسخ نقدياً العوالم الفكرية والأدبية والتاريخية التي كانوا جزءاً منها. أما من الناحية التاريخية فنحن لا نستطيع أن نكتب تاريخاً نقدياً لدولة إسرائيل التي وجدت في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد للعصر الحديدي أو لدولة يهوذا التي نعرفها منذ القرنين الثامن والسابع، إلا إذا وضعنا هذا التاريخ في سياق فلسطين. نحن أحوج إلى أن نفهم علاقات الجليل المستقلة بفينيقيا من جهة، وبسورية من جهة أخرى. يقدم لنا علم الآثار الكثير عن تاريخ يزرعيل ودورها الذي لعبته كمنطقة تنافس وصراع بين صور ودمشق وسماريا التي مرت عليها قصص "الكتاب" بشكل عابر. يحتاج تاريخ الأراضي الجبلية المركزية نفسه، خلال العصر الحديدي الأول ولفترات أبكر، أن يتحرر من دوره كمدخل للرواية "الكتابية وعلينا أن نتذكر أن لتلك الأراضي الجبلية تاريخاً بعد سقوط عواصم العصر الحديدي. إن تاريخ المنطقة الساحلية، وخاصة الجدال في أهمية فلست/فلشت السياسية،ينضوي بصعوبة في إطار جدال الإثنية الخاصة بالفلسطينيين الأسطورية. وسيضيف ارتباط السهول الجنوبية بالطرق التجارية البرية وروابطها مع إدوم كثيراً للتراث التاريخي الذي يتجاوز كثيراً الرؤية "الكتابية". كل هذا معروف جيداً ويذكر هنا بهدف تأكيد الحاجة النقدية للانتقال من توجه "كتابي" إلى آخر مؤسس في التاريخ وعلم الآثار.

أما بالنسبة إلي، كعالم كتابي، فإن ما أثر في بشكل مباشر لدى كتابتي الجزء الثالث من: الماضي الخرافي- التوراة والتاريخ، أكثر من أي شيء آخر هو ذلك السؤال عن عالم فلسطين الأكبر، وبعد أن جادلت في وجوب عدم مطابقة تاريخ إسرائيل المستمد من الحكايات "الكتابية" مع تاريخ فلسطين، وفي أن "الكتاب" قد أتى فعلاً مكتملاً بعد ذلك بكثير، كتراث لاهوتي لا كتاريخي أو سياسي، في الحقبة الهلنستية التي نظرت إلى الماضي للحصول على تعاليم دينية، فإنني أوجدت لنفسي مهمة جديدة في توضيح العالم الذي استقى الأدب الكتابي معناه منه. لقد كان ذلك عالماً أدبياً امتد تاريخياً إلى زوايا كثيرة من الشرق الأدنى القديم، تضمن، على سبيل المثال، أدب أوغاريت ومصر وآشور والآراميين واليونانيين لأكثر من ألف عام. ولأنه عالم فكري، فقد اتخذ نقطة انطلاقه من الفكر الفلسفي المتزايد عالمية للإمبراطورية للحد من نقد التراثات السابقة ووضع تركيب من الفكر المثالي متمركز حول فهم رب الكون كحاكم مطلق لعالم إنساني للتجربة. إن هذه النصوص التي آتي على ذكرها وأجادل فيها هي نصوص تاريخية متمركزة في مضامين اجتماعية لحركات فلسفية هيمنت على فلسطين إبان الحقبة الهلنستية وعبرت عن نفسها في مجموعة من المطالب الخاصة في تراث الماضي.

وبعدما حدد المشروع، فإنني طرحت السؤال عما إذا كانت الأعمال التي جمعت في "الكتاب" سيتم فهمها ببساطة كنتاج من اليهودية القديمة. وفي طرحي لهذا السؤال فإنني أكون قد وجهت كلامي لمفارقة السؤال نفسه. فـ"الكتاب" العبري يأتينا على أنه "كتاب" اليهودية؛ تماماً مثلما وصلت إلينا الترجمة اليونانية ككتاب المسيحية، وكما الخماسية كتاباً للسمرة. لكنها، أي هذه الكتب، "كتاب" السمرة، وكتاب اليهودية وكتاب المسيحية، ليس نتاجاً من ناحية أصولها ولكن بسبب الإدعاء بأنها بمثابة أسس لاهوتية لأديان "الكتاب" المتباينة. أما من الناحية التاريخية فإنني أحاول قطع الجدل الدائري المتضمن في هذا السؤال حول الأصول. من الأفضل النظر إلى الكتاب وأسفاره، وكذلك إلى كتب الأبوكريفيا وتلك الموجودة في قمران كنتاجات أدبية للرؤية الكونية لمجمل جنوبي المشرق. إنها كتابات أضحت من خلال القرن الثاني للميلاد"كتبا" سامرية ويهودية ومسيحية. إن الأناس الذين ألفوا مثل تلك الكتب كانوا إغريق وعبرانيين. وكلا الفريقين كان من سكان فلسطين الأصليين

ومن الشتات. وعلى الرغم من أنهم جميعاً ماثلوا تراثهم مع أرض اليهود، فإن ذلك توكيداً دينياً وليس حقيقة تاريخية.

وبعد تدمير أورشليم على يد قوات رومانية في عام (70م) التقط الناس ما تبقى لهم، واستمروا، تماماً مثلما فعلوا ذلك مرة أخرى عقب ثورة باركوخبـا فـي القرن الثاني. وعندما أصبحت الغالبية العظمى من سكان فلسطين من المسـيحيين خلال الحقبة البيزنطية، لم يتم طرد أعداد كبيرة. ولم ينته الوجود اليهـودي فـي أورشليم في عام (70م) أو في عام (135م). إن ما انتهى هو الفهم الذاتي لأورشليم وشعبها كونهما يهوذيين...وبشكل مماثل، في القرن السابع، عندما أصبحت الغالبية العظمى في فلسطين من المسلمين، لم يطرد من الأرض إلا القليل. ومع أن كثيـراً من الكنائس أصبحت مساجد، فقد استمر السكان الأصليين بفهم منحول في ذواتهـم وفي دينهم".

العلاقات
بين جنوب غرب الجزيرة العربية القديمة
وبلاد الشرق الأدنى

تأليف ادوار ليبنسكي

ترجمة وتلخيص عبدالله حجار

يسمح هذا العرض ببيان مدى أو حجم العلاقات التي كانت تربط في العصور القديمة بين جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (اليمن حاليا) وبلاد الشرق الأدنى وشرق البحر المتوسّط. كان هذا القسم من العالم العربي الجنوبي القديم مقسّما إلى مناطق مسكونة من قبل شعوب مختلفة ذات مستوى حضاري عال يتكلمون اللغات الأربع الرئيسية المعروفة من النصوص المحفورة في كتابات النصب الهامة في جنوب العربية.

وبحسب واقع المصادر الحالية فان أوائل هذه العلاقات عرفت في عصر البرونز الحديث من بعض مقاطع من مراسلات تل العمارنة (المصريّة) ومن محفوظات أوغاريت (السورية) التي بيّنت ان أحد أهمّ منتجات الترف الفاخرة الشهيرة لشبه الجزيرة العربية وهو" المرّ "كان معروفا وكان يصدّر إلى بلاد البحر المتوسط في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

ومن شهادات مؤرّخي الفترة الآشورية الجديدة عن هذه العلاقات يبدو أنها قد زادت في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.ونعلم في البدء ان قافلة كانت تحمل المنتجات الفاخرة ويملكها تاجران من شبه الجزيرة العربية هوجمت في الفرات الأوسط وهي منطقة اكتشف فيها ختم عليه كتابة من جنوب العربية.

ثم تعلمنا مصادر آشورية جديدة أخرى عن العلاقات الدبلوماسيّة بين بعض الملوك الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد وبين ملوك سبأ(اليمن) الذين أرسلوا إليهم هدايا.

أما في الفترة الكلاسيكيّة فقد أعلمتنا بعض النصوص ان تجّارا من جنوب العربية قد أقاموا في جزيرة ديلوس التي كانت مركزا تجاريا هاما على البحر المتوسّط . وتظهر ذلك كتابة ثنائية اللغة: يونانيّة وعربيّة جنوبيّة نقشت على هيكل وجد في معبد أبولو في الجزيرة ، وقد أهدى اثنان من هؤلاء التجّار الهيكل الى آلهة بلدهم.

حصيلة نشاط البعثات الوطنية

في أعمال التنقيب(1945-1995)

في مواقع عصر البرونز

الدكتور ميشيل المقدسي
تلخيص م.عبد الله حجار

هدف البحث بيان نشاط البعثات الوطنية في أعمال التنقيب الأثرية في سورية في تلال الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، منذ تأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحف من قبل المرحوم الدكتور سليم عبد الحق عام 1945 وحتى الآن، مع تقديم ملخص لأعمال التنقيب على شكل جداول ضمّت اسم الموقع ومدير بعثة التنقيب وعدد مواسم التنقيب ومراحل سكن الموقع، بالإضافة إلى تحليل استراتيجية المديرية العامة للآثار في تنقيباتها في التلال التي تمّ استيطانها في عصر البرونز.

وقد توزعت أعمال التنقيب على عدة مناطق هي الساحل السوري (عمريت، رأس ابن هاني، رأس شمرا، تل أبو علي، تل برسونة، تل الكزل وتل سيانو) ومنطقة حمص (قلعة حمص، المشرفة، تل السور، تل سفينة نوح وزراعة) ومنطقة حلـــب (الأنصاري، مدينة حلـــب وجنديرس) ومنطقتي ادلب وحماة (سراقب، تل دينيت وقلعة المضيق) ومنطقة القلمون (المسخين ويبرود) ومنطقة دمشق (تل سكا وتل الصالحية) وفي منطقة حوران والجنوب (خربة الأونباشي، المتونة، تل الأشعري وتل عشترة) ومنطقة الفرات (أبو حمد، مسكنة/إيمار، تل العبد، تل الفراي وتل العبر) ومنطقة الجزيرة (تل بيدر، تل الخويرة، الثديين، تل أبو حجيرة وتل كشكشوك). وكان هناك بالإضافة إلى أعمال التنقيب أعمال تحريات في عدد من المواقع والتلال الأثرية.

ويذكر على سبيل الدلالة لا الحصر أسماء بعض الباحثين الذين أداروا أو شاركوا في أعمال التنقيب المذكورة مثل المرحوم نسيب صليبي، د.عدنان البني، د.علي أبو عساف، د. أنطوان سليمان، د. شوقي شعث، د.ميشيل مقدسي، عبد الرزاق زقزوق، عدنان الجندي، ماجد موصلي، حميدو حمادة وحسن حاطوم...

حبذا لو يؤمَّن التمويل اللازم للأعمال التي باشرتها بعثاتنا الوطنية ولم تكملها لتصل إلى نتائج الدراسة النهائية. وكلنا أمل في الحصول على نتائج طيبة في التلال التي لا تزال مواسم التنقيب مستمرة فيها مثل تل المشرفة /قطنا وتل بيدر وتل جنديرس والتلال الأخرى التي يديرها أو يشارك فيها باحثونا الشباب، متمنين لهم حظاً طيباً في الكشف عن مساهمات بلادنا في التراث الحضاري الإنساني في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد.

صفحات من تاريخ قرطاجة وحضارتها

الأستاذ الدكتور عيد مرعي
قسم التاريخ- كلية الآداب
جامعة دمشق

مما لاشك فيه إن الفينيقيين، أو كنعانيي الساحل الشامي، استوطنوا الشريط الساحلي المحصور ما بين البحر المتوسط في الغرب وجبال لبنان والجليل في الشرق منذ تاريخ مبكر. وكان الجزء المستوطن بشكل كثيف من هذه المنطقة ذلك الواقع ما بين جبل الأقرع في الشمال وجبل الكر مل في الجنوب، ويزيد طوله عن مائتي كيلو متر. ازدهرت في هذا الشريط الضيق خلال الألف الأول قبل الميلاد مدن هامة أشهرها عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وأرواد. وعلى الرغم من ان الشريط الساحلي كان ضيقاً، لكنه كان خصباً. مع ذلك حصل الفينيقيون على معاشهم عن طريق التجارة منذ العصر المبكر من تاريخهم. وساعدهم على ذلك موقع بلادهم المناسب المتحكم في طريق المواصلات التجارية، سواء الواصلة بين مصر وبلاد الأناضول، أو بين بلاد الرافدين والعالم الإيجي، فكانوا بذلك صلة وصل بين مناطق متعددة من مناطق العالم القديم. يضاف إلى ذلك وجود أخشاب الأرز والسرو والصنوبر الصالحة لبناء السفن بكثرة في فينيقية، وتوافر الرمل الناعم المناسب لصناعة الزجاج، وإنتاج الأنسجة الصوفية الملونة باللون الأحمر الأرجواني المشهور، الذي كان يستخرج من الحيوان القشري البحري المعروف باسم موريكس Murex.

تطورت كل مستوطنة فينيقية منذ عصر مبكر إلى مدينة مستقلة يحكمها ملك يوجد إلى جانبه مجلس للشيوخ، هو بمثابة ممثل للأسر الغنية.

ارتبطت فينيقية مع مصر بعلاقات وثيقة منذ فترات تاريخها الأولى، فصدرت إليها الأخشاب اللازمة لبناء السفن. وكانت جبيل القريبة من الغابات أهم مدينة هناك منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وعُرف سكانها في وادي النيل باسم "قاطعي الأخشاب".

وعندما توقف تيار شعوب البحر عام 1200 ق.م برزت المدن الكنعانية الساحلية من جديد، وبدأت التجارة بالازدهار. واستفادت هذه المدن ليس فقط من انهيار الإمبراطورية الحثية وضعف مصر، بل أيضاً من تغييرات حدثت في العالم

الايجي. فسددت الهجرة الدورية الضربة القاتلة للقوة المكينية. ولم يعد التجار المكينيون ينافسون التجار الفينيقيين. وهكذا أصبح التجار الفينيقيين البحارة المسيطرين على البحر المتوسط في القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد، ويسميهم هوميروس "شعب الملاحة الشهير".

احتلت مدينة صور Tyros في القرن العاشر مركز الصدارة بين المدن الفينيقية، وتمتعت بقوة و نفوذ كبيرين. وحكم ملوكها في الفترة ما بين 950 – 850 قبل الميلاد منطقة امتدت من جبل الكرمل في الجنوب وحتى منطقة طرابلس في الشمال (أسست طرابلس في العصر الفارسي).

بُنيت صور في موقع يسهل الدفاع عنه على جزيرة صخرية مقابل الشاطئ مباشرة وساعدها ذلك على صد الهجمات المختلفة التي تعرضت لها. فصمدت قبل عام 700 ق.م بقليل أمام حصار آشوري بقيادة سنحريب دام سبع سنوات، واستطاعت بعد هرب ملكها الذي قاد المقاومة، أن تحقق صلحاً ذا شروط يمكن تحملها.

كذلك حاصرها الملك الكلداني نبوخذ نصّر الثاني ثلاثة عشر عاماً (586–573 ق.م) وحاصرها الاسكندر الكبير سبعة أشهر ثم دمرها (332 ق.م).

بدأت صور في القرن العاشر قبل الميلاد عملية تأسيس محطات ومستوطنات تجارية في حوض البحر المتوسط لتسهيل المبادلات التجارية مع البلدان المختلفة فبنت العديد منها في قبرص وصقلية وحوض المتوسط الغربي بشكل عام.

وربما شاركت مدن فينيقية أخرى في ذلك. ويصعب تحديد تاريخ تأسيس كل مستوطنة بسبب التضارب بين المعلومات التي يعطيها المؤرخون الإغريق والرومان من جهة ومعطيات المكتشفات الأثرية من جهة أخرى.

ويمكن ان تكون زيادة عدد السكان في المدن الفينيقية قد لعبت دوراً في تأسيس المحطات والمستوطنات التجارية، غير أن الدوافع الأساسية كانت تجارية بحتة تهدف إلى حماية الطرق التجارية وتامين التجارة مع البلدان والمناطق الأخرى. وبذلك فهي تختلف عن أسباب حركة الاستعمار الإغريقية (750–550 ق.م) التي شملت العديد من جزر البحر المتوسط وجنوبي إيطالية، وهي الزيادة

الكبيرة في عدد السكان في المدن الإغريقية، وضيق مساحة الأراضي الزراعية، والاضطرابات السياسية والاجتماعية.

بحث الفينيقيون عند تأسيسهم محطاتهم التجارية عن أماكن يسهل الوصول إليها من جهة البحر، ويعب من جهة البر، ليسهل الدفاع عنها، كالجزر وأشباه الجزر الصخرية ذات الخلجان الرملية التي يستطيع المرء أن يجلب فيها السفن إلى الشاطئ دون صعوبة. فأقاموا محطات ومستوطنات تجارية لهم في قبرص (كيتيون بالقرب من مدينة لارنكا الحالية)، وفي صقلية (بانورموس، حاليا بالرمو)، وفي مالطة وسردينية، وعلى سواحل إفريقيا الشمالية(أوتيكا وقرطاجة)، وعلى شاطئ إسبانيا الجنوبي غادير Gadir (التي أسماها الرومان غادس Gades).

تاجر الفينيقيون بالأنسجة المصبوغة باللون الحمر الأرجواني، واشتهروا بذلك. وتاجروا أيضاً بالزجاج وغيره. وحصلوا مقابل ذلك على المعادن المختلفة، كالنحاس من قبرص، والفضة من أسبانيا، والذهب من المغرب، والقصدير والرصاص من جزر القصدير الواقعة جنوب غربي بريطانية.

كانت قرطاجة Korttaga أهم المستوطنات الفينيقية على الإطلاق واسمها بالفينيقية "قرت حدشت" ويعني المدينة الحديثة. وتقع حالياً شمال شرقي مدينة تونس الحالية (1).

<u>تأسيس قرطاجة:</u>

تم تأسيس قرطاجة من قبل صور، غير ان بدايات تاريخ قرطاجة غامضة، وإن كانت هناك أساطير عن التأسيس. الرواية الأكثر شيوعاً تربط تأسيس المدينة مع إليسا Elissa ابنة موتو Mutto ملك صور. توجد هذه القصة بخطوطها الرئيسة عند تيمايوس Timaios المؤرخ الإغريقي الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، واقتبس منه المؤرخون اللاحقون الكثير.

تقول الأسطورة أن ملك صور عيّن ابنه بجماليون Pygmalion وابنته إليسا ورثة له. بعد ذلك تزوجت إليسا من عمها أكيرباس Acerpas (أو Sicherbas)، الذي تبوأ، ككاهن للإله ملقارت، المرتبة الثانية في المدينة. لكن غناه الكبير دفع بجماليون إلى قتله. فهربت إليسا برفقة بعض رجالها المخلصين عبر البحر. وكانت وجهتها الأولى قبرص، حيث انضم إلى الهاربين كاهن الآلهة عشتارت. وكاحتياط

رتبت إليسا سرقة ثمانين فتاة، هن عاهرات المعبد هناك، لتامين نسل في المدينة التي ستؤسس. يبدو من ذلك أن إليسا كانت تخطط لبناء مدينة جديدة. وعندما وصلت إلى أفريقيا استقبلت بحفاوة من قبل السكان المحليين. وسُمح لها بشراء أراضٍ بقدر ما تستطيع أن تغطيه بجلد ثور. وبحيلة قصت الجلد إلى شرائط دقيقة حددت بها قطعة من الأرض أرادت أن تمتلكها، وهي مساحة مدينة صغيرة أكثر من معسكر بسيط للرفاق المنهكين. وهكذا بدأت المدينة الجديدة بالظهور، وتدفق الناس إليها من المناطق القريبة. لكن ما بدأ مفعماً بالأمل انتهى بشكل مأساوي. فقد قام هيارباس Hiarpa، أحد الزعماء القبليين المحليين بطلب يد إليسا، لنه اعتقد أن بإمكانه بهذه الطريقة أن يُحضر ويمدن أفراد رعيته بشكل أسرع.

تهربت إليسا وطلبت مدة ثلاثة أشهر مهلة للتفكير. بعد ذلك أمرت بإقامة نار ضخمة، والتضحية بالعديد من الحيوانات، ثم طعنت نفسها بالسيف ورمت بجسدها في النار المستعرة، وكأنها تُضحي بنفسها من أجل أن تحيا المدينة التي أسستها.

هذه هي الأسطورة الأكثر شيوعاً في العالم القديم عن تأسيس قرطاجة غير أن هناك أسطورة أخرى يوردها الشاعر الروماني المشهور فرجيل Vergil (القرن الأول قبل الميلاد) وملخصها أن إنياس المؤسس الأسطوري لروما وصل إلى قرطاجة بعد هروبه من طروادة، والتقى بالملكة القرطاجية ديدو Dido التي كانت منشغلة ببناء مدينتها، ووقعت في حب إيناس، وحاولت إبقائه في قرطاجة، لكنه رفض وغادر، فانتحرت(2).

تكمن خلف هذه الأسطورة الرغبة في إيجاد جذر مشترك يجمع بين بدايات تاريخ قرطاجة وروما.

يذكر المؤرخون الإغريق عام 814 ق.م كعام لتأسيس مدينة قرطاجة.

لو تركنا الأسطورة جانباً لوجدنا أن المعلومات المتوافرة عن تاريخ قرطاجة قليلة جداً أو مشوشة. والسبب في ذلك هو أن الرومان دمروا المدينة تدميراً كاملاً عند احتلالها عام 146 ق.م في نهاية الحرب البونية الثالثة.

حالياً هناك مصدران رئيسان عن تاريخ قرطاجة هما أخبار المؤرخين. الإغريق والرومان القدماء، ونتائج الحفريات الأثرية المختلفة. غير أن كلا المصدرين لا يقدمان معلومات إطلاقاً عن الفترات المبكرة من تاريخ هذه المدينة

البونية. بينما توجد أخبار كافية عن الفترات اللاحقة، عندما أخذت قرطاجة تتصارع، مع الإغريق أولاً، ثم مع الرومان، ولكنها تأتي كلها تقريباً من خصوم المدينة، وبالتالي فهي لا تتمتع بنظرة موضوعية.

وما يقدمه التنقيب الأثري في هذا المجال يبقى قليلاً جداً ومنقوصاً بالمقارنة مع عظمة وشهرة المدينة في العصور القديمة. فمنذ أن بدأ بويل C –E . Beule عام 1859 بالحفريات الأولى في المنطقة المرتفعة من المدينة، أي في البرزة، ثم في المنطقة المنخفضة، أي في الموانئ.

حاولت أجيال من الباحثين، ومعظمهم من الفرنسيين، القيام بأعمال صغيرة ودقيقة لجلاء ظلام الماضي، وأشهرهم غيلبرت شارلز بيكارد Gilbert Charles Picard. ولا ننس في هذا المجال حفريات معهد آثار هامبورج الألماني بقيادة نيماير H.G.Niemeyer التي أظهرت أن المدينة يجب أن تكون قد بلغت من الزمن الباكر من تاريخها اتساعاً كبيراً (نحو 25 هكتاراً). وفي منطقة تبعد نحو ثلاثمائة متر عن خط الساحل عصر أسرتي آل برقة وآل ماغو، والتي يرقى أقدمها إلى النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، أي قريباً من التأريخ التقليدي لتأسيس المدينة (عام 814 ق.م).

مما لا شك فيه أن قرطاجة أسست من قبل تجار صوريين لخدمة أعمالهم التجارية الواسعة، وكانت في البداية قاعدة للسفن المتجهة نحو الغرب إلى البلدان المنتجة للذهب والفضة والقصدير. وتطورت مع الزمن إلى مدينة كبيرة بزت المدينة الأم (صور) في قوتها. وعندما أراد الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد طرد الفينيقيين من صقلية، وكانت صور ضعيفة، قامت قرطاجة بحماية كل المستوطنات الفينيقية هناك. وأصبحت قوة بحرية هامة في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وشملت منطقة نفوذها في القرن الخامس قبل الميلاد كل الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط، أي جنوبي أسبانية وسردينية ومالطة وغربي صقلية وشمالي أفريقية.

وبلغت قرطاجة في القرون اللاحقة درجة كبيرة من القوة مكنتها من التصدي لروما. ونشبت بين الطرفين حروب طاحنة تُعرف بالحروب البونية وهي:

1- **الحرب البونية الأولى: 264- 241 ق.م**

يرى الباحث الألماني فينغريد إلليغر أنه من الأفضل تسمية الحروب البونية، "بالحروب الرومانية"، لأن هذا يطابق دور روما المعتدية، بينما كان الأمر بالنسبة لقرطاجة يتعلق غالبا بالمحافظة على ممتلكاتها القديمة ومناطق نفوذها (3). وأفضل من أرّخ لها المؤرخ الإغريقي بوليبيوس (4) الذي كان مرافقاً وصديقاً لفاتح ومدمر قرطاجة عام 246 ق.م، وبالتالي فإن ما كتبه كان من وجهة نظر رومانية، أي غير موضوعية.

دارت معظم معارك الحرب البونية الأولى في صقلية، وكانت إحدى الحروب الأكثر خسارة في العصور القديمة. فقد ذكر بوليبيوس أن الخسائر بالسفن وحدها بلغت في الجانب الروماني سبعمائة سفينة، وفي الجانب القرطاجي خمسمائة (I63,5).

ويمكن القول أن أسبابها الحقيقية هي رغبة روما في طرد القرطاجيين من صقلية والسيطرة عليها. وهذا ما حدث بالفعل وصُوِّر في المصادر التاريخية على أنه دفاع عن النفس، الأمر الذي جعل المؤرخ الإنكليزي غيبون Gibbon يقول:" إذا صدَّق المرء ليفيوس احتل الرومان العالم دفاعاً عن النفس" (5).بعد معارك متعددة برية وبحرية اضطرت قرطاجة إلى القبول بمعاهدة مع روما تنص على إخلاء صقلية، وإطلاق سراح الأسرى، وعدم مهاجمة سيراكوزة مرة أخرى، ودفع جزية موزعة على عشر سنوات مقدارها 2200 تالنت فضة.

2- **الحرب البونية الثانية: 218- 201 ق.م** (6)

تعرضت قرطاجة بعد انتهاء الحرب البونية الأولى لهزة عنيفة من الداخل ، ألا وهي تمرد المرتزقة الذي دام أكثر من ثلاث سنوات، وأوصل قرطاجة إلى درجة كبيرة من الضعف، وما إن تجاوزت قرطاجة تلك الأزمة حتى أخذ قادتها يبحثون عن بديل لصقلية وسردينية المفقودتين للرومان. كانت أسبانيا المرشح الأقوى لذلك، وبخاصة أن للقرطاجيين معرفة جيدة بها، ولهم فيها قاعدة ثابتة هي جادس.

استطاع هميلكار برقة خلال وقت قصير السيطرة على جنوب ووسط وشرق أسبانيا. وتابع عمله بعد وفاته عام 229 صهره هسدروبال، ولكن بوسائل

أكثر دبلوماسية، فقد تزوج أميرة أسبانية، وأسس على الشاطئ الجنوبي العاصمة الجديدة للمملكة "قرطاجة الجديدة" (**Carthaga Novo**) عند الرومان وحاليا قرطاجنة (Cartagena).

بعد ذلك ظهر هانيبال بن همليكار الذي كان يعيش منذ التاسعة من عمره في الجيش، وعندما سقط هسدروبال ضحية اعتداء عليه عام 221 ق.م تسلم هانيبال، الذي أصبح عمره الآن خمسة وعشرين عاماً، القيادة، وبموافقة مجلس الشيوخ القرطاجي. وقد برهن على عبقرية عسكرية فذة، إذ مد النفوذ القرطاجي على شمال أسبانية كله ووصل حتى جبال البيرينيه.

كان ذلك بالنسبة لروما ذريعة لإعلان الحرب على قرطاجة من جديد. مع ذلك أرسلت روما بعثة إلى قرطاجة للحصول على إجابة رسمية. هنا لدينا رواية مشهورة يرويها ليفيوس (XX1, 18) وبوليبيوس (III33) تقول أن فابيوس Q.Fabius أكبر أعضاء البعثة الرومانية صنع من ردائه ثنية وقال:"لدي هنا السلام والحرب، فاختاروا". وكان جواب رئيس ملس الشيوخ القرطاجي:" اختاروا بأنفسكم". فأجاب فابيوس وهو يهز ردائه:"نختار الحرب". فكان ذلك بداية لحرب طاحنة جديدة بين روما وقرطاجة دامت سبعة عشر عاماً.

ربما لم يتوقع هانيبال مثل هذا الموقف الحاسم لروما، فأصبح الآن في مأزق. كان يستطيع الدفاع عن أسبانية ضد روما، ولكن ماذا يحدث مع قرطاجة، وبخاصة أنه لم يبق هناك وقت للتسليح. فقرر هانيبال أن يلاقي الرومان في اكثر الأمكنة حساسية بالنسبة لهم، وكان ذلك في إيطالية نفسها. وحتى لا يترك للرومان وقتاً لتهيئة أنفسهم كمع الوضع الجديد عبر هانيبال بسرعة وبشكل غير متوقع البيرينيه وجبال الألب مصطحباً معه نحو خمسين ألف رجل وقواته مع النخبة مع بعض الفيلة. وظهر بشكل مفاجئ في خريف عام 218 ق.م في شمالي إيطاليا. وهكذا توجب على الرومان أن يحاربوا الخصم في بلادهم.

كان هدف هانيبال الاستراتيجي ليس تدمير روما، على ما يبدو، بل عزلها عن حلفائها الإيطاليين، وإضعافها، لإجبارها على الاعتراف بالمكاسب التي حققتها قرطاجة في أسبانيا وغيرها من المناطق. ولتحقيق هذا الهدف توجب عليه نقل مسرح العمليات الحربية إلى جنوب إيطالية حيث كانت روما تحصل من هناك على أهم احتياطي لقواتها. وبعد عدد من الانتصارات في الشمال حقق الخرق المطلوب

باتجاه الجنوب، والتقى بالرومان عند كاني Cannea حيث ألحق بهم أمرَّ هزيمة في تاريخهم على الإطلاق (عام 216 ق.م) إذ فقدوا خمسة وعشرين ألف قتيل وعشرة آلاف أسير، وبالكاد استطاع القنصل فارو Varru الهروب مع خمسة عشر ألف رجل. خسر هانيبال مقابل ذلك نحو خمسة آلاف وسبعمائة رجل منهم أربعة آلاف من حلفائه الغاليين.

بعد ذلك حاول هانيبال بشكل سلمي أن يكسب إلى صفه بعض المدن في جنوبي إيطاليا، فانضمت إليه كبوا Capua وتارينت Taren، أهم مدينتين في جنوبي إيطاليا، عدا عن ذلك توقفت الاختراقات في صفوف حلفاء روما الإيطاليين في حدود، بحيث أن الزيادة من البشر والمؤن بقيت دون التوقعات. وكان ذلك مفيداً لهانيبال لأنه بالكاد كان يتلقى نجدات من مدينته الأم. والأسطول الذي كان فخر قرطاجة في الماضي كان قد أهمل لفترة من الزمن، ولم يكن باستطاعته تخفيف أي عبء عن هانيبال. يضاف إلى ذلك تطوراً آخر ألا وهو عبور الرومان المعاكس للبيرينيه وسيطرتهم على أسبانيا.

ولكن مع كل ذلك استطاع هانيبال بعبقريته الفذة أن يصمد في إيطاليا ثلاثة عشر عاماً، وأن يحاصر روما لبعض الوقت (212 ق.م)، دون أن تلحق به أية هزيمة. اتبع الرومان في أثناء ذلك سياسة الإنهاك، وحصل قائدهم فابيوس مكسيموس، الذي تسلم القيادة لوقت طويل، على لقب "المتردد" Cunctator لأنه تحاشى مواجهة هانيبال في معركة مفتوحة، ولم يكن مسؤولاً عن هزيمة كاني.

استُنفذت طاقات هانيبال ببطء، وعادت من جديد سيراكوزة وكبوا وتارينت إلى روما. وهُزم هسدروبال، أخو هانيبال، الذي أراد أن يجلب مساعدة إلى اخيه من أسبانيا، في وسط إيطاليا (عام 207 ق.م)، وسقط صريعاً واضطر ماغو، الأخ الثاني لهانيبال، إلى إخلاء غاديس، وهكذا تُركت أسبانيا بكاملها للرومان. وبذلك بدأت هزيمة هانيبال ترتسم في الأفق. وقد جاءت أسرع مما يتوقع بعد ظهور شخصية جديدة فذة في روما هي كورنيليوس سكيبيو الذي حقق لنفسه سمعة أسطورية تقريباً باحتلال كارتاغونوفا المحصنة جيداً. وسيخرج بلقب سكيبيو افريكانوس مكافأة له على انتصاره في هذه الحرب. بعد أن انتخب عام 205 ق.م قنصلاً ، قرر أن يتبع تكتيكاً حربياً جديداً غير المتبع سابقاً، فانتقل بجيشه إلى أفريقية (عام 204 ق.م)، ودخل بعد ذلك في مفاوضات مع القرطاجيين المستعدين

للسلام. غير أن عودة هانيبال إلى قرطاجة جعلت الرأي ينقلب فجأة ويقرر متابعة الحرب ضد روما، فكانت معركة زاما الشهيرة عام 202 التي انتهت بهزيمة لقرطاجة، ذات شروط سيئة عليها تنص على عدم القيام بحب خارج أفريقيا، وفي أفريقيا نفسها، إلا بموافقة رومانية، وتسليم قطع الأسطول المتبقية، ودفع عشرة آلاف تالنت فضة، واقتطاع جزء من نوميديا وإعطائه إلى ماسّينيا صديق الرومان الجديد في المنطقة. وبذلك ظهر منافس خطير لقرطاجة في أفريقيا نفسها.

شخصية هانيبـــال (7)

دخل هانيبال التاريخ كأهم شخصية عرفتها قرطاجة، على الرغم أنه غادر مدينته الأم وعمره تسع سنوات، عندما أخذه أبوه معه إلى أسبانيا، وعلى الرغم من أنه عاد إلى قرطاجة عام 203 ق.م ق.م، أي بعد خمسة وثلاثين سنة من الغياب.

هناك اتفاق، حتى بين خصومه، على عبقريته الحربية، ولا يمكن لأحد أن يجادل في خططه الاستراتيجية البعيدة المدى، وفي تكتيكه العسكري المتفوق. وأهم الأدلة على ذلك عبوره الأسطوري للبيرينيه والإلب، وانتصاراته المتعددة، وبخاصة في كاني.

وتبرز عبقريته السياسية خلال الفترة التي قضاها في قرطاجة بعد هزيمة زاما والمعاهدة المذلة مع روما. فبعد أن انتخب عام 196 ق.م لمنصب السوفيت (الحاكم الأعلى) حاول إصلاح الأوضاع الداخلية الفاسدة عن طريق وضع حد لنفوذ الطبقة الأرستقراطية واستغلالها للشعب. وعندما اخذ هانيبال بالعمل على إضعاف أهم أداة سلطوية لها، ألا وهي مجلس المائة وأربعة، عن طريق تحويل الانتماء مدى الحياة له إلى انتخاب سنوي دون إمكانية إعادة الانتخاب مرة ثانية، كان ذلك تجاوزاً لكل الحدود للأرستقراطيين.

فوُشي بسرعة بهانيبال لروما، وقيل انه يخطط، بالتعاون مع الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث لحرب عام 195 ق.م أحس هانيبال بالخطر فهرب إلى تابسوس Thapsus الواقعة على ساحل تونس الشرقي حيث كانت تنتظره هناك سفينة نقلته إلى صور، وانتقل من هناك إلى إفسوس حيث التقى بالملك السلوقي أنطيوخوس الثالث. عمل الرجلان لفترة من الوقت على وضع الخطط لمواجهة روما وخططها التوسعية في بلاد اليونان وآسية الصغرى. لكن الهزائم المتكررة التي منيت بها

جيوش أنطيوخوس، وأخرها هزيمة عام 189 ق.م، أجبرت الملك السلوقي على قبول صلح مهين مع الرومان. أدرك هانيبال الخطر القادم إليه، إذ نصّ أحد شروط ذلك الصلح على تسليم هانيبال للرومان، فهرب هانيبال إلى بروسياس Prusias ملك بيثونيه Bithynia (شمالي آسية الصغرى). وعندما طالب الرومان بتسليمه، ولمس هانيبال استعداد مضيفه لذلك، آثر وضع نهاية لحياته بتجرع السم بدلاً من الوقوع في أيدي الرومان (عام 183 أو 182 ق.م).

<u>الحرب البونية الثالثة:</u> 149 – 146 ق.م

كانت معاهدة عام 201 ق.م تعني لقرطاجة الموت البطيء. ومما زاد الأمر سوءاً محاولات مسينيا ملك نوميدية التوسع على حساب قرطاجة. ولم يكن مسموحاً للقرطاجيين بالرد على اعتداءات مسينيا إلا بعد أخذ موافقة روما. وعندما بلغت تلك الاعتداءات الأوج رد القرطاجيون على مسينيا بقوة دون الرجوع إلى روما. وجد الرومان في ذلك الذريعة التي كانوا ينتظرونها لإعلان الحرب ومن جديد على قرطاجة، وبخاصة أولئك القائلين باتباع العنف والقوة ضد قرطاجة، وعلى رأسهم ماركوس بورتيوس كاتو M.P.Cato صاحب الجملة المشهورة التي كان ينهي بها كل خطاب له في مجلس الشيوخ، ألا وهي:

Cetrum censeo carthageninen esse delendam

"أما بعد فإني أرى أن قرطاجة يجب أن تدمر"

ولتحقيق هدفه كانت كل وسيلة مشروعة بالنسبة له. يروي بولبيوس قصة، وهي أن كاتو البالغ من العمر ثمانين عاماً جاء مرة إلى مجلس الشيوخ ومعه حبة تين طازجة عرضها، وأشار إلى أنها قُطفت قبل ثلاثة أيام في قرطاجة، وقال:" هكذا قريباً من أسوارنا يوجد العدو".

لكن كاتو يرى أن المرء ليس بحاجة لانتظار حجة لشن حرب ضد العدو اللدود المكروه. غير أنه بهذا الموقف الراديكالي لم يستطع أن يفرض إرادته. لكن الحجة أعطيت الآن، وقام المرء بالتنفيذ فأعلنت روما الحرب على قرطاجة. أدرك القرطاجيون بوضوع عدم جدوى موقفهم، فأرسلوا بعثة إلى روما مع بالاستسلام. قُبل العرض، لكن أشير إلى أن أسطولاً في طريقه إلى أفريقيا. واشترط على القرطاجيين، أنه يمكنهم الاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم ومنطقتهم، وكذلك ممتلكاتهم

العامة والخاصة. إذا أعلنوا عن استعدادهم لتقديم ثلاثمائة رهينة من مجلس الشيوخ ومجلس المائة وأربع. ونتساءل : ماذا يبقى للقرطاجيين إذا قبلوا بهذه الإهانة؟ لكن ذلك لم يكن الفصل الأخير.

من أوتيكا، التي دخلت تحت الحماية الرومانية، طالب القنصلان الرومانيان اللذان قادا الجيش، بتسليم الأسلحة كلها. قبل القرطاجيون بذلك، فانتقلت مائتا ألف قطعة سلاح وألفا منجنيق إلى أيدي الجيش الروماني.

بعد ذلك جاء المطلب الأكثر وقاحة وهو إخلاء المدينة التي أراد الرومان تدميرها، والاستيطان في الداخل على بعد خمسة عشر كيلومتراً من الساحل على الأقل. وعُلل ذلك بأن رؤية البحر يمكن أن تذكر القرطاجيين بماضيهم العظيم وتغريهم بالأخطاء القديمة. الحياة على اليابسة تضمن أمناً أكثر، والسيادة على البحر تعود الآن إلى روما (Appian, libyca 81). أدرك الرومان أن قرطاجة لن تنفذ هذا المطلب، فهي قادرة على البقاء بجوار البحر فقط. والانتقال إلى داخل البلاد يعني نهايتها.

بالطبع رفض القرطاجيون ذلك المطلب وأخذوا بالاستعداد لخوض حرب البقاء أو الموت ضد روما، تلك الحرب التي دامت ثلاث سنوات (149- 146 ق.م)، تحملوا خلالها الجوع والعوز والحصار، لكنهم برهنوا على شجاعة نادرة.

بعد سقوط المدينة عملت آلة التدمير الروماني عملها، واستعبد الباقون على قيد الحياة، ونطق سكيبيو إميليانوس، القائد الروماني، باللعنة على الخرائب. يجب ألا يُعاد سكن هذه البلاد التي نُذرت الآن للعالم السفلي. وتم حرث الموقع المدمر بالمحراث، ونُثر الملح في الخطوط كعلامة للجدب في الأزمنة كلها.

يُظهر التقرير الموجود بترجمته الإغريقية فقط، أن تلك المرحلة كانت عملاً منظماً خططت له الدولة بدقة، حيث نقرأ في البداية ما يلي:

"قرر القرطاجيون أن يقوم حانّو بالسفر إلى ما بعد أعمدة هرقل، وأن يؤسس مدناً من الفينيقيين – الليبيين. فانطلق مع ستين طاقم من المجدفين (كل طاقم خمسون رجلاً) ومع ثلاثين ألف رجل وامرأة على ظهر السفن، ومع مؤن وأسلحة.

وهناك بعثة قرطاجية أخرى أرسلت تقريباً في نفس الوقت بقيادة المدعو هيميلكو Himilko ، الذي ربما كان أحد أخوة حانّو، والتي وصل فيها إلى "جزر

القصدير" الواقعة جنوب غرب انكلترة (جزر Skilly). مما لا شك فيه كان الهدف من هذه البعثة الكشف عن مصادر مواد أولية جديدة.

وليس أقل أهمية من ذلك الرحلات عبر الصحراء إلى داخل أفريقيا، وأشهرها رحلة المدعو ماغو Mago الذي يُروى أنه عبر الصحراء انطلاقاً من صبراتا على الساحل الليبي ثلاث مرات دون أن يشرب جرعة ماء واحدة. من الجدير بالذكر أن توسيع صبراتا إلى مستوطنة تجارية كبيرة تم في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. في هذا الوقت يمكن أن تكون قرطاجة قد بدأت بإرسال بعثاتها الصحراوية أيضاً. وكان الهدف من ذلك الحصول على الذهب والعاج وريش النعام والبخور والأحجار الكريمة.

واهتم القرطاجيون بالزراعة بشكل كبير لتأمين القوت للعدد المتزايد من السكان والاستغناء عن الاستيراد. وقد ساعدهم على ذلك وجود مساحات واسعة صالحة للزراعة وخصبة في محيط مدينتهم والمناطق المجاورة لها. فزرعوا أشجار الزيتون في المقام الأول، واعتنوا بزراعة العنب. وكان اللوز والتين مفخرة القرطاجيين، كذلك الرمّان الذي سماه الرومان malun punicum "التفاح البوني".

إن أهم إنجاز حققه القرطاجيون في مجال الزراعة هو جلبهم النباتات المفيدة المنتشرة في بلاد حوض البحر المتوسط المتحضرة سابقاً إلى أفريقيا وملائمتها مع الطقس، وتطوير العمليات الزراعية بحيث يمكن اعتبارهم خبراء زراعيين حقيقيين.

قام ماغو، وهو ضابط متقاعد، بجمع معارف عصره (القرن الثاني قبل الميلاد) في مجال الزراعة في ثمانية وعشرين كتاباً. ولكن للأسف لم يبق من هذا العمل الضخم إلا مقتطفات مقتبسة من قبل كتّاب رومان، بينهم المدعو كولوميلا Columella الذي ألف في القرن الأول بعد الميلاد كتاباً عن الزراعة(le re pustica)، واعتبر ماغو "أباً لعلم الزراعة".

بدا عمل ماغو، على الرغم من وضعه ليناسب العلاقات الزراعية الافريقية، مهماً للرومان، بحيث أن مجلس الشيوخ الروماني أمر، بعد احتلال قرطاجة وتدميرها، بترجمة أجزاء عمل ماغو التي أمكن إنقاذها من المكتبة، إلى اللاتينية.

في مجال الحرف والمهن لم يكن للقرطاجيين سمعة جيدة كما في مجال الزراعة. ولم تستطع منتوجاتهم الدخول في منافسة مع المنتوجات الحرفية المصرية أو الإغريقية إلا في أحوال استثنائية. بغض النظر عن فروع حرفية قليلة كانت المنتجات مخصصة كلها تقريباً لتغطية الحاجات المحلية، وكان الاهتمام بالابتكار قليلاً، وينصب على الاستخدامات العملية. ما يلفت الانتباه تصنيع المعادن، فقد كانت الورش قادرة على إنتاج كميات كبيرة من الأدوات المعدنية خلال وقت قصير. فعندما قرر القرطاجيون مواجهة الرومان في الحرب البونية الثالثة كانت الورش قادرة على إنتاج مائة درع وثلاثمائة سيف وخمسمائة رمح وألف قذيفة للمنجنيقات يومياً.

واخذ الرومان بعض الابتكارات الحرفية من القرطاجيين، وزودوها بصفة "بوني". ويعد هذا إشارة إلى قيمة الحرف القرطاجية. فهناك "سرير بوني". و"مصباح بوني" و "أرضية بونية" و"نافذة بونية" وغيرها.

أما في مجال تنظيم الإدارة والحكم فهناك معلومات قليلة ومتناثرة يتبين منها أن القرطاجيين عرفوا النظام الملكي في بدايات تاريخهم، كما كان الحال في المدن الفينيقية. لكم الوضع تغير مع مرور الزمن فظهر منصب السوفيت ومجلس الشيوخ ومجلس الشعب ومجلس المائة وأربعة.

كان يشغل منصب السوفيت اثنين؟، وأحياناً أربعة، ينتخبون لمدة عام، يمثلون الدولة على الصعيد الخارجي، ويمارسوا الرقابة العامة على شؤون القضاء وعلى مالية الدولة، بينما لم تكن لهم علاقة بالقيادة العسكرية العليا. كان السوفيت يدعون أيضاً مجلس الشيوخ ومجلس الشعب للانعقاد. اعتباراً من منتصف القرن السادس سيطرت عائلة آل ماغو على منصب السوفيت، وقررن بالتالي مصير قرطاجة لثلاثة أجيال لاحقة وبخاصة بعد أن جمعت ما بين منصب السوفيت والقائد العسكري الأعلى. مما يجب ذكره أن النسب والغنى كانا الشرطين الأساسيان للوصول إلى هذه المناصب.

أصبح الشعب خلال القرن الخامس أكثر وعياً، وأخذت الأرستقراطية بالعمل على مكافحة سيطرة العائلة الواحدة. هذا التطور حفظه يوستينوس، وهو مؤرخ روماني من القرن الثالث الميلادي، بعناية حيث كتب أن عائلة القادة العسكريين من آل ماغو أثقلت كاهل الحرية العامة، إذ أنها سيطرت في الوقت نفسه

على السلطة والقضاء. لذلك شكل المرء من أعضاء مجلس الشيوخ هيئة مؤلفة من مائة قاضٍ يكون القادة العسكريون مسؤولون أمامها بعد كل حرب (XIX 2,5).

منذ ذلك الوقت وُجد إذن محكمة دولة مؤلفة من مائة، وحسب آخرين، من مائة وأربعة أعضاء ينتخبوا مدى الحياة، وهو ما عُرف بمجلس المائة وأربعة.

غير أن أهم هيئة سياسية قرطاجية كانت مجلس الشيوخ الذي يقارنه أرسطوطاليس مع مجلس الشيوخ الإسبارطي، ويتألف من ثلاثمائة عضو ويبدو أن صلاحياته كانت واسعة، وتشمل السياسة والإدارة بنفس القدر.

في هذا المجلس كان يتم اتخاذ قرارات الحرب والسلم، ويتم شرح مسائل السياسة الخارجية والعسكرية، وتتخذ إجراءات حماية الدولة. من الجدير بالذكر أن أعضائه كانوا من العائلات الغنية، ويعينون مدى الحياة.

أخيراً هناك مجلس الشعب، وهو هيئة كسبت أهمية من خلال عملية تطور ديمقراطية طويلة، وفي عهد آل برقة، أي في المائة سنة الأخيرة من تاريخ قرطاجة عرف أكبر تعاظم له. أما قبل ذلك فكان أداة شكلية فقط.

في هذا المجلس كان يُسمح لكل مواطن أن يقول رأيه، وأن يطرح مقترحات. هنا كان يتم التصويت على قرارات مجلس الشيوخ. وكان هناك حق هام جداً لمجلس الشعب ألا وهو انتخاب السوفيت وقادة الجيش، الذين يبدو أنهم كان عليهم في العصر المتأخر أن يقدموا تقريراً عن أعمالهم إلى مجلس الشعب. ويبدو أن مجلس الشعب كان يقوم بإصدار قرارات النفي.

بالإضافة إلى هذه المناصب والمؤسسات الحكومية هناك سلسلة كاملة من مناصب الدولة العليا التي طبيعتها غير معروفة تماماً، كمنصب الكبير أو الكبار، ومنصب القاضي، ومنصب المراقب وغيرها.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى عدد السكان الذين عاشوا في قرطاجة. مما لا شك فيه أنه من الصعوبة بمكان تقدير عدد السكان في ممالك المدن القديمة، لأنه لا توجد إلا معلومات قليلة عن ذلك، ولأن هناك طرق مختلفة لتقدير عدد السكان.

يذكر سترابون، الجغرافي الإغريقي، أن عدد سكان قرطاجة الإجمالي. بلغ سبعمائة ألف نسمة. لكن هذا يعني كثافة سكانية غير معقولة.

يمكن تقدير عدد سكان قرطاجة خلال الحرب البونية الثالثة (149- 146 ق.م) بخمسين ألفاً عاشوا داخل أسوار المدينة. ولكن في ذروة القوة القرطاجية في

بداية القرن الثالث قبل الميلاد يجب أن يكون العدد أكبر بكثير. ليس بمستغرب القول أن العدد اقترب من أربعمائة ألف نسمة، بما فيهم العبيد والسكان ذوي الأصول الأجنبية. (10).

الهوامش:

1-مرعي، عيد، التاريخ القديم، دمشق 1991، ص 145 وما يليها.

2-B.H.washington, Karthago, Aaufstieg und untergang einer antinen wellstadt, wiesbaden 1963, 8,12 pp.

3-Elliger, W., Karthago, stadt der puniq, Römer, christen, stuttgart-Berlin-köln 1990, s.109.

4-بولبيوس: مؤرخ إغريقي (201- 120 ق.م) عاش سنوات عديدة في روما، وأصبح صديقا حميما لسكيبيو إميليانوس فاتح ومدمر قرطاجة، ورافقه في حملته على قرطاجة. كتب بولبيوس نحو أربعين كتابا في التاريخ، ضاع معظمها، وما بقي منها يتحدث فيه بالتفصيل عن علاقات روما بقرطاجة والحروب التي جرت بينهما. انظر: حاطوم وعاقل وغيرهما، المدخل إلى التاريخ دمشق 1965، ص 118 وما بعدها.

5-Elligen, op. cit, s. 110

6-انظر حول تفصيلات ذلك:

Wapmington, op. cit, s. 163 pp.

7-لمزيد من التفاصيل: Wapmington, op. cit, s. 199 pp.

8- Elligen, op. cit, s. 121

9- op.cit, s. 58ff, 83ff,90ff,95ff

10- Wapmington, op. cit, s. 149 pp

دور المرأة في عالم الشرق القديم
سورية وبلاد الرافدين

د.جباغ قابلو

عندما يُطرح أي موضوع يتعلق بعالم الشرق القديم، تكون لدى الأغلبيـــة، فكرة ضبابية أو غير واضحة عن هذا الموضوع. وذلك لعدم معرفة هذه الأغلبيـــة بأساليب حياة مجتمعات الشرق القديم لتقادم الزمن من ناحية، ولجهلهـم بـالقوانين والأنظمة التي كانت سائدة، وطرق تنظيم المعاملات بين الناس.

فالكثيرون لا يعلمون من القوانين التي كانت سائدة في بـلاد الرافـدين إلا قانون حمورابي. ولا يعلمون من هذا القانون سوى أنه كان ينطلق في أحكامه من مبدأ " العين بالعين والسن بالسن". مع أنه كانت هناك قوانين سابقة لقانون حمورابي (قانون أورنمو، قانون أشنونا، قانون لبيت عشتار)، وأن هذا القانون الـذي يُمثـل أطول وأكمل المجموعات القانونية التي وصلتنا من العالم القديم، لم يقتصر علـى الجانب الجزائي والجنائي، وإنما تعدى إلى تنظيم المجتمع البـابلي مـن مختلـف جوانبه الاقتصادية والاجتماعية.

وموضوع المرأة الذي نحن بصدد الحديث عنه، لا يخرج عن هذا الإطار، ونقصد بذلك موضوع ضبابية الفكرة التي لدى معظم الناس عـن وضـع المـرأة ودورها في مجتمعات الشرق القديم. ومن هذا المنطلق حاولنا في بحثنا المتواضـع هذا استجلاء هذا الغموض وتوضيح دور المرأة في المجتمع الذي كانت تعيش فيه. وقبل البدء، أحب أن ألفت الانتباه إلى أننا سنقتصر في بحثنا هذا على بلاد الرافدين وسورية. كما أننا سنقتصر كمصدر لدراستنا، على القوانين، وهي التي تُتخذ عـادة كأساس نظري لأي دراسة، وعلى الوثائق الاجتماعية والاقتصادية المتـوفرة بـين أيدينا من بلاد الرافدين وسورية. أي أننا لن نتعرض للأساطير والملاحم الشـعرية وما إلى ذلك، وسنحاول البقاء في الإطار التطبيقي العملي، وهو الذي يمكن أن يقدم قاعدة متينة وموثوقة للاستنتاجات التي يمكن أن نستخلصها من مجمل الدراسة. كما أننا سنقتصر على دور المرأة الحرة في المجتمع الرافدي – السوري. ولن نـدخل في دور الإماء كقوة اقتصادية عاملة في هذه المجتمعات. وسنتناول أولاً موضـوع

المرأة الحرة في المجتمع وحقوقها وننطلق بعد ذلك إلى دورها الاقتصادي والسياسي والديني.

الوضع الاجتماعي:

كما هو معلوم فإن المجتمع الرافدي – السوري، كان مجتمعاً تلعب فيه الأسرة دوراً هاماً من حيث هي الخلية الأولى التي يتكون منها هذا المجتمع. ومعلوم أيضاً، أن هذه الأسرة كانت أسرة أبوية، أي أن الأب كانت له السلطة العليا على باقي أفراد الأسرة، وأن هذه السلطة كان ممكن أن تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر في حال وفاة الأب. ولكن رغم هذه السلطة الذكورية، إذا ما أسميناها كذلك، فإن الأنثى – المرأة في هذا المجتمع وفي هذه الأسرة، تمتعت بحقوق مختلفة، حفظتها لها القوانين والتشريعات المختلفة.

وفي استعراضنا لوضع المرأة في المجتمع سنبدأ من الزواج وما يترتب عليه من حقوق وواجبات وغير ذلك.

يبدأ الزواج عادة بطلب الفتاة من أبيها أو من ولي أمرها، في حال عدم وجود الأب ، أو في حال كونها غيرة حرة. وكمثال على ذلك نورد مثالين من الوثائق الآرامية التي عثر عليها في مصر. والتي تعود إلى الجالية السورية التي كانت مقيمة هناك زمن الاحتلال الفارسي الأخميني لمصر بين نهاية لقرن السادس ق.م حتى دخول الاسكندر المقدوني مصر عام 332 ق.م. ففي الوثيقة الأولى. وبعد تحديد تاريخها يرد ما يلي:"...قال أسخور بن صخا البنّاء الملكي لمخصية أرامي من أسوان من فرقة وريزاتا قال: أنا أتيت إلى بيتك لتعطي لي ابنتك مبطحية لأتزوجها هي زوجتي وأنا بعلها من اليوم وإلى الأبد". والوثيقة الثانية أيضاً تنص على الشيء نفسه:"...قال عنية بن عزريا خادم الإله يهوه في حصن الفيلة، لمسلم بن زكور أرامي من أسوان، من فرقة وريزاتا قال: أنا جئت لعندك لتعطيني (التي اسمها) تموتا، أمَتك لأتزوجها. هي زوجتي وأنا زوجها من هذا اليوم وإلى الأبد...".[1]

---

[1] - porten and yardidni. Textbook of Aramaic documents from ancient Egypt2. Concaracts.p30.

الوثيقتان منشورتان في 1989

ويبدو أن الفتاة لم يكن لها دور كبير في اختيار زوج المستقبل هذا ما نلاحظه من المثالين السابقين، ومن مختلف المواد القانونية التي تتعرض لزواج المرأة، وعلى العكس من ذلك تشير هذه المواد إلى دور أساسي للأب في هذا المجال. فالمادة 15 من قانون أورنمو تنص على انه" إذا دخل خطيب بيت حميه (وأتم مراسم الخطبة)، غير أن الأب أعطى بعد ذلك ابنته إلى رجل آخر، فعليه (أي على الأب) أن يدفع (إلى الخطيب) هدايا العرس التي جلبها مضاعفة.[1]ونجد نفس هذا النص تقريباً في المادة 29 من قانون لبيت عشتار والمادة 160 من قانون حمورابي.

ونشير هنا إلى أن الزواج لا يصبح شرعياً إلا إذا كان موثقاً، أي كان مكتوباً ومباركاً من قبل أهل الفتاة. فالمادة 27 من شريعة أشنونا تنص على أنه "إذا تزوج رجل ابنة رجل (آخر) دون أن يسأل أباها وأمها، ولم يُقم حفلة زفاف ولا عقد زواج مع أبيها وأمها، فإن هذه (المرأة) لا تُعد زوجة شرعية حتى ولو عاشت في بيته سنة كاملة. وتصرح المادة 28 من شريعة أشنونا" بأنه إذا عَقَدَ عقد الزواج مع أبيها وأمها وأقام حفلة الزفاف وتزوجها بعد ذلك فتكون عندئذ زوجة شرعية".[2]

وأما عن المهر الذي يجب أن يقدمه العريس والهدايا التي يجب أن تقدمها العروس لصالح الزواج، فالنصوص القانونية طبعاً لا تحدد ذلك. وإن كنا نعتقد أن ذلك كان يتعلق بالمستوى الاجتماعي للأسرتين المتصاهرتين. ولكن يمكن أن نذكر كأمثلة على المهور والهدايا، من عقدي الزواج اللذين أتينا على ذكرهما قبل قليل.

ففيما يتعلق بالعقد الأول، فقد اشترط ان يقدم العريس لعروسه خمسة شواقل من الفضة بالوزن الملكي. وأما العروس فتقدم لهذا الزواج ما يلي: قرشاً واحداً من عشر من الفضة إضافة إلى لباس من الصوف الجديد الملون يعادل ثمنه قرشان وثمانية شواقيل وشال واحد ثمنه ثمانية شواقل فضية، لباس آخر صوفي ثمنه سبعة شواقل، مرآة نحاسية ثمنها واحد وربعين، طاسة نحاسية ثمنها شيقل واحد وربعين، كأسين من النحاس ثمنهما شيقلين فضيين وإبريق نحاس ثمنه ربعين من الفضة إلى جانب أشياء أخرى.[3]

---

[1]- مرعي، د.عيد. قوانين بلاد ما بين النهرين الصفحة 17-18.

[2]- مرعي، عيد. المرجع السابق صفحة 39-40.

[3] - راجع الهامش رقم 1.

وأما العقد الثاني فقد تضمن أن تأتي العروس ومعها ثوب صوفي ثمنه سبعة شواقل فضية، مرآة واحدة ثمنها سبعة أعشار من الشيقل، زيت عطري، جرة سعتها ستة وزنات إلى جانب أشياء أخرى بسيطة.[1]

وسننطلق الآن إلى أمر آخر مرتبط بالزواج، ألا وهو تعدد الزوجات والطلاق. فتعدد الزوجات كان أمراً معروفاً وإن لم يكن على ما نعتقد، على نطاق واسع وضمن بعض الفئات الاجتماعية. وكانت القوانين تقيد في بعض الأحيان حرية الناس في اتخاذ زوجة ثانية. ونبدأ من هذه النقطة الأخيرة ونذكر أن المادة 148 من قانون حمورابي تذكر ما يلي:" إذا تزوج رجل امرأة وأصابها مرض خطير وعزم على الزواج من (امرأة) ثانية، فإنه يستطيع أن يتزوج"[2]. إذاً ارتبط هذا الزواج الثاني بمرض الزوجة الأولى، مرضاً ربما يعيق قيامها بواجباتها نحو زوجها وبيتها.

ويبدو أن القوانين الآشورية كانت تحظر على الآشوريين اتخاذ زوجتين بآن واحد في مدينة آشور نفسها" لكنها كانت تبيح للآشوري الذي يعيش في مدينة أخرى، بداعي العمل، أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية في هذه المدينة".[3]

ومن اوجاريت لدينا أرشيف لشخص يُدعى عبدو بن عبدي نفرال، ومن خلال وثائق هذا الأرشيف تبين أنه كانت لهذا الشخص ثلاث زوجات. كانت إحداهن أمته قبل أن يتزوجها ويعتقها. ولكننا لا نعلم بالضبط هل كانت هؤلاء النسوة زوجات له في آن واحد، أم أنه تزوجهن في أوقات مختلفة دون أن يكن معه سوية. كما أن إحدى وثائق أرشيف شخص اخر اسمه راشابابو تشير إلى حقه في اتخاذ زوجة أخرى له، رغم وجود شروط في عقد زواجه الأول، تحرم أولاده من زوجته الثانية من بعض أملاكه (أي انهم لا يشتركون في اقتسام التركة من كافة أملاكه).[4]

وإذا ما عدنا إلى عقد الزواج الآرامي الذي تطرقنا إليه أعلاه. فإننا نقرأ ما يلي:"...ولا أستطيع القول (أسخور الزوج) توجد لدي زوجة أخرى غير مبطحية،

---

[1]- راجع الهامش رقم 1.

[2]- مرعي، د. عيد: المرجع السابق، الصفحة 75.

[3]- ليبين: من تاريخ العلاقات الاجتماعية في اشور. المجموعة الفلسطينية. موسكو المجلد 23 لعام 1958 (باللغة الروسية).

[4]- شيفمان: مجتمع أوجاريت. دمشق 1988. الصفحة 146 وما بعدها. ترجمة حسان ميخائيل اسحق.

وأبناء آخرون غير أولئك الذين لمبطحية. إذا قال يوجد عندي أبناء وزوجة أخرى غير مبطحية وأبنائها، أدفع لمبطحية عشرين قرشاً فضياً بالوزن الملكي..."[1]. إذاً نلاحظ هنا أن عقد الزواج اشترط عدم اتخاذ زوجة أخرى في المستقبل. وإذا ما أقدم على ذلك فإنه سيضطر لدفع غرامة كبيرة.

وقبل أن ننتهي من مسألة تعدد الزوجات. نشير إلى أنه وجد في بلاد الرافدين وفي عصر السلالات الباكرة، ما يمكن أن نسميه تعدد الأزواج، وقد ألغي هذا الأمر بموجب إصلاحات أورو إنميخيا حاكم لاجاش.

وكان الطلاق أمراً مشروعاً قانونياً. فالمادة التاسعة من قانون أورنمو تنص على أنه" إذا طلق رجل زوجته الشرعية فعليه أن يدفع لها مينة واحدة من الفضة" أما إذا كانت هذه المرأة مطلقة سابقاً أو أرملة، فإنه يدفع لها نصف مينة. والمادة 138 من قانون حمورابي تنص على أنه " إذا أراد رجل أن يطلق زوجته التي لم تلد له أولادا، عليه أن يعطيها فضة تعادل مهرها ويعوضها بائنتها التي جلبتها من بيت أبيها ثم يطلقها"[2]. ونلاحظ هنا ربما تقييد لحرية الرجال في تطليق زوجاتهم. فالمادة تنص على الزوجة التي لم تلد أولاداً. والمادة 37 من القانون الآشوري تنص على ما يلي:"إذا طلق رجل زوجته، يمكنه إعطاءها شيئاً إذا أراد، وإذا لم يرغب لا يعطيها شيئاً، عليها أن تخرج بأيدٍ فارغة". ونقرأ في المادة التالية لها" إذا كانت الزوجة تسكن في بيت أبيها، وطلقها زوجها، فيحق له أن يأخذ الحلي التي زيّنها بها، ولكن لا يحق له أن يمس المهر الذي قدمّه، هذا يعود إليه كاملاً"[3]. وربما كان المقصود هنا، إذا طلق رجل زوجته قبل أن يدخل بها كما نقول الآن، أي انه عقد عليها ولكنها كانت ما تزال تعيش في بيت أبيها، ولم تنتقل للعيش معه. ولعل من أشد القوانين صرامة والمتعلقة بالطلاق، ما نقرأه في شريعة أشنونا المادة 59" إذا رجل، بعد أن أنجب أولاداً، طلق زوجته وتزوج أخرى. فيجب أن يُطرد من البيت، ومن (كل)أملاكه، ويلحق بالتي أحبها قلبه. وترث زوجته (الأولى) البيت"[4].

ونشير هنا إلى أنه كان بإمكان المرأة أن تطلق زوجها، ولكن كان عليها أن تعرض قضيتها على مجلس بلدتها، وإن ثبت أنها شريفة ولم ترتكب أي خطيئة وأن

---

[1]-راجع الهامش رقم 1.
[2]-مرعي، د. عيد. المرجع السابق، الصفحة 74.
[3]-مرعي،د. عيد. المرجع السابق. الصفحة 123.
[4]-مرعي، د.عيد. المرجع السابق. الصفحة 144.

زوجها مهملاً لها. عندها يمكن لمثل هذه المرأة أن تأخذ بائنتها، وتذهب إلى بيت أبيها.

كما كان يحق لها أن تتخذ زوجاً ثانياً في حال غياب زوجها لسبب أو لآخر. وقد حددت بعض القوانين مدة الغياب هذه، في حين أغفلت تحديد ذلك قوانين أخرى.

فمثلاً المادة 133 (أ) من قانون حمورابي تنص على انه "إذا وقع رجل في الأسر، وكان في بيته (ما يكفي) للأكل، فعلى زوجته أن تصون نفسها ما دام زوجها أسيرا، وألا تدخل إلى بيت (رجل) آخر". في حين أن المادة 134 تنص على أنه "إذا وقع رجل في الأسر، ولم يكن في بيته ما يكفي للأكل، ودخلت زوجته إلى بيت (رجل) آخر، فلا تلحق بهذه المرأة أية عقوبة"[1].

ولعل من أشهر قضايا الطلاق التي عرفها العالم القديم، ووصلتنا معلومات عناه، قضية طلاق ملك أوجاريت عميشتمرو الثاني من ابنة ملك عمرو (بت رابيتي) والتي نظر فيها في النهاية الملك الحثي، السيد الأعلى لمناطق الشمال السوري، خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.

أما فيما يتعلق بالإرث، فنلاحظ من خلال بعض الوثائق، وبعض المواد القانونية أن الفتيات كن يرثن آباءهن، رغم وجود بعض القيود على ذلك. فمثلاً تنص إحدى مواد قانون لبيت عشتار، أن الفتيات اللواتي لم يتزوجن لهن الحق في وراثة آبائهن في حالة عدم وجود أبناء ذكور يرثونهم. وحسب المادة (171 – 5) من قانون حمورابي، فإن الزوجة التي يتوفى عنها زوجها تستطيع أن تأخذ بائنتها وهدية الزواج التي أعطاها إياها زوجها وكتبها لها على لوح مختوم، وأن تبقى ساكنة في مسكن زوجها وتنتفع بذلك طوال الحياة (ولكن) لا يحق لها أن تبيع هذه (الأشياء) مقابل فضة. أما المادة 172 فتنص على أنه "إذا لم يعطها زوجها هدية زواج، فعلى المرء أن يسدد لها بائنتها وتأخذ من ممتلكات بيت زوجها حصة كالابن الوريث"[2].

وهناك حالات كان الآباء يخصصون فيها بائنات لبناتهم وخاصة الكاهنات منهن. فإذا كانت هذه البائنة موثقة (بلوح مختوم) فإن الأبناء بعد وفاة الأب لا

[1]– مرعي، د.عيد. المرجع السابق. الصفحة 73.
[2]– مرعي، د.عيد. المرجع السابق. الصفحة 79.

يملكون الحق في الادعاء بأي حق في هذه الملكية (البائنة) أما إذا لم يكن هناك وثيقة تنص على أن الأب منح ابنته حرية التصرف بهذه البائنة فإن أخوتها يملكون الحق في الحصول على هذه الملكية، ولكن مقابل إعطائها ما يعادل قيمتها طعاماً وزيتاً ولباساً. أما إذا لم يفعلوا ذلك فإنها تستطيع أن تسلم هذه الملكية إلى من ترتاح إليه وتتخذ منها مصدراً لمعيشتها طوال حياتها ولكنها لا تملك الحق ببيعها، فأخوتها هم ورثة هذه الملكية.

وتنص المادة 181 من قانون حمورابي على أن البنت التي نذرها أبوها كاهنة ولم يقدم لها هدية، فبعد أن يتوفى هذا الأب، تحصل من ممتلكات بيت أبيها على ثلث حصتها من الميراث وتنتفع به مدى الحياة وورثتها يكونوا أخوتها. وأما إذا كانت هذه الابنة كاهنة في معبد الإله مردوك ولم يعطها والدها بائنة، فبعد وفاته تحصل على ثلث حصتها من الميراث من ممتلكات بيت أبيها ولا تؤدي أي التزامات وهي تستطيع التصرف بهذه التركة كيف تشاء[1].

أما إذا أعطى ابنته كاهنة الشوجيتوم بائنة وزوّجها وكتب لها لوحاً بذلك فعند وفاة والدها لا تحصل على أي شيء من تركته، أما في حالة العكس، أي إذا لم يخصص لها بائنة ولم يزوجها، فعلى أخوتها أن يفعلوا ذلك وبما يتناسب مع ثروة أبيهم. وحرصت القوانين على الحفاظ على سمعة المرأة، وعدم التعرض لها بسوء. وأوقعت عقوبات رادعة على من يتجرؤون على النيل من سمعتها بدون دليل.

فالمادة 127 من قانون حمورابي تقول" إذا أشار إنسان بإصبع على كاهنة إنتوم أو على زوجة إنسان (أي نشر سمعة سيئة عنها)، ولم يثبت ذلك ، فعلى المرء أن يجلب هذا الإنسان إلى أمام القضاء ويحلق له نصف رأسه"[2]

أما المادة 18 من القوانين الآشورية فتنص على ما يلي:"إذا قال رجل لصديقه في السر أو في شجار (زوجتك تزني) أستطيع أن أثبت ذلك، لكنه لا يستطيع أن يثبت ذلك ولم يثبته، فعلى المرء أن يضرب هذا الرجل أربعين عصا، وعليه أن يؤدي سخرة للملك أيام شهر كامل...وعليه أن يدفع 1تالنت من القصدير"[3]

---

[1]-مرعي، د.عيد: المرجع السابق. الصفحة 82.
الشوجيتوم: كاهنات من الدرجة الثانية كان يحق لهن الزواج والإنجاب.
[2]-مرعي، د.عيد: المرجع السابق. الصفحة 72.
[3]-مرعي، د.عيد: المرجع السابق. الصفحة 118. والتالنت يعادل نحو 30 كغ.

الدور الاقتصادي للمرأة:

هل كان للمرأة دور اقتصادي تؤديه في مجتمعات المشرق العربي القـديم؟ وهل كان هذا الدور مستقلاً أم كان مرتبطاً مثلاً بزوجهـا أو بأحـد أخوتهـا؟ إن الوثائق التي بحوزتنا وكذلك النصوص القانونية، تسمح لنا بالقول إن المرأة مارست نشاطات اقتصادية متعددة وخاصة التجارة، بعضها بصفة مستقلة تمام الاسـتقلالية عن أية وصاية، وبعضها الآخر بالمشاركة مع أحد الرجال الذين كانوا يمتون بصلة قربى لها (أب، أخ، زوج).

ولكن لابد من الإشارة أولاً، إلى أن ممارسة النشاط الاقتصـادي، مـرتبط بمسألة أخرى، لا يمكن من دونها القيام بمثل هذا النشاط، وأقصد بذلك الملكية، فهل كان للمرأة الحق بالتملك؟ من خلال بعض النصوص القانونية التي أوردناها سـابقا وخصوصاً عندما تحدثنا عن المهر والميراث، لاحظنا أن المرأة كان لها الحق في التملك وإن كان على هذا الحق بعض القيود أحيانا. وانطلاقاً من ذلك نستطيع القول أن المرأة المالكة، كانت تملك الحق بالتصرف في هذه الملكية بيعا وتأجيرا وما إلى ذلك.

ونعود على القوانين الرافدية. ونستعرض بعض النصوص القانونية التـي تتعرض لحق المرأة في ممارسة النشاط الاقتصادي.

فمثلا...المادة 40...من قانون حمورابي تنص صراحة على انـه يسـمح لكاهنة الناديتوم والتاجر (ولصاحب) الإقطاع الخاص به أن يبيع حقلـه وبسـتانه وبيته.و من خلال بعض المواد القانونية، نعلم أن بعض المهن كانـت مخصصـة للنساء فقط. فمثلاً مهنة بيع الخمور كانت من هذه المهن. وهذا ما نسـتنتجه مـن المادة 15 من شريعة أشنونا التي تذكر ما يلي:" لا يسمح للتاجر أو لبائعة الخمر أن تستلم من يد عبد أو امة فضة أو شعيرا أو صوفا أو أي شيء آخر". وتنص المادة 41 من نفس القانون على أنه" إذا أراد باروم (الغريـب) أو (رجـل) موثـوق، أو (رجل) معروف أن يبيع جعته(بيرته) فعلى بائعة الخمر أن تبيعهـا لـه بالسـعر المعتاد"[1].ونفس الأمر نلاحظه في قانون حمورابي. فكل المواد المتعلقة بهذه المهنة وهي المواد (108، 109، 110، 111) تشير إلى أن ممارسيها كانوا من النسـاء.

---

[1]- مرعي، د.عيد:المرجع السابق. الصفحة 38+42.

فالمادة 109 مثلاً تنص على ما يلي:"إذا تواجد محتالون في بيت بائعة خمر، ولم تقبض بائعة الخمر على هؤلاء المحتالين وتقودهم إلى القصر، فإن بائعة الخمر هذه تُقتل."[1].

وفي وثائق إبلا، هناك ذكر لكاهنة اسمها سارين – دامو كانت تملك ما مساحته حوالي 6240 هكتاراً، بعضها بعلية وبعضها مسقي، وكانت مزروعة بأشجار الزيتون وكروم العنب والحبوب"[2]

وإذا ما انتقلنا إلى وثائق ما يسمى كاروم كانيش، وهو المركز التجاري الآشوري في كبادوكية في الأناضول مطلع الألف الثاني ق.م. نلاحظ دوراً مميزاً للنساء كن يمارسنه بالمشاركة مع أزواجهن بالدرجة الأولى. وسأتوقف هنا عند أرشيف أحد التجار المقيمين في هذا المركز التجاري وما يرد فيه من معلومات تفيدنا في الإطار الذي نبحث فيه.

التاجر المقصود هنا هو بوش أوكين الذي أقام منذ طفولته في كانيش بمرافقة والده، وعندما شبّ تزوج من امرأة آشورية، وخلال فترة طويلة من الزمن كانت تعيش هي في آشور وهو في كانيش مستمراً في مزاولة نشاطاته التجارية، وقد جرت بينه وبينها، وبينه وبين عدة نساء أخريات من أقربائه مراسلات عدة كانت تتعلق في معظمها بأمور تجارية وتصفيات حسابات. فمهمة هؤلاء النسوة كانت تأمين متطلبات تجارته في كانيش من آشور وإرسالها إليه. وبالمقابل كان يرسل هو ثمن هذه المتطلبات، وفي بعض الحيان كان يرسل هو إلى آشور مواد خام (صوف ومعادن) طالباً تصنيعها في آشور وإعادتها إليه. وتألفت المجموعة النسائية التي تعامل معها بوش اوكين من زوجته المدعوة لاماسي وابنته آخاخا وشقيقته تارشيماتوم وابنتها خاتيتوم. إلى جانب مجموعة أخرى من النساء تربطها ببوش صلة قربى من الدرجة الثانية. وسنورد هنا بعض الأمثلة التي تتعلق فقط بالمراسلات بين بوش اوكين وزوجته.

فمثلاً هناك رسالة يقول فيها بوش اوكين لزوجته" أرسل لك مع ختمي (أي رسالتي المختومة بختمي) مينا فضة و15 شيقل مع دان آشور. لتكن هذه مقابل قطعة قماش أو اثنتين من التي أرسلتها لي". وفي رسالة أخرى يؤكد بوش اوكين

---

[1]-مرعي،د.عيد: المرجع السابق. الصفحة 69.

[2]-أبو عساف، د.علي: الزراعة في إبلا. دراسات تاريخية العددان 43-44 عام 1992 الصفحة 11-12.

لزوجته انه استلم 28 قطعة قماش من أنواع مختلفة كانت قد أرسلتها له. ويبدو أن بوش أوكين كان يرسل الصوف من كبادوكية. وتقوم زوجته بتصنيعه إما بنفسها، أو بواسطة نساء أخريات وتعيد إرسالها إليه. وكانت للاماسي هذه مسؤوليات أخرى تتعلق بإدارة ممتلكات زوجها في اشور والتعامل مع شركائه وعملائه في هذه المدينة.

وعلى ما يبدو فإنه كان لبوش أوكين مشروع عمارة بين أو ما إلى ذلك، وكانت لاماسي مشرفة على العمل ككل وأرسلت تخبر زوجها" فيما يتعلق بالأعمدة طلب أوراني (وهو الرجل الذي كان يشرف على العمل مباشرة) الكثير، وأنا لم أستطع استئجار العمال". ويبدو أن الصوف في آشور كان مرتفع الثمن ولذلك فإن لاماسي تطلب من زوجها القيام بإخفاء كميات منه عند إرسالها إلى آشور عن أعين المراقبين الذين كانوا يقومون بتفتيش البضائع. "في المدينة (آشور) الصوف غال، عندما تريد أن تضع (في الصندوق) مينا واحدة من الفضة، ضع في داخله صوفاً (ربما المقصود تغليف الفضة بالصوف لتبدو وكأنها حماية لها)"[1]

وإذا ما انتقلنا إلى أوجاريت لوجدنا دورا تجارياً مميزاً مارسته نساء هـذه المدينة التجارية أصلاً. فهناك على سبيل المثال وثيقة تذكر أن المرأة بات – رابي وأخوها شوبعمو وأطفال المرأة لايافا، باعوا حقولاً إلى امرأة أخرى سمها تالايو[2]. ويبدو أن هذه الحقول كانت ملكية عامة، وأراد المالكون اقتسامها، فباعوها وحصل كل منهم على حصته نقداً.

وكان من بين كبار ملاكي الأراضي في أوجاريت في عهـد عميشـتمرو الثاني امرأة تدعى أميجي، وتؤكد الوثائق أن هذه المرأة اشترت مجمعـاً زراعيـاً ضخماً ضم حقلاً وكرماً من العنب ومزرعة زيتون وغيرها بمبلغ 740 وزنة مـن الفضة. واشترت في منطقة قريبة قطعة أرض ومزرعة زيتون بمبلغ 130 وزنـة من الفضة.[3].

ومن أرشيف إحدى العائلات التجارية في مدينة بابل، والذي يعود إلى فترة الاحتلال الفارسي لبلابل، نعلم انه في الفترة التي غاب فيها رأس هذا البيت عن

---

[1]– حول هذا الموضوع انظر بتوسع: في كريستينا ليتشكوفلسكا: النشاط الاقتصادي لنساء عائلة بوش اوكين (آشور الألف الثاني ق.م). في كتاب الشرق القديم: الجزء ارابع، يريفان 1983 بإشراف دياكونوف.

[2]–شيفمان: المرجع السابق. الصفحة 125.

[3]–شيفمان: المرجع السابق. الصفحة 143.

بابل خلال العامين الأولين من حكم الملك الفارسي قورش، فإن زوجته ووالدته استلمتا أعمال البيت، وقامت زوجته بتسليم مجموعة من العبيد التابعين لها لأحد الحرفيين من أجل تعليمهم مهنة الخياطة وذلك لمدة خمس سنوات. كما تعهدن لأحد المرابين بتسديد ما على زوجها من ديون. وهناك وثائق أخرى من نفس الأرشيف تتعلق بتأجير منازل يوجد فيها شرط ينص على أن تقبض الزوجة آجار هذه البيوت[1].

وعودة إلى الأرشيف الآرامي من مصر، لنشير إلى أن إحدى وثائق هذه الأرشيف تشير إلى قيام امرأة تدعى يهو حنا بنت مسلك بالاقتراض من رجل اسمه مشلم بن زكور مبلغاً من الفضة يُعادل أربع شواقل فضية وتحدد الوثيقة الفائدة المترتبة على القرض. وتتضاعف قيمة هذه الفائدة، إذا حلّ أجل السداد، ولم تتمكن المرأة من السداد، وإذا عجزت في الأجل الجديد، فإن المقرض يملك الحق في الحصول على كل ما قدمته هذه المرأة من ضمان لسداد القرض. ويلفت الانتباه في هذا العقد، أن الالتزام بسداد القرض ينتقل من هذه المرأة إلى أبنائها في حالة وفاتها قبل سدادها للقرض[2].

الدور السياسي:

هل مارست المرأة السياسة بصورة مباشرة خلال عصور الشرق القديم؟ من خلال رجوعنا إلى الوثائق ذات الطابع السياسي والتي تعود إلى الفترة موضوع بحثنا، نستنتج أن المرأة استُخدمت أحياناً من قبل أولياء أمرها من الحكام في تنفيذ أغراض سياسية. وفي أحيان أخرى كانت تباشر بنفسها هذه المهمة السياسية. فمثلاً من أمثلة النمط الأول، ما يسمى بالزواج السياسي والذي كان غالباً ما يتبع عقد الاتفاقات ومعاهدات السلام الموقعة بين الدول المختلفة. ومن اجل تمتين العلاقات اكثر فأكثر بين الدول المختلفة. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، لعل من أقدمها علاقات المصاهرة التي ربطت البيت المالك في إبلا مع مجموعة من الإمارات القريبة منها كايمار مثلاً. ومن الأمثلة المشهورة زواج زمري ليم ملك ماري من الأميرة شيبتو ابنة ملك حلب يارليم الأول. ولكن مثل هذا الزواج لم يكن يعط

[1]-مارتيروسيان: النشاط الاقتصادي لعائلة ايغيبي في بابل 555-522ق.م. في كتاب الشرق القديم، الجزء الرابع، يريفان. (باللغة الروسية).

[2]-الوثيقة منشورة في عدة كتب، مثلا: كتابPorten and yardini المذكور في الهامش الاول.

دائماً النتيجة المطلوبة، أي تمتين العلاقات، والمحافظة على علاقات سلمية بين الدول التي تربط بينها علاقات مصاهرة. فشولحي الملك الثاني في سلالة أور الثالثة. قام بتزويج ابنتيه من اثنين من ملوك عيلام. واحدة إلى ملك مارخاشي، وذلك في العام 2076 ق.م والثانية إلى ملك أنشان في العام 2036 ق.م. ولكننا سرعان ما نقرأ في احداث العام 2060ق.م من حكمه، قيامه بمهاجمة أنشان وتدميرها[1]. وهناك طريقة أخرى استخدم فيها الحكام بناتهم، ولكن هذه المرة من اجل إحكام سيطرتهم على الأوضاع داخل بلادهم، ونقصد بذلك تعيين هؤلاء الحكام لبناتهم ككاهنات رئيسيات في المعابد الكبرى الموجودة في بلدانهم. ومن المعلوم أن هذه المعابد لم تكن مجرد مراكز دينية فقط، بل تعدت هذا الإطار الديني إلى لعب دور اقتصادي مهم وذلك من خلال الملكيات الكبيرة التي كانت موضوعة تحت تصرفها كهدايا من قبل الحكام، كسباً لرضا الآلهة ورضا طبقة رجال الدين. فشاروكين الكادي عيّن ابنته كاهنة في معبد الإله نانا إله القمر في مدينة أور، وقام حفيده نارام سين بتعيين اثنتين من بناته ككهنة في معابد ماري. أما فيما يتعلق بممارسة النساء للسلطة السياسية مباشرة. فهناك أيضاً أمثلة على ذلك، نورد فيما يلي بعضاً منها:

بعد وفاة الملك شمشي حدد الخامس الآشوري، كان ابنه أدد نيراري الثالث صغيراً، فحكمت أمه سمور رامات باسمه خمس سنوات، وعُثر على نقش يحمل الكتابة التالية:"نصب سموررامات سيدة قصر شمشي أدد، ملك الكل. ملك بلاد آشور، أم أدد نيراري، ملك الكل ملك بلاد آشور...". وتذكر حوليات الملك الآشوري شاروكين (722-705ق.م) انه استلم الجزية من امرأة تدعى شمس ويصفها بأنها ملكة العريبي. وهناك كتابة أخرى تتعلق بنفس الموضوع يرد فيها أسماء أربعة شيوخ أحضروا باسم ملكتهم إلى الملك العظيم (والمقصود الملك الآشوري) هدايا عظيمة[2].

وفي عام 703 ق.م قامت يتيعه ملكة العريبي بإرسال أخيها بسقنون ومعه جيش لمساعدة الملك البابلي مردوك أبال – أدينا ضد سنحاريب ملك آشور. وفي

---

[1]- قابلو، جباغ: تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي. منشورات جامعة دمشق 1997، الصفحة 82.

[2]-إحسان عباس ومحمود أبو طالب: شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري. عمان 1991 الصفحة 8-9.

العام 688ق.م قام هذا العاهل الآشوري بحملة ضد تعل خونو والتي يصفها بأنها ملة العرب، فهزمها في الصحراء واستولى على إبل كثيرة منها.

وقد استمرت هذه المرأة في الحكم خلال فترة حكم الملك الآشوري أسرحدون (681-669 ق.م) وجزء من حكم آشور بانيبال (668-627 ق.م). ومن كتابات هؤلاء الملوك الآشوريين، نعلم ان هؤلاء الملكات كن يحكمن القبائل العربية المنتشرة في مناطق شبه الجزيرة العربية وتلك المتاخمة لها من ناحية البادية الشامية. ومن المعلوم أن الأميرة شيبتو زوجة زمري ليم ملك ماري، كانت تشرف على شؤون المدينة أثناء غياب زوجها عنها، وقد حفظ أرشيف ماري بعض الرسائل التي أرسلتها هذه الأميرة إلى زوجها تخبره فيها عن أحوال المدينة وتطمئنه عن أمورها. من مثل هذه الرسالة " كل شيء على ما يرام في ماري المعابد والقصور". كما ان بعض كبار المسؤولين كانوا يوجهون الرسائل إلى "ملكتهم أثناء غياب زمري ليم عن المدينة. وكانت تضع ختمها الأسطواني الذي يحمل الكتابة التالية "شيبتو بنت ياريم ليم زوجة زمري ليم" على بعض الأبواب، وسلال اللوحات والمستودعات.[1]

كما انه من المعلوم أن زوجات وأمهات ملوك أوجاريت لعبن دوراً هاماً في الحياة العامة لهذه المدينة. فعندما وقع الخلاف بين ملك أوجاريت عميشتمرو الثاني وأخوته، قامت والدتهم، كما تؤكد الوثيقة التي وضعت بحضور إينيشوب ملك كركميش بلعب دور هام في غنهاء الخلاف وحسمه لصالح الملك الأوجاريتي. يقول مقطع من الوثيقة"خشمي شاروما وعبدي شاروما، اقترفا إثماً بحق عميتشرو ملك أوجاريت، وأعطتهما أخت مليكو والدتهما ملكة أوجاريت نصيبهما من التركة، من فضة وذهب وموجودات ونفتهما إلى آلاشيا (قبرص) وأقامت القسم بينهما أمام عشتروت السهلية[2].

كما أن هذه الملكة لعبت دوراً هاماً في قضية طلاق نفس هذا الملك الأوجاريتي من ابنة ملك عمورو التي أشرنا إليها آنفاً.

---

[1]- بارو، أندريه: ماري. ترجمة رباح نفاخ. الصفحة 175- 176.

[2]-شيفمان: المرجع السابق، الصفحة 134.

أخيراً نشير إلى أننا نعلم أسماء بعض الملكات من عصور مختلفة لحكم كونهن زوجات حكام دون ان نعلم أي نشاط مارسنه. من مثل هذه الملكة بو آبي زوجة الملك ميسكا لادوغ ملك أور في عصر السلالات الباكرة.

الدور الديني:

أشرنا آنفاً إلى أن بعض الحكام قاموا بتعيين بناتهم كاهنات في المعابد الرئيسية في بلدانهم، وذلك بغية تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية. ومن المعلوم أن المعابد حوت طبقات مختلفة من الكاهنات. بعضهن كن يقمن فيها بصورة دائمة. والبعض الآخر كن يملك الحق في الإقامة في هذه المعابد أو في منازلهن.

وكانت للبعض من هؤلاء الكاهنات مكانة عالية في المجتمع، بسبب المكانة العالية للآلهة والمعابد التي كن كرّسن من أجلها. ولم يقتصر تعيين الكاهنات على بنات الطبقة العليا من المجتمع، بل تسابق الكثير من الرجال لتكريس بناتهم ككهنة في المعابد المختلفة، لما كان لهذه الوظيفة من مكانة اجتماعية. وسنورد فيما يلي بعض الفئات الكهنوتية النسائية مع تعريف بسيط بكل وظيفة:

الناديتوم والإنتوم: وهن كاهنات من الدرجة الأولى. وكن يقمن بدور الزوجة في احتفالات الزواج المقدس السنوية، التي كانت تهدف إلى تجديد الخصب في الطبيعة وكان بإمكانهن الزواج. ولكن دون إنجاب أطفال. ويبدو أن بعض من تولى الحكم في بلاد الرافدين كانوا نتيجة لمثل هذا الزواج. على الأقل هذا ما يمكن استنتاجه من كتابة لجوديا حاكم لاجاش (2143-2124ق.م) والتي هي عبارة عن صلاة للآلهة جاتو مدد"ليس لي أم أنت أمي، ليس لي أب أنت أبي، أنت تلقيت نطفتي وولدتني في المعبد"[1]

الشوجيتوم والقاديسشتوم(وغيرهن) وهن من الكاهنات اللواتي كان يحق لهن الزواج وإنجاب الأطفال. ولكن كنّ أقل مرتبة من فئة الناديتوم.

---

[1]- مرعي، د.عيد: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام 539 ق.م. دمشق، الطبعة الأولى 1991، الصفحة 5

الخـــاتمـــة

من خلال ما استعرضناه وما أوردناه سواء من مواد قانونية، أو وثائق، نصل إلـــى أن المرأة في سورية وبلاد الرافدين، كانت تمارس دوراً فاعلاً وفعّالاً في مختلــف أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية. ولم يكن دورها مهمشاً كما قد يعتقد البعض. وإن كان هذا الدور تزداد أهميته في بعض الأحيان وتتراجع فـــي أحيان أخرى، حسب الأوضاع العامة التي كانت تعيشها المنطقة.

منحوتة من الفترة الحثية الجديدة
في حلـــب*

مورتيس فان لون
ترجمة عبد الله حجار

لقد شدد كثيرون على أهمية حلب كمركز سياسي وديني في عصري البرونز القديم والأوسط وفي العصر الحديدي كما بينت النصوص، وهاهي بعض الحقائق حول ذلك:

حوالي العام 1350 ق.م عيّن الملك الحثي العظيم شوبيلو ليوما الأول ولده تلبينو كاهناً أعظم في حلب لإله العاصفة تيشوب وزوجته هيبا Hepa وولدهما شروما Sarruma. ويسجل تلمي شروما ابن تلبينو وخليفته في كتابة هيروغليفية حثية موجودة في جامع القيقان في حلب، بناءه معبداً لهيبا شروما (أو هيبا وشروما) ربما كان قريباً من معبد إله العاصفة المقام سابقاً. ويبدو ان حلب قد عانت نفس الدمار الذي تعرّضت له كركميش وحتى حوالي العام 1185 ق.م على يد شعوب البحر.

وكان يبدو دائماً غريباً للمؤلف (فان لون) أنه فيما عدا أربع كتابات من عصر البرونز القديم وكتابة من البرونز المتأخر لم يبق من هذا المركز العظيم حلب سوى قطعة حجرية بازلتية orttiotat نشرت لأول مرة عام 1931 (من قبل تلدا دي روترو في مجلة الحوليات السورية (1931) وبيبنيه دوسو في سورية12(1931) ص 95 وما بعدها وقد وجدت قطعة الحجر معاد استعمالها في جدار متأخر في قلعة حلب وقد نقلت وهي الآن في حديقة متحف حلب وقد ناقشها الباحث ونغريد أورتمان مطولاً وتوصل إلى أنها من المحتمل أن لا تكون في طرازها من الفترة الحثية الجديدة.

إن مادة الموضوع الديني – جنيان مجنحان يعبدان إله الشمس والقمر – يعيد هذا اللوح إلى مجموعة ألواح الفترة الحثية المتأخرة الأولى (1150 – 950 ق.م) والثانية (950 – 850 ق.م)، وتاجا الجنيين مع قرنيهما اللذين يشكلان خطاً أفقياً مستقيما ينتهي في نقطتين بشكل شاقولي من الأمام ومن الخلف هما مظهر يشاهد مثلاً في الفترة الحثية المتأخرة الثانية في ملاطية. كما ان القبضات المطبقة للأيدي احتراماً

* – نشرت هذه المقالة بالانكليزية في المعهد الهولندي للتاريخ في استانبول عام 1995 بمناسبة بلوغ الأستاذ هـــ.ج هوفنيك **H.J. Houwink** الخامسة والستين.

أو تحية هي تقليد حثي مأخوذ من الآشوريين منذ زمن تيكولتي – ننيورتا(1244 – 1208ق.م) كما أن لمس أو حمل الرموز السماوية له أصول ميتانية مسبقة كما بين أورتمان. وبالرغم من النموذج الحي لوجهي الجنيين (الشكل 196) الذي يذكر بالتماثيل الآشورية في القرن التاسع ق.م يفاجأ المرء بوضع الركبتين البشع وعدم تناسق التكوين. ومن الواضح أن النحات بدأ العمل من اليسار ولم يترك فراغاً كافياً لجناح وقدم الجني في الطرف الأيمن. وهناك بعض ألواح من الفترة الحثية المتأخرة الأولى والثانية كما في رنجرلي **A2** و **A7** وتل حلف **A3/167** و **A3/49** تبين نفس النقص في الشاقولية الصلبة. وينحو الدليل الجديد الذي سأقدمه فيما يلي إلى تأكيد تأريخ أورتمان بإعادة اللوح إلى القرن العاشر قبل الميلاد.

سنحت الفرصة منذ فترة للكاتب (فان لون) أن يقرأ كتيب علي أبو عساف الجميل عن معبد عين دارا في شمال سورية. وبين أهم الأحجار المصورة التي كانت تكسو جدران المعبد في مرحلته الثانية كان هناك لوحان من البازلت فيهما تزيينات هندسية تبدو وكأنها تشبه النوافذ ذات شبك والغريب أن قطع الأحجار المستطيلة كانت تستند على أضلاعها الطويلة بينما وضع الضلع القائم بحيث تقسم النافذة إلى لوحين مُلء كل منهما بثلاثة أشكال رقم ∞ وعند التقاطع المركزي لكل شكل ∞ هناك ضلع يمر بوضوح فوق الآخر ويقع المحراب في الجدارين الجانبيين للغرفة الداخلية وكل حجر بين شكل نافر لإله جبل وزاوية الغرفة وليس هناك أية بقايا أثرية تجعلنا نقترح ضرورة وجود نافذة كاذبة أو باب في هذه الأماكن. وهناك قطعة حجر مماثلة تشكل جزءاً من درابزون الممر الذي أضيف إلى المعبد من الخارج في مرحلة ثالثة كما يشاهد من الممر ومن الخارج. احتوى أحد الوجهين مشهداً مخرباً حالياً يتضمن ثوراً ربما جلب للتضحية به، بينما يبين الوجه الآخر الشبكة وشكل ∞ المعروف. وربما تمثل هذه الأحجار درابزونات مزخرفة وليس نوافذ.

بمراجعتي كتيب أبو عساف قارنت بين أحجار " النافذة الكاذبة" والشبكات الجزئية التي وجدت في سوية الخرائب الكبرى في حماه مباشرة شمال وقرب مدخل القصر حيث كل ما ترك من البناء الصغير والهام والذي ربما كان معبداً في هذه البقعة كان أساسات جدار وبلاطات أرضية وجيزان من خشب الأرز وأجزاء منحوتة أسد. ويذكر دليل مكتوب "بعلات" (السيدة) مما يجلب إلى الذاكرة بناء مهلهلاً مماثلاً إلى

جانب مدخل قصر العصر البرونزي المتأخر في قطنا في سورية وقد كرّس إلى "سيدة القصر".

وتتناوب الفتحات المستديرة مع فتحات مثلثة الشكل بنفس الطريقة. ويبقى سبب وضع شبكات مماثلة في الغرفة الداخلية في عين دارا غير واضح ما لم يكن يعلوها نوافذ حقيقية.

زرت مؤخراً كلاً من عين دارا وقلعة حلب وقد دُهشت من الشبه الكبير بين أحجار "النافذة الكاذبة" في عين دارا وقطعة الحجر بحلب والذي كانت وظيفته غامضة عليّ فيما سبق وو ضمن أحجار جدار مبني في القرون الوسطى مباشرة إلى يسار مدخل الجامع الكبير في قلعة حلب. وواضح انه صنع من الحجر الكلسي ويحتوي كل لوح أربعة أشكال للحرف (∞) وكما هو الحال في أحجار عين دارا وخلافاً لكسيرات شبكة حماه يبين الشكل بكامله شبكات مخرمة. ولم تحفر الفتحات بكاملها في الحجر.

إن الشبه بين منحوتات "النافذة الكاذبة" في حلب وعين دارا كبير جداً، بما في ذلك طريقة مرور أحد أقطار الربط فوق الآخر، بحيث أنه لا يوجد أي شيء بأنهما يتبعان نفس الفترة ونفس الحضارة. وقد اقترح أبو عساف القرن العاشر قبل الميلاد للمرحلة الثانية في عين دارا.

السقاطات
نشأتها وتطورها عبر العصور

المهندسة:هوري بارسوميان

القلاع أو المنشآت الدفاعية هي من أقدم الشواهد المعمارية التي وصلت إلينا عبر العصور قاهرةً العدوان وقوى الطبيعة. وقد بدأ تطورُ العمارة الدفاعية مع أقدم الحضارات التي بلغت الذُروة في الكمال خلال العصور الوسطى إلى أن انتهى دورها في نهايات القرن السادس عشر بعد أن عجزت عن أداء وظيفتِها أمام الوسائل الحربية المتطورة.

تتألف القلاع، ككل المباني، من عناصر رئيسية وتفاصيل مكمّلة لتكوين وحدة متكاملة. وتأتي الأسوار في الدرجة الأولى من حيث الأهمية بسبب جدرانها الضخمة المصمتة وبواباتها المحصّنة وأبراجها ومزاغلها وأخيراً سقاطاتها.

ماهي السقاطات ووظيفتها ومتى وأين ظهرت وكيف تطورت؟. أسئلة عديدة تتطلب إيجاد أجوبة مقنعة لها .

تسمية السقاطة في اللغات المختلفة

في العربية ــ السقاطة

في الإفرنسية ــ **machicoulis**

في الإنكليزية ــ **machicolations**

في الألمانية ــ **maschiculi**

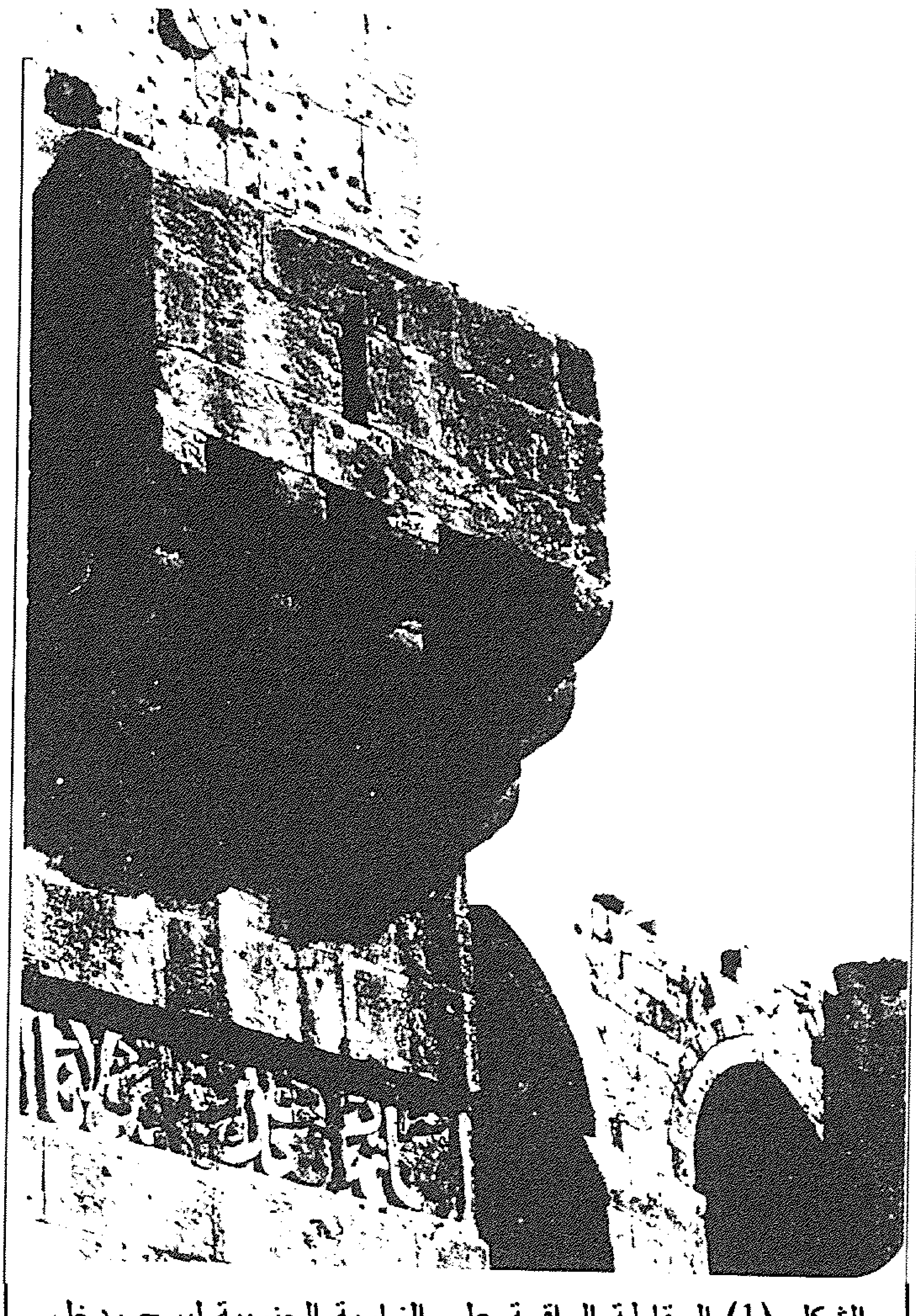
وفي الأرمنية ــ **hragnad**

تعريف السقاطة وظيفياً ومعمارياً

السقاطة من الناحية الوظيفية هي فتحة دفاعية تمكّن المدافع من إلقاء مواد كاوية كالزيت أو الزفت أو الماء المغلي من خلال فتَحاتها على المهاجمين أثناء تواجدِهم تحت الأسوار مباشرة بالإضافة إلى تسديد السهام من المزاغل بالاحتماء

خلف جدارها الأمامي [الشكل رقم1] .

ويمكن تعريفها معمارياً على النحو التالي:السقاطات هي أكشاك صغيرة تبرز عن السطح الخارجي للجدران أو الأسوار وتتوضّع في الطوابق العلوية للبناء وتحتوي على عدد من الفتحات على الجهة السفلية منها تسمى الكُوى [مفردها كوّة] **machicolation**، وهي الحيّز المتشكل بين الطُنُف **corbels** [مفردها الطُنْف] التي تحمل الجدار الأمامي لحجرة السقاطة. ولكل سقاطة مزغل على جدارها الأمامي لرمي السهام. والمزغل هو الفتحة الشاقولية الضيقة التي تسمى **slit** أو **loophole**. وأخيراً يُغطى القسم العلوي من السقاطة بقطع حجرية مائلة نحو الجهة الخارجية للحماية وتصريف مياه الأمطار والثلوج [المخطط **A**].



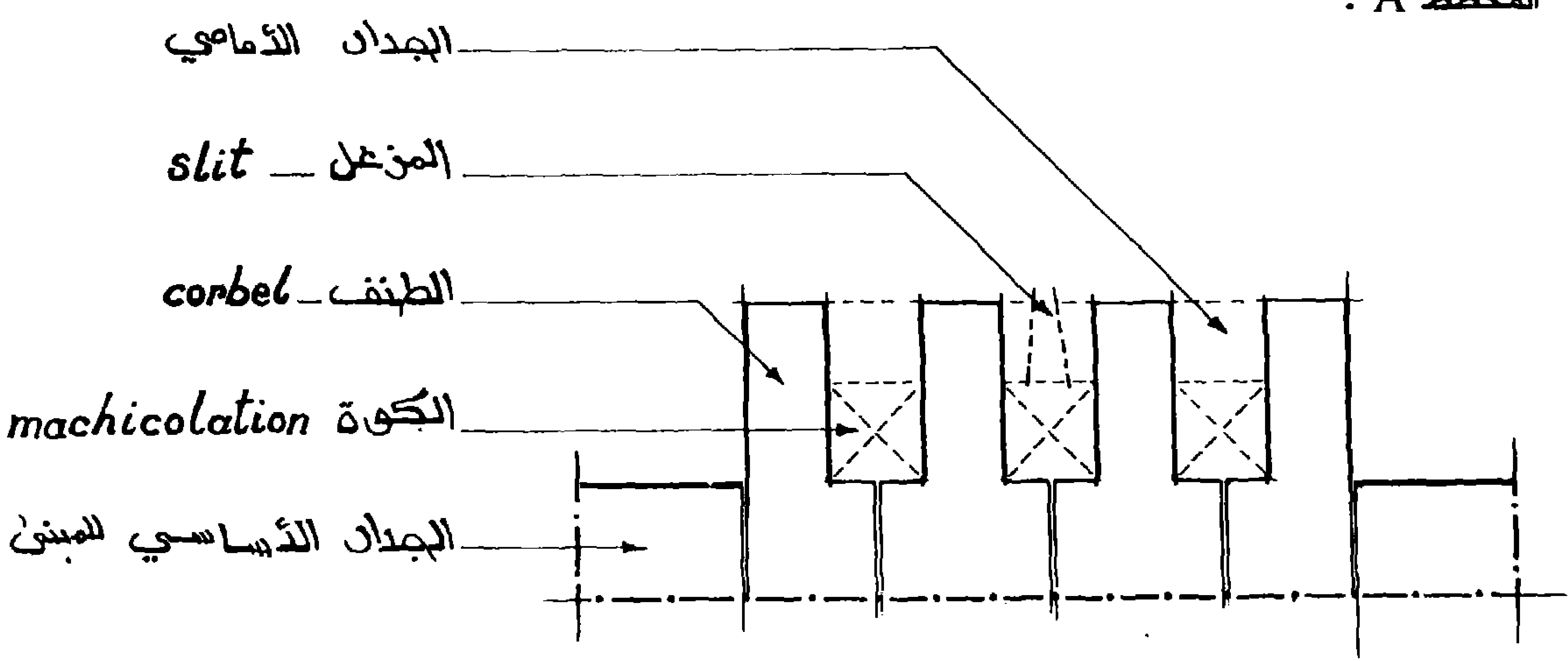
الشكل (1) السقاطة الواقعة على الزاوية الجنوبية لبرج مدخل قلعة حلب الرئيسي من العهد الأيوبي

هذا من الناحية الخارجية للسقاطات. أما من الداخل تبدو السقاطات كحجرات صغيرة ترتفع عن منسوب الصالة أو الممر بعلو درجة أو أكثر. ونجد بداخلها مصطبة التي هي في الحقيقة امتداد لجدار المبنى الأساسي. ولهذه المصطبة

مخطط توضيحي للسقاطة

إعداد: م.هوري بارسوميان

المخطط A :



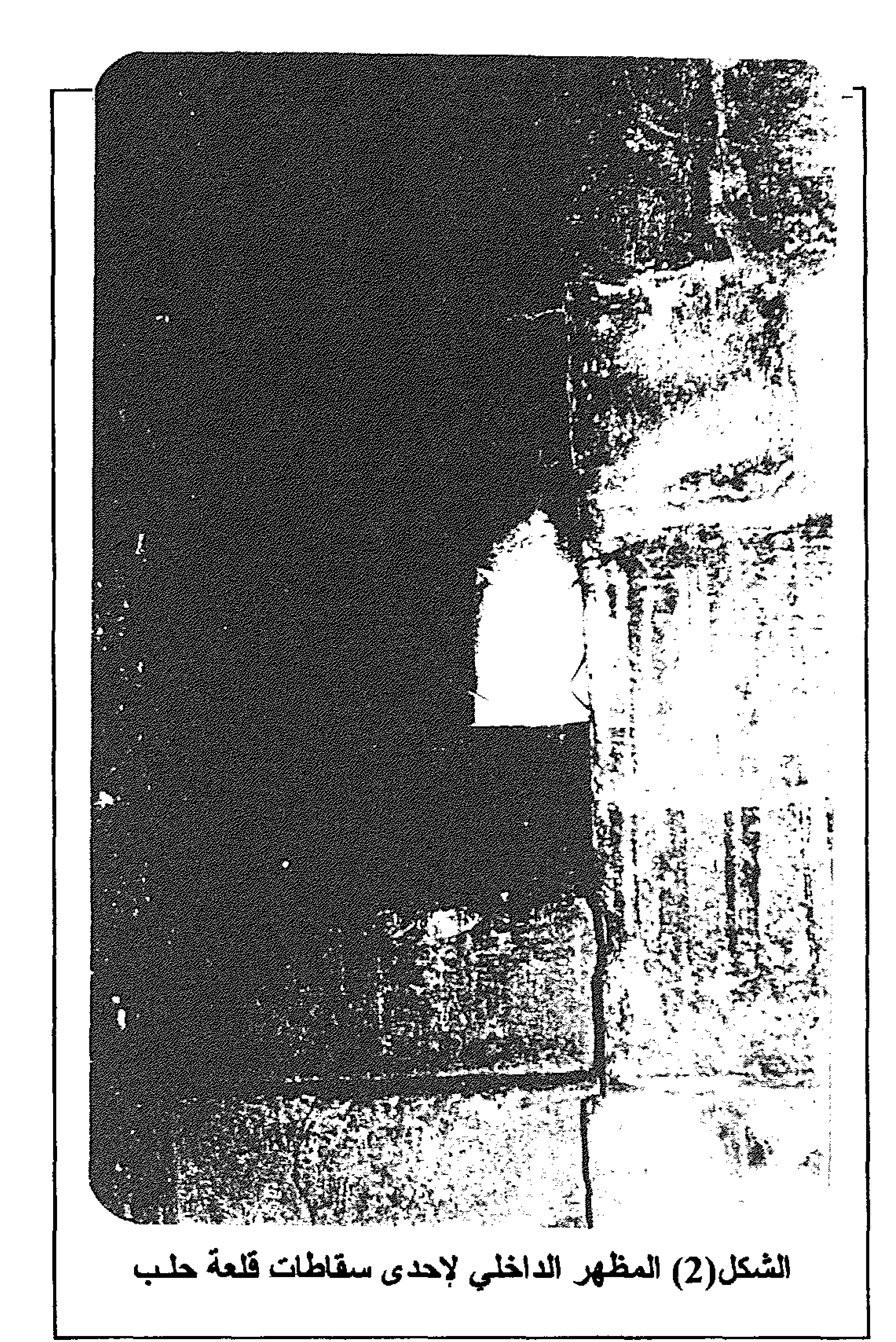
<u>أولاً</u> — حماية المُدافع من خطر الانزلاق نحو الكوة.

<u>ثانياً</u> — الارتكاز عليها لتسديد السهام أو إسناد القدور التي تحتوي على السوائل الحارقة [الشكل رقم 2].

كانت هذه الحجرات مفتوحة أحياناً ومغلقة بباب في أحيان أخرى، إلا أنه لا يمكن التأكد من هذه الحقيقة بسبب الظروف الحالية للأبنية الأثرية. وهناك ثقوب في الجهة العليا والسفلى من بعض السقاطات في قلعة حلب قد تكون ثقوباً لمفصّلات أبوابها. ونتساءل هنا حول وظيفة هذا الباب إنْ وُجِد لحماية المدافع من عوامل الطقس أم من الهجوم عليه من الداخل بعد فتح القلعة وخاصة أن عدداً من السقاطات ترتبط ببعضها بعضاً بممر خلفي. ونؤكد أن مصادر تاريخ العمارة لا تذكر شيئاً حول هذا الموضوع.

لنلقي الآن نظرة فاحصة على الحلول الإنشائية المستخدمة في بناء هذا العنصر.

تُعَالج السقاطات الكائنة على السطوح المستوية إنشائياً كفتحات عادية مثل النوافذ ويُحَمّلُ الجدار الأمامي لحجرة السقاطة على الطنف [المخطط B]، بينما السقاطة الواقعة على زاوية المبنى تخلق ضرورة تدعيم البناء بسبب تفريغ الجدار في هذا الموقع الحسّاس. وقد عالج المعماريون والبناؤون القدماء هذه المشكلة بإضافة عمود في موقع التقاء الجدارين الأساسيين [أي عند الزاوية بالذات] لحَمل ثقل المداميك أو الطوابق

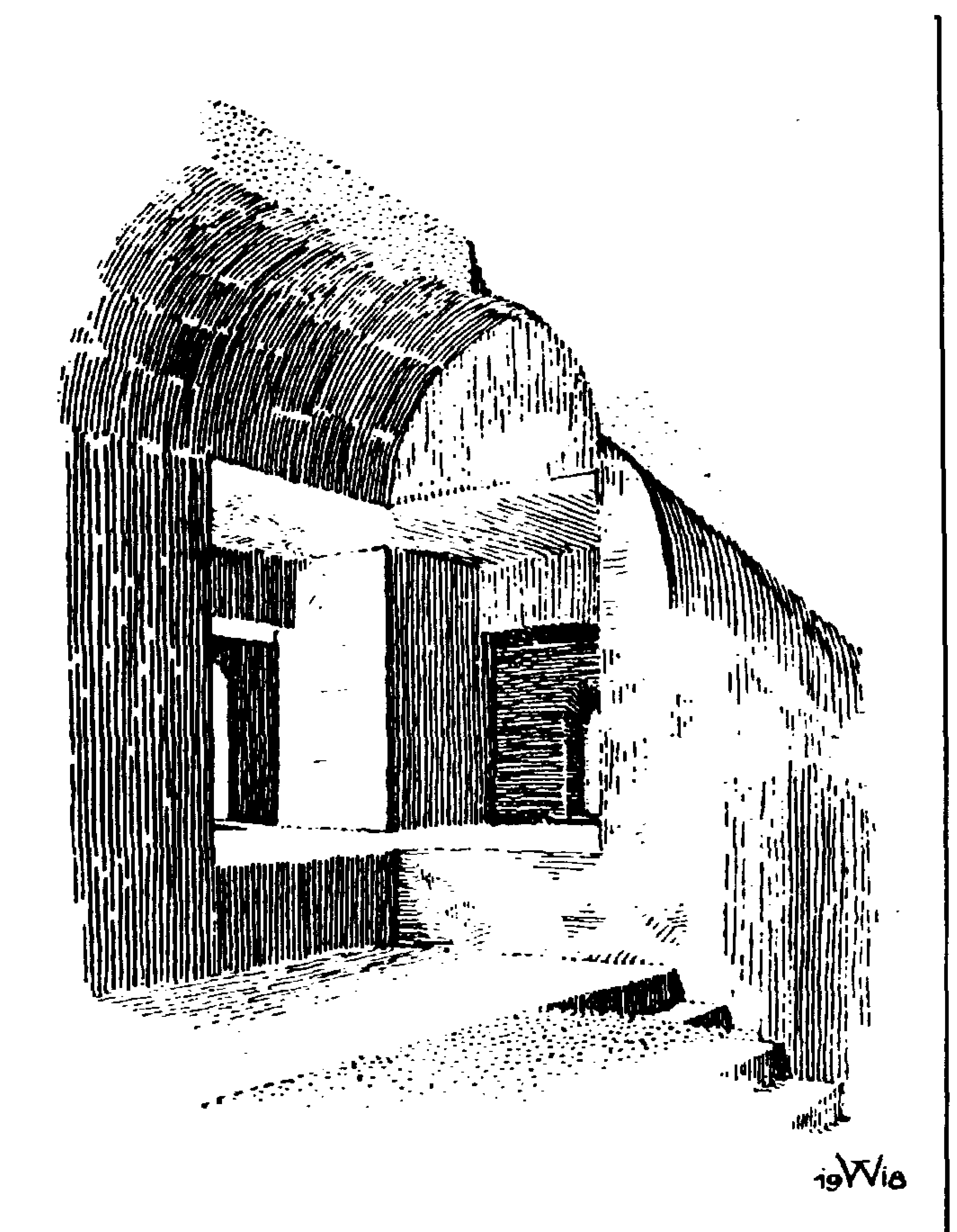


الشكل(2) المظهر الداخلي لإحدى سقاطات قلعة حلب

العلوية حسب تصميم البناء. وتصل أبعاد هذا العامود في قلعة حلب إلى **70x70** سم تقريباً [المخطط C]، بينما نجد على باب الحديد لمدينة حلب أن أبعاد العمود أقل بكثير لعدم وجود حمولات إضافية عليه. وتجدر الإشارة هنا أن سقاطات هذا الباب رُمِّمت حديثاً وقد تكون أبعاد العمود المستخدم حالياً غير مطابقة لأبعاد العمود الأساسي الذي شُيِّد في عام**1510** أي في عهد قانصوه الغوري الذي هو التجديد الأخير [الشكل رقم 3].

أنواع السقاطات :

إلى جانب الشكل النموذجي للسقاطة هناك نوعان آخران من الفتحات تصنَّفان ضمن السقاطات نظراً لوظيفتيهما المتشابهتين وهما:



الشكل(3) المظهر الداخلي لإحدى سقاطات قلعة دمشق الواقعة على إحدى الزوايا. العصر الأيوبي

أولاً ـ الفتحة العلوية المخفية للبوابات سواء كانت أبواب مدن كالباب الرئيسي لمدينة الرَصافة من الفترة البيزنطية أو باب توما في دمشق من العهد الأيوبي أو الأبواب الخارجية الرئيسية والداخلية الثانوية للقلاع. ومثالنا على ذلك الباب المؤدي إلى الباحة التي تتوسط القلعة الداخلية والسور الخارجي في قلعة الحصن [المخطط **D**]. وهذا الباب يعود للفترة الممتدة بين عامي **1202** و **1250**. ولهذا الباب تحصينات مزدوجة هما كوى القذف وباب حديدي منزلق ضمن قناة خاصة يسمى **portcullis** .

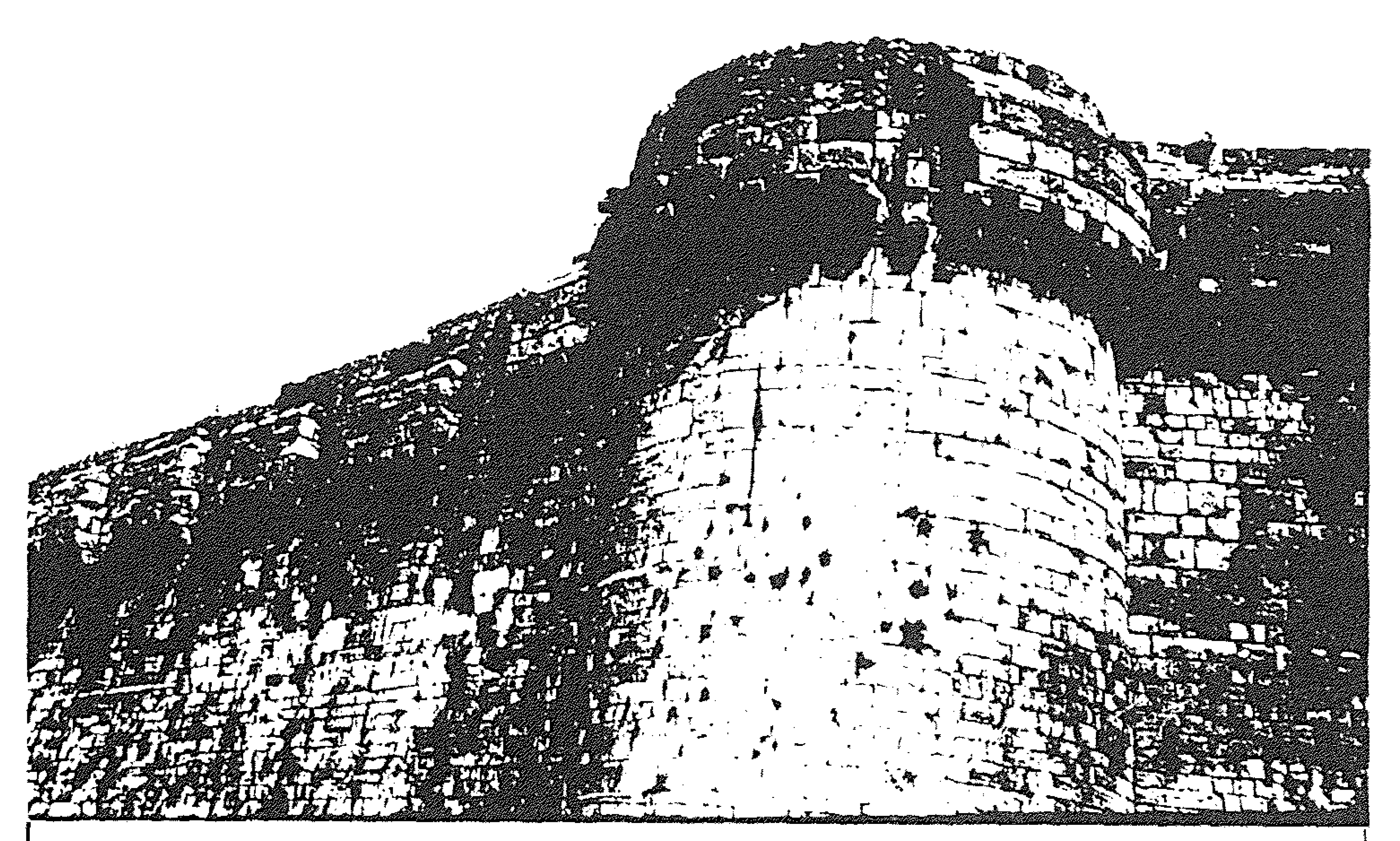
ثانياً ـ الفتحات المتوضّعة في سقوف الصالات أو الممرات في الطوابق السفلية والمرتبطة بالمدخل لعرقلة تقدُّم المهاجمين وذلك بقذف مواد حارقة ومهلكة مختلفة.

تطور السقاطات

إن النظرة الأولية على مسار تطور السقاطات تؤكد أنها ظهرت في البداية بمقاييس صغيرة و أشكال بسيطة. إلا أن عدد الفتحات ازداد مع الوقت إلى أربعة و خمسة أو أكثر في بعض الأحيان كقلعة مصياف على الرغم من حالتها الحالية المزرية. و هناك قلعة بعلبك التي تمتاز أيضاً بسقاطاتها المتعددة الكوى.

أما في الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر عندما بلغت الهندسة المعمارية العسكرية أوج ازدهارها، تطورت السقاطات أيضاً وظهرت إلى جانب الأكشاك المنفردة شرفات ذات كوى **machicolated galleries** في أعلى الأسوار وحول الأبراج الدفاعية بشكل خاص. وقد تكون هذه الشرفات تعبيراً معمارياً أكثر تطوراً لفكرة الشرفات التي كانت موجودة في الحصون البدائية الخشبية حيث نجد في هذه القلاع البدائية شرفات داخلية معلقة خلف السياج يُصعد إليها بواسطة سلالم وتستخدم للغرض ذاته أي لتسديد السهام والرماح وقذف الأحجار والسوائل الحارقة [الشكل رقم **4**] .

تعدّ قلعة الحصن النموذج الأفضل بين قلاع العصور الوسطى أو القلاع



الشكل(4)جانب من أسوار قلعة الحصن حيث يظهر البرج المجاور لبرج بيبرس وامتداد السور مع سقاطات إفرادية

التي تطورت أثناء الحروب الصليبية لأنها تقدم فكرة واضحة جداً حول السقاطات والشرفات ذات الكوى رغم وضعها الحالي السيئ[المخطط E الذي يمثل البرج المجاور لبرج بيبرس من الجهة الشمالية وأنشيء هذا البرج على الأرجح بعد زلزال عام 1202 لا بعد عام 1250 أي فترة سيطرة الفرنجة على القلعة].

الشكل رقم 5: السقاطة ذات المسقط الدائري على البرج المتقدم الجنوبي في قلعة حلب من العهد المملوكي

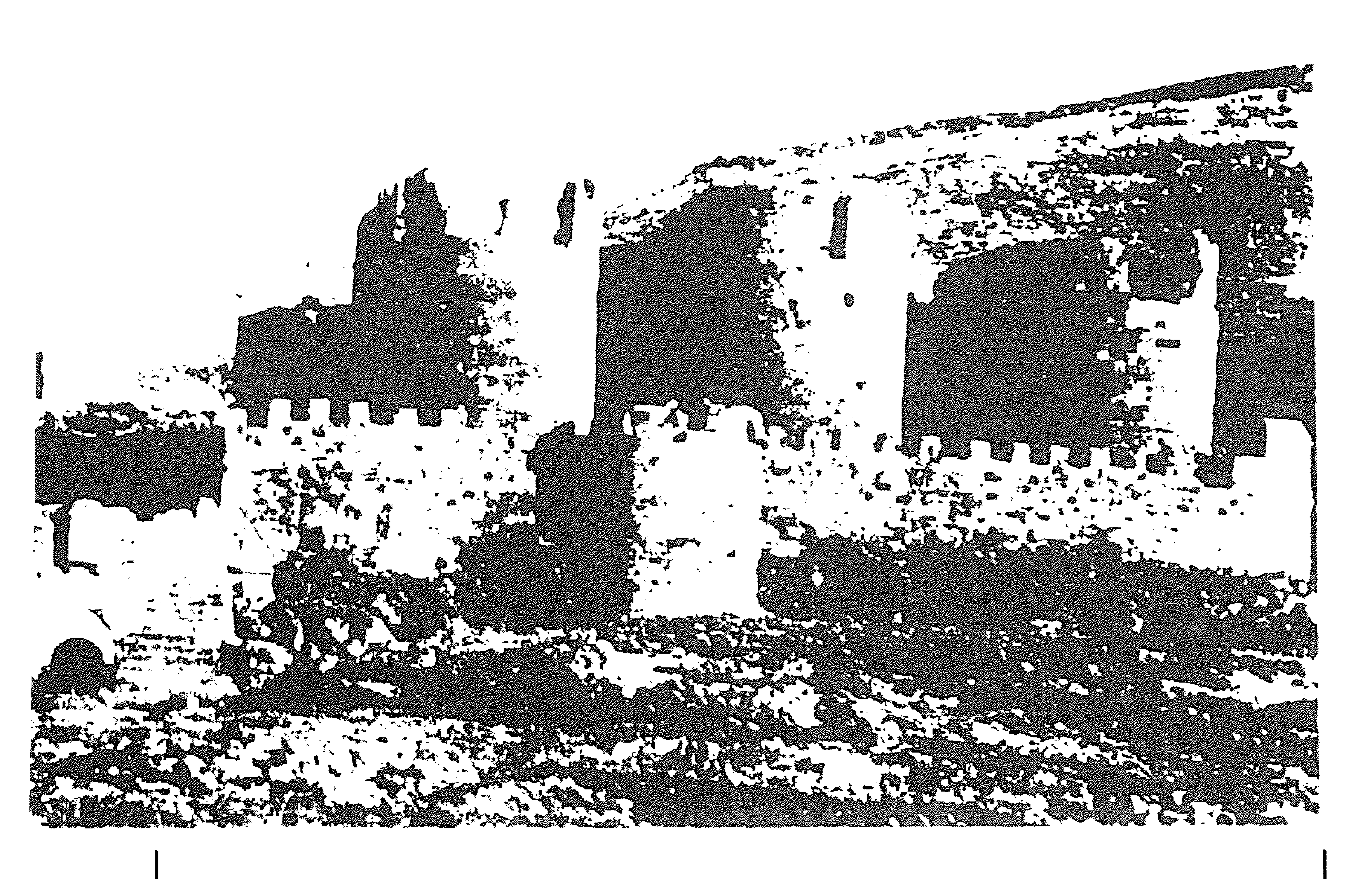
أما قلعة قايتباي في الإسكندرية من الفترة المملوكية، التي لا تزال في حالة أفضل من مثيلاتها بسبب ترميمها، فإنها تقدم لنا فكرة أوضح عن استخدام السقاطات والشرفات ذات الكوى في آن واحد.

مع دخول الأسلحة النارية ميدان المعارك في نهاية الحكم المملوكي وقُبَيل الاحتلال العثماني ابتداء من نهايات القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، خضعت مزاغل السقاطات لتعديل خفيف وذلك بتوسيع الفتحة الشاقولية للمزغل إما في منتصفها أو في القسم السفلي منها لتوفير إمكانية وضع فوهة المدافع الصغيرة خلفها مباشرة [شكل رقم 5]. وهذا النموذج يختلف عن السقاطات

السابقة بمسقطه الدائري بدلاً من الشكل الرباعي وتظهر توزيع المزاغل بوضوح. ويعود البناء إلى الفترة المملوكية في عهد الأمير جكم وإعيد تجديده في عهد الملك الأشرف أبو النصر وقانصوه الغوري من بعده وذلك في عام **1509** .

نشأة السقاطات وانتشارها واستخداماتها

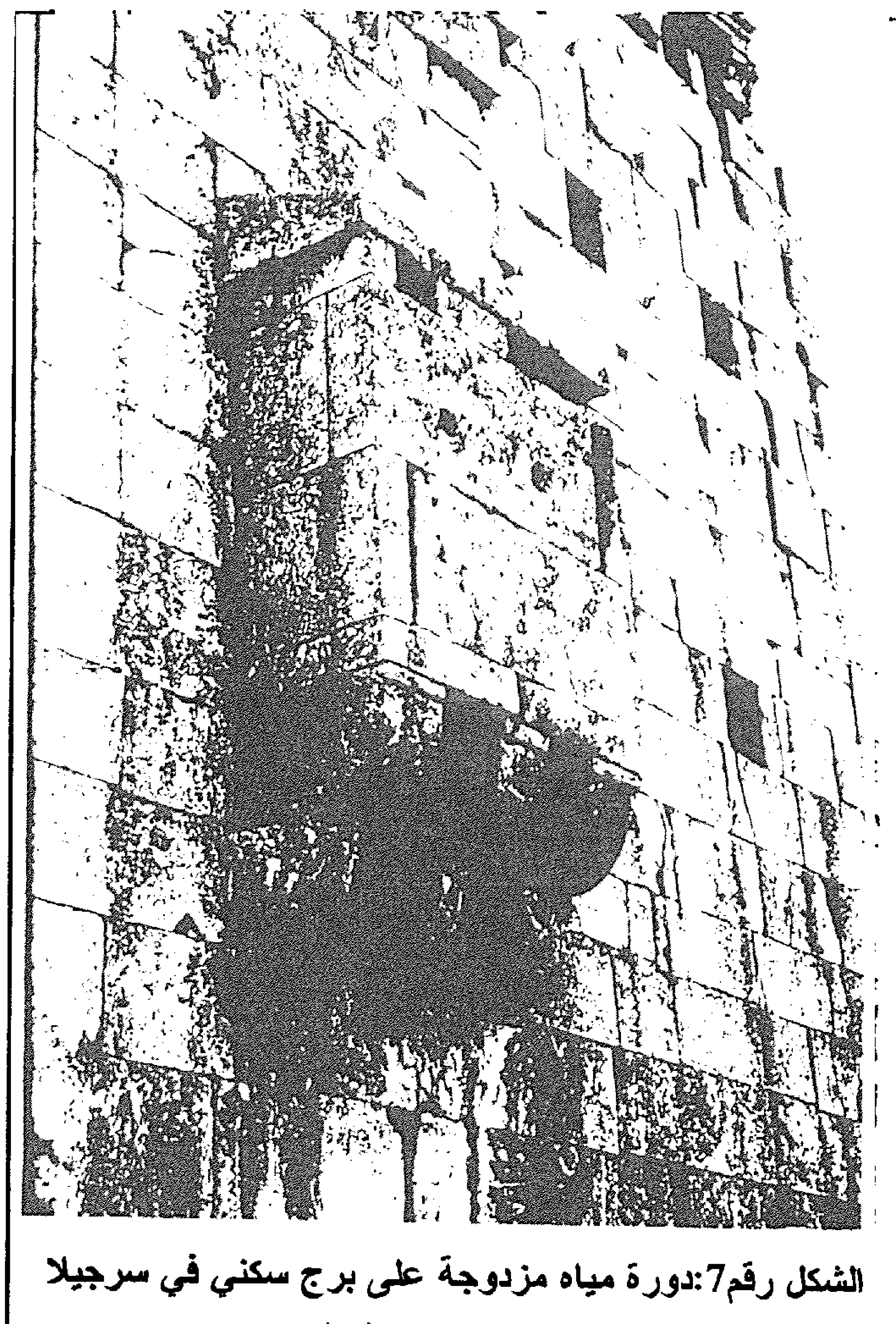
تم التوصل من خلال أبحاث عديدة إلى أن أقدم نموذج لهذا العنصر المعماري الدفاعي يقع على مدخل إحدى القلاع الأرمنية التي تبعد عن "آني"، العاصمة الأرمنية البقرادونية في القرون الوسطى، مسافة أربع كيلومترات إلى الجهة الجنوبية ـــ الغربية لضفة نهر "آراز". وتقع أطلال هذه المدينة حالياً داخل حدود تركيا وفي ولاية قارص وتسمى هذه القلعة "قلعة ماغاس" نسبة لبانيها الأمير الأرمني ماغاس. ويعود تاريخ إنشائِها، وفق تقديرات المؤرخين، إلى ما بين عامي **582** و **602** أي إلى فترة السيطرة البيزنطية على هذا القسم من أرمينيا. وإن وجود السقاطة فوق مدخل القلعة دليل قاطع على وظيفتها الدفاعية.



الشكل رقم 6:قلعة ماغاس 582-602

لا يُذكَر في تاريخ القلعة أنها رُمّمت لاحقاً لأنه تمّ هجرها بعد الغزو المغولي وتداعت مبانيها ولم يبقَ منها الآن سوى بعض المقاطع من السور [الشكل رقم **6**. صورة مأخوذة في القرن التاسع عشر].

انطلاقاً من النموذج السابق يمكننا التأكيد مبدئياً على أن السقاطات كعناصر دفاعية كانت تستخدم منذ القرن السادس الميلادي أي أثناء الهيمنة البيزنطية على الشرق. وهكذا نرى أن سقاطة قصر الحير الشرقي المشيَّدة في عام **728** ليست الأولى لأن السقاطة التي اكتُشفت على قلعة ماغاس الأرمنية أقدم منها بقرن ونصف تقريباً.



الشكل رقم7:دورة مياه مزدوجة على برج سكني في سرجيلا من القرن السادس الميلادي

ومع ذلك كانت السقاطات كعناصر معمارية موجودة قبل هذه الفترة منذ القرن الرابع والخامس الميلاديين ولكن بوظيفة مختلفة تماماً عن تلك المعروفة على الأبنية الدفاعية. ويمكننا العثور على نماذج كثيرة من هذا العنصر في المنطقة الشمالية ـــ الغربية من سوريا وتحديداً في الكتلة الكلسية وفي المدن الهلنستية والبيزنطية المنسية متوضّعة على أبراج النسّاك وجدران الفيلات وكانت تستخدم كدورة مياه!! [الشكل رقم7].

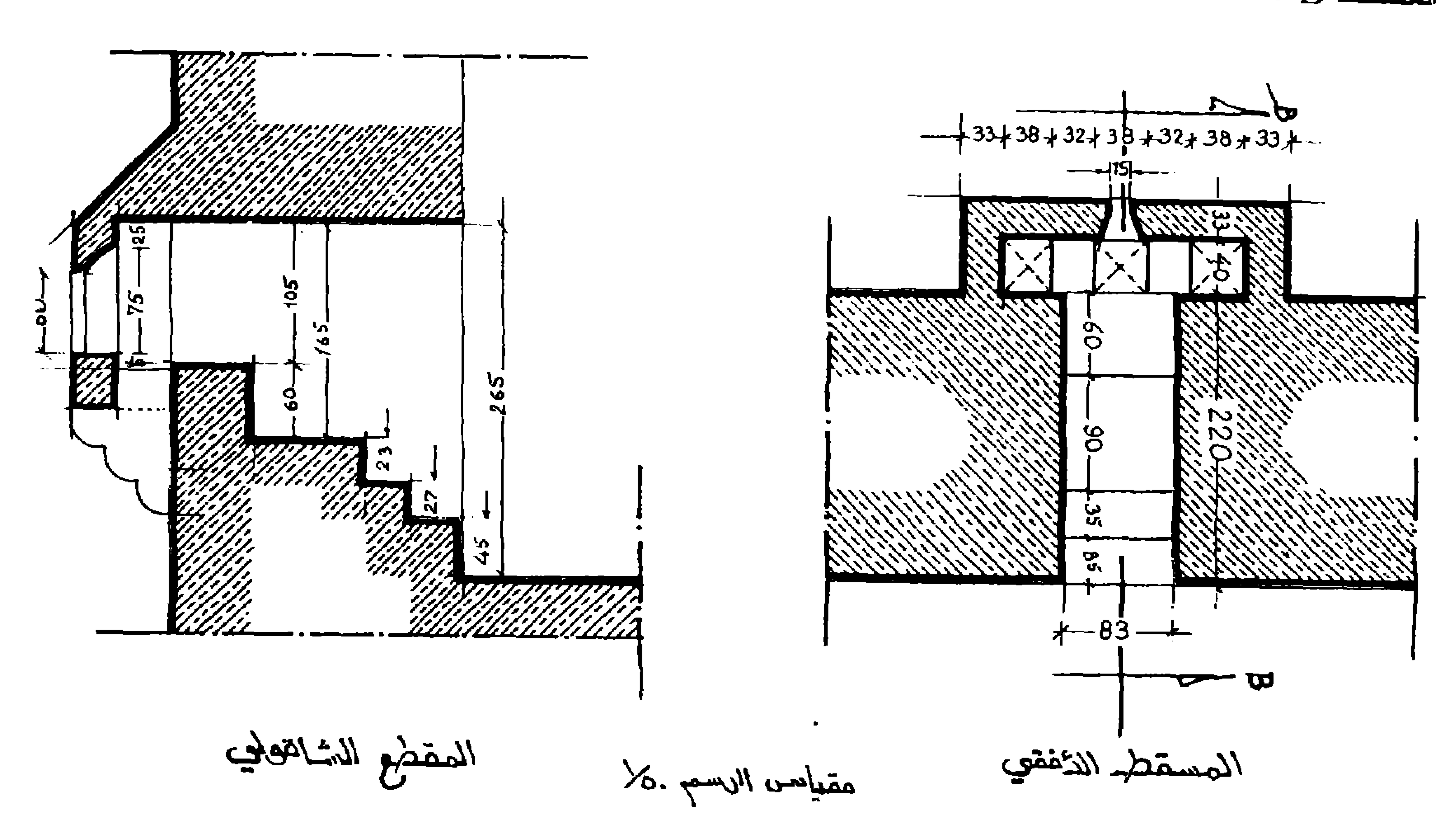
قائمة المراحيض الكائنة على الأبراج طويلة، كبرج جرادة وبرج الشيخ سليمان وكفرحوّار وديرمشمش ورفادة وغيرها...

مخطط تفصيلي لسقاطة نموذجية

في قلعة حلب

إعداد: م.هوري بارسوميان

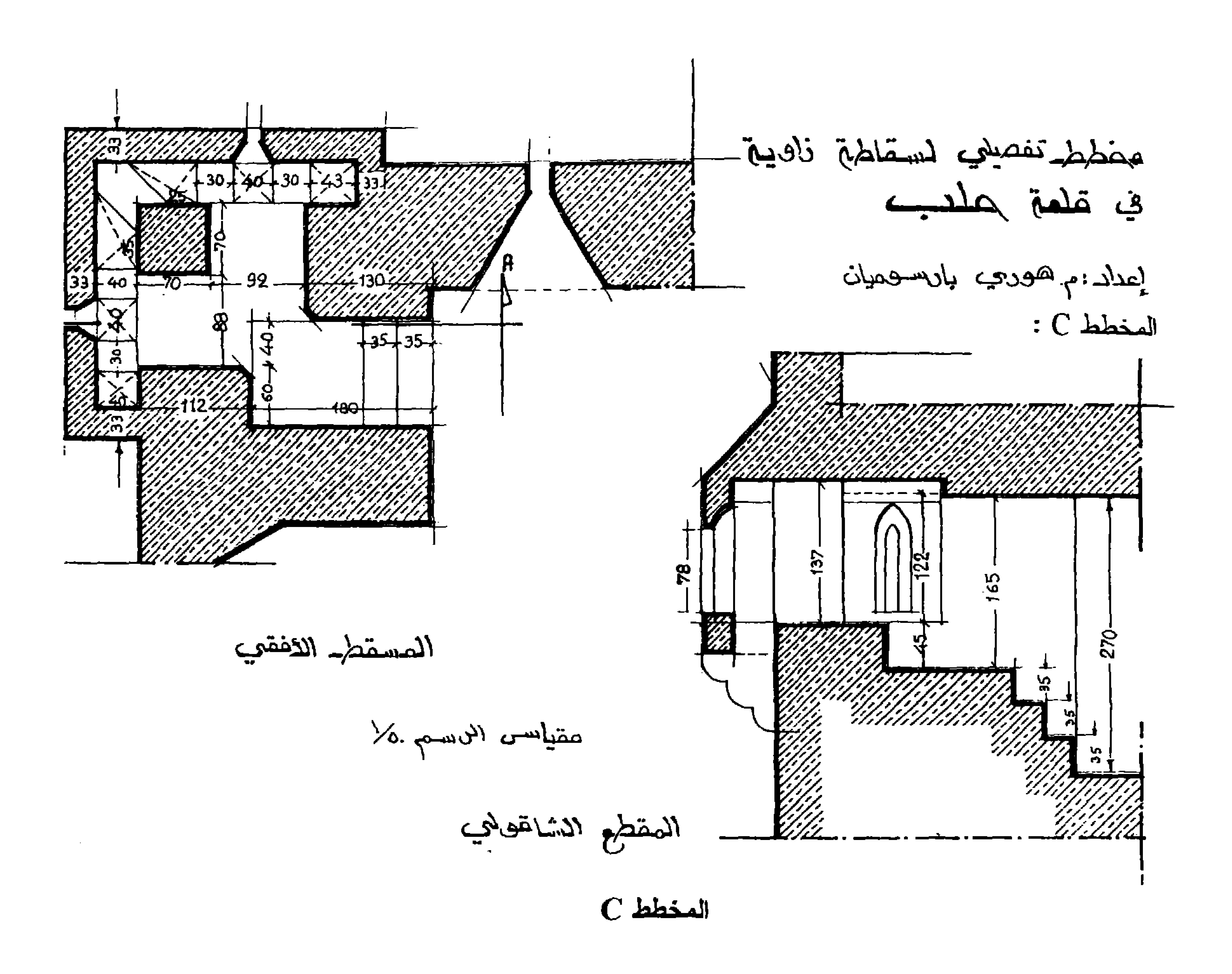
المخطط B :



يجدر بنا الآن إعادة النظر في نماذج السقاطات التي تم الحديث عنها ولكن من وجهة تحليلية لإظهار أوجه الشبه والاختلاف الوظيفية والحلول الإنشائية لها.

عند إجراء مقارنة بين السقاطة الدفاعية وسقاطة دورة المياه نجدهما متشابهتين تماماً سواء من ناحية المظهر الخارجي أو الحلول الإنشائية فهي في الحقيقة كشك صغير يبرز عن البناء نحو الخارج ومحمول على طُنُف والاختلاف يكمن في شكل الفتحات فقط حيث نجد:

<u>أولاً</u> ــ أن الفتحات السفلية لدورات المياه دائرية الشكل وصغيرة تصلح لتأسيس أنابيب أو قساطل فخارية لتصريف المياه المالحة إلى الحفر الفنية الموجودة بجوار



المخطط C

المبنى، بينما كوة السقاطة كبيرة نسبياً ورباعية الشكل تصلح لإلقاء مواد مختلفة الأحجام بسرعة وكميات كبيرة.

__ثانياً__ ــ إن فتحات التهوية في دورة المياه لا تخضع لنظام ثابت بل تتكيّف وذوق المعمار سواءً من ناحية الشكل أو الموقع. ونجد في المقابل أن الفتحة في السقاطة [أي المزغل] لها موقع ثابت على الجدار الأمامي حتماً وهي ضيقة ومتطاولة وتتناسب مع الغرض المطلوب أي تسديد السهام. والتسمية في الإنكليزية **slit** [أي الشق الضيق الطويل] تتطابق تماماً مع مواصفاتها.

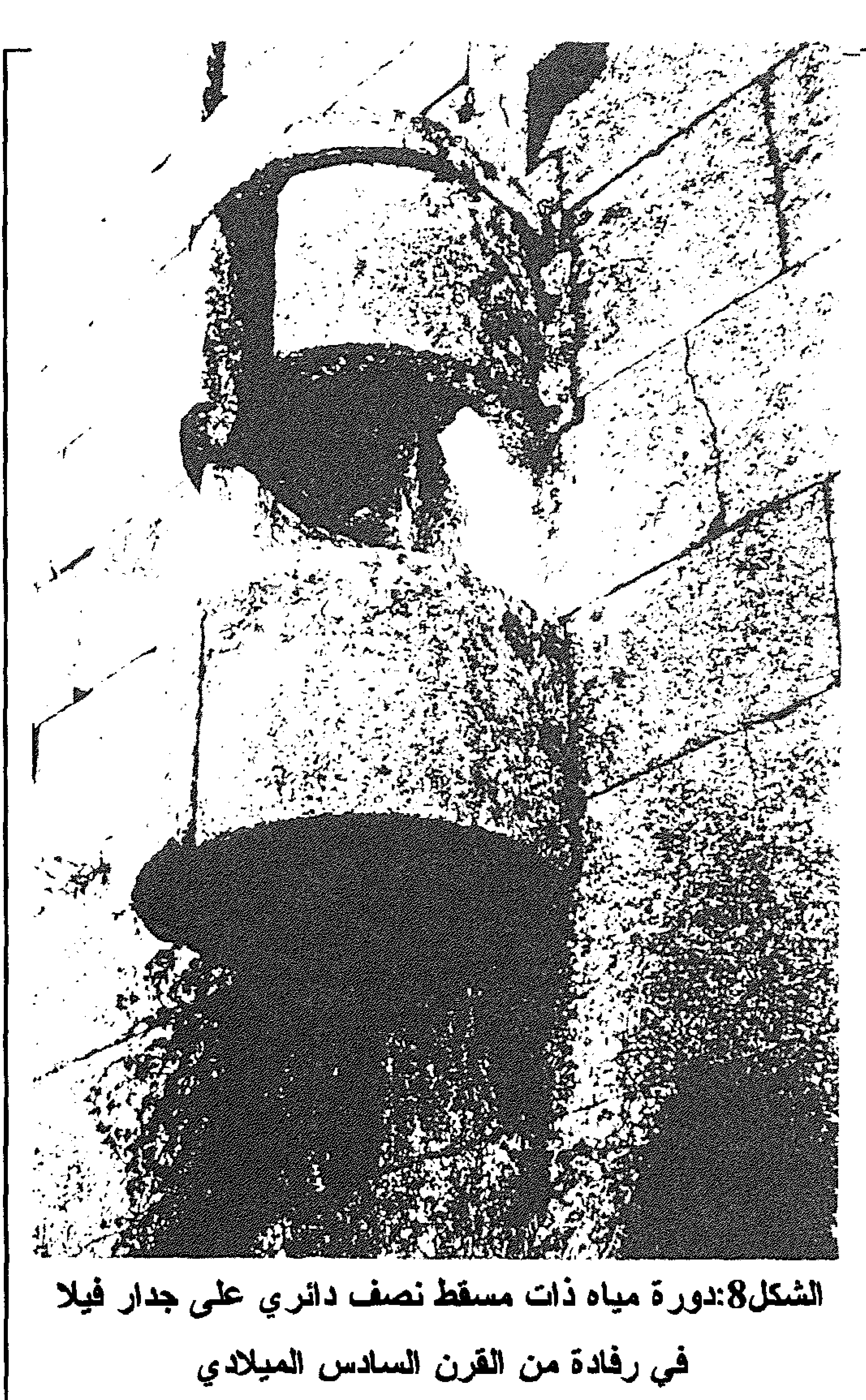
نستنتج مما سبق أن السقاطة ليست اختراعاً جديداً في هندسة العمارة العسكرية، بل كانت قيد الاستخدام كعنصر معماري لكن بوظيفة مختلفة. وإذا كانت هذه العناصر صالحة لتصريف المياه المالحة من الطوابق العلوية، فلماذا لا تَصلح لإلقاء مواد أخرى؟. لذلك كان انضمام هذا العنصر إلى مجموعة العناصر

المعمارية في الأبنية الدفاعية أمراً بديهياً.

وكما أن هناك أشكالاً مختلفة للسقاطات رباعية ونصف أو ربع دائرية وغيرها بزخارفَ وتزيينات متباينة، نجد أن الاهتمام ذاتَه قدّم للمراحيض التي شيّدت في تلك الحقبة. وهناك مراحيض بمسقط نصف دائري في كفرحوّار على أحد أبراج النسّاك وعلى فيلا في رفادة وعلى برج ناسك في ديرمشمش ذات حلول إنشائية دقيقة وحس جمالي متكامل لدرجة إثارة الدهشة [الشكل رقم **8**].

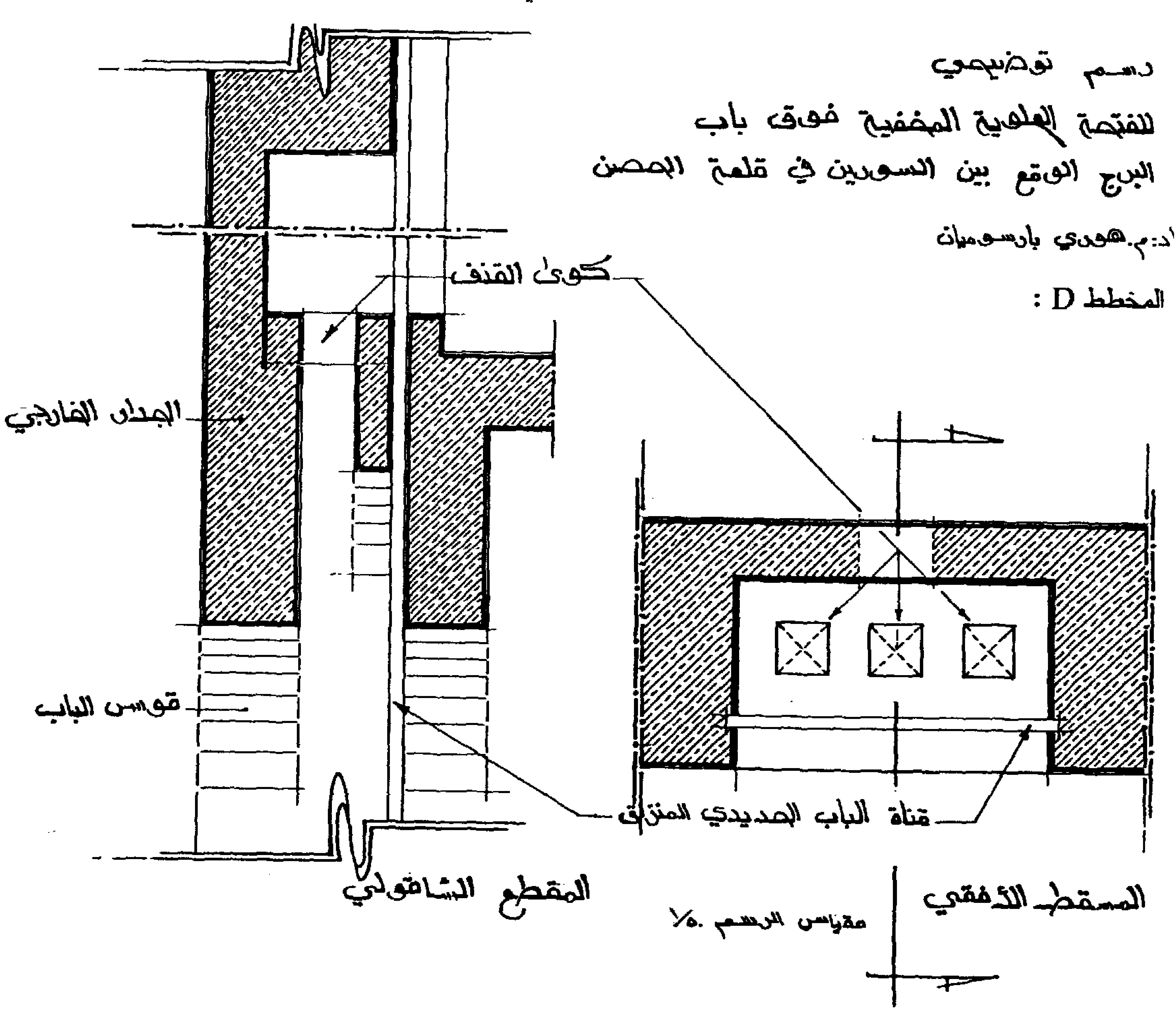
<u>الانتشار الجغرافي للسقاطة :</u>

نجد أن للسقاطة الدفاعية انتشاراً واسعاً على مبانٍ متباينة وظيفياً وعلى رقعة جغرافية واسعة تبدأ من أرمينيا شرقاً وتصل إلى الأناضول وكيليكيا وصولاً حتى أوروبا غرباً، ومن منطقة الرافدين وبلاد الشام والجزيرة العربية حتى شمال إفريقيا. وقد يعود سبب هذا الانتشار الجغرافي الواسع لتزامن بداية استخدامها مع نشأة الامبراطورية البيزنطية وفرض نفوذها على معظم هذه المناطق وبالتالي نقل ومزج مفاهيم وأساليب



الشكل8:دورة مياه ذات مسقط نصف دائري على جدار فيلا في رفادة من القرن السادس الميلادي

البناء المتّبعة لدى الشعوب القاطنة في تلك الأصقاع. وبعد ذلك جاءت الفتوحات العربية الإسلامية ثم حروب الفرنجة وأدت جميع هذه الأحداث السياسية والعسكرية الواسعة النطاق إلى التعرّف والتأثير المتبادل بالمفاهيم الحضارية والعلوم والفنون ومنها طبعاً فن العمارة وأساليب التعبير عنها. وفي جميع الأحوال يؤدي هذا العنصر دوراً دفاعياً مَهْما تغيّر مكانه جغرافياً أو اختلفت طبيعة المبنى المشاد عليه. وفي ما يلي عرض لاستخدامات السقاطة في منشآت مختلفة:



أولاًـ في القلاع:

نجد السقاطات على الأسوار والأبراج والمداخل سواء كانت بوابات رئيسية أو أبواب داخلية. والأمثلة عديدة ومختلفة جداً كما جاء في الجدول.

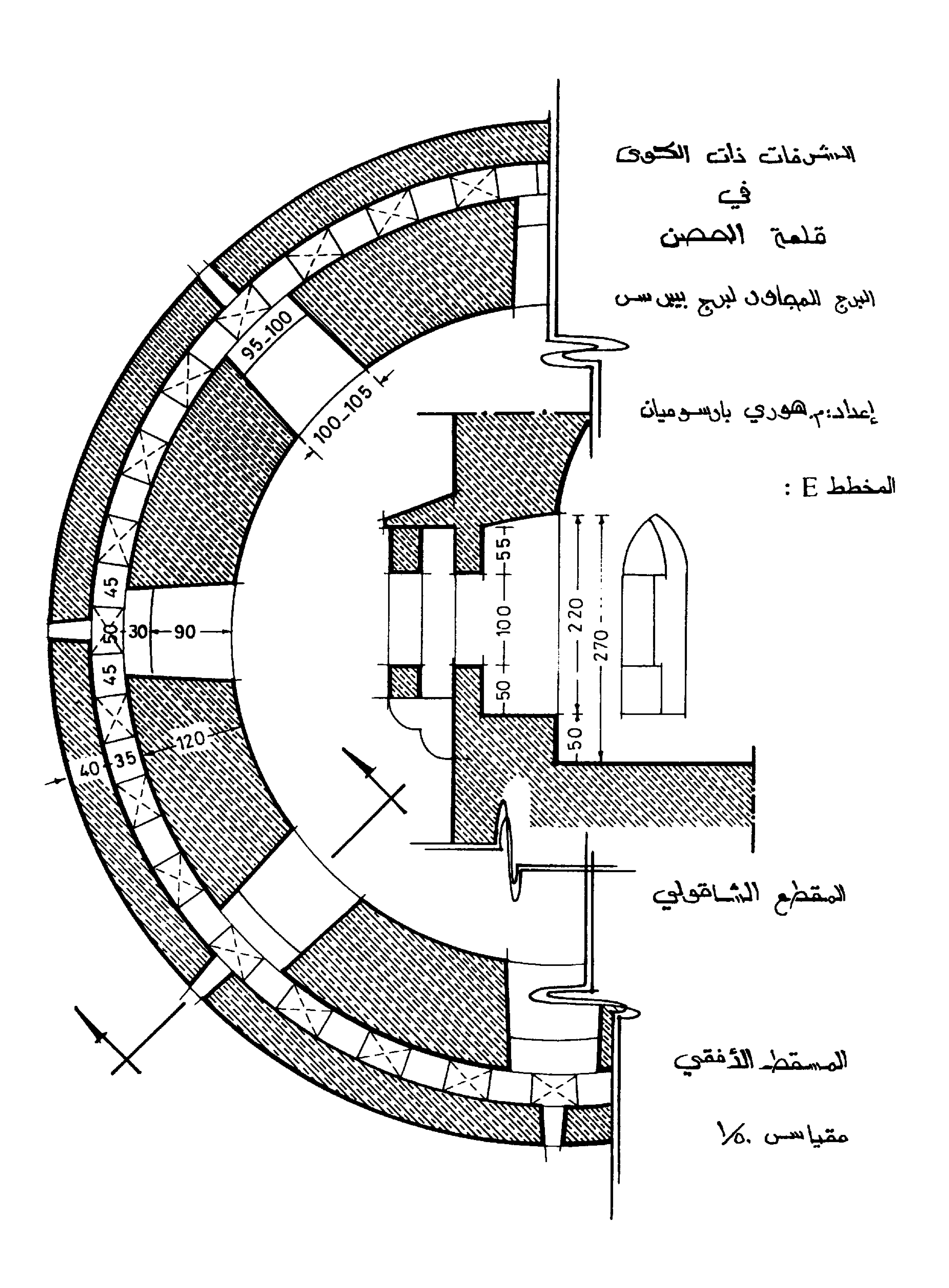
ثانياًـ على بوابات المدن أو بشكل أكثر دقة على الأبراج المتاخمة لها كما في أبواب حلب ودمشق والقدس وغيرها من المدن.

ثالثاًـ على أسوار المدن كسقاطات أسوار القدس الشريف.

رابعاًـ فوق مداخل القصور المشيَّدة في مناطق نائية التي كانت عرضة للهجمات كقصر الحير الشرقي في سوريا [الشكل رقم 9] وقصر أخيضر في بغداد.

خامساً ـ فوق مداخل الخانات الواقعة على طرق القوافل التجارية بين المدن أو المحطّات على طريق الحج التي تتعرّض لهجمات اللصوص. وهنا وفي هذا النوع من الأبنية كان للسقاطة استخدام سلمي أحياناً لأن العاملين في الخان أو المحطة كانوا يقومون بانزال مفتاح الباب الرئيسي أو الخادعة [وهي الباب الصغير على البوابة الكبيرة] من فتحة السقاطة عن طريق ربطه بحبل أو وضعه في سلة صغيرة

الشكل رقم 9: مدخل قصر الحير الشرقي 728م


المشرفات ذات الكوى
في
قلعة الحصن
البرج المجاور لبرج بيبرس
إعداد: م.هوري بارسوميان
المخطط E :
المقطع الشاقولي
المسقط الأفقي
مقياس 1/50
95_100
100_105
45
50
30
90
45
120
40
35
55
100
50
220
270
50

بعد التأكد من هوية الزائر وصفاء نيته. ولجميع هذه الأمثلة المتباينة وظيفيا قاسم مشترك وهو انتماؤها لحقبة زمنية واحدة تعود إلى العصور الوسطى التي تتميّز بنشوء المدن المسوّرة حول قلاع مركزية وبالتالي ظهور الاهتمام المفرط بالمنشآت الدفاعية والتفاصيل التابعة لها.

الشكل رقم10
بقايا طنف سقاطة على أسوار مدينة حلب قرب باب قنسرين

الناحية الجمالية للسقاطات

بما أن الهندسة المعمارية تعتبر أحد فروع الفنون الرئيسية السبعة، لذلك لا يمكن الحكم على أي مبنىً أو أجزاء منه انطلاقاً من صلاحيته أو ملاءمته الوظيفية فقط متجاهلين الأسس الجمالية التي هي من الأهمية بمكان أيضاً. فإلى جانب الأهمية الوظيفية للسقاطات علينا ألا ننسى دورها الجمالي الذي يُعتبر أحد الأركان الأساسية في فن العمارة وخاصة أن هذه الكتل الصغيرة البارزة، ذات التفاصيل الدقيقة على سطوح الأسوار العالية المصمتة أو على أجسام الأبراج الضخمة تحدُّ من الرتابة الناتجة عن السطوح الملساء المجردة من عناصر زخرفية أو تفاصيل

أخرى مانحة إياها شكلاً أكثر لطافة وأقل قسوة. والشرفات ذات الكوى التي تُتَوِّج الأبراج من الجهة العليا تُضفي على القلعة مسحة من الهيبة والوقار. هذا فضلاً عن ظلال تلك العناصر البارزة في مختلف أوقات النهار التي تعطي للمبنى في كل ساعة لوناً مختلفاً وطابعاً متغيراً يزيد من جمال المبنى وروعته.



الشكل 11:بقايا طنف سقاطة على إحدى أبراج باب انطاكية في حلب من العهد المملوكي-1423م

فيما يتعلق بأشكال الطُنُف ، فإننا نرى أنها في السقاطات المبكّرة أو القديمة نسبياً كانت بخطوط ململمة مائلة إلى الأشكال المتراصّة والدائرية، بينما نجد في السقاطات الحديثة التي شيدت بعد القرن الرابع عشر والخامس عشر تأثيرات الفن القوطي . ويظهر هذا الاتجاه بوضوح في بعض سقاطات الزوايا حيث الطُنُف الذي يقع على الزاوية متطاول الشكل ونحيف ورشيق كالأقواس القوطية تماماً.

أما الزخارف التي تغطي الطنف **corbels** فإن بعضها منحوت بخطوط أفقية متوازية أو شاقولية أو مائلة وأخرى مغطاة بجدائل وبعضها الآخر مزخرف بأشكال هندسية متشابكة أو بعناصر نباتية أحياناً وجميعُها تبدو في غاية الجمال والإبداع. ونجد أحياناً زخارفَ على السقاطة الواقعة على زاوية البناء وتحديداً على الطُنُف الواقع في الزاوية التي تُضفي على تلك الكتلة الحجرية المصمّتة هيئة أجنحة فراشة خفيفة ورشيقة وبذلك تجعل جميع هذه النقوش والزخارف من تلك الفتحة

الدفاعية البسيطة عنصرا معماريا زخرفيا بديعا تزيد من جمالية البناء الفنية [الشكل رقم **10**].

ونجد أيضا أن زخرفة كل طُنُف تختلف أحيانا عن الأخرى [الشكل رقم **11**]. ويبدو أن أسلوب تنويع زخارف العناصر المتكررة أصبح تراثا لدى المعمار السوري، لأننا نجد المعالجة ذاتها على تيجان أعمدة معظم كنائس الكتلة الكلسية في المنطقة الشمالية الغربية من سوريا.

نستنتج من خلال ما سبق أن هذا العنصر المعماري الصغير ظهر على الأرجح في العصور الهلنستية بوظيفة دورة المياه، وتم توظيفه في العصور الوسطى في المباني الدفاعية. والأكشاك الخشبية التقليدية المعروفة على الدور السكنية، والتي هي جزء لا يتجزأ من العمارة الشرقية، ليست سوى استمرار لهذه الأكشاك الحجرية. ولا نزال اليوم، وبعد التطور المذهل في أساليب البناء الحديثة، نستخدم هذا العنصر المعماري كعنصر تزييني بحت لأنه أصبح جزء من تراثنا المعماري.

بعض الأبنية التي تحمل السقاطات وفق التسلسل التاريخي

	اسم المبنى	الموقع	التاريخ
1.	قلعة ماغاص	تركيا	**602—582**
2.	قصر الحير الشرقي	سوريا	**728**
3.	قصر الأخيضر	العراق	**778**
4.	قلعة بعلبك	لبنان	**1260**
5.	قلعة بودروم	تركيا	**1522**
6.	قلعة حلب	سوريا	**962**
7.	قلعة الحصن	سوريا	**1271-1110-1030**
8.	قلعة المرقب	سوريا	**1285-1062**
9.	قلعة مصياف	سوريا	**1270-1099**
10.	قلعة طرابلس	لبنان	**1289-1102**
11.	قلعة الكرك	الأردن	أوائل القرن **12**
12.	قلعة كولوسي	قبرص	**1210**

13.	القلعة البحرية في صيدا	لبنان	**1229-1228**
14.	باب السلام . دمشق	سوريا	**1244-1243**
15.	باب أنطاكية . حلب	سوريا	**1245**
16.	قلعة دمشق	سوريا	**1280**
17.	قلعة يحمور	سوريا	**1289**
18.	قلعة بصرى	سوريا	الفترة الأيوبية
19.	قلعة قايتباي	مصر	**1479**
20.	باب الحديد . حلب	سوريا	**1500**
21.	قلعة أرواد	سوريا	الفترة الأيوبية
22.	قلعة زمرد	الجزيرة العربية	الفترة الأيوبية
23.	أسوار مدينة القدس	فلسطين	الفترة الأيوبية
24.	أسوار مدينة حلب	سوريا	لفترة الأيوبية
25.	قصر طوب كابي	تركيا	الفترة العثمانية

المراجع المستخدمة في البحث

1. **Casteles of the Crusaders, Wolfgang Müller - Wienner , 1966**

2. **Damaskus die Islamische Stadt, Karl von Wulzinger und Karl Watzinger, 1984**

3. القلاع في أرمينيا و القلاع في كيليكيا، الأب ميكائيل هوفهانيسيان ـ1971

4. القلاع والحصون في سوريا ، د. أكرم الساطع ـ 1975

5. الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ، د. محمد أسعد طلس ـ 1956

6. آثار جبلي سمعان وحلقة ، المهندس عبد الله حجار ـ 1995

7. مجلة " المتحف" الكويتية

8. مجلة " تاريخ العرب والعالم " اللبنانية

تاريخ حلـــب

حلـب بين القوى المحلية والدولية
في المراحل: السلجوقية – الزنكية- الأيوبية

أ.محمد قجــة*

تمهيد:

استقبلت "حلب" القرن الخامس للهجرة وقد سقطت الدولة الحمدانية وسط تعاظم الصراع على المدينة بين الفاطميين والبيزنطيين.

وقد تمكن "فتح القلعي أبو نصر" من حسمه الصراع محلياً، ونادى بشعار الحاكم الفاطمي في حلب عام 406هـــ. وشكره الحاكم على ما فعل ولقبه "مبارك الدولة وسعيدها" (1). وكتب إلى أهل حلــب توثيقا بإطلاق المكوس والمظالم والصفح عن الخراج.(2).

وما لبث الحاكم أن ولى حلب وأعمالها " عزيز الدولة فاتك" سنة 407 هــ. وقد حاول عزيز الدولة أن ينفصل بحلب، وضرب النقود باسمه(3)، وأقام علاقات طيبة مع البيزنطيين، ومع القبائل العربية المحيطة بحلب. واستعان عزيز الدولة بالبيزنطيين ضد جيوش أرسلها الحاكم من مصر، ولكن مقتل الحاكم عام 411هــ (4) جعل عزيز الدولة يطلب من الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني العودة عن حلــب، وإلا استعان عليه بالقبائل العربية وحاربه (5).

لكن القاهرة الفاطمية لم تنس لعزيز الدولة فعلته. فتم اغتياله يوم 413/4/4 هــ بمساع ست الملك شقيقة الحاكم (6). وهي التي تتحدث الروايات عن قتلها أخاها الحاكم (7).

ولم تطل سيطرة الفاطميين على حلــب، فقد عقد ثلاثة من رؤساء القبائل العربية حلفا ثلاثيا اقتسموا من خلاله النفوذ في بلاد الشام، وهم:

1-صالح بن مرداس الكلابي الذي له وما إليها.

2-سنان بن عليان الكلبي الذي له دمشق وما إليها.

3-حسان بن المفرج الطائي الذي له فلسطين وما إليها (8).

ودخل صالح حلب يوم السبت 415/11/13 هــ وبدأت مرحلة الدولة المرداسية الكلابية (9).

❁ ❁ ❁

---

*- رئيس جمعية العاديات

حلب والصراع العباسي – الفاطمي:

تعاقب الأمراء المرداسيون على حكم حلب بين ولاء لبيزنطة، أو ولاء للقاهرة الفاطمية، أو شبه استقلال، أو حكم فاطمي مباشر، أو تحت النفوذ السلجوقي، وذلك حتى عام 472 هـ (10).

وبرز من هذه الأسرة صالح وأبناؤه نصر وثمال وعطية، ومحمود بن نصر، ونصر وسابق ابنا محمود. وتخلل ذلك فترة حكم الوالي الفاطمي القوي "الدزبري" (11).

ويبرز ثمال ابن صالح نموذجاً لأمراء هذه الأسرة، فقد تولى الحكم ثلاث مرات، كان في أولاهما تحت الحماية البيزنطية، وفي الثانية تحت النفوذ الفاطمي، وفي الثالثة مستقلا.

كان النفوذ الفاطمي قد أخذ يمتد شرقاً بغية إسقاط الخلافة العباسية في بغداد، والحلول محلها في العالم الإسلامي، وبلغت تلك المحاولات ذروتها في حركة البساسيري الذي دخل بغداد يوم الأحد 450/11/8 هـ حاملاً معه الرايات الفاطمية (12) وخُطب في مساجد بغداد باسم المستنصر الفاطمي (13).

كانت حلب المرداسية قاعدة أساسية لحركة البساسيري الذي اتخذ من "الرحبة" منطلقا لنشاطه، وكانت الرحبة ضمن مناطق السلطة المرداسية، وكانت حلب تستقبل الأموال الواردة من القاهرة لتسليمها إلى البساسيري وقد تسبب الخلاف حول هذه الأموال في انقسام البيت المرداسي (14).

ولعب ثمال دوراً هاما في دعم البساسيري على يد طغرلبك السلجوقي وقُتل البساسيري يوم 451/12/15هـ (15) تغيرت الخارطة السياسية للمنطقة، فقد أدت الحركة وإخفاقها إلى انحسار النفوذ الفاطمي، وتعاظم المدّ السلجوقي المناصر للخليفة العباسي، وما تركه ذلك من أثر في رسم ملامح جديدة للصراعات في المنطقة، وبروز قوى دولية وإقليمية جديدة.

❁ ❁ ❁

حلب في الفترة السلجوقية:

انهارت الدولة المرداسية على يد شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي الذي دخل حلب يوم 472/12/26 هـ (16) واستعصت عليه القلعة أربعة أشهر ثم دخلها صلحا.

ومنذ عام 462 هـ كان المرداسيون قد قطعوا الخطبة للفاطميين وأخذوا يخطبون للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ألب أرسلان (17).

وكان السلطان قد حاصر حلب خلال حكم محمود بن نصر، وقد خرج محمود مع والدته علوية بنت الوثاب النميري المعروفة بالسيدة. فأكرمهما ألب أرسلان، وأقر محموداً على حكم حلب تحت الحماية السلجوقية. وكان ذلك عام 463 هـ (18). وهي السنة نفسها التي جرت فيها المعركة الحاسمة في "ملاذكرد" يوم الجمعة 463/11/7 هـ وتوافق 1071/8/26م، وسحق خلالها السلاجقة جيش بيزنطة وأسروا الإمبراطور رومانوس ديوجين. وحينما سأله ألب أرسلان عن سبب خروجه بهذا الجيش أجابه الإمبراطور بأنه لم يُرد إلا حلب (19). وقد كانت أبواب القسطنطينية مفتوحة للسلطان السلجوقي الذي لم يعرف استثمار نصره الساحق، ولم يترجمه إلى نتائج سياسية مباشرة. ولكن هذا النصر فتح أبواب آسيا الصغرى أمام سلطنة سلاجقة الروم. وكانت معركة ملاذكرد إنذاراً جعل الإمبراطور البيزنطي الجديد ميخائيل السابع يستنجد بالكنيسة الكاثوليكية الغربية لإيقاف زحف السلاجقة.

سيطر السلاجقة على معظم بلاد الشام. ودخل القائد السلجوقي "أتسز" دمشق، وساعدت الخلافات الداخلية في البيت المرداسي في التعجيل بسقوط تلك الأسرة. وحاصر "تتش" أخو السلطان ملكشاه حلب بالتعاون مع بعض الكلابيين 470 هـ. ولكنه اضطر إلى فك الحصار بسبب ضغط الفاطميين على دمشق بقيادة بدر الجمالي (20).

وعاود تتش حصار حلب غير مرة. إلى أن دخلها شرف الدولة مسلم بن عقيل بمساعدة الأحداث فيها ومقدمهم الشريف حسن الحتيتي.

وانتهى الحكم العقيلي بمصرع مسلم بن عقيل يوم السبت 478/2/24هـ على يد سليمان بن قتلمش. وبمصرعه انتهى دور القبائل العربية في الصراع على السلطة في بلاد الشام، وغدا النفوذ سلجوقياً كاملاً. مما حول الصراع إلى موضوع سلجوقي داخلي تجلى في إخفاق سليمان بن قتلمش بدخول حلب وهزيمته أمام تتش الذي جاء من دمشق تلبية لطلب الشريف الحتيتي. وقتل سليمان. ودخل تتش حلب وأصبحت بذلك خاضعة للحكم السلجوقي المباشر. ودخلها السلطان ملكشاه يوم 479/8/23 هـ. (21).

وبدخول السلاجقة حلب كانت دولتهم قد بلغت أوج قوتها، وسيطروا على أنطاكية والرها.

عين ملكشاه على حلب "قسيم الدولة آقسنقر" الذي بقي فيها سبع سنين عرفت خلالها الأمن والاستقرار والرخاء والعدل (22) ووسع دائرة ملكه في نطاق حلب وما حولها.

ولكن الصراع على السلطة داخل البيت السلجوقي جعل الخلاف ينشب بين آقسنقر صاحب حلب وتتش صاحب دمشق، والتقى الفريقان يوم 478/5/9 ه،، وأسر آقسنقر وقتله تتش.

وبعد دخول تتش حلب انفتح أمامه الطريق واسعاً، فملك حران والرها وميا فارقين حتى وصل إلى "الريّ" عاصمة السلاجقة ولكنه انهزم أمام "بركياروق" الذي كان في أصفهان، وقتل تتش يوم 488/2/17هـ. (23)

ومن جديد، يبدأ فصل آخر من الصراع داخل البيت السلجوقي، فقد تمكن رضوان ولد تتش من الحكم في حلب وقتل أخويه أبا طالب وبهرام، بينما تمكن أخوه "دقماق" من الهرب من حلب وتملك دمشق (24). وكان لا بد لهذين الأخوين من خوض الصراع ليتمكن أحدهما من بسط نفوذه على الشام كاملاً بشماله وجنوبه.

في تلك الأثناء كان البابا أوربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية، وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع الدولي مع السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي، وتبرز مدينة حلب كلاعب بارز في تلك الصراعات المحلية والدولية.

لقد تبلورت ملامح هذه الصراعات على النحو التالي:

1–في النطاق المحلي:

–الأمراء السلاجقة وخلافاتهم وأطماعهم وبخاصة بين شمال الشام وجنوبه.

–القبائل العربية الموجودة في المنطقة: سواء من تولى السلطة منها سابقاً كبني مرداس الكلابيون، أو بني عقيل، أو بني طيء، أو القبائل الأخرى وبطونها المنتشرة في شمال الشام مثل: نمير، أسد، تغلب، تنوخ، كلب، قشير، منقذ...الخ.

2–في النطاق الإقليمي:

–الصراع السلجوقي – السلجوقي في الشام والعراق وفارس والروم.

–بعض القوى الإقليمية مثل الأرمن.

–الإمارات الفاطمية في الساحل الشامي وبعض مدن جنوب الشام.

–القبائل العربية على مستوى الشام والعراق.

3-في النطاق الدولي:

-الدولة البيزنطية التي قلمت أظفارها معركة ملاذكرد.

-أوربا الصليبية.

-الدولة الفاطمية في مصر.

-الدولة العباسية كقوة رمزية في بغداد.

-السلاجقة كقوة عظمى في وسط آسيا وغربها.

❁ ❁ ❁

لم يستطع التحدي الجديد المتمثل بالحملات الصليبية أن يوحد البيت السلجوقي من الداخل، وبالتالي لم يستطع هذا التحدي الدولي الخطير أن يوحّد الصف الإسلامي المتصدع، فلقد استمر الصراع داخل الإمارات السلجوقية، كما استمر الصراع بين السلاجقة والفاطميين.

كان كل من رضوان صاحب حلب ودُقاق صاحب دمشق في خلافات مستحكمة، والخطر الصليبي يدق الأبواب.

دخل الفرنجة من باب التمزق الإسلامي، فسقطت بيدهم بشكل سريع نيقية عاصمة سلاجقة الروم 490هـ - ثم قونية 491هـ ثم مرعش وطرسوس وأضنة في العام نفسه. وتوجوا أعمالهم بتأسيس إمارة الرها 491 هـ - 1097م بزعامة بلدوين (25).

وكانت الضربة الكبرى عندما تمكنوا من احتلال انطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر، وبمساعدة أحد الخونة من حراس الأبواب ويدعى "رزوبة" (26).

في الوقت نفسه كان الفاطميون يحاصرون القدس ويستخلصونها من السلاجقة الروم أيام الوزير الأفضل بن بدر الجمالي.

وأرسل الفرنج سفارة تطمئن الفاطميين، وأخرى تطمئن صاحب حلب وصاحب دمشق، بأنهم - أي الفرنجة - لا ينوون التحرك أبعد من انطاكية (27). وقد أقاموا فيها إمارتهم الثانية.

وبمجرد الانتهاء من انطاكية زحف الفرنجة جنوباً فدمروا معرة النعمان بصورة فظيعة ولم ينجدها أحد (28)، ثم دخلوا بيت المقدس فقتلوا سبعين ألفاً من سكانه. ويصف ابن الأثير ذلك بصورة مؤثرة (29).

كانت حلب محط أطماع الصليبيين منذ بداية حروبهم العدوانية ففي عام 495 هـ حاصرها بوهميد وتنكريد من الجانب القبلي على نهر قويق (30) ولكنهم سرعان ما انسحبوا بعد وصول أنوشتكين لمساعدة حلب.

ثم عاودوا الكرة عام 496 هـ ونزلوا المسلمية وفرضوا غرامة على رضوان حاكم حلب 031) وكرروا ذلك في العام الذي بعده.

وتوفي خلال ذلك دقاق حاكم دمشق فلم يتوان رضوان عن محاصرتها رغم الخطر الصليبي، وأخفق في فتحها. وفي عام 498 قصد الفرنج حلب فنهبوا وسبوا ودمروا وملكوا أكثر أراضي حلب السلجوقية.(32).

وفي عام 503 هـ قصد الفرنج شرق حلب فقتلوا ونهبوا وفرضوا الغرامة عليها. وضعفت حلب بسقوط الأثارب بيد الفرنج، وقلّت فيها الغلال.

وبعد وفاة رضوان 507 عُيّن ابنه الصبي ألب أرسلان وتسلط على الحكم لؤلؤ الخادم وكان سيئ التدبير. ويروي ابن العديم أنه من العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ولا يمكنه ذب الفرنج عنها، وكان السبب في ذلك أن المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه (33).

استمر التحرش الفرنجي بحلب بصورة لا تنقطع، وكان بلك بن بهرام قد تملك حلب عام 517. وقد بلغ الضغط الفرنجي ذروته بهجوم جوسلين على حلب وتخريبه المشاهد ونبش القبور وقطع الأشجار، مما جعل مقدمي حلب برئاسة القاضي ابن الخشاب يأمرون بتحويل بعض الكنائس إلى مساجد ومن أبرزها الحلوية (34).

وقُتل بلك في حصار منبج بسهم غادر. وتسلم المدينة تمرتاش بن إيلغازي، ولم تكن له قوة بلك.(35)

في يوم الأثنين 26 شعبان 518 هـ الموافق 1124/10/6م حاصرت حلب جيوش صليبية تساعدها جيوش من المتآمرين مع العدو:

- بغدوين على نهر قويق قادماً من أرتاح.
- جوسلين ومعه الخائن دبيس بن صدقة قادمين من تل باشر وانضم إليهما سلطان شاه بن رضوان وعيسى بن سالم بن مالك.
- يغي سيان بن عبد الجبار من ناحية الشرق.

وكان عدة خيامهم ثلاثمائة. (36)

كان هذا أسوأ حصار صليبي تتعرض له حلب بالتعاون مع بعض الخونـة مـن القبائل العربية والسلاجقة.

ويقول ابن العديم:

"وأقاموا على حلب يزاحفونها، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور موتى المسلمين، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تتقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد، وآخر يقول: هذا عليكم، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا: يا مسلم أبصر كتابكم، وثقبه الفرنجي بيده وشده بخيطين وعمله ثغراً لبرذونه فظل البرذون يروث عليه، وكلما أبصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً والمسلمون يصيحون على دبيس من الأسوار: دبيس يا نحيس" (37).

ومن المعلوم أن وفداً حلبياً زار الموصل وطلب النجدة من آقسنقر البرسقي الـذي لبى الطلب وسار بجيوشه ففك الحصار عن حلب.

وبدأت بذلك مرحلة هامة، قال عنها توينبي: لو سقطت حلب في حصار الصليبيين لأصبح الشرق إمارة لاتينية.

ومن المفيد أن نذكر في هذا المقام أن بعض محاولات الصلح والتعاون قد تمـت بين الفاطميين والسلاجقة، وإن لم تؤد إلى نتائج حاسمة.

ومن ذلك ما يذكره المقريزي عن سفارة سلجوقية وصلت القاهرة عام 517 هـ تمثل حلب ودمشق.(38)

كما يذكر أن سفارة مصرية وصلت دمشق عام 527 هـ (39) وأن المناخ العام خلال السفارتين كان وديّاً تصالحياً.

❁ ❁ ❁

<u>حلب في الفترة الزنكية:</u>

رأينا إن إخفاق الحصار الصليبي لحلب عام 1124 م كان نقطة تحول حاسمة في تاريخ تلك الحروب، وفي تاريخ المنطقة.

فقد نتج عنه عدد من النتائج الإيجابية تمثلت في:

1-قيام تنسيق سياسي وعسكري واستراتيجي بين حلب والموصل.

2-قيام حكم قوي وذي سمعة جيدة ونوايا حسنة في حلب، تمثل بالأسرة الزنكية المعروفة بسمعتها الممتازة.

3-قيام الأسرة الزنكية بمحاولة توحيد بلاد الشام وما يليها استعداداً لمعركة فاصلة مع الفرنجة، بالتنسيق مع الجبهة المصرية.

4-اتباع عماد الدين وابنه نور الدين سياسة الاستنزاف الدائم للإمارات الصليبية، ومحاولة قضم أطرافها وإضعافها تمهيداً لضربة قاضية.

5-عودة الحياة المستقرة إلى حلب، ممثلة بالعمران والبناء والحركة الاقتصادية والتعليم.

❁ ❁ ❁

منذ استقر الأمر لعماد الدين الزنكي في حلب، لم يضع وقتاً في تمتين الوحدة السياسية، وإرهاق الوجود الصليبي. وكان في طليعة اهتمام زنكي ضم دمشق إلى دولته، وقد حاول ذلك مراراً من غير طائل (40) ولكنه كان لا يتوقف عن فتح الحصون والقلاع وانتزاعها من أيدي الفرنجة مثل شيزر والأثارب وزردنا ومعرة النعمان وبارين وبعبلك.

وفي إحدى مراحل حصاره دمشق طلب ملكها البوري أنر مساعدة الفرنجة لمنع زنكي من دخولها. مما اضطره لفك الحصار ومواجهة الفرنجة (41).

كانت لغة الحرب قد تحولت على يد زنكي من الدفاع إلى الهجوم فبعد أن كانت حلب تتلقى الاعتداءات والنهب والسلب خلال ربع قرن من الوجود الصليبي، أصبحت بزعامة عماد الدين زنكي تقوم بدور التصدي والهجوم وفتح القلاع والحصون، ضمن خطة مدروسة موضوعة للوصول إلى الوحدة السياسية والتحرير الكامل.

وقد توّج عماد الدين زنكي جهاده بفتح مدينة "الرها" 538 هـ - 1144م بعد حصار محكم واستعداد عسكري وإعلامي رفيع.

ويروي "سيغال" مؤلف كتاب "الرها – المدينة المباركة" ذلك الحصار، وكيف أن جيش حلب لم يترك أمراً للصدفة، من حيث الاستعداد بكافة أنواع الأسلحة وخبراء الحصار وكثافة السلاح. وقد أرسل زنكي يعرض السلام، ويخبر أهل المدينة بأن لا قِبل لهم بالقتال، ولكن المدينة رفضت، وكانت عناصر السكان تتألف من اللاتين الفرنجة والأرمن والسريان. (42)

ويذكر كتاب لمؤلف مجهول كيف أن زنكي عامل السكان بالحسنى ورمم المباني والكنائس وفرض الأمن والاستقرار (43).

❁ ❁ ❁

قُتل زنكي اغتيالا عام 541 هـ. وانقسمت دولته بين ابنيه: سيف الدين غازي الذي أخذ الموصل، ونور الدين محمود الذي اخذ حلب.(44)

تابع نور الدين محمود أسلوب أبيه زنكي في البناء والتعليم والإعلام والاستعداد للجهاد. وتمكن من إلحاق دمشق بمملكته عام 549 هـ وبذلك سدد ضربة قاصمة لخطط الفرنجة وطرق مواصلاتهم (45) وضمن نور الدين بذلك الوحدة السياسية لبلاد الشام، وبدأ يتطلع إلى العراق ومصر لإحكام الطوق حول الوجود الفرنجي والتخلص منه.

وقد سعى نور الدين إلى مدّ جسور التعاون والتفاهم مع القاهرة الفاطمية، والتنسيق معاً ضد العدو الأجنبي الفرنجي، ويتحدث القلقشندي عن نماذج من هذا التنسيق بين الجانبين الشامي والمصري (46).

كان مخطط نور الدين تحرير بيت المقدس، وتفاؤلا بذلك أمر النجارين المهرة بحلب بصنع منبر للمسجد الأقصى ينقل إلى القدس وقت تحريره من الصليبيين. لقد كان نور الدين مدركاً أن المسألة مسألة وقت واستعداد، وأن حقائق الجغرافية والتاريخ والحضارة لا تتحمل وجود جسم فرنجي في المنطقة.

استمر نور الدين في سياسة استنزاف العدو ومطاردته وإجباره على خوض المعارك في الزمان والمكان الذي يحدده نور الدين.

❁ ❁ ❁

كانت الدولة الفاطمية في القاهرة في أشد حالات الضعف والترهّل، وكان نفوذ الوزراء مستفحلا وصراعاتهم لا تنتهي، وكانت أطماع مملكة بيت المقدس الفرنجية بمصر تتعاظم ولا تتوقف.

وقد اغتنم نور الدين فرصة طلب المعونة التي تلقاها من مصر على يد الوزير شاور وزير العاضد الفاطمي، وأرسل فيلقا فيه صلاح الدين وعمه شيركوه. فكانت تلك نواة الوجود الأيوبي الذي غيّر مسار الأحداث التاريخية.

كان نور الدين رجل دولة من طراز فريد وصاحب رؤية استراتيجية، فلقد عرف كيف يدير المعركة، فيهادن بعض الخصوم، ويبطش بغيرهم، وكانت دائرة الصراع حوله متشعبة: فهناك خلافات البيت الزنكي بين حلب والموصل، وهناك صراعات البيت الزنكي مع بقايا الأمراء السلاجقة، وهناك الأرمن المتعاونون مع الفرنجة، وهناك الفاطميون، ثـم هناك البيزنطيون، والفرنجة...

ولقد عرف نور الدين كيف يسيّر أموره وسط تلك الأمواج السياسية والعسـكرية ويتهيأ لقطف الثمرة الكبرى بتحرير بيت المقدس، ولكن المنية عاجلته، فكانت الثمرة مـن نصيب صلاح الدين.

ومن طرائف الأمور أن جيش نور الدين كان فيه فيلـق مغربـي يقاتـل ضـد الصليبيين. وقد ورد ذلك في رحلة ابن جبير وفي كتاب "النفح" للمقري وفي كتاب العبـر في خبر من غبر (47).

كما تمكن نور الدين من مهادنة بعض الأرمن واستخدامهم، في حين كان هـؤلاء حلفاء الفرنجة.(48).

❁ ❁ ❁

حسمت وفاة نور الدين المفاجئة يوم الأربعاء 569/10/11هـ مسألة الصـراع الخفـي بين الزنكيين والأيوبيين، وانفتح الطريق واسعا أمام صلاح الدين ليضم الشام إلى مملكته.

وقد استعصت عليه حلب غير مرة لوجود قوة الزنكيين فيها. ولكنه دخلها أخيـرا بعد حصار عام 579هـ وبشره الشاعر بقوله: (49)

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشّر بفتوح القدس في حلـب

❁ ❁ ❁

<u>حلب في الفترة الأيوبية:</u>

خلال نصف قرن من الحكم الزنكي كانت حلب مركز النشاطات الجهاديـة ضـد الصليبيين، سواء أكانت تلك النشاطات عسكرية أم سياسية أم ثقافية. وقد أعاد نور الـدين لحلب مجدها القديم أيام سيف الدولة الحمداني حينما كانت الثغر المجاهد ضد البيزنطيين.

أما في الحكم الأيوبي، فقد غدت القاهرة عاصمة الدولة الأيوبية الكبرى بعد سقوط الدولة الفاطمية، ولكن حلب بقيت لها أهميتها البالغة، وهذا ما جعل أخا صلاح الدين وابنه يتنافسان على ملكها، فكانت أخيرا من نصيب الظاهر غازي بن صـلاح الـدين غـازي حكمها ثلاثين سنة شهدت خلالها أجمل فترات الازدهار العمراني والاقتصادي.

ليس مجالنا الآن الحديث عن دور صلاح الدين وتحرير بيت المقدس، فهذه أمور معروفة، ولكني أود أن أشير إلى أن "عسكر حلب" بقيادة الظاهر غازي كان دائم المشاركة في كل معارك التحرير قبل حطين وخلالها وبعدها، وكان له الدور الحاسم في بعض المعارك كما في تحرير قلعة صلاح الدين التي ضربها منجنيق ولده الظاهر كما يقول ابن العديم (50).

وبوفاة صلاح الدين يوم الأربعاء 27 صفر 589هـ انقسمت المملكة الأيوبية بين أبنائه وإخوته، وكان لا بد أن يدب الشقاق بينهم. وبقيت حلب من نصيب ابنه الملك ظاهر غازي، الذي تزوج من ابنة عمه ضيفة خاتون/ وهي ذات أيادٍ عمرانية وخيرية كبيرة في حلب أهمها مدرسة الفردوس الكبرى الباقية حتى اليوم. (51)

حاول الظاهر غازي ومن بعده ابنه محمد العزيز ثم حفيده يوسف الناصر الثاني أن يمدوا مملكة حلب الأيوبية، وكانت محاولاتهم بين جزر ومدّ، إلى أن جاء الطوفان المغولي على يد هولاكو فاقتلع حلب الأيوبية عام 657هـ - 1260 م مدمرا ومخربا ومحطماً كل أشكال الحضارة.

وإذا كانت مملكة نور الدين الزنكية في حلب تمتاز بالاستعداد للجهاد أولاً، فإن المملكة الأيوبية استفادت من الاستقرار السياسي واتجهت للعمران، ولهذا رأينا الملك الظاهر غازي يلقب بالملك المعمار، وقد ترك في حلب آثاراً كثيرة كالمدرسة الظاهرية والمدرسة السلطانية ومسجد القلعة وقصرها وحمامها وأبراجها وأبوابها والمدرسة الهروية وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه (52).

❁ ❁ ❁

<u>تحليل و استنتاجات:</u>

إن فترة القرنين ونصف القرن التي تحدثنا عنها من خلال دور مدينة حلب فيها، وهي فترة القرنين الخامس والسادس للهجرة ونصف السابع. إنما كانت فترة حافلة بالأحداث الجسام التي غيرت مجرى التاريخ المحلي والإقليمي والعالمي، وتركت بصماتها التي تعيش فينا حتى اليوم.

هذه الأحداث التي شاركت فيها كل القوى العالمية في حينها:

- من أقصى الشرق: المغول.
- من أقصى الغرب: الفرنجة.
- من الشمال: بيزنطة.

وكلها قوى معادية شرسة في عدائها. ولكل منها دوره المدمّر في تخريب بلادنا وحضارتنا واستنزاف مواردنا.

وفي الفترة نفسها عرف العالم الإسلامي أقصى درجات الانشقاق والحروب متمثلة بقوى كبرى ذات طابع رمزي أو أيديولوجي كالعباسيين والفاطميين وأمويي الأندلس، وما رافق ذلك من حركات متشعبة علنية وسرية. وقوى أخرى ذات طابع أثني كالدول الفارسية أو التركمانية من غزنوية وسامانية وبويهية وطاهرية وسلجوقية. أو دول في المغرب الأقصى كالمرابطين والموحدين وبني غانية وبني مرين وبني زيان وبني حفص. أو دول محلية كان لها دورها الحاسم في إطار رمزية الخلافة العباسية كالدولة الزنكية والأيوبية وما قامت به في رد العدوان الصليبي.

والأدوار الأقل شأناً للقبائل العربية المتناثرة في الشام والعراق، والتي أقام بعضها دولاً، وساهم بعضها في ذلك، واستمر بعضها على بداوته ومشاغباته.

ولعله من المفيد أن نطرح بعض التساؤلات بعد ثمانية قرون على تلك الفترة التي نتحدث عنها:

1-هل كانت تنقص المسلمين في تلك المرحلة رؤية استراتيجية بعيدة توجه سلوكهم وترصد حركاتهم وتصوّب رؤاهم.

2-ما مدى الدور الذي لعبته شخصيات محورية في رسم الأحداث وصنع القرارات وحصد النتائج، من أمثال شخصية ألب أرسلان وملكشاه ونظام الملك وعماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين، وشخصيات جانبية مؤثرة كالبساسيري وبدر الجمالي واليازودي وثمال المرداسي.

3-هل يمكننا الإفادة من التجربة الزنكية أو الأيوبية في تحقيق الوحدة السياسية كطريق لصنع القرارات المصيرية المنتصرة، أم العكس هو الصحيح.

4-هل بإمكاننا إعادة قراءة الأحداث التاريخية الكبرى من منظور النقد التاريخي الموضوعي بعيداً عن مواقف مسبقة، مع الإفادة من كل وجهات النظر، واستخلاص النتائج عبر ذلك.

5-هل تغيرت بنية العلاقات الاجتماعية والسياسية والفكرية والأيديولوجية عبر ثمانية قرون، وهل نحن نعيش ظلالاً من تلك العلاقات التي تحدثنا عنها.

أسئلة تستحق مع غيرها من الأسئلة أن نبحث لها عن إجابة.

هوامش

1-ابن العديم	زبدة الحلب 188/1	دار الكتاب العربي 1997/دمشق/القاهرة.
2-ابن العديم	زبدة الحلب 189/1	
3-ابن العديم	زبدة الحلب 192/1	
4-ابن الأثير	الكامل في التاريخ 304/7	دار الكتاب العربي ط4 1983 بيروت.
5-ابن العديم	زبدة الحلب 193/1	
6-الطباخ	إعلام النبلاء 287/1	دار القلم العربي 1988 ط2- حلب.
7-ابن كثير	البداية و النهاية 10/12	مكتبة المعارف - بيروت 1988.
8-ابن العديم	زبدة الحلب 196/1	
9-ابن العديم	زبدة الحلب197/1	
10-محمد احمد عبد المولى	بنو مرداس الكلابيون في حلب	ص19 - دار المعرفة - الاسكندرية
11-ابن العديم	زبدة الحلب 215/1	
12-الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد 401/9	دار الكتاب العربي- بيروت
13-الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد 402/9	
14-محمد كامل حسين	سيرة المؤيد 100	القاهرة 1949
15-ابن الأثير	الكامل 86/8	
16-ابن العديم	زبدة الحلب 300/1	
17-ابن العديم	زبدة الحلب 259/1	
18-ابن العديم	زبدة الحلب 264/1	
19-ابن العديم	زبدة الحلب 268/1	
20-ابن الأثير	الكامل 126/8	
21-ابن العديم	زبدة الحلب 324/1	
22-ابن العديم	زبدة الحلب 326/1	
23-ابن العديم	زبدة الحلب 336/1	
24-ابن العديم	زبدة الحلب 337/1	
25-سعيد عاشور	تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب 125	
26-ابن الأثير	الكامل 186/8	
27-ابن الأثير	الكامل 186/8	
28-ابن العديم	زبدة الحلب 355/1	
29-ابن الأثير	الكامل 189/8	

هوامش

30-ابن العديم زبدة الحلب 357/1
31-ابن العديم زبدة الحلب 360/1
32-ابن العديم زبدة الحلب 363/1
33-ابن العديم زبدة الحلب 378/1
34-ابن العديم زبدة الحلب 412/1
35-ابن العديم زبدة الحلب 416/1
36-ابن العديم زبدة الحلب 420/1
37-ابن العديم زبدة الحلب 421/1
38-المقريزي اتعاظ الحنفا 99/3
39-المقريزي اتعاظ الحنفا 146/3
40-ابن العديم زبدة الحلب 450/2
41-ابن العديم زبدة الحلب 463/2
42-ج-ب-سيغال الرها ص 304- دار الرها/حلب 1988
43-ج-ب-سيغال الرها ص 301
44-ابن العديم زبدة الحلب 472/2
45ابن الأثير الكامل 46/9
46-القلقشندي صبح الأعشى 343/3
-47 رحلة ابن جبير 221
العبر 120/4
48-ابن العديم زبدة الحلب 507/2
49-الشاعر هو محي الدين بن الزكي الطباخ 117/2
50-ابن العديم زبدة الحلب 581/2
51-الطباخ إعلام النبلاء 213/2
52-الطباخ إعلام النبلاء 183/2

أهم المراجع

1-ابن الأثير عز الدين ت630هـ	الكامل في التاريخ	دار الكتاب العربي/بيروت 1983
2-ابن كثير أبو الفداء ت 774هـ	البداية والنهاية	مكتبة المعارف/بيروت 1988
3-ابن العديم عمر بن أحمد ت 660هـ	بغية الطلب في أخبار حلب	1988 - دمشق
4-ابن العديم	زبدة الحلب من تاريخ حلب	دار الكتاب العربي/دمشق- القاهرة 1977
5-الأصفهاني العماد ت 597هـ	خريدة القصر وجريدة العصر	المجمع العلمي العراقي 1955
6-ابن إياس محمد ت 930هـ	بدائع الزهور في وقائع الدهور	بولاق 1911
7-ابن تغري بردي أبو المحاسن ت 874هـ	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	وزارة الثقافة – القاهرة
8-ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح ت 1089هـ	شذرات الذهب في أخبار من ذهب	دار المسيرة -بيروت 1979
9-ابن خلدون عبد الرحمن ت808هـ	العبر	القاهرة 1971
10-ابن خلكان شمس الدين ت 681هـ	وفيات الأعيان	دار صادر- بيروت
11-الخطيب البغدادي أبو بكر ت 463هـ	تاريخ بغداد	الكتاب العربي- بيروت
12-الشيرازي هبة الله ت470هـ	السيرة المؤيدية تحقيق محمد كامل حسين	القاهرة 1949
13-ابن عساكر أبو القاسم ت 571هـ	تهذيب تاريخ دمشق	دمشق- دار المسيرة 1979
14-الطباخ محمد راغب ت 1951م	إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء	حلب – دار القلم العربي 1988
15-الغزي كامل ت 1933م	نهر الذهب في تاريخ حلب	حلب – دار القلم العربي1999

أهم المراجع

16-القلقشندي أبو العباس ت 821هـ	صبح الأعشى في صناعة الإنشا	
17-المقريزي تقي الدين ت 845هـ	اتعاظ الحنفا	القاهرة 1973
18-المسعودي أبو الحسن ت 346هـ	مروج الذهب ومعادن الجوهر	القاهرة 1964
19-ابن الوردي زين الدين ت 749هـ	تتمة المختصر في أخبار البشر	بيروت- 1970
20-عاشور سعيد	تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى	
21-ابن جبير أبو الحسين ت 614هـ	رحلة ابن جبير	الشرق العربي- بيروت
22-عبد المولى محمد أحمد	بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام	الاسكندرية – 1985
23-زكار سهيل	إمارة حلب	دار الكتاب العربي- دمشق
24بروكلمان كارل	تاريخ الشعوب الإسلامية	دار العلم للملايين- بيروت

الألعاب الشعبية في حلــب
بين التوثيق و الإحياء

الدكتور المهندس أحمد أديب شعار

مقدمة

اقترنت الحياة الاجتماعية في حلب القديمة، وحتى خمسينيات هذا القــرن، بغنىً متميز في الألعاب الشعبية على مختلف الصعد. وقد شكلت هذه الألعاب جزءاً لا بأس به من التراث الاجتماعي لحلب، مدينة وريفا. من الممكن تعريف الألعــاب الشعبية بما يلي: مجموعة الألعاب التي تلعبها الشريحة الكبرى من أبناء الشــعب، بمختلف فئاته، والتي غالباً ما تتطور قواعدها مع الزمن والتي قد تختلــف قواعــد ممارستها مع اختلاف المكان، والتي غالباً ما تكون أدواتها محلية المنشأ، والتي قد تكون مبتكرة أو مستقاة من أمم أخرى. ومع دخول التلفزيون والسينما ومستقبلات الأقمار الصناعية إلى البيت الحلبي، ومع شيوع ألعاب الكرات الغربية (كرة قدم – كرة سلة –كرة طائرة–...)، تراجع أبناء حلب عن ممارسة ألعابهم الشعبية التراثية لصالح مشاهدة التلفزيون والسينما ولصالح ممارسة أنواع الرياضة الغربية الحديثة. مع اشتداد هجمة العولمة الثقافية التي تشنها وسائل الإعلام الغربيــة، والأمريكيــة خصوصاً، بدأت في كثير من الأمم الدعوة إلى توثيق وتوضــيح ملامــح الهويــة الوطنية خوفا من طمسها نتيجة فعاليات العولمة الثقافية. لقد اشتدت الــدعوة إلــى الحفاظ على ملامح الهوية الوطنية في معظم الدول الأوربية وفي اليابــان، علــى سبيل المثال. أعتقد أن ما بدأنا نلاحظه في الفترة الأخيرة، على شاشات التلفزيونات العربية، من مهرجانات للألعاب الشعبية في كل من ألمانيا وفرنسا واليابان، يهدف إلى تعزيز الهوية الوطنية لتلك الدول. بالإضافة إلى حب ابن الوطن لمعظم عادات وتقاليد وطنه، فإنه أيضا يخاف كثيرا من بعــض ملامــح العــادات والســلوكيات الأمريكية، قائدة هجمة العولمة، مثل العنف والإباحية وحمل السلاح. هنالك هــدف إضافي للعولمة الثقافية يخص الدول العربية والإسلامية، ويتمثل في التركيز علــى طمس الملامح الثقافية والسلوكية الإسلامية لهذه الدول، نظرا لاعتقاد الكثيــر مــن الدول الغربية بأنه، وبعد زوال الخطر الشيوعي، أصبح الإسلام الخطر الخــارجي الحالي الأساسي المهدد لحضارتها. دفع هذا الواقع العديد من المثقفــين والهيئــات العربية إلى البدء بتحصين النفس والهوية أمام هذه الهجمة. ولا يزال مشوار العمل

والنضال طويلاً. هنالك مقولة سائدة بين أوساط المثقفين العرب مفادها أنه لا خطر على الهوية العربية لأنها كالجبل الراسخ جذراً والشامخ طولاً واللانهائي عرضاً. أعتقد أن هذه النظرة التفاؤلية سليمة من مناظير محدودة فقط، أي أنها غير شاملة التعبير عن الواقع، فتراثنا الواسع الطيف مليء بالمنافذ التي يستطيع أن ينفذ منها المغرضون.

أرجو ألا يفهم من دعوتي هذه لإحياء الألعاب الشعبية محاربة الألعاب الرياضية العالمية التقليدية، بل أن يحصل توازن من نوع ما بين هذين النوعين من الألعاب. وفي الحقيقة إن هذا التوازن موجود تماماً في بريطانيا وأمريكا، على سبيل المثال. فعلى الرغم من شيوع لعبة كرة القدم العالمية في بريطانيا إلا أن هنالك ألعابا خاصة بالهوية البريطانية، مثل لعبتي الكريكت و البولو. يذكر هنا وجود قناعة لدى الكثيرين بأن لعبة البولو، التي كانت تسمى لعبة الصوالجة[3]، انتقلت من بلاد الشام إلى بريطانيا أثناء الحروب الصليبية.

يذكر هنا أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام، راقب وزوجته عائشة بعض الألعاب الشعبية[3]. كما أن الأخوين راسل، طبيبي الجالية الإنكليزية في مدينة حلب، في القرن الثامن عشر، [5] ذكرا ما يلي عن الألعاب في حلب: " إن معظم الألعاب وصنوف اللهو التي تمارس داخل البيوت من النوع المتمدن ويلعب كلا الجنسين الشطرنج، ونوع من لعبة الطاولة، التي يقال أنها انتقلت عن الفرس. كما يلعبون الداما، ولعبتين غير معروفتين في إنكلترا وهما: المنقلة والطاب والدك وقد وصفهما م. دارفيو". قال المؤلفان عن لعبة المنقلة: "يلعبها شخصان ويعتمد الفوز فيها على الذاكرة والسرعة في الحساب". تحدث المؤلفان عن لعبة الطاب والدك، ولعبة الخاتم والفناجين، بشكل أكثر تفصيلاً (انظر الملحق د). وقد عبر الأخوان راسل عن الطبيعة والأهداف البريئة للألعاب مشيراً إلى أن الحلبيين يلعبون لمجرد التسلية فقال "وفي بعض الأحيان يجازفون ويلعبون مقابل فنجان من القهوة أو نفقة دخول الحمام، إلا أنهم لا يلعبون مقابل نقود". وفي ختام حديثهما عن هذا الموضوع أشارا إلى أن بعض الأفراد الحلبيين تعلموا القمار من القناصل الأوربيين الذين يعملون في خدمتهم.

أمل أن نرفع في هذا البحث لبنة في سور الحصن الثقافي المصمت للأمة العربية. نعتقد أن توثيق الألعاب الشعبية، خصوصاً التراثية منها، وإحياء الجميل والمفيد مما اندثر منها، يساهم في ترسيخ ملامح الهوية الوطنية. فضلت اختيار العنوان " **الألعاب الشعبية في حلب**"، بدلاً من "ألعاب حلب الشعبية" كي أتجنب الخوض في دوامة البحث عن أصل تلك الألعاب. سأقدم في المقطع الثاني تصنيفاً للألعاب الشعبية في حلب، من مناظير مختلفة. خصص المقطع الثالث لاستعراض بعض الأمثلة على تلك الألعاب، وقد حاولت في تلك العينة أن أغطي مختلف أعمار اللاعبين بدءاً من الرضّع و انتهاءً بالبالغين. أورد في المقطع الرابع والأخير ما وصلت إليه من خلاصات ومقترحات نتيجة إجراء هذا البحث. يحوي الملحق-أ لائحة بما سمعت و قرأت عن أسماءٍ للألعاب الشعبية في حلب. كما يحوي الملحق-ب بعض المصطلحات و الأدوات الواردة في الألعاب. تجاهلت (تقريباً) في هذا البحث ألعاب الشدة (الورق) والطاولة. كانت موسوعة حلب المقارنة للعلامة خير الدين الأسدي، مرجعي الورقي الأساسي أثناء إجراء هذا البحث. وفي الحقيقة، لو أرغمت على أن أشير إلى ذلك المرجع العظيم في كل موقع رجعت فيه إليه لامتلأت سطور هذا البحث بتلك الإشارات. كما أنني استفدت من حوارات طويلة ومفيدة مع الكثير من الأصدقاء والزملاء والأقرباء. يحوي الملحق ج لائحة بجميع من أسهموا في إغناء هذا العمل. كما يحوي الملحق د توسعاً نحو توصيف بقية الألعاب الشعبية، أي نحو تحويل هذه المحاضرة إلى "**موسوعة الألعاب الشعبية في حلب**".

تصنيف الألعاب من مناظير مختلفة

ا- التصنيف الأول، حسب الهدف من اللعبة:

-الترفيه: شيلة حطة

-الرياضة: عصومنيا

-التثاقف: اطلعو بشوري انزلو بقرون توري

-تدريب الرضع على تقليد البالغين في تنفيذ بعض الحركات الأساسية: هزي رأسك يانامة

-التقوية في الحساب أو العلوم الأخرى: السبعة بم

-تفريغ الطاقة: التوش

-المقامرة

ب- التصنيف الثاني، حسب عمر اللاعبين:

- أولاد: الرقاص
- بالغين: إينا إينا

ج-التصنيف الثالث، حسب قرابة اللاعبين وطبيعة العزل:

-إناث فقط: سلوى يا سلوى

-ذكور فقط: التوش

-أفراد أسرة واحدة: شوي وقلي بين الجد والحفيد-الطاب و الدك

د- التصنيف الرابع، حسب مكان اللعبة:

-في المنزل: برجيس

-في الحارة: الكلال

-في القهوة: دومنو

-في البستان: سكة القرد

ه-التصنيف الخامس، حسب وقت ممارسة اللعبة:

-ليلاً: أم الرز-وليمن

-نهاراً: جحشة طويلة

و-التصنيف السادس، حسب البيئة:

-في المدينة: التوش

-في الريف: المشبك-الكورة

ز-التصنيف السابع، حسب القاعدة المعرفية والحسابية:

-ضرورة تمتع اللاعبين بحد أدنى من المعرفة الثقافية والحسابية: السبعة بم

-معرفة بسيطة: التوش

ح-التصنيف الثامن، حسب الموسم أو الفصل:

-موسم ديني: خميس البيض-الرشيشة-الكاسورة

-موسم زراعي: عجو مشمش

-موسم فصلي (صيف- خريف- شتاء-ربيع): ألعاب الثلج

ط- التصنيف التاسع، حسب ارتباطها بالغناء:

-مرتبطة: اينا اينا

-غير مرتبطة: خود وهات

ي- التصنيف العاشر، حسب عدد مراحل اللعبة:

-مرحلة واحدة: الشحر

-أكثر من مرحلة: التوش

ك- التصنيف الحادي عشر، حسب تناسب حجم الفرقاء:

-واحد ضد مجموعة: سكة القرد

-مجموعة ضد مجموعة: التوش

ل- التصنيف الثاني عشر، حسب إمكانية حضور و تشجيع الكبار من أفراد الأسرة أو الحارة

-نعم: سكة القرد

-لا: وليمن

م- التصنيف الثالث عشر، حسب الحاجة إلى أدوات

-تحتاج: التوش

-لا تحتاج: أم الرز

ن- التصنيف الرابع عشر، حسب وجود ربح وخسارة

-يوجد: جحشة طويلة

-لايوجد (أغنية راقصة-أهزوجة-مقطع تمثيلي)

3-بعض الأمثلة

تعتبر الأمثلة الواردة أدناه تذكيراً ببعض الألعاب التراثية وليست توثيقاً نهائياً لها. صعب توصيفها بشكل نهائي بسبب عدم وجود مرجع عنها وبسبب ممارستها بأنماط مختلفة من قبل أبناء حلب.

لعبة إينا إينا

ينقسم الأولاد إلى فريقين متساويين و يكون هنالك رئيس لكل فريق. لنقل أن كل فريق مؤلف من أربعة أولاد، رئيس و ثلاثة لاعبين. تجري في البداية قرعة، والتي قد تستخدم طريقة "شكة قدم"، يتحدد فيها الفريق المتفوق مبدئياً. وفي هذه اللعبة يكون فيها رئيس الفريق المتفوق مبصراً و يدير اللعبة لصالح فريقه. لنفترض أن الفريق المتفوق هو الفريق الأول. يقوم رئيس الفريق الأول بالاجتماع مع فريقه ليتفق سراً معهم على إسناد اسم رمزي لكل منهم. لنقل أنه اتفق معهم على الأسماء الرمزية التالية:

الاسم الحقيقي	الاسم الرمزي
أحمد	موزة
حسن	تفاحة
محمد	برتقالة

يقف أو يجلس رئيس الفريق الأول متوجهاً نحو الجنوب و يقف أمامه رئيس الفريق الثاني متوجهاً أيضاً نحو الجنوب. يقوم رئيس الفريق الأول بتعمية رئيس الفريق الثاني بواسطة يديه. يقف أعضاء الفريق الثاني على خط مستقيم يفصل بين كل منهم حوالي متر ومتوجهين نحو الشمال (أي نحو رئيسهم) يركع كل منهم ممثلاً شكل الحصان، و يركب على ظهر كل منهم عضو من أعضاء الفريق الأول بشكل عشوائي، حتى لا يكون هناك صلة بين الحصان و الفارس تسهل عملية الحزر. و بعد أن يستقر كل الفرسان على ظهر الأحصنة يبدأ رئيس الفريق الأول مجوداً (أو مغنياً) بما يلي:

إينا إينا (وفي بعض الأحياء إينا مينا)
يا من دق الحجر لينا
يللي سميتو لميتو
ببطن أمو حطيتو
يالي سميتو تفاحة (مثلاً)
ينزل بخفيّة
يطلع بخفيّة

وهنا ينزل حسن المرموز له بتفاحة، بهدوء متجهاً نحو حجرين صغيرين أمام صف الأحصنة ليضرب أحدهما بالآخر عدة مرات (وقد يكون حجراً واحداً يدق بالأرض الحجرية) و يعود بهدوء ممتطياً حصانه ثم يستأنف رئيس الفريق الأول كلامه:

ديروا حصاناتكم على القبلة

وهنا تلف الأحصنة 180 درجة متجهة نحو القبلة مما يحرم الفريق الثاني من إعطاء إشارات بصرية مساعدة لرئيس فريقهم، ثم يستأنف:

لا حدى يهرط
لا حدى يمسي (أي لا تعطي أي إشارة أو صوت يساعد على تحديد دقاق الحجر)
صاحب البيت إلو غبة نفس

و هنا يرفع رئيس الفريق الأول يديه عن عيني رئيس الفريق الأول مما يجعله مبصراً.

يتوجب على رئيس الفريق الثاني أن يحزر اللاعب الذي دق الحجر. إذا نجح في معرفة ذلك يتبدل وضع الفريقين و يصبح الفريق الثاني هو الفريق المتفوق و تعاد اللعبة بنفس الطريقة المشروحة أعلاه.

إذا عاد الفريق الأول للتفوق بعد دور أو عدة أدوار، يتوجب عليه تغيير الأسماء الرمزية أو بعضاً منها. و هذا ما يشكل، بعد فترة طويلة من اللعب، عبئاً على رئيس الفريق حيث يصعب عليه إيجاد أسماء رمزية مناسبة لذا ليس من الغريب استخدام أسماء رمزية قد تعتبر نابية مثل: بعرة،جحش،.......

عادة ما يتم اختيار الرئيس من ذوي النباهة كي ترتفع فرصة التفوق. ليس من الغريب أن يعقــّب أحد الحضور، عند امتطاء الأحصنة قائلاً: **مبارك حمارك أو تعيش وتركبو.**

لعبة دوش نصارة

تُلعب هذه اللعبة بأنماط مختلفة وسأشرح واحداً منها في هــذه المحاضـــرة وهو نمطٌ مختصر. يلعب هذه اللعبة لاعبان فقط و تتألف أدواتها من كرة حجريـــة بحجم البيضة تدعى نصارة، ومن قرص حجري يدعى دوش و هو مشابه شـــكلاً لرغيف الخبز الصغير المنتفخ أثناء خروجه من بيت نار الفران (قطـــره حـــوالي خمسة عشر سنتيمتراً و سماكته حوالي خمسة سنتيمترات). يفضل أن تلعب اللعبـــة في ساحة مستوية لتسهيل حركة النصارة. تجري في البداية قرعة لتحديد اللاعـــب البادئ.

توضع النصارة عند نقطة محددة بخـــط ليقـــوم اللاعـــب البـــادئ (الأول) بضربها بواسطة الدوش بهدف تحريكها لأبعد مسافة عن نقطة وقوفها ليقوم بواسطة قدميه بحساب المسافة (حوالي عشرة أقدام مثلاً). يعلم موقع النصارة الجديد ثم يقوم اللاعب الثاني بضرب النصارة بالدوش بهدف تحريكها لابعد مسافة عـــن نقطـــة وقوفها و يحسب المسافة بالقدم تماماً كما فعل زميله. ثم يعطي الدور للاعب الأول ليعيد ما نفذه في الدوش و النصارة مضيفاً ما حققه هذه المرة على رصيده السابق. تستمر عملية تبادل اللعب و ازدياد الرصيد حتى يتجاوز رصيد أحدهما قيمة عظمى محددة سلفاً (ولنقل مئتي قدم) و هذا ما يجعله فائزاً في اللعبة.

تعتمد هذه اللعبة قليلاً على القوة البدنية للسيطرة الجيدة على الدوش. كمـــا تعتمد على ذكاء اللاعب وخبرته من حيث تحديد زاوية ضرب الدوش بالنصـــارة. تذكرنا هذه العبة بلعبتي الغولف و الـــ bowels الانكليزيتين.

لعبة سكة القرد

عادةً ما يتراوح عدد طاقم هذه اللعبة بين ستة و عشرة أولاد يلعـــب فيهـــا أحدهم ضدّ البقية. تجري في البداية قرعة يتحدد فيها لاعب مدافع ضدّ بقية الفريق المهاجم. يدق في الساحة وتد و يربط به حبل يتراوح طوله بين ثلاثة وخمسة أمتار

و يكون مجال حركة اللعبة دائرياً كما سنشرح لا حقاً (و في حال عدم توفر ساحة كبيرة يمكن أن يربط بشباك جامع أو بحلقة على أحد الحيطان ليكون مجال حركة اللعبة نصف دائري). يمسك المدافع بطرف الحبل و يحق له الحركة ضمن دائرة نصف قطرها يساوي طول الحبل أما مركزها فيقع عند الوتد. تلعب اللعبة على مرحلتين. في المرحلة الأولى يضع المهاجمون أحزمتهم داخل دائرة الحركة و يهدف المدافع إلى أن يمنع أياً من المهاجمين من التقاط أي حزام. إذا استطاع المدافع أن يلمس بيده أو برجله أياً من المهاجمين تنتهي اللعبة و يصبح المهاجم الملموس مدافعاً لتبدأ اللعبة من جديد. يتعاون المهاجمون على التقاط الأحزمة من خلال إغراء المدافع بملاحقة أحد المهاجمين الذي يخترق دائرة الحركة مما يدفع مهاجماً آخر إلى استغلال ذلك لالتقاط أحد الأحزمة من داخل دائرة الحركة هذه، من الاتجاه المعاكس لاتجاه حركة المدافع.

يستطيع كل من التقط حزاماً أن يدخل المرحلة الثانية ليستخدم حزامه في ضرب المدافع. مرة أخرى، إذا استطاع المدافع أن يلمس المهاجم سواءً كان مهاجماً يملك حزاماً أم لا، عندها تنتهي اللعبة و يصبح الملموس اللاعب المدافع و تبدأ اللعبة من جديد بعد أن تعاد جميع الأحزمة إلى داخل دائرة الحركة.

تصبح اللعبة قاسية جداً (بياكل المدافع قتل و بفرق) إذا تمكن عدة مهاجمين من دخول المرحلة الثانية و قد تدفع المهاجم إلى الانهيار و الانسحاب من اللعبة بعد أن يتلقى الكثير من الجلدات. قد يهزج الأولاد أثناء هذه اللعبة: **ديرا جيب العلبة وبساميرا**. كما قد يهزجون: **الديب دبدب وجاني والديب راعي الغزلاني.**

تعتمد هذه اللعبة على سرعة الحركة و على البداهة و الذكاء و حسن التصرف. و حسب قراءاتي فإن أول ذكر لاسم هذه اللعبة ورد في يوميات نعوم بخاش التي دونّها في النصف الأول من القرن الماضي وذكر فيها أنها كانت تلعب في البستان.

لعبة التوش

تتألف أدوات اللعبة من التوش و عصا مبسّطة. يكون التوش على شكل قطعة من الخشب، ذات مقطع مربع أو مدور، وطولها قدر الفتر نُجّر طرفاها فأصبحا مدببين تدبب رأس قلم الرصاص الخشبي. أما العصا فهي بطول حوالي

ذراع ومقطعها مستطيل طوله حوالي ثلاثة أصابع و عرضه (سماكة العصا) حوالي إصبع واحد.

ينقسم اللاعبون إلى فريقين متساويين. يعتبر الفائز بالقرعة هو الفريق الرامي للتوش. يلعب كل فرد من أفراد الفريق الرامي دوراً و يستمر في اللعب حتى يخسر ليخرج من اللعبة مما ينقص عدد أعضاء فريقه الذي لا يعتبر خاسراً بشكلٍ كلي. و في حال خسران كل أعضاء الفريق واحداً تلو الآخر يعتبر الفريق الرامي خاسراً مما يدعو إلى تبادل الحالة بين الفريقين ليصبح الفريق الرامي هو الفريق المدافع و العكس صحيح.

في حال إتمام أي لاعب دوره بنجاح و الذي يتمثل في تحقيق كسبٍ يزيد على عشر قفزات، كما سنشرح لاحقاً، يكسب الفريق الرامي رصيداً إضافياً واحداً يعوض عن خسارةٍ لاحقةٍ مثلاً. و عادةً ما يبدأ اللاعب الأضعف في الفريق الرامي باللعب. من الواضح أن كل لاعب من الفريق الرامي يلعب ضدّ كامل أعضاء الفريق المدافع (المتلقي للتوش) بينما يلعب بقية أفراد الفريق الرامي دور المراقب و المتحفز ليأخذ دوره في اللعب.

يمسك اللاعب بأحد طرفي العصا المبسطة و يركز الطرف الآخر على الأرض، عند خط بداية اللعبة. تكون العصا مائلة قليلاً على اللاعب الرامي ينام عليها التوش المرتكز من أحد طرفيه على الأرض أيضاً. ينتشر أعضاء الفريق المدافع أمام الرامي و على مسافاتٍ و زوايا مختلفة ثم يعطي رئيس الفريق المدافع إشارة البدء و التي تكون "حاح". يرمي الرامي، بعد سماع كلمة حاح، التوش باستخدام العصا إلى نقطةٍ بعيدة و بزاوية معينة يعتقد أنها أصعب ما يمكن على أعضاء الفريق المدافع تلقفها بأكفهم أو بأذيالهم المثنية، و إذا تلقفها أحدهم يخسر الرامي و بذا يخسر الفريق الرامي أحد عناصره أو يقل رصيده بمقدار واحد، إذا كان له رصيد إضافي كما شرحنا سابقاً. إذا لم يستطع أحدٌ من أعضاء الفريق المدافع تلقف التوش عندها يدخلون إلى مرحلة ثانية و هي إمكانية أن يربحوا من خلال إصابة عصا الرمي المتوضعة في مركز الرمي، بواسطة التوش. يجب أن يتمركز أحد أعضاء الفريق المدافع عند نقطة سقوط التوش و يحاول إصابة العصا بالتوش. إذا تمت إصابة العصا خسر عضو الفريق الرامي، أي أنها تكافئ تلقف

التوش في المرحلة الأولى. و إذا لم تتم الإصابة، تدخل اللعبة المرحلة الثالثة كما هو موضّح أدناه.

يقف اللاعب الرامي على خط البداية (خط الرمي) ويضرب التوش بالحرف العلوي للعصا ضربة خفيفة فيسقط التوش على الأرض منحرفاً نحو جهة عشوائية، ثم ينقره بالعصا بقوة على أحد طرفيه المدببين فيرتفع قليلاً في الهواء. يستغل الرامي ارتفاع التوش في الهواء ليضربه بالعصا هادفاً إلى إبعاده قدر الإمكان عن خط البداية. يكرر اللاعب عملية النقر و الضرب ثلاث مرات متتالية. و يقول اللاعب أثناء الضربات الثلاث المتتالية: "واحد توش-اثنين توش-ثلاثة عمك أبو عيوش". تعتبر المسافة التي حققها الرامي مقاسة بعدد القفزات رصيداً له نحو الوصول إلى مسافة عشر قفزات بشكل تراكمي. يتم تقييم المسافة المقطوعة في هذا الشوط بالتراضي حيث يبدأ عضو من أعضاء الفريق المدافع بإعطاء تقييم لتلك المسافة. إذا اقتنع الرامي بتقييم المدافع سجلت له و أعاد رمي التوش مرةً أخرى، حتى يحقق مسافة العشر قفزات. وإذا لم يقتنع الرامي بالمسافة التي قدرها الفريق المدافع يستطيع الفريق الدافع إثبات صحة تقديرهم تجريبياً. فإذا نجحوا في ذلك خسر الرامي. و بتحقيق العشر قفزات يكون اللاعب الرامي قد ربح هذه الجولة و حقق لفريقه رصيداً مقداره واحد. يعود نفس اللاعب الرامي إلى محاولة تحقيق رصيد إضافي لفريقه وقد يخسر وينسحب من الفريق الرامي. إذا خسر كل أعضاء الفريق الرامي عندها يعتبر الفريق بمجمله خاسراً مما يدعو إلى تبادل الصفة مع الفريق المدافع.

قد يفشل رامي التوش في أن يرميه لأبعد من متر أو مترين، بسبب عدم الارتكاز الجيد للتوش على العصا مثلاً. وهذا ما قد يتسبب باحتمال كبير بخسارة الرامي بسبب الاحتمال العالي لإصابة العصا بالتوش من قبل أحد أعضاء الفريق المدافع. و هنا يبدو دور سرعة بداهة اللاعب الرامي حيث أنه إذا استبق أعضاء الفريق المدافع بالقول "سبق لبق إلنا" ثم هجم مسترداً التوش، حق له إعادة محاولة الرمي.

قد يلعب الفريقان بشرط أنه إذا استطاع اللاعب الرامي، أثناء نقر التوش وضربه بالعصا، أن يصيب أحد أعضاء الفريق المدافع، أخرجه من اللعب.

ومن المفيد ذكره أن التوش يسمى في محافظة حماة باسمه العربي: "تبل".

لعبة الشيش

الشيش هو عمود مؤلف من عدة أحجار، متقاربة المسحة و مطبقة فوق بعضها البعض، ويفضل أن تكون كسرات من البلاط لسهولة تطبيقها. ينقسم الأولاد إلى فريقين متساويين و يكون هنالك رئيس لكل فريق يمكن تبديله دورياً، ويكون هو حارس الشيش إذا كان فريقه مدافعاً. تجري في البداية قرعة، و التي غالباً ما تكون طريقة "شكة قدم"، يتحدد فيها الفريق المهاجم مبدئياً.

يطبق الشيش في مركز دائرة ذات قطر يساوي المترين تقريباً ويكون محيط هذه الدائرة، المرسومة بالحوار على أرض مستوية نسبياً، حدود مجال حركة حارس الشيش. يرسم خط مستقيم على بعد يساوي حوالي خمسة أمتار عن الشيش، والذي يحدد أقرب نقطة للهجوم. يستخدم اللاعب المهاجم كرة شبيهة بكرة التنس، وفي حال عدم توفر مثل هذه الطابة يتم استخدام أداة أخرى كفردة شحاطة مثلاً، لضرب الشيش وإيقاع مكوناته أرضاً. يكون العدد الأقصى لضربات (عدد فرص) الفريق المهاجم مساوياً لعدد أفراد الفريق المهاجم، أي بمثابة فرصة لكل لاعبٍ. و في حال فشل جميع الفرص يخسر الفريق المهاجم و يتم تبادل المواقع بين الفريقين.

في حال إسقاط الشيش يدخل الفريق المهاجم المرحلة الثانية من اللعبة و التي تتمثل في محاولة إعادة بنائه. و إذا نجح الفريق المهاجم في إعادة بناء الشيش كان الفوز حليفه. تتمثل مهمة الفريق المدافع بعد إسقاط الشيش في منع الفريق المهاجم من إعادة بناء الشيش وذلك بقيام حارس الشيش بضرب أفراد الفريق المهاجم بالطابة. إذا أصاب حارس الشيش أحد أعضاء الفريق المهاجم توجب على هذا اللاعب الخروج من اللعبة. عندما يفشل حارس الشيش في إصابة أحد أفراد الفريق المهاجم يساعده أعضاء فريقه على إعادة الطابة له في كل مرة يرمي فيها الطابة. يستغل أعضاء الفريق المهاجم الزمن الواقع بين رمية حارس الشيش غير الصائبة و عودة الطابة له مرة أخرى، لإعادة بناء الشيش. يذكر هنا أنه إذا خرج حارس الشيش عن دائرة حركته المسموحة عدّ فريقه خاسراً.

يجب أن يتمتع لاعبو هذه اللعبة بالذكاء و السرعة و المهارة لزيادة فرصة الربح. تذكرنا هذه اللعبة بلعبة الكريكت الإنكليزية.
يذكر هنا أن الشيش يدعى في محافظة حماة: "قابوع".

لعبة جحشة طويلة

ينقسم الأولاد إلى فريقين متساويين (ويفضل أن يزيد عدد كل فريق على ثلاثة). تجري القرعة في البداية لتحديد فريق الجحشة. يلتصق أحد أفراد فريق الجحشة بالحائط (ويدعى القرمة أو المخدة). يمسك أحد أعضاء فريقه بوسطه وهو في وضع ركوع. يمسك بقية أفراد هذا الفريق ببعضهم البعض بشكل مماثل لأول عنصر راكع (مشكلين شكل الجحشة). يجب على أعضاء الفريق الآخر أن يمتطوا قفزاً الجحشة، واحداً تلو الآخر. يجب أن لا يفشل أياً منهم في القفز أو في عدم إيجاد متسع له على ظهر الجحشة. وبعد أن يكتملوا جميعاً فوقها يجب أن يكونوا قادرين على البقاء لفترة تمتد فترة العد إلى عشرة، وهذا ما يؤكد سيطرتهم في الامتطاء. تتمثل مهارة القافزين، وخصوصاً أوائلهم في القفز بعمق القفز حتى الالتصاق بالمخدة لإتاحة متسع لبقية أفراد الفريق. إذا وقع أحد أفراد الفريق الممتطي من على ظهر الجحشة قبل انتهاء العد إلى عشرة أو إذا فشل أحد أفراد الفريق في أن يجد له متسعاً على ظهرها، يعتبر فريقه خاسراً ويتبادل الفريقان حالتي المطية والممتطي.

لعبة عصومنيا

عادة ما يزيد عدد لاعبي هذا اللعبة على ستة أشخاص. من تقع عليه القرعة هو الذي سيركع (يطيخ-ينيخ كالجمل) ويترك له فرصة انتقاء معلم من بقية اللاعبين، يعمل بمهارته وحيلته وإدارته للعبة على تخليص الراكع من وضع الركوع والقفز من فوقه من قبل بقية أعضاء الفريق. يبدأ المعلم باللعب الإعجازي حيث يجب أن يقلده بقية اللاعبين، كأن يتحكم في البداية بارتفاع الراكع. ثم يقفز فوق الراكع داعياً بقية أفراد الفريق لتقليده فإذا نجحوا زاد من هذا الارتفاع وقفز داعياً البقية لتقليده. وفي حال فشل أياً من أعضاء الفريق في تقليده يعتبر خاسراً ويصبح هو الراكع ويتاح له فرصة انتقاء معلم.

من إبداعات المعلم الإعجازية:

-القفز مستنداً على يدٍ واحدة.

-القفز مستنداً على يدٍ واحدة والتأشير باليد الأخرى على رقبة المقفوز عليه والقول: "**دبحنا العنزة وسال الدم خطفوا ولاد العم ولاد العم ستة سبعة ساكنين تحت القلعة شيل شيل لا تنبل**".

-النزول بعد القفز على رجل واحدة.

-النزول بعد القفز على رجل واحدة ومتابعة اللعبة بالإشارة دون النبس بأية كلمة (عل فركحكح خرساني).

-وضع محرمة على ظهر الراكع ولمسها أثناء القفز ودون إيقاعها على الأرض.

يظهر العنف على أشده في هذه اللعبة حيث قد يقع أحد القافزين كاسراً رجله أو يده أو شاحراً جزءاً من جلده. كما قد يهزجون لمن لا يتميز لعبه بالخفة والرشاقة:

قام الدب ليرقص قتلو سبع تنفس

لعبة طيمشة ميمشة

يتحلق مجموعة من الأطفال على محيط دائرة و يمدون أقدامهم باتجاه مركزها. يقوم أحد الأطفال بأداء الأهزوجة التالية مخصصاً كلمة منها لكل قدم و تكون البداية عشوائية:

طيمشة ميمشة بعتتني ستي عيشة تا أشتري بصل

وقع الكوز انكسر حلفت معلمتي لتعلقني بالسجر

و السجر بكوس بكوس خبي إيدك يا عروس أم الحلقة و الدبوس.

تفوز القدم التي تنتهي عندها آخر كلمة من كلمات الأغنية، مما يدعو إلى سحبها. يعتبر الطفل فائزاً إذا فازت قدماه. وقد يهزج "والسجر فلوس فلوس" بدلاً من "والسجر بكوس بكوس".

كما أن هنالك صيغة أخرى لهذه الأغنية:

طيمشة ميمشة كلي واشربي

حمّلي حمالك بكره بتوصلي

وصلنا وصلنا مطرح ما كنا
عدّت وحدة فلاحة
ضربتني بالتفاحة
صاح الديك بالليوان
الله يرزق السلطان

لعبة سلوى يا سلوى

يغني البنات و هنّ ممسكاتٍ بأيدي بعضهنّ البعض و يتحركن حول إحدى البنات المغمضة العينين:

-سلوى يا سلوى ليش عم تبكي؟
-بدي رفيقة
-قومي نقي عل الغميضة بيضة يا بيضة

فتنتقي البنت الموجودة في المركز، قبل أن تفتح عينيها، بديلة لها من البنات اللواتي يدرن حولها و تكرر اللعبة بعد ذلك.

لعبة هزي راسك يانامة

تواجه الأم (أو إحدى قريباتها) الرضيع، الذي عادة ما يزيد عمره على أربعة أشهر، وتهزج باسمة:

هزي راسك يانامة راسك راس الحمامة

تهز الأم رأسها أثناء ذلك مما يدعو الرضيع بعد عدة تكرارات إلى تقليد حركة رأس أمه.

4-الخلاصة والمقترحات

نخلص مما سبق إلى أن الألعاب الشعبية، و خصوصاً التراثية منها، جزء هام من ملامح الهوية الوطنية يستحق العناية والتوثيق والإحياء.

أقدم المقترحات التالية لإتمام العمل:

أ-عقد ندوة تكميلية لهذا البحث تهدف إلى تجميع بقية الألعاب الشعبية في مرجع واحد. ثم عقد ندوة على مستوى القطر لدراسة مدى التقارب مع نفس الألعاب في مختلف أرجاء القطر (والتي قد تختلف عن بعضها قليلاً) وانتقاء أفضلها أو تعديلها نحو الأفضل، ثم أخيراً اعتماد أسس لممارستها.

ب-تتويج عملية التوثيق بمهرجان للألعاب الشعبية يتم فيه توثيقها جميعاً بالصوت والصورة المتحركة.

ج-عرض ذلك التوثيق بشكل متكرر على التلفزيون الوطني بهدف إحياء بعضها والتي قد تكون أفضل من صرف الوقت على بعض البرامج التلفزيونية الهامشية والتقليل من هوس مراقبة مباريات كرة القدم وغيرها.

وقبل أن أنهي بحثي هذا أسجل أدناه ملاحظتين شعرت بهما أثناء إعداد هذا البحث، أعتقد أنهما جديرتان بالدراسة والمعالجة، وهما:

ا-استخدام الكلمات غير الرصينة (النابية) في كثير من الألعاب التراثية.

ب-هنالك جرعة خفيفة من العنف في الألعاب التراثية.

لذا قد يكون من المفيد إعادة صياغة هذه الألعاب بهدف تنقيتها من شوائب العنف والكلام غير الرصين.

المراجع

-مراجع قرأتها:

1 محمد خير الدين الأسدي، "موسوعة حلب المقارنة"، جامعة حلب، 1987.
2 عادل حربي، "الألعاب الشعبية في السودان وإمكانية الاستفادة منها في مسرح الأطفال"، مجلة الخرطوم، العدد الخامس، شباط 1994، ص 75-82.
3 ربيع فواز، "ألعاب الصبيان العرب قبل الإسلام من خلال الشعر الجاهلي"، مجلة الحداثة.
4 أبوبكر أحمد محمد كريميد، "الألعاب والرياضات الشعبية ودورها في الرياضة الجماهيرية"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1985.
5 الكسندر راسل وباتريك راسل، "تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر"، 1794، لندن، ترجمة ونشر خالد جبيلي، 1997.

-مراجع سمعت عناوينها:

1 أحمد عيسى الطيبي، "ألعاب الصبيان عند العرب".
2 أحمد عيسى الطيبي، "الترقيص والغناء للأطفال عند العرب".
3 سوزانا ميلر، "سيكولوجية اللعب"، عالم المعرفة، الكويت، العدد 12، كانون الأول 1987.
4 احمد رشدي صالح، "الألعاب الشعبية والمهارات الجسمية والسيرك، مجلة الفنون الشعبية، العدد 24، تموز-آب-أيلول، القاهرة، 1988، ص 74.
5 خليفة أحمد محمد، " ألعاب الصبية والأطفال في السودان"، مركز دراسة الفلكلور، مصلحة الثقافة، الخرطوم، 1973، ص22-25.
6 ربيع فواز، "؟ ألعاب الأطفال التي انقرضت؟؟ البلبل"، صحيفة الحياة، 23-12-19991.
7 ربيع فواز، "؟ ألعاب الأولاد في لبنان"، صحيفة الحياة، 22-5-19991.
8 أحمد أبو أسعد، "أغاني ترقيص الأطفال عند العرب"، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.

9 محمد عادل خطاب، "الألعاب الريفية المصرية"، القاهرة، الأنكلو مصرية، 1964.

10 محمد عادل خطاب، "ألعاب الناشئين"، القاهرة، الأنكلو مصرية، 1964.

11 محمد حامد الأفندي، "ألعاب المرحلة الأولى"، القاهرة، عالم الكتب، الجزء الأول، 1964.

12 محمد حامد الأفندي، "ألعاب المرحلة الثانية"، القاهرة، عالم الكتب، الجزء الثاني، 1967.

ملحق أ

لائحة بما ذكر أمامي من ألعابٍ شعبيةٍ

الخاتم والفنجان

دولاب الهوا

رفع ولد آخر ظهرا لظهر بالتبادل

مسك ولد من يديه والدوران به

(يرتفع بفعل القوة الطاردة المركزية)

حط الحمام طار الحمام على أبراج الحمام

(قصيدة محمود درويش طار الحمام)

تسلاية رمضان

أرتيكان

موريس كوسا

صنم

وليمن (بوليسية حرمية)

أم الأجر (مملكة–حبوكة–حبيكة–شاماي)

أم الكعب

مجتمع الدول

الكلال

(كش تشبير–الجورة–جوز إلا فرد–الحية–مور)

شوي قلي–أمامي ثنائي

محرمة

عربات التيل

دراجات البيليا القديمة

الزحليقة

الطالعة والنازلة

سفق سفق نينة

نقطة زيت في كقو

هزي راسك يا نامة

كبيبة كبي حرير

كيل حنطة كيل شعير

خرارة

(بنوعيها حركة أفقية وحركة عمودية)

كفية (رمي القرص)

رمي الحجر باليد

فتحت الوردة سكرت الوردة

صياح (فردي أو فريقين متساويين ضمن دائرة)

رمي الحجر بالمقلاع

الإصابة بالشعب
شوي قلي-خلفي متعدد (أم دكز)
مين المفتش
أم العالي و الواطي (أماية)
تخباية
جلجطة شيلة حطة
معاذ الله
عصومنيا (عل فركحكح خرساني)
جحشة طويلة
توش
دوش نصارة
سكة القرد
الكعاب
الكبريتة
عجو (جوز الا فرد)
سباق الخيل
المصارعة الثنائية (الصراع)
إدريس (3 أو 9 أو 12)
منقلة
ضاما
الشطرنج
مزرعة
مونوبولي
شد الحبل
الكشتبان
الرقاص
وين بيت الكاحلة
الكرفيسة العجمية

سلطة/ملطة
الشرشف و القطنة
أم الدقرة و النقرة (القبيشة)
بيب (أماية التخباية)
تخليص (أماية التخليص)
سلوى يا سلوى ليش عم تبكي
طيمشة ميمشة
طائرة ورقية
الجوجحانة
(طقطقت هالمروحة زقزقت هالمروحة)
القلابة
التسابق عدواً
رجل الثلج
التضارب بالكرات الثلجية
رشاشة
برجيس
طاولة
ورق (شدة)
دومينو
الأربعة تربح
مكعب روبيك
قلبة اليد
الألعاب السحرية
أم الرز
انزلوا بشوري-اطلعوا بقرون
توري
اللقو

السبعة بم
الكورة
المطقطقانة–الفاقوسة
هون–عا
خود و هات
أنا شوحة خطافة (أنا جيجة خطافة)
الشحر
شيطانة جوعانة
طالع صرم أمو من الحيط
حج الله ياحج الله
الطاب و الدك
طبقة فوق طبقة (الكرفيسة؟)
شعبان–شعبان
ياحج محمد يويو
طيارة طارت بالجو
تحتك بيضة تحتك إيش (تحتك قيق)
رز مفلفل
كام بيكام

جوجحانة بطّانة
كوكبة
الفرس و الخيال
يمسيكم بالخير يا عمّار العمّارين
ستوب
كوبانياس
حلق لاقا زيتونة
أم عميش إيش و إيش
تقليد حالة النساء
دور دور ياعصفور
يا علي يا علي ياحمام سقيفاتي
طار الحمام
صياد حمام
معي معي ما بعطيه
قرة هوب
دوغوز
موشح
تخميس

ملحق ب

كلمات و أدوات

شوري: وتعني الاستيلاء (**شوري الكلال حلال**)

برطشة: تعطيل أو إفشال، حيث يقولون لمن برطش اللعبة: **اللي برطش لعبتنا أمّو تنتف قطنتنا**. كما يمكن أن يقولوا: **ضاجت أمّونة ضاجت** أو **دقولو على طنجرتو قبل ما تيجي مرتو.**

الفجح: الغش في اللعب.

ديرا: وتعني استمر في اللعب، في لعبة سكة القرد (**ديرا جيب العلبة و بساميرا**)

المقرعة: أداة العقاب في كثيرٍ من الألعاب و هي بحصة صغيرة ضمن رأس لفافة من القماش مجدولة، سميت بالفصحى **المخراق**[3].

التوش: أنظر تعريفها في مثال التوش.

حاح: أنظر تعريفها في مثال التوش.

دوش: أنظر تعريفه في مثال الدوش نصارة.

نصارة: أنظر تعريفه في مثال الدوش نصارة.

شكة قدم: إحدى طرائق تنفيذ القرعة، وتنفذ كما يلي: يقف المقترعان وجهاً لوجه على أرض مستوية مبتعدين عن بعضهما مسافة ثلاثة أمتار تقريباً. يبدأ أحد المقترعين بتثبيت إحدى قدميه على الأرض باتجاه الآخر، وهذا ما يفعله اللاعب الآخر، وذلك بهدف الاقتراب من بعضهما. يتقدم اللاعب الأول نحو الآخر من خلال لصق مؤخرة قدمه الثانية بمقدمة الأولى ثم يثبت تلك القدم. وهذا ما يفعله اللاعب الثاني باتجاه اللاعب الأول. يكرر اللاعبان ذلك بشكل متتابع. وعندما تتقلص المسافة بينهما إلى حوالي متر واحد تدخل العملية في طور يلعب فيه الذكاء وحسن التقدير دوراً جيداً، حيث يحق لكل منهما المناورة باستخدام نصف قدم (قدم بالعرض) بدلاً من قدم كاملة، بهدف تحقيق الفوز. يكون الفوز حليف من تدوس قدمه أولاً قدم المقترع الآخر، سواءً كان ذلك بكامل القدم أو بجزء منها.

مخدة: مرتكز مجموعة لاعبين على الحائط في لعبة جحشة طويلة، وقد تسمى القرمة.

الشيش: مجموعة من الأحجار غير السميكة (يفضل أن تكون قطع من بلاط حديث) مطبقة فوق بعضها البعض.

كل: كرة بللورية شفافة داخلها أشكال وردية متداخلة، ذات قطر يساوي حوالي 12 مم (تسمى الكلال دحاحل في محافظات أخرى).

الديكة: ما يصف داخل المور من كلال.

السـبّة: مجموع ما يتم اللعب عليه في لعبة المور، وقد استخدمت جملة "**على كيس** السبة" لتعني "بدون رأسمال"

ويشك: وتعني أستهدفك، في لعبة الكلال. وقد يتحاور لاعبان قائلان:

-ويش منك

-ويش

-ويش من الروس والجحاش.

لين: تماس، في لعبة الكلال.

كعب: مفصل قدم الخاروف. وقد تبرد أطرافه الناتئة، أو/و قد يثقب ويصب فيه الرصاص المغلي لتزداد استقراريته.

حر تبطيل: وتعني أنه يحق لأي لاعب أن ينسحب من اللعبة متى شاء.

شرشقة: اصطدام الكلال ببعضها.

المور: المثلث في لعبة الكلال.

نيخ: اركع.

طيخ: نيخ (كما ينيخ الخمل).

المقلاع: آلة من حبل ذي شقين يتوسطها كف الرماية العريض، فيه توضع الحجارة لترمى إلى البعيد، وهو من أدوات الحرب القديمة.

القيطانة: حبل قطني مجدول قطره حوالي 5 مم وطوله حوالي المتر، يلف حول الصياح للمساعدة على تدويره.

الصياح: قطعة خشبية مخروطية الشكل، في رأسها مسمار مخروطي الشكل أيضاً (يسمى الكبير منه **مكوك**). تلف حول خشبه القيطانة ثم يرمى على الأرض بقوة، بسحب القيطانة فيدور الصياح مرتكزاً على مسماره الحديدي سمي بالفصحى **الدوامة**[3] وسمي في بعض المحافظات السورية الأخرى **بلبل**.

برّز الصياح: إستطاع أن يدور الصياح.

الشعب: آلة مؤلفة من غصن متشعب مكونا شكلاً نجمياً ثلاثيا طول كل من الأذرعة الثلاثة حوالي 10 سم وقطره حوالي 1 سم، يوصل بين الفرعين بشريط

من الكاوتشوك يتوسطه كف الرماية الأعرض نسبياً التي يوضع فيها بحصة صغيرة لترمى بها الطيور.

هوبالا (هوبالس): وتعني انتصب.

الفولة: مكان احتجاز اللاعبين في لعبة التخليص.

الشوحة: من الجوارح.

التعميش: تعصيب العينين منعاً للرؤية.

بيب: إعلام بتحقيق النجاح في لعبة أماية التخباية.

أماية: وتعني الدور في كثير من الألعاب.

البفة: أهزوجة تؤدي دور القرعة في كثير من الألعاب وهي أهزوجة عدد كلماتها أكثر من عدد اللاعبين المقترعين. يجلس (أويقف) الأولاد بشكل دائري يخصص لكل لاعب كلمة من كلمات البفة وتدور على الأولاد تبدأ تبدأ بشكل عشوائي البفة. من البفات:

بف بف بف أبوكي بكا بف أمك سمينة جابت أمينة طلعنا بالطلعة لاقينا أبو صلعة نزلنا بالنزلة لاقينا أبو كنزة طلعنا بالباص لاقينا أبو رقاص طلعنا على العمود لاقينا أبو محمود وجهك وجه حمار تاكل صحن الفار يا فوفو.

بف بف بف كان عمي على الشجرة عم يعد للعشرة واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة..وهكذا إلى العشرة.

بف بف بف كان عمي على السكة علقت إيده بالمسكة صار يعد للستة واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة.

بف بف بف كان عصفور طاير عميقلي فطاير كم فطيرة بدك على قدك.

بف بف بف سيارة حمرة حمرة وين رحت كم يوم طولت.

بف بف بف سلسلة سلسلة سنارة ذهب سافر بابا لقلعة حلب جبلا للحلوة سنارة ذهب وجبلا للبشعة سنارة خشب نيم الحلوة على ضوء القمر ونيم البشعة على كبس المطر.

بف بف بف حدي مدي رحت جيت على رجلي لاقيت صبي عميمشي قلت له اسقيني قلي شوي يا عسكر يا مسكر والطابق طابق سكر والسكر فلوس فلوس ارفعي رجلك يا مليحة يا عروس قبل ما بنقرها الصوص وعلى الزعرورة الزعرورة شيلي رجلك يا مليحة يا مستورة.

بف بف بف فتحت الوردة سكرت الوردة إجا بابا ليشمها فتحت لــه تمهــا هون تفاحة حمرة وهون ليمونة صفرة وهون عمي قتلني وهون نزلي دمي وهون كعاب الغزالة وهون بيت الشحادة.

الفاقوسة: أنبوبة خشبية يخرطها الخراط ويكون لها مدك.

اللاقومة: القنب المعلوك الدكوك بقوة بواسطة المدك داخل الفاقوسة.

الكورة: كرة صغيرة مصنوعة من قطع الجلد ثم يحشونها بالخرق.

طرة إلا نقش (وجه إلا قفا): إحدى طرائق تنفيذ القرعة برمي قطعة نقود عشوائياً.

حناك الخروف: تستخدم كمسدس في بعض الألعاب مثل وليمن (بوليسية حرامية).

علبة الكبريت: تستخدم كأداة في لعبة الكبريتة.

العيدان الخشبية للبوظة (عود نبيل): تجمع ويغرم منها اللاعبين ببعض الألعــاب، الكبريتة مثلاً.

عجو المشمش: تجمع ويغرم منها اللاعبين ببعض الألعاب، الكبريتة مــثلاً. كمــا يمكن أن يلعب بها لعبة جوز إلّا فرد.

به: صوت يطلق للإخافة، في لعبة أم التخباية.

دحديلة: الجزء المنحدر من الحارة.

الخرارة: سميت بالفصحى **الخذروف**[3].

الجوجحانة: سميت بالفصحى **الأرجوحة**[3] كما سميت في أماكن أخرى **المرجوحة أو الدوداة.**

ملحق ج

قائمة بالمساهمين في التوصيف

المحامي مصطفى ديناوي-المهندس ممدوح طفران-الدكتور المهندس عبد القـادر دهان-الدكتور ممدوح شعار-الأستاذ أسامة كلاوي-الأستاذ عبد الفتـاح قلعجـي-المهندس ياسر قلعجي-المهندس تميم قاسمو-الأستاذ أحمد نصري-الأستاذ محمـد قجة-الدكتور سلمان قطاية-الدكتور محمد خواتمي-المهندس خلدون فنصة-الدكتور المهندس إبراهيم حيدر-الدكتور إحسان شيط-الأستاذ محمد يحيى شـعار-السـيدة أميرة عدس-المهندسة سوسن شعار-الآنسة راما شعار-الآنسة لارا شعار- الآنسة نور شعار-الطفل الحكم شعار-الطفل كرم شعار.

أعتذر سلفاً من كل من ساهم في هذا العمل وسهوت عن ذكر اسمه. وعلى أي حال، إن جميع أبناء حلب مساهمين في هذا المشروع بشكل غير مباشـر لأن مادة هذا المشروع هي أصلاً من الذاكرة الشعبية لمدينة حلب.

الإدارة في الفترة المملوكية

"حلب نموذجاً"

د.إحسان الشيط*

يمكننا تتبع ظهور الفكر الإداري منذ فجر التاريخ عندما اكتشف الإنسان الزراعة المروية. ولاشك في أن الإنجازات الضخمة عبر التاريخ، كإدارة المشاريع الزراعة المروية حول المدن الأولى، وبناء الأهرامات، وتسيير الحملات الضخمة كانت تخفي وراءها مجهوداً إدارياً ضخماً، بقي مجهولاً، ولم يسلط الضوء عليه.

ومن بداية لا يكاد يدركها أحد في بدايات القرن الماضي، تطورت مفاهيم الإدارة، حتى أصبحت اليوم علماً قائماً بذاته، وأصبحت له جامعات تدرس مناهجه. وظهر عناك منهج تاريخي حديث يرصد تاريخ الفكر الإداري. وأصبح خريجي معاهد الإدارة يحتلون مراكز مرموقة في الحكومات الحديثة. وليس غريباً أن تسمي الحكومة الأمريكية نفسها بالإدارة الأمريكية، ومركزها البيت الأبيض...

كان البيت الأبيض المملوكي يقع في مركز السلطنة في القاهرة. وفي الدقائق القليلة المتاحة لي اليوم، سأتكلم عن أحد فروع "البيت الأبيض" المملوكي في مملكة أو نيابة حلب.

إن العمل الذي أقدمه إلى حضراتكم اليوم، ليس عملاً تاريخياً بالمعنى المدرسي، أي انه لا يقوم على تقصي ظاهرة ما حسب تموضعها في الأحقاب التاريخية المتتابعة، إنما هو عمل استدلالي يطمح إلى زيادة التعرف على فترة ما، من خلال تسليط الضوء على دور الشخصيات المؤثرة في المجتمع، وتوصيف العلاقات القائمة بين هذه الشخصيات.

أرباب السيف والقلم

كان نائب السلطان وهو رجل عسكري، يتسنم قمة الهرم الإداري في حلب، يعينه السلطان من أعيان مقدمي الألوف بالقاهرة. وعند قدوم النائب الجديد، لاستلام منصبه في حلب كان من عادته أن ينزل على "عين مباركة". ويخرج إلى لقائه القضاة، وجميع الجيش، وأرباب المناصب، وطوائف المشايخ، وأهل الحارات متجملين، ومتعددين. فإذا وصل إلى بابا القلعة، ترجل ثم يقدم إليه العلم السلطاني،

* - نائب رئيس جمعية العاديات سابقا، توفي في 2002/11/25.

فيقبله، ويقبل الأرض. ثم يتوجه إلى دار النيابة، وهناك يقرأ كاتب السر تقليد النائب، وهو واقف على كرسي منصوب من اجله. وذلك بحضرة القضاة والمباشرين، والنائب واقف على قدميه، وكلما ذكر الاسم الشريف السلطاني أو السلطان في التقليد، يأمره حاجب الحجاب بتقبيل الأرض.

وفي يوم الموكب يذهب النائب إلى المجلس الذي كان يعقد في دار العدل وعند دخوله يتقدم منه حاجب الحاجب وعصا في يده ويمشي في خدمته إلى قرب الإيوان الذي يواجه الباب الكبير ويكون قاضي القضاة وإلى جانبه قاضيا العسكر ومفتيا دار العدل قد جلسوا إلى يسار النائب ويليهم كاتب السر وناظر الجيش ثم الموقعون وكل هؤلاء من المدنيين. أما على يمين النائب فيجلس الأمراء (العسر)، وإن كان الوزير متعمما(مدنيا) جلس معهم وإن كان تركيا(عسكريا) جلس مع الأتراك ويقف الدوادار الكبير خارج الحلقة وراء كاتب السر وناظر الجيش ثم يجلس النائب على تخت مرتفع ويجلس حاجب الحاجب على درجة أسفل التخت بحيث يكون رأسه متاسمتاً مع تخت النائب الذي يجلس عليه. فيأخذ القصص الحجاب الصغار ويوصلونها إلى حاجب الحجاب الذي يناولها لكاتب السر الذي يعطي ما يتعلق بالجيش لناظر الجيش، ويرمي بالبقية إلى الموقعين.

يلاحظ في هذا المجلس:

1-أن النائب ليس اكثر من تابع يعينه السلطان. وكان على النائب أن يقبل الأرض كلما ذكر اسم السلطان. يأمره بذلك حاجب الحجاب، وهو مملوك يعمل في الديوان كالدوادار وهو من الموظفين الذين يعينهم السلطان. وهو عين على النائب.

2-غياب شرائح واسعة من المجتمع عن المجلس، فلا نجد فيه تمثيلاً للنبلاء، ولا الأشراف أو النقابات أو الاتحادات المختلفة.

3-يوجد في هذا المجلس فرز مزدوج عنصري، ووظيفي: بين تركي وعربي، ومدني وعسكري. (أرباب السيف وأرباب القلم). إذ نجد أن العسكريين الأتراك بأمرائهم الثمانية يجلسون على يمين النائب، ويجلس إلى يساره أصحاب العمائم من قضاة وموقعين (مفتين) وهم من العرب.

إن هذا الفرز في مجلس النيابة بين عسكري ومدني، وعربي وتركي، يجعلنا نتخيل أن المماليك كانوا يعيشون على هامش المجتمع الذين كانوا يحكمونه.

ولكن الواقع يظهر عكس ذلك، فالمماليك (المؤسسة العسكرية) كانوا مرتبطين بمجتمعاتهم ارتباطاً وثيقاً من خلال شبكة معقدة من العلاقات، والمصالح الشخصية.

المؤسسة العسكرية الحاكمة:

كان المماليك يجلبون أطفالاً من بلاد الترك أو القفقاس، وفي وطنهم الجديد يتعلمون اللغة، والدين، والفنون الحربية، في مدارس خاصة بهم، مغلقة على غيرهم. ومن هذه المدارس كان يتخرج السلطان، ونوابه في الأقاليم. وكبار ضباطه وموظفيه.

1-السلطان:

كان السلطان في القاهرة يعتبر بحكم الشرع الحكم النهائي في كل الأمور: فهو القائد الأعلى للجيوش، وأقضى القضاة، له حق إصدار الأحكام، والسجن، ومصادرة الأموال والممتلكات، والنفي، وفي خزائنه تودع أموال الدولة يصرفها كما يشاء. وهو الذي يعين موظفيه ونوابه، ويعزلهم بدون حساب وهو الحاكم الشرعي وكان الخليفة العباسي من شخصيات مجلسه.

والسلطة المملوكية تقوم على قاعدة الغلبة، وينطبق عليها مفهوم إمارة الاستيلاء. وفي إمارات الاستيلاء في التاريخ الإسلامي منذ أن استولى الخليفة معاوية على الحكم، وأسس سلالة ملكية، وجيشاً من المرتزقة، حتى انهيار الخلافة العثمانية، كان السلطان يحكم حكماً استبدادياً مطلقاً، يحكم برأيه، يحرسه جيش محترف، ويخدمه رجال دين محترفون، ويحيط به بلاط من الأتباع والمرتزقة.

كانت السلطة المملوكية تحكم باسم الإسلام. وكان الدفاع عن الإسلام والمسلمين من أهم مبررات وجودها. وهذا ما نراه مكتوباً بشكل واضح على الشريط التزييني الذي يحيط بالبرج الأمامي لقلعة حلب:

"**أمر بعمارتها بعد دثورها مولانا السلطان الأعظم، الملك الأشرف، العالم، العادل، الغازي، المنصور، صلاح الدين والدنيا، ناصر الإسلام والمسلمين، عماد الدولة، ركن الملة، مجير الأمة، ظهير الخلافة، نصير الإمامة، سيد الملوك والسلاطين، سلطان جيوش الموحدين، ناصر الحق بالبراهين، محيي العدل في العالمين، قاهر الخوارج والمتمردين، قاتل الطغاة والمارقين، قامع عبدة الصلبان، إسكندر الزمان، فاتح الأمصار، هازم جيوش الإفرنج والأرمن والتتار، هادم عكا**

والبلاد الساحلية، محيي الدولة الشريفة العباسية، ناصر الملة المحمدية والدين. مولانا السلطان، الملك، قلاوون، أعز الله أنصاره، وذلك سنة إحدى وسبعمائة".

تعتبر هذه النصوص بمثابة بيانات تحدد مهام السلطان، إذ يتعهد السلطان أن يدافع عن أرض المسلمين، ويحر أعداء البلاد الخارجيين، وينصر الدين، ويحيي الخلافة العباسية، التي دخل في روع المسلمين أن الدين لا يستقيم بدونها، وهذا ما فعله الظاهر بيبرس عندما جعل أحد بني العباس يقيم معه في بلاطه.

النائب:

كان النواب في الأقاليم يمثلون السلطان المملوكي المقيم في القاهرة. ولكن العلاقة بين النائب والسلطان كانت علاقة تبعية مطلقة. فالسلطان هو الذي يعين النائب ويعزله متى شاء ويضع عليه عيوناً من موظفيه. فهو ظله وخادمه المطيع، وعليه أن يقبل الأرض عند ذكر اسم سيده أمامه. وصلاحيات النائب لم تكن تشبه صلاحيات السلطان، فهو لم يملك حق تعيين، أو عزل العديد من مرؤسيه. وكثيراً ما كان نواب السلطان وقواده قد خدموا في وظائف وضيعة في البلاط السلطاني: كالبشمقدار وهو حامل نعل السلطان، والجمدار وهو الوصيف المكلف بإلباس السلطان ثيابه، والجوكاندار الذي يحمل مضرب السلطان أثناء لعبه الكرة، والجاشنكير وهو ساقي السلطان. وعلى العديد من الأبنية الصرحية في حلب نجد رنوكاً تشير إلى قيام نواب السلطنة والأمراء بمثل هذه الوظائف في البلاط السلطاني، وهم يعتزون بذلك.

ثمة نظام من العلاقات كان مسيطراً في المجتمع المملوكي، ويتضمن تنويعات على علاقة أساسية وهي علاقة الآمر بالمأمور منها: علاقة السيد بالخادم، والعسكري بالمدني، والمملوك بمالكه، والمعلم بالتلميذ، ورب العمل بالعامل، والحرفي بأجيره، والزوجة بزوجها، والأب بأولاده، ورجل الدين برعيته، والمجتمع كله بأميره أو سلطانه. ساعدت عراقة التقاليد على ترسيخ هذه العلاقات التي تقوم على التسلط، ليس على تسلط الدين والتقاليد في المجتمع، كما يحلو للبعض أن يظن، بل على الاستبداد السياسي الذي كان يمارس على الدين والمجتمع والتقاليد.

الأمراء والأجناد:

وهم على طبقات:

1-مقدمو الألوف وعدة كل منهم مئة فارس، وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وكان منهم في حلب ثمانية مقدمين، يجلسون إلى يمين النائب في مجلس السلطان، بينما كان عددهم في المجلس السلطاني في القاهرة يتراوح بين 18 و20 مقدماً ومنهم يكون أرباب الوظائف والنواب.

2-أمراء الطبلخانة وعدة الواحد منهم النظرية 40 فارساً، ومنهم يكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف، والولاة، والكشاف بالأعمال.

3-أمراء العشرات ومنهم يتم اختيار صغار الولاة والموظفين.

أما الأجناد وفيهم المماليك السلطانية منهم فئة تدعى بالخاصكية وهم مماليك السلطان القائم، فئة تدعى بالقرانيص وهم مماليك السلطان السابق.

أمام ما كان يسمى جنود الحلقة أو أولاد الناس فهم يتألفون من عامة الشعب وهم نواة الجيش المقاتل ووقود المعارك.

أما نائب القلعة فكان قديماً من أصاغر الأمراء ولكن من بعد فتنة الناصري أصبح نائب القلعة مقدم ألف ولم يكن يحضر الموكب عادة ثم صار بعضهم ربما حضر المجلس فيجلس دون أمير الميسرة وأمير الميسرة يجلس إلى جانب حاجب الحجاب وكان بعض كبار المماليك يشغلون وظائف ديوانية في نيابة حلب: الدوادار يعين من قبل السلطان، ويكون قائماً في خدمة النائب، ولكنه في الباطن عين عليه(أي جاسوساً عليه). وكان في الغالب من أمراء الطبلخانات، وقد يكون من المقدمين. وهو اقرب ما يكون إلى مدير الإدارة في المؤسسات الحديثة الذي يكون مع كادر من الموظفين أقدم من المدير العام.

وكان الوزير بحلب له نصيب معلوم من المكس وغيره وكان عليه كلف الخاصكية والبريدية ومصاريف أخرى ثم أضيفت تلك الجهات إلى ديوان النيابة وبطل الوزير.

نواب حلب

خلال قرنين ونصف بقيت هذه المؤسسة العسكرية المملوكية محافظة على بنيتها في الحرب والسلم تغذي نفسها بنفسها عن طريق الأجلاب الجدد، وانحلال

أسر القدماء في مجتمعات وطنهم الثاني وتحول الجيل الثاني من المماليك إلى أولاد ناس.

كان وصول المماليك إلى المناصب الحساسة في أجهزة الدولة والبقاء فيها مسألة سياسة بحتة ولا علاقة له بكفاءاتهم، أو مواهبهم، أو صلاحهم، أو دينهم، وكان الهاجس السياسي يلحق أشد الضرر بمصداقية الحكم وشرعيته واستقراره. معظم نواب السلطنة في حلب خدموا فيها مدة قصيرة لا تكفي لمتابعة المشاريع الكبيرة.

فإذا أخذنا حلب نموذجاً نجد أن عدد نواب السلطنة الذين تعاقبوا على نيابة حلب 142 نائباً حكم 29% منهم مدة أقل من سنة، 33% مدة سنة، و12% مدة سنتين، و14% بين 3 إلى 5 سنوات. وبعد تعيين النائب كان حظه 60% أن ينتهي معزولاً، و14% أن يموت موتاً طبيعياً، و13% أن يعدم، و6% أن يعتقل.

كانت ألقاب 50% منهم سيف الدين، و25% موزعة بين علاء الدين، جمال الدين، شهاب الدين، وصفات أخرى تتعلق بالدين. حتى أن أحدهم قال متهكماً:

طلع الدين مستغيثاً إلى الله وقال:العباد قد ظلموني
يتسمون بي، وحقك لا أعرف منهم شخصاً ولا يعرفوني

كان بعض هؤلاء النواب صالحاً تقياً محباً للخير والبعض الآخر قاسياً ظالماً شريراً. وكانوا على قدر كبير من التفاوت حتى في الإخلاص والولاء لمولاهم، فقد أعدم 14% من نواب السلطنة في حلب واعتقل 6% منهم لخلل في هذه الولاء. وفي سنة 746 وصل إلى نيابة حلب سيف الدين أرقطاي، فأبطل الخمور والفجور بعد اشتهارها، ورفع كثيراً من المظالم، ورخص الأسعار. ثم وصل أرغون شاه إلى نيابة حلب، وبقي فيها أشهراً معدودة وكان في غاية السطوة يقدم على سفك الدماء بلا تثبت، وقتل في هذه المدة اليسيرة خلقاً كثيراً ووسط وسمر. وقطع بدوياً سبع قطع.

وكان بعض النواب لا يتردد في سوق الناس للعمل في السخرة، كما فعل نائب حلب الذي رسم في سنة 736 هجرية، أن يخرج من البلاد الحلبية. من كل قرية نصف أهلها، للعمل في قلعة جعبر، وخلت عدة ضياع بسبب ذلك، ثم طلب

أيضاً من أسواق حلب رجالاً واستخرج أموالا وتوجه النائب في حلب إلى قلعة جعبر بمن حصل عليهم من الرجال، وهم نحو عشرين ألفاً.

المعجزة المملوكية

عندما استلم المماليك مقاليد الحكم بعد الغزو المغولي، كانت حلب مدينة منكوبة، دفاعاتها مهدمة، وأسواقها وبيوتها منهوبة، أو محروقة. استردت المدينة عافيتها بسرعة مذهلة، ونم إصلاح ما تهدم من أسوارها، وأبوابها ، قلعتها، ونشطت حركة البناء فيها. وتم بناء 53 مسجداً، و26 مدرسة، وبيمارستانين، والعديد من الأربطة، والخانقاهات، والسبلان، والحمامات، والمرافق العامة. كما تم جر مياه الساجور، وهو من روافد الفرات، إلى حلب، عبر مجرى طوله ثمانين كم.

تحولت حلب في الفترة المملوكية من مدينة حدودية مهددة على الدوام، إلى مدينة تجارية تقع في قلب إمبراطورية إسلامية شاسعة واسعة، ومحطة مهمة تقع في مركز تقاطع طرق تجارة وحج دولية..وكانت قطارات القوافل لا تهدأ ذهاباً وإياباً تنقل الحرير، والخزف، والمنسوجات الفاخرة، والتوابل، والمعادن الثمينة، والمجوهرات، وخشب الصندل، والقطن، والجلود، والأسلحة، والزجاج. لقد صارت سوقاً رئيسة في الشرق.

كان من نتاج هذا التحول أن توسعت المدينة وتوجب على المؤسسة العسكرية أن تأخذ بعين الاعتبار هذه المتغيرات، وتوفر استقراراً سياسياً، وطرقاً قارية أمينة، ومدناً حصينة، ومنشآت عامة من خانات واسعة ومساجد وحمامات مناسبة، ومياه شرب نقية، ومستشفيات حديثة. وكان على المماليك أن يصونوا شبكة المياه، ويصلحوا الشوارع والساحات العامة، ويساهموا في المشاريع التجارية، ويدعموا المؤسسات الدينية والتعليمية والخيرية.

والتساؤل المحير هو كيف استطاعت إدارة سياسية عسكرية عنصرية غريبة تحقيق مثل هذه الإنجازات الكبيرة. وأن تحكم في مجتمع أكثر تطوراً، فيه شخصيات مدنية من أدباء وعلماء ومؤرخين أكثر نضوجاً من هؤلاء الحكام الذين كانوا أحياناً لا يجيدون النطق باللغة العربية.

يكمن سر المعجزة المملوكية في أن المماليك لم يكونوا سلطة عسكرية خارجة عن المجتمع بل كان لهم نفوذ كبير في المجتمع المدني. كانوا أسياد قوة

كبيرة من الخيالة لا تدين بالولاء سوى لنفسها، ولكنهم كانوا يهيمنون على الحياة في المدن، إذ كانوا يسيطرون على المهن والتجارة، ويحتكرون الحبوب، وكان لهم أملاك كبيرة ويسيطرون على صناعة البناء من حيث العمالة ومواد البناء، وحقوق الملكية. وبذلك أصبح لهذه الطغمة العسكرية دوراً مدنياً مهماً أصبح المماليك أسياد المجتمع المحلي على الرغم من غربتهم عن هذا المجتمع. فنظامهم لم يكن يقع على هامش المجتمع، بل نفذوا إلى قلبه، من خلال أدوارهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لم يكن نظامهم يتناقض مباشرة مع مصالح باقي طبقات المجتمع، بل كان يوجد بينها تقاطعات عديدة. خلقت ارتباطات المماليك بمختلف فئات الناس شبكة من العلاقات كانوا يحكمون من خلالها، فبعد توظيفهم لطبقة العلماء والنبلاء، واستيعابهم لعنف الطبقات الدنيا خلقوا نوعاً من التوازن الاجتماعي، يحد من إمكانية قيام حكم بديل. كانت الحكومة في المدن الإسلامية تقوم على هذه المنظومة من العلاقات. وهي في أساسها نوع من المطابقة بين المجتمع المدني المسلم والسيطرة المملوكية. لم يستطع المماليك إنشاء دولة تجسد مصالح طبقية محددة بل استطاعوا إنشاء جملة من العلاقات الشخصية ومن خلال هذه العلاقات استطاع النظام والمجتمع أن يتداخلا، ليكونا في النهاية المطاف كلاً سياسياً واجتماعياً واحداً. قدر له أن يعيش قروناً طويلة على أرض هذا الوطن.

<u>المصادر:</u>

إعلام النبلاء – الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبي.

نهر الذهب في تاريخ حلب – الشيخ كامل الغزي.

كنوز الذهب في تاريخ حلب– ابن العجمي الحلبي.

تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام –الدكتور محمد سهيل طقوش.

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – أكرم حسن العلبي.

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – القلقشندي.

الإسلام وأصول الحكم – علي عبد الرازق.

Muslim Cities in the later Middle Ages Ira Marvin Lapidus

هوامش

1-أسماء المماليك وألقابهم:كانت في غالبيتها أسماء أعجمية وفيها ما يـدل على الجلادة والقوة والبأس، ولها معان رمزية واضحة: كان يسمى المملـوك باللغـة التركية بالثور الذهبي، أو النسر الأبيض أو الأسود، أو روح الفـولاذ أو خلاصـة الحديد. أما النسبة الأخيرة في اسم المملوك فتدل غالباً على اسم الرجل الذي اشتراه أو المكان الذي نشأ فيه كنسب الخليلي أو الظاهري أو الأحمدي أو الحموي. وقـد يعرف النائب بأوصاف شخصية كالطويـل، والأعـور، وطـازا، والمشـطوب، والمصارع، والبهلوان، والطباخ.

2-أعمار المماليك التقريبية ومن نسبة الوفيات الطبيعية التي كانت تقـارب 14%، نستطيع أن نستنتج أن تنصيبهم كان يتم وهم في كهولتهم المتأخرة، أي أن أعمارهم كانت بين خمسين وستين عاماً.

3-الخلافة العباسية:هوت الخلافة العباسية عن بغداد في منتصف القـرن السـابع هجري – منتصف الثالث عشر ميلادي، حين هاجمها التتر وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله، وقتلوا معه أهله وأكابر دولته. وبقي الإسلام ثلاث سـنين بـدون خليفة. وفي سنة 660 قدم إلى حلب أبو العباس أحمد بن علي وهـو رجـل مـن أنقاض بيت الخلافة العباسية فبايعه كثير من الناس بالخلافة، ولقب الحاكم بأمر الله الأول، وكان الملك في مصر يومئذ للظاهر بيبرس الذي علم بالأمر، وكـان ذلـك الداهية ينبش بين مصارع العباسيين للعثور على مثل هذا الرجل، فأتى بـه إلـى مصر، وعينه خليفة للمسلمين. وأعطاه سلطة اسمية في الوقت الذي كان يمسك فيه بزمام كل الأمور.

4-خانات حلـب المملوكية كانت خانات الفترة المملوكية متناسـبة مـع الحالـة الاقتصادية المزدهرة، فهي أبنية متميزة صرحية، وزخارفها لائقة بالأبنية الدينيـة. كان نزلاء الخانات يعتبرون من ضيوف السلطان وكان لهذه الخانات أوقاف كبيرة تغطي نفقاتها وكثيراً ما كانت تقدم خدمات مجانية للنزلاء الفقراء.

ومن أهم نماذجها في حلب: خان الصابون وخان القصابية، وخان ابـرك، وخان خاير بك. وحتى اليوم لم يبن في حلب وجهة تضاهي واجهة خان الصابون جمالاً، أو خانات بفخامة خان خاير بك، وخان القصابية. خان القصابية خان مـن أواخر الفترة المملوكية كما تشير لوحة تأسيسية على المدخل ونصها:"أنشـئ هـذا

الخان المبارك في أيام مولانا السلطان الأشرف، أبي النصر، قانصوه الغوري، عز نصره، المقر الأشرفي، عين مقدمي الألوف بالديار المصرية، وشاد الشراب خانات الشريفة، ونائب القلعة الحلبية المنصورة المحروسة، أعز الله أنصاره، ابتغاء لوجه الله تعالى، وذلك في شعبان الكريم سنة 916 هجرية". أي (1510م ويعرف هذا الخان أيضاً باسم بانيه (أبرك) نائب القلعة المنصورة. ويدعى أيضاً بخان القصابية، نظراً لصنع القصب فيه.

5-<u>الضرائب والملكية الزراعية في نيابة حلب:</u> يمكن تصنيف الأراضي الزراعية ضمن التقسيم التالي:

1-أراضي السلطان وهي ملك خاص للسلطان، ويشرف عليها موظف خاص في ديوان النيابة.

2-إقطاعيات المماليك ويديرها أمراء المماليك ومماليكهم، ويشاطرون الفلاحين في محاصيلهم.

3-أراضي "الخاصّة" وهي ملك لأصحابها حصلوا عليها عن طريق البيع والشراء أو الوراثة. ولا علاقة للدولة بها إلا فيما يتعلق بما تفرضه عليها من ضرائب.

4-أراضي الوقف، وهذه لا يجوز بيعها بل تستثمر حسب شروط الواقف.

5- أراضي البدو وهي مشاع ليست للبدو وليست للسلطان.

كان للمماليك جهاز ضريبي في غاية الدقة والتنظيم، ويستحيل على الفلاح التحايل عليه. فعندما يبدأ موسم الزرع، يخرج وكلاء مباشر الخراج لمراقبة الأراضي الزراعية عن كثيب. ويلازمونها حتى تحصد، ثم يقتطع منها نصف المحصول إذا كانت مروية بمياه النهر. وثلث المحصول، أو ربعه إذا كانت بعلية. أو أقل من ذلك إذا كانت الأرض قصية عن العمران. أو كانت واقعة حدودية. ومن بعد ذلك يؤخذ عشر ما تبقى.

أما الضياع الإقطاعية فأنها تدفع العشر على المحصول كما يلحقه دفع بعض الضرائب الخاصة كرسم الأعياد والضيافة.

وبعد الموسم تنظم الأموال والغلال في جدول في غاية الدقة تبين الواردات وما أنفقه الموظفون وما تبقى ثم ترفع إلى مباشر الخراج الذي يسلم ما بعهدته إلى نائب المملكة. ونستطيع أن نقدر مما سبق أن الفلاح كان يدفع ما بين 20 إلى 60%

من محصوله كضريبة للدولة. ومع ذلك كان هذا النظام أرحم بالفلاح من نظام الالتزام الذي طبق في العهد العثماني.

كان فرض الضرائب المتنوعة أمر يحتكره السلطان ونوابه في الأقاليم، وكانت الضرائب تطال طل القطاعات المنتجة في المجتمع وكانت أحيانا تسبب ظلماً كبيراً وتعرقل عمليات الإنتاج. ونظرة سريعة إلى جدران الجامع الأموي الكبير ترينا نصوصاً عديدة عن إبطال ضرائب فرضها نواب سابقون أبطلها نواب لاحقون ومن هذه الضرائب، أو المكوس كما كانت تسمى، مكس الزيت والزيتون والحناء والصابون والقطن والكتان والسلاح والسماق والمسك والزعفران وتختتم هذه النصوص عادة بجملة ملعون ابن ملعون من يجدد جباية هذه الضرائب.

6-من ظلم المماليك:وفي عام 747 نقل أرقطاي إلى القاهرة، وخلفه سيف الدين بيدمر البدري. وكان على نقيض سلفه، عنده حدة وقسوة. كرهت فتاة زوجها قبل أن يدخل عليها، فلقنت كلمة الكفر لفسخ نكاحها، وهي لا تعلم معناها. فأمر بيدمر بشق أنفها، وقطع أذنيها وشعرها، وتعليق ذلك على عنقها. وطيف بها على دابة بحلب وتيزين. وهي من اجمل البنات وأحياهن، فشق ذلك على الناس، وعملت الناس عليها عزاء في كل ناحية. وفي ذلك قال ابن الوردي متهكماً على شريعة البدري:

وضج الناس من بدر منير   يطوف مشرعاً بين الرجال

7- الأوقاف كانت الأوقاف أساس الحركة العمرانية والعلمية وتأمين الخدمات الاجتماعية. وكان يساهم فيها الأمراء والشعب. وقد توسعت في الفترة المملوكية بحيث شملت أراض وعقارات واسعة داخل حلب وخارجها. وكانت نظارة الأوقاف من اختصاص العلماء.

ومن المعلوم أن الوقف كان على أنواع عدة منها الوقف الذري وهو أن تحبس الأملاك على ذرية المتوفى. والوقف الخيري وفيه تحبس الأملاك لصالح المدارس والمساجد والزوايا والخوانق وأماكن البر.

وكان الوقف يوثق في المحكمة الشرعية ليأخذ بذلك صفة رسمية، ويتضمن ذكر الأملاك الموقوفة، وشروط استثمارها أي تحديد الجهة التي ستصرف فيها الأموال: كبناء مسجد أو مدرسة أو دار ضيافة أو مستشفى...ومن ثم يعين ناظر الوقف ومساعدوه وتحدد أعمالهم وأجورهم.

لكتب الوقفية نمطية معينة تتكرر غالباً: كأن تبدأ بالقول بأن الواقف حبس وسبل وأبد وخلد بنية صادقة إلى فعل الخيرات وبعد أن تحدد الأراضي الموقوفة يشترط مثلاً ألا يؤجر وقفه ولا شيء منه لمن قد يتسلط عليه ولا لذي شوكة. وختم الكتاب بالتأكيد على انه لا يباع ولا يوهب ولا يملك ولا يورث ولا يبدل...وتذكر في النهاية الآية الكريمة"فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه".

وعلى الوقفيات التي كانت تنقش إلى جدران المؤسسات الموقوف لها كنت كثيراً ما تنتهي باستمطار اللعنة على الذين يتجاوزون رغبة الواقف ويبدلون شروط وقفه.

ولكن الذي كان يحدث، أن أموال الوقفيات كانت كثيراً ما تتعرض للعبث والسرقة، فقد كانت الأوقاف تباع وتؤجر ويضم النظار أموالها إلى أموالهم. وهذا ما حدث لوقف مشروع جر مياه الساجور، فتهدمت القنوات وتوقفت المياه عن الوصول إلى حلب. وكثيراً ما كانت تأتي لجان من القاهرة للكشف على الأوقاف لمنع التلاعب فيها وتحكم بعزل متولي الوقف والمسيئين أو اعتقالهم.

8-التقاطعات مع الفئات الاجتماعية ومؤسسات المجتمع المدني

علاقة المماليك بالمعممين: وتأسست العلاقة بين السلطان والفقيه على نوع من التكامل الوظيفي بين وظيفة السلطان الوضعية التاريخية، وبين التزامه بتطبيق أوامر الشريعة والدين.

وكان العلماء يلعبون دوراً رئيسياً في ربط كل فئات المجتمع وهكذا كان يوجد تداخل في المصالح بين كل الفئات الاجتماعية. فالعلماء كان لهم دور في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. إضافة إلى كونهم فئة مستقلة، ولا يمكن أن نتصور مجالاً في المجتمع لم يكن للعلماء ارتباط به، ولهذا له أهمية كبيرة خاصة في حال عدم وجود تشكيلات خاصة مدنية لها علاقة بإدارة المدينة. من خلال امتداد هيمنة العلماء على الأفكار كانت تتوحد الطبقات الاجتماعية. كان العلماء يعتمدون على المماليك في تأمين مواردهم التي تضمن استمرار وظيفتهم الاجتماعية. وبالمقابل كانوا يقدمون دعمهم للمماليك، باعتبارهم قادة المجتمع، وحفظة القانون، والقيم الإسلامية. ويعترفون بشرعية الحكم المملوكي، ويطالبون الأمة الإسلامية بطاعتهم. لقد افرز العلماء طبقة متوسطة من القضاة، والمحامين

والكتبة، والمديرين كانت تساعد المماليك في الأمور التي يتعذر عليهم القيام بها من قضاء، وجباية الضرائب، والإدارة.

يجب أن لا يفهم من ذلك أن سيطرة المماليك كانت شاملة، كان السلطان يفكر كثيراً مقبل أن يقدم على نقض حكم شرعي، ولكنه في الواقع كان نادراً ما كان يحتاج إلى ذلك، لأنه كان يفصل الأحكام الشرعية على مزاجه عن طريق المتواطئين معه من العلماء والذين أشار إليهم ابن قيم الجوزية في كتابه المعروف إعلام الموقعين باسم رب العالمين.

القضاء:من أهم الإنجازات المملوكية في مجال القضاء، كان تعيين قضاة يحكمون على المذاهب الأربعة، وإخراج القضاة من دائرة نفوذ نائب السلطنة لمباشر إذ كان لا يستطيع عزلهم. وفي 785 رفع نائب حلب كتاباً إلى مقام السلطنة في القاهرة يشكو فيه أن القضاة الأربعة في حلب تخاصموا وتشاتموا، فعزلهم الملك الظاهر بدعوى أن لا تجوز تولي الفساق.

الأوقاف كانت الأوقاف أساس الحركة العمرانية والعلمية وتأمين الخدمات الاجتماعية. وكان يساهم فيها الأمراء والشعب. وقد توسعت في الفترة المملوكية بحيث شملت أراض، وعقارات واسعة داخل حلب وخارجها. وكانت نظارة الأوقاف من اختصاص العلماء. ولكن الذي كان يحدث أن أموال الأوقاف كانت كثيراً ما تتعرض للعبث والسرقة، فقد كانت الأوقاف تباع وتؤجر، ويضم النظار أموالها إلى أموالهم. وكثيراً ما كانت لجان من القاهرة للكشف على الأوقاف لمنع التلاعب فيها وتحكم بعزل متولي الوقف والمسيئين أو اعتقالهم.

علاقة المماليك بالريف:إن الموارد والقوى التي دعمت دور المماليك القيادي ترجع إلى هيمنتهم الاقتصادية في المدن. كانت المدن في العالم الإسلامي تعتمد في تموينها من المواد الغذائية على إنتاج أراضيها الداخلية. وكان أساس المعيشة في المدن يعتمد على السيطرة على الريف.

كان المماليك يتمركزون في المدن وكان لهم إقطاعيات في الريف، وبذلك أصبحت موارد الريف تصب في خزائن أمرائهم. أولاً من حصصهم من المحصول الزراعي في إقطاعياتهم وثانياً من الضرائب المفروضة على الإنتاج الزراعي. وحولوا البلد من خلال هذه السيطرة إلى مزرعة خاصة.

علاقة المماليك بالفئات الشعبية إن الطبقات الشعبية التي تفتقر إلى الوسائل المادية والفكرية لدخول ميدان لعبة السلطة نعمل على الدوام في التفتيش عمن تفوض إليه أمرها وتسلمه زمامها. أجاد المماليك في إيجاد علاقة مصلحة بينهم وبين الفئات المتطرفة من الطبقات الدنيا. لقد كان المماليك يستخدمون الطبقات المتطرفة من الفئات الشعبية كاحتياطي في صراعاتهم على السلطة، فكانوا يلجئون إلى استخدام اللصوص والعبيد الهاربين وقطاع الطريق والخارجين على القانون في حروبهم الأهلية وكانوا يسمحون لهذه الفئات الخطرة بنهب بيوت وأملاك أعدائهم.

علاقة المماليك بالنبلاء لم يكن النبلاء يشكلون طبقة بيروقراطية تعمل من خلالها السلطة المملوكية، بل كان النبلاء يعملون من خلال اتصال مباشر مع الأمراء والحكام. هذه العلاقات الشخصية بين المماليك وتابعيهم كانت مفتاح العلاقات الاجتماعية الأول سيطر المماليك على طبقة النبلاء بسيطرتهم على مجموع المجتمع: إذ كانوا يدافعون عن هذه الطبقة في الحروب. وكذلك فإن النبلاء كانوا مدينين في وضعهم الاجتماعي إلى المماليك، وبدون علاقتهم الخاصة بهم يتعذر عليهم القيام بوظائفهم الاجتماعية.

المماليك والتجارة كان المماليك يدعمون مصالح طبقة التجار، وكان أمن التجارة يقوم على جهود الدولة. وكان التجار يتعاملون مع أمراء المماليك أو السلطان. ومن خلال هذا التعامل كانت طبقة التجار تتمتع بنفوذها في المجتمع.

9-الخلاص المستحيل:كان تطور طبقة وسطى مستقلة وموحدة مستحيلاً، كما كانت علاقات المماليك بكل طبقات المجتمع تمنع قيام تحالفات خطيرة ضدهم، كتحالف النبلاء والطبقات الشعبية، وكان تحالف العلماء مع النظام المملوكي يحرم الطبقات الشعبية من قياداتها الطبيعية. فبدون العلماء كان القيام بأي انتفاضة مستحيلاً. ساهم العلماء بحركات تصحيحية لانحرافات كانت تهدد أمن المجتمع. في الوقت نفسه قطع المماليك الاتصال بين العلماء والطبقات الشعبية، من خلال السيطرة على هذه الطبقات. حتى أنهم استخدموا هذه السيطرة للضغط على النبلاء. جعلت لهم السيطرة على كافة طبقات المجتمع في المدن، والوسطاء الوحيدين في حل كل الخلافات. كان النبلاء معزولين عن الطبقات الدنيا ويعتمدون على المماليك من اجل حماية أنفسهم وممتلكاتهم. في مثل هذه الأحوال كان من المتعذر قيام أي حركة

طبقية تضم النبلاء والعوام. كان المماليك وحدهم مركز نظام عام مـــن العلاقـــات السياسية والاجتماعية، كان يمنع تشكل أي مركز آخر.

أجهض التعاون الخفي بين المماليك والأعيان على كل إمكانيات نجـــاح أي مقاومة ضدهم، وكانت الانتفاضات في الأسواق لا تتعدى حركات الاحتجاج. كـــان المماليك يستغلون جهل وجشع الفئات الشعبية في ضربها ببعضها أو استخدامها في نزاعاتهم. واستطاع المماليك إلغاء الحركات السياسية الشاملة بتـــرجيح علاقـــات خاصة مع كل فئة على حدة.

هكذا كانت حركات العصيان لا تهدف إلى تغيير الحكومة، بل إلى تصحيح بعض الأمور. وكان هناك نوع من التوازن بين كل القوى الاجتماعية من مماليـــك وموظفيهم وعلماء وأعيان والطبقات العامة الأخرى. وكان الناس لا يعيشون فـــي غربة بل كانوا يعيشون في حالة عدم تجانس اجتماعي. كانوا يشكون من مشـــاكل مؤلمة، ولكنهم كانوا لا يطمحون إلى حلها جملة، بل كانوا يقنعون بحلول جزئيـــة ينتزعونها من أسيادهم المماليك. في مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن أن ينشأ طبقة اجتماعية تحمل أيديولوجية ثورية ضد الأوضاع السائدة. حتى أن الزعـــران والحرافيش كان لهم مصالح مع السلطة.

التحولات الثقافية والاقتصادية الهامة في حلب
خلال القرون الثلاثة الماضية

فؤاد هــلال*

هيكل البحث:

أولا – حلب والحلبيــون والأجانب المقيمون

بنت حلب شهرتها في العالم على التجارة والثقافــة والقــدرة علــى تفهــم الآخرين والتعامل معهم، أكثر من اعتمادها على السياسة والحكم والسلطة واستفادت من موقعها الجغرافي المتميز على بوابة ثلاث قارات ومن طبيعة شعبها، وهذا مــا سنستعرضه فيما يلي:

1 – حــلــب والحلبيــــون :

إن الخليط السكاني في حلب والتركيبة الاجتماعية المتعددة العناصر والأصول الأثنية من عربية وكردية وجركسية وأرمينية وتركمانية والمختلفة الأديان والمذاهب والثقافات واللغات، لم تكن نقطة ضعف في تكوينها بل مجال قوة وإبداع.

---

* رئيس جمعية مكاتب السياحة والسفر في حلب .

كما أن الحلبيين قد عايشوا على امتداد قرون عدة الأجانب الزائرين والعابرين والمقيمين في مدينتهم، كما سافروا باستمرار إلى البلاد الأخرى لمتابعة تجارتهم فزاد ذلك من قدرتهم على التواصل والتراضي وإلا قناع والتعامل مع أناس من مختلف الجنسيات والثقافات والأديان والتفاعل الاجتماعي من خلال التعامل اليومي معهم.

وهكذا قامت ثقافة حلب على التنوع والتعددية والانفتاح على الآخرين بالرغم من السياسة العثمانية التي قامت على مبدأ فرق تسد، وعلى محاولة قلب هذا التنوع إلى تناقض واختلاف وانغلاق وتقوقع بإثارة النزاع بين مختلف الفئات الاثنية والدينية والطبقية ليجعلوا كل فئة تلتف حول ذاتها تحقيقا لأمنها الخاص، فتقطع بالتالي الحوار بين الطوائف والمذاهب وتوصلها إلى حد القطيعة.

وهكذا تآلفت المتضادات وتوافقت المتناقضات في حلب فاصبح هذا التنوع السكاني مصدر غنى وإبداع ساهم في جعل حلب المدينة المتميزة في الشرق.

وقد ذكر إدوارد لورنس في كتابه " أعمدة الحكمة السبع " عن حلب ما يلي:
" وإذا أوغلنا اكثر إلى الداخل لنصل إلى حلب، فإننا نجد في تلك المدينة التي تعّد مائتي آلف نسمة، صورة مصغرة لكل العناصر والأديان الموجودة في الإمبراطورية العثمانية.....

" ومن خصائص حلب الفريدة، أنك تجد فيها، رغم حرارة الإيمان تآلفا غريبا وتعايشا سلميا بين المسلمين والمسيحيين واليهود وبين ألا رمن والعرب والأكراد والأتراك، لا نجد له مثيلا في أية مدينة أخرى في الإمبراطورية العثمانية.

قبل عدة سنوات أقام الباحث الياباني ناوتو سايكو في حلب فترة قابل فيها العديد من الحلبيين، وقد أتيح لي مجال الحوار معه وقد آلف بعدئذ كتابا بعنوان "مبادئ التعايش في سورية principles of co-existence in Syria الذي نشره معهد الدراسات الشرق أوسطية في اليابان باللغة الإنكليزية تحت رقم 22 وذلك عام 1990 ونورد فيما يلي فقرات ذكرها عن هذا التعايش:

""إن شعوبا مختلفة الأديان والأصول دخلت سورية وتركت طابعها فيها وتمكنت سورية أن تحافظ على الصفات المختلفة لهذا لعدد الكبير من المجموعات الاثنية والدينية وأن تجمعهم في وطن واحد، وبالرغم من وقوع بعض التوترات والاحتكاكات بين هذه المجموعات المختلفة في فترات تاريخ سورية المديد ولكنهم

جميعا احترموا معتقدات بعضهم البعض وعاشوا سوية بسلام. لذلك غدا من الجدير دراسة الكيفية التي تمكنت بواسطتها هذه المجموعات المتغايرة الصفات أن تعيش في هذه المنطقة، وكيف كوّنت سورية منهم كتلة متجانسة بالرغم من اختلاف العادات والتقاليد والثقافات واللغات والأديان.

عاش جميع سكان حلب في ظل التسامح الإسلامي الأصيل البعيد عن العصبيات الاثنية والمذهبية والقائم على مبدأ المساواة بين الناس واحترام معتقدات الآخرين وتقاليدهم وجذورهم التاريخية. وقد ذكر الدكتور ادمون رباط الحلبي الذي اشترك مع المرحوم سامي الكيالي في إنشاء مجلة الحديث في حلب، وبعدئذ رحل إلى بيروت حيث اصبح من اكبر المحامين في الشرق، في كتابه الشهير "" المسيحيون العرب "" (الصفحتين 28 و 29) ما يلي :

""إنه للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة هي دينية في مبدئها ودينية في سبب وجودها ودينية في هدفها وهو نشر الإسلام... إلى الإقرار في الوقت ذاته بأنه من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد، إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم.

... إن ما بقي من هؤلاء النصارى موزعين على طوائفهم المعروفة بتسميتها المختلفة، إنما هم شهود عدل عبر التاريخ ليس على سماحة الإسلام وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم أهل ذمة في الماضي إنما كان مبنيا على قاعدة شرعية وليس على شعور – من طبيعته أن يتضاعف أو يضعف – وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء في القرآن، وهو الدين الذي اقرّ لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة بل وأيضا بالمواطنة الشاملة.

أشتهر الحلبيون بالجرأة وحب المغامرة والسفر لاستكشاف الأسواق الجديدة والتعرف على تجار البلاد الأخرى، لذلك قالوا بأن "" اعرج حلب وصل إلى الهند"" فتصوروا إلى أين يمكن لسالم حلب آن يصل.

إن الصفة التي كانت غالبة على المجتمع الحلبي هي أنه مجتمع صناعي/ تجاري، وقد تمركزت الثقافة المهنية في بيوتات عريقة على امتداد أجيال، فتفرعت الصناعات إلى اختصاصات وحرف متعددة تكمل بعضها البعض، مما جعل هذا المجتمع متعاونا ومتضامنا، رغم الاختلافات الاثنية والدينية، يتمسك بالعلم الواقعي والعملي والتطبيقي أكثر من تمسكه بالعلم النظري والمدرسي.

وقد أثر مناخ حلب وجفاف جوها على طبيعة سكانها وطبعهم بطابعه، فاتصف الحلبيون بصورة عامة، بالصراحة التي قد تصل إلى حد الخشونة وبالصدق في التعبير عن الرأي مباشرة ودون مواربة.

وصف الرحالة الأجانب حلب بأنها أرقى مدن السلطنة وأكثرها تمدنا وشبّهوها بمانشستر ولندن وأثينا والهند الصغيرة، كما وصف لامرتين أخلاق أهلها بالسمو والنبل، وقد انتشرت شهرة حلب لدى أدباء أوربا فذكرها شكسبير في مسرحياته مرتين، مرة في مسرحية ماكبث ومرة ثانية في مسرحية عطيل. ونسجّل فيما يلي ما قاله الرحالة فولني (القرن 18) عن حلب:

""إن الحلبيين يعتبرون بحق مسلميهم ومسيحييهم أكثر سكان السلطنة العثمانية ثقافة، ولا يتمتع الأوربيون في أي مكان بمثل ما يتمتعون به هناك من حرية واعتبار.

2 – إقامة وسياحة الأجانب في حلب قديما :

يذكر الرحالة الأجانب فيما وصلنا من كتاباتهم، بأن المسافرين إلى العراق وبلاد العجم والهند وغيرها كانوا يجدون في حلب دوما تجارا مستعدين لإرشادهم وحتى لمرافقتهم في رحلاتهم هذه، لذلك كان معظم الأجانب القادمين لزيارة الشرق يمرون بحلب أولا ليسترشدوا بخبرة التجار الحلبيين وليستعينوا بالإدلاء الحلبيين المستعدين لمرافقتهم وإرشادهم في رحلاتهم إلى باقي مدن الشرق.

وقد لمس الأجانب المزايا التي تتمتع بها حلب والحلبيون، لذلك اختاروها مركزا لأعمالهم وسفراتهم في الشرق، أقاموا فيها ومارسوا حياتهم الخاصة وعاداتهم وعباداتهم وارتدوا ملابسهم الإفرنجية بحرية، تماما كما كانوا يفعلون في بلادهم، في الوقت الذي كانت المدن الشرقية الأخرى تلزمهم بارتداء زيها المحلي

وبالتقيد الصارم بعاداتها وتقاليدها، وكانت اللغة الإيطالية هي لغة الأجانب السائدة في حلب.

لقد رافقت هذه الجاليات، إرسالياتها الدينية التي كانت تتبع الكنيسة الغربية في روما لتقوم بالخدمات الدينية لها وكان في مدخل بعض خانات حلب، مسجد وكنيسة وكنيس لممارسة العبادات التوحيدية الثلاثة، وقد أنشأت هذه الإرساليات أديرتها ومدارسها في حلب وكانت هذه المدارس تدرس إضافة إلى اللغة العربية اللغات الإيطالية والفرنسية والإنكليزية وغيرها، فإرسالية الفرنسيسكان في حلب منذ 768 سنة والكرمليت منذ 382 سنة واليسوعية منذ 372 سنة والكبوشية منذ 364 سنة والإنجيلية منذ 146 سنة، كما استقطبت حلب القنصليات الأجنبية في الشرق فأصبحت عاصمتها الفعلية فالقنصلية الإيطالية في حلب منذ 449 سنة والفرنسية منذ 436 سنة والإنكليزية منذ 414 سنة والهولندية منذ 395 سنة والأميركية منذ 200 سنة. وقد ذكر الرئيس شيراك في زيارته مؤخرا إلى سورية بأن أول تمثيل قنصلي لفرنسا في الشرق كان عند افتتاح القنصلية الفرنسية في حلب.

ثانيا - التحولات الثقافية الهامة في حلب

سنقتصر في بحثنا على ثلاثة مواضيع ثقافية هي الطباعة و الصحافة واللغات الأجنبية وتعليمها.

1 - الطباعة:

اخترع السوريون أحرف الهجاء الأولى في العالم مع أبجدية أوغاريت كما صنعوا الأختام وكتبوا ورسموا على رقم الفخار والبردى والأقمشة والجلود ونسخوا يدويا على الورق أهم الكتب والترجمات فضمت مكتباتهم الشهيرة مئات الألوف من المخطوطات، أي أن بلادنا حملت رسالة العلم والمعرفة على امتداد عشرات القرون.

يشير الأخوان راسل في كتابهما عن تاريخ حلب الطبيعي إلى أن موضة تباهي التجار باقتناء الكتب رغم عدم قراءتهم لها رفع أسعار المخطوطات في حلب، كما ذكرا أنه عند الانتهاء من إعداد المخطوطة جرت العادة على دعوة عدد معين من المشايخ والافندية لحضور قراءتها وتصحيحها كما أوردا أيضا إن

الأتراك أهملوا جمع المخطوطات والمحافظة عليها لا بل تركوها تتلف أو تنتقل إلى أوربا حيث يوجد الكثير من المخطوطات العربية.

بعد أن نقلت أوربا واستنسخت يدويا أهم مخطوطاتنا انتقلت من عصر الاستنساخ اليدوي إلى عصر المطبوعات الآلية عندما أخترع جوهان غوتنبرغ في مدينة ستراسبورغ آلة الطباعة الخشبية الأولى عام 1448 فظهر أول كتاب مطبوع في العالم عن نحو اللغة اللاتينية، وانتشرت الطباعة بسرعة في كافة المدن الأوربية بحيث أنشأت فيها 1125 مطبعة طبعت ثمانية ملايين نسخة كتاب خلال خمسين عاما، فتوسعت حلقة نشر العلم في أوربا، في الوقت الذي بقينا نحن ننسخ مخطوطاتنا يدويا وهو جهد كبير وتكلفة باهظة وإنتاجية متواضعة، على امتداد 254 عاما بعد اختراع غوتنبرغ آلة الطباعة وقد حدّ هذا من انتشار العلم والمعرفة في الشرق وأبقاهما بمتناول الصفوة والخاصة فقط، ففقدنا ريادتنا العلمية في العالم. ويعتبر البعض أن ثقافتنا بقيت شفاهية لأن الطباعة تأخرت عندنا ثلاثة قرون تقريبا وإننا في العصر الحاضر قد انتقلنا من الثقافة الشفاهية إلى ثقافة الصورة دون أن نمر بشكل جدي بثقافة الكتاب التي هي الأداة الثقافية والمعرفية الأولى في العالم والتي لم تنل عندنا ما نالته في الغرب من انتشار.

بقي الحال على هذا المنوال حتى عام 1702 عندما استخدم اثناسيوس الدباس بطرك الروم في حلب العلاقة الطيبة التي كانت تربط كنيسة حلب بكنيسة رومانيا الأرثوذكسية مستفيدا من نظام الملة العثماني الذي كان يعطي رؤساء الملل صلاحيات دينية وثقافية على رعاياهم بما في ذلك حقهم بتعليمهم بلغتهم الوطنية، فاستقدم من بخارست إلى حلب أول مطبعة عربية تصل الشرق وأقام مقرها في حارة أبو عجور بحلب وطبعت هذه المطبعة عشرة كتب حتى عام 1719، وبالرغم من السياسة العثمانية غير المؤيدة لنشر العلم لم يمنع والي حلب عمل هذه المطبعة عملا بأحكام نظام الملة العثماني.

طوّر الحلبيون هذه المطبعة العربية اليدوية وأحدثوا المسابك لأحرفها المنفصلة، حتى تمكنوا أن يصنعوا مطبعة كاملة مماثلة لها. وقد امتاز الشماس عبد الله الزاخر الذي كان خطاطا ماهرا ونقاشا بارعا بقدرته على صنع المطابع وقد طبع في مطبعته عام 1732 كتاب ميزان الزمان ب 800 نسخة. وبانتشار الطباعة في حلب انتشرت معها الثقافة وكتب التدريس باللغة العربية وأهمها كتاب ""

الصرف والنحو ""لجرمانوس فرحات، مطران الموارنة في حلب عام 1725، وقد ساهم ذلك بنشر اللغة العربية بشكل لم يكن متوفرا في عهد الاستنساخ اليدوي.

بعد أن رحل ثلاثة رهبان حلبيين هم جبرائيل حـوا وعبـد الله قـره لـي ويوسف البتين عام 1695 إلى لبنان وأسسوا الرهبنيات المارونية فيهـا وتوثقـت الروابط بين البلدين، حمل الحلبيون كتبهم ومطابعهم ومسابكهم معهم إلـى المـدن السورية الأخرى كما أنشئوا في لبنان المطابع والمدارس والأديرة، وقد انشأ الحلبي عبد الله الزاخر أول مطبعة عربية في لبنان في دير ما ر يوحنا بالخنشارة. ويشير الأخوان راسل في كتابهما تاريخ حلب الطبيعي إلى ما يلي :

" اسهم مسيحيو حلب في دعم العديد من الأديرة في جبل لبنان ويوجد في دير مار يوحنا مطبعة للروم الأرثوذكس يقومون فيها بين الحين والآخر بطباعة عدد قليل من كتب القداس وكتب دينية أخرى.

لذلك فإن كتب التاريخ عندنا قد أخطأت عندما ذكـرت بـأن أول مطبعـة عربية وصلت إلى الشرق هي تلك التي جلبها معه نابليون بونابرت إلى مصر عام 1798 لطبع مناشيره الموجهة باللغة العربية إلى المصريين، لأن مطبعة اثناسيوس الدباس في حلب قد سبقتها ب 96 عاما وكانت مطبعة كتب وليست مطبعة مناشير كمطبعة نابليون، وقد تولى محمد علي باشا عام 1822إحداث أول مطبعـة باللغـة العربية في مصر، أي أن مطبعة بولاق في القاهرة أحدثت بعد مطبعـة حلـب ب 120 سنة، كما احدث حنا الدوماني عام 1855 أول مطبعة عربية في دمشق بعـد 153 سنة من إحداث مطبعة حلب.

يقول عيسى اسكندر المعلوف، المؤرخ اللبناني وصاحب مجلة الآثار عـن فضل حلب في الطباعة ما يلي:

للحلبيين اليد الطولى والبيضاء في فن الطباعة وإنشاء المطابع ولهم خدمات كبيرة في مضمار الأدب والفن.

كما أورد جرجي زيدان، مؤسس دار الهلال في مصر، فـي كتابـه آداب اللغة العربية ما يلي :

"السوريون اسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية، واسبق المدن إلى هذا الفضل مدينة حلب.

في عام 1841 انشأ شخص من ساردينيا اسمه بلفانتي أول مطبعة حجرية (ليتوغرافية) في حلب وكان أول مطبوعاتها ديوان عمـر بـن الفـارض، أي أن

الطباعة الليتوغرافية قد وصلت إلى حلب بعد 35 سنة فقط من اختراعها في أوربا عام 1806 وكان ذلك قبل أن تصل أول مطبعة عربية إلى دمشق.

وفي عام 1857 انشأ يوسف مطر مطران الموارنة في حلب المطبعة المارونية التي كان لها دور هام في طبع الكتب التعليمية والدينية والتنويرية الوطنية لفرنسيس مراش ونصر الله دلال وغيرهم من رواد الفكر في حلب، وبعدها أنشأت العديد من المطابع وأهمها مطبعة الولاية في عام 1880. ولا بدّ من الإشارة إلى أن وجود المطابع في حلب شجع الحلبيين على التأليف وعلى إصدار العشرات من الصحف والمجلات.

2 - الصحافة

قال أحد الرحالة الذين زاروا حلب في القرن الثامن عشر ما يلي:

""في حلب تسمع كل ما يجري في أقطار العالم ""

إن مركز حلب التجاري وكونها ملتقى معظم الطرق التجارية في العالم القديم وعلى امتداد قرون عدة، كانت القوافل خلالها تنقل إلى حلب إضافة إلى البضائع، كل أخبار المدن التي مرت فيها والقصص التي سمعتها على الطريق، كما أن وجود القنصليات والإرساليات الدينية في حلب وتبديل العاملين فيها بشكل دوري وكثرة زوار حلب والمقيمين فيها من الأجانب إضافة إلى سفر الحلبيين المستمر إلى الأسواق التجارية في العالم القديم، أمنّت وصول أخبار العالم إلى حلب بشكل منتظم، باعتبارها المدينة الشرقية الأكثر ارتباطا بالسوق العالمية قبل افتتاح قناة السويس، كل ذلك أهّل الحلبيين ليكونوا رواد الصحافة العربية.

ذكر جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية عن الحلبيين ما يلي:

""كان الحلبيون اسبق الشرقيين إلى إنشاء الصحف السياسية العربية.

إن مؤسس الصحافة العربية هو الحلبي رزق الله حسون الذي أصدر في استنبول عام 1855 أول جريدة عربية في العالم سماها "" مرآة الأحوال""، وبنتيجة ملاحقته من قبل السلطات العثمانية رحل بجريدته إلى لندن حيث شنّ حملة شعواء على العثمانيين عامة وعلى السلطان عبد العزيز خاصة فحكم بالإعدام غيابيا، وكان رزق الله يكتب جريدته بخطه الجميل ويطبعها على الحجر وكان يساعده في

تحريرها الحلبيان جبرائيل دلال وعبد الله مراش، كما أصدر رزق الله في لندن مجلة عربية كان ينظم موادها شعرا، وبعد وفاته عام 1880 عن 55 سنة، رحل مساعداه دلال ومراش إلى باريس وعملا بالصحافة هناك، وجدير بالذكر أن رزق الله حسون كان أول من نادى بضرورة انفصال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية بينما نادى السياسيون السوريون الآخرون بالإصلاح دون الانفصال عن الخلافة العثمانية ، وقد وصف الدكتور شاكر مصطفى تلك المرحلة بما يلي :

"لم يعد للتاريخ العربي في الفترة العثمانية وجود بل اندمج مع التاريخ العثماني فالجو الديني لم يترك منفذا للشعور بالذات العربية الخاصة.

كما ذكر البرت حوراني في كتابه "" سورية ولبنان "" ما يلي :

"اصبح سكان سورية وغيرها من البلاد العربية الخاضعة للعثمانيين مجرد رعايا من الدرجة الثانية للدولة العثمانية

في عام 1897 انشأ عبد المسيح انطاكي مطبعة في حلب طبع فيها مجلته الجذور، ثم انتقل إلى القاهرة وأصدر فيها مجلته الشهيرة ""العمران " وكان شاعرا قديرا نظم القصيدة المشهورة بالعلوية والمؤلفة من 5595 بيتا من الشعر على وزن واحد وقافية واحدة، يصف فيها حياة الأمام علي ومناقبه وفضائله.

كما انشأ الشاعر الحلبي ميخائيل الصقال مجلة الأجيال المصورة في القاهرة عام 1897 وبعده انشأ الحلبي نجيب هندية مجلة الدليل في القاهرة عام 1891، وبعد وفاة سليم تقلا مؤسس أقدم جريدة مصرية وهي الأهرام تولت إدارتها زوجته وهي من أسرة كبابة الحلبية وتابعت إصدارها مستعينة ببعض الصحفيين الحلبيين الموجودين في مصر.

وجدير بالذكر أنه في عام 1865 صدر قانون الصحافة العثماني وفرض مراقبة المكتوبجي على الصحف الذي حظر على الصحف الإشارة فيما تنشره إلى العبارات التالية – الخلافة – الوطن – الحرية – الشورى – الدستور* – الثورة – قتل الملوك – الفتنة – المساواة، وعند مخالفة الصحفي لهذه التعليمات فكان المكتوبجي يأخذ عصا الفلق ويقصد بيت الصحفي ليضربه فلقا أمام عائلته عقابا له على ما كتب.

إن أول جريدة صدرت في حلب كانت جريدة الفرات التي أصدرها عام 1867 جودت باشا والي حلب باللغات العربية والتركية وصدر منها خمسون عددا بالأرمينية أيضا، وأستمر صدور هذه الجريدة حتى عام 1918، وكانت بمثابة

الجريدة الرسمية لولاية حلب وقد توقفت بعد أن صدر منهـا 2420 عـددا وقـد استبدلتها حكومة فيصل بجريدة حلب عام 1920. وكان عبد الرحمن الكواكبي قـد أصدر في حلب عام 1877 جريدة الشهباء وهي أول صحيفة عربية خاصة تصدر في سورية وبعدها أصدر جريدة الاعتدال، ثم رحل إلى مصر حيث أصدر كتابيـه الشهيرين - أم القرى و طبائع الاستبداد - وقد سبق هذا العلامة عصره بمفاهيمـه المتطورة عن الحرية والتمسك بالديمقراطية ونبذ التعصب.

صدر في العهد العثماني وحتى عام 1918 في حلب 16 صحيفة وثـلاث مجلات إضافة إلى سبع صحف فكاهية هي - مسخرة - كشـكول - المرسـح - العفريت - هوبيالا - الغول - تبت، وظاهرة الصحافة الفكاهية في العهد العثماني تنم عن الهروب من الواقع المؤلم وسيادة روح اللامبالاة وعدم الاكتراث في مقاومة التيار السائد كما أن فيها نوع من التنفيس عن مشاعر الظلم والإحباط، كمـا كـان يصدر الكتاب السنوي لولاية حلب المسمى - السالنامة - وبـدء بإصـداره عـام 1867 وقد اطلعنا على سالنامة 1908 فوجـدناها ب 530 صـفحة. لقـد شـجّع الاتحاديون إصدار الصحف بعد صدور دستور 1908 بغية كشف مساوئ العهـد الحميدي ولكن بعد تنامي النزعة القومية العربية عادوا فمنعوا الصحف من نشر ما يتعارض مع نزعتهم الطورانية.

وكان في حلب في العهد الفيصلي عام 1920 عشرة صـحف ومجلتـان0 وصدر في حلب في عهد الانتداب الفرنسي وحتى عام 1946 أكثر من 22 صحيفة و 17 مجلة. وبعد الاستقلال وحتى عام 1962 أي خلال 16 سنة صدر في حلـب 30 جريدة و 15 مجلة.

وجدير بالذكر أنه قد صدرت في حلب المجلات المتخصصة التالية في عهد الانتداب الفرنسي واستقطبت أقلاما هامة في العالم العربي كتبت فيها :

- <u>مجلة الحديث</u> الأدبية التي أصدرها سامي الكيالي وادمون ربـاط عـام 1927
- <u>مجلة المحاماة</u> لنقابة محامي حلب والمجلة الحقوقية لأحمـد نـاجي الزاغاتي وصدرتا عام 1926
- <u>مجلة المرأة</u> التي أصدرتها نديمة المنقاري عام 1930 وكانت مـن أقدم المجلات النسائية في العالم العربي.

- **المجلة الزراعية** التي أصدرها عبد القادر الملاح عام 1924

وفي عام 1963 توقفت جميع الصحف والمجلات ولم يبق في حلب سوى جريدة الجماهير ومجلات الكلمة والضاد والعاديات ونشرات الجمعيات الخيرية وجامعة حلب وغرفة تجارة حلب.

صحافة اللغات الأجنبية في حلب :

- ذكرنا أن جريدة الفرات وهي أول جريدة في حلب صدرت عام 1867 باللغات العربية والتركية والأرمينية.
- **الصحافة الأرمينية في حلب :**
- أسس الأرمن في حلب منذ مطلع القرن العشرين 28 مطبعة و 9 جرائد يومية و6 مجلات أسبوعية ومجلتين نصف شهريتين و 18 مجلة شهرية، وأهم الصحف الأرمينية - هاي تساين - يبراد - دار أكير - ارزيفلك.
- **الصحافة التركية** - وقد أنشئها اللاجئون الأتراك من الحكم الكمالي وهي صحف - دوغريول - وحدات - شفق.
- **الصحف الفرنسية في حلب** - وهي لا رينيسانس آراب وتحول اسمها بعدئذ إلى - فرانكو سيريين وصدرت عام 1919 وجريدة لاسيري لفاضل اسود وجريدة له كلير دي نور (برق الشمال العربية بعدئذ) لنقولا جانجي، وقد رأس تحريرها لفترة شارل حلو رئيس جمهورية لبنان الأسبق.

3 - اللغات الأجنبية في حلب :

آ - لمحة تاريخية :

بقيت اللغة الآرامية هي اللغة السائدة في البلاد منذ القرن الخامس قبل الميلاد وعلى امتداد آلف عام وانبثقت عنها السريانية التي هي لهجة أهل الرها (اورفة) من اللغة الآرامية التي أصبحت لغة العلم والأدب في العالم إلى جانب اللغة اليونانية التي سادت في العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية.ومنذ الفتح العربي بدأت اللغة الآرامية تخلي مواقعها للغة العربية التي أصبحت لغة البلاد الرسمية

حتى بداية العهد العثماني عام 1516 عندما أصبحت اللغة التركية هي اللغة الرسمية لكافة بلاد السلطنة.

ومنذ 1885 ازداد التطرف العثماني فمنعوا تدريس اللغـــة العربيـــة فـــي المدارس الرسمية حتى وصل الأمر إلى تعليم اللغة العربية لأبنائها عـــن طريـــق اللسان العثماني وقد ذكر شكري العسلي في منشوره الشهير عام 1911 ما يلي :

""كانوا يعلمون أحكام القرآن الكريم بالتركية على أمل تتريك العرب""

وكان من أهم مطالب العرب الإصلاحية جعل اللغة العربية رســمية فـــي محاكم البلاد العربية وعدم الاستعانة بالتراجمة إلى التركية، لذلك اقتصر تعليم اللغة العربية على مدارس تعليم القرآن الكريم والعلوم الدينية الملحقة بالمساجد ومدارس الملل والطوائف والإرساليات التي كانت تعلم إضافة إلى اللغـــة العربيـــة اللغـــات الإيطالية والفرنسية والإنكليزية واليونانية مستخدمة الصـــلاحيات الممنوحـــة لهـــا بموجب نظام الملة العثماني. لقد كان من أهم إنجازات الحكومة العربية في دمشق عام 1919 بعد التحرر من العثمانيين قراري إحداث أول مجمع للغة العربية فـــي العالم وإعلان اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية.

عند بدء الانتداب الفرنسي على سورية أصبحت اللغـــة الفرنســـية اللغـــة الرسمية الثانية في سورية وفرض تعليمها على كافة المدارس الســـورية الرســـمية والخاصة.

اشتهر الحلبيون بإتقان اللغات الأجنبية منذ القدم وقد ساعد على ذلك كـــون حلب المركز التجاري الأهم في العالم القديم وملتقى التجار والقوافل مـــن مختلـــف الجنسيات واحتكاك الحلبيين المستمر بالأجانب من خلال سفراتهم المتواصلة وليس مثل السفر معلم للغات الأجنبية كما أن إقامة الأجانب المستمرة وبإعـــداد د كبيـــرة جيلا بعد جيل في حلب وتأسيسهم الشركات الأجنبية فيها وتعاطيهم أعمال الوساطة والقومسيون واستعانتهم بالحلبيين ساعد في إتقانهم اللغات الأجنبية سواء في مدارس الإرساليات أو بطريق الممارسة.

ب – تدريس اللغات الأجنبية في المدارس الابتدائية الرسمية :

عندما شدّد الانتداب الفرنسي وطأته علـــى الـــوطنيين المنـــادين بجـــلاء الفرنسيين عن سورية، انعكس ذلك نقمة انفعالية على تعليم اللغة الفرنســـية فقـــام

الطلاب المتظاهرون بتكديس كتبهم المدرسية باللغة الفرنسية وأحرقوها، وسادت تلك الطرفة عن الطلاب المتظاهرين الحاملين على أكتافهم طالبا اسمه سمير يحيونه قائلين (يعيش سمير) فسألهم عابر سبيل ماذا فعل سمير حتى تعيشونه أجابوا (شوف الوطنية سمير أخذ زيرو في امتحان اللغة الفرنسية).

وفي سياق الإصرار الفرنسي على عقد معاهدة ثقافية طويلة الأمد مع سورية رفض مجلس النواب السوري عام 1944 ذلك وقرر بانفعالية الاستغناء عن تعليم اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية الرسمية.

وبقي هذا النهج ساري المفعول حتى صدور المرسوم رقم 156 لعام 1992 الذي أعاد إلزامية تدريس اللغة الأجنبية (إنكليزي-فرنسي) في المدارس الابتدائية الرسمية ابتداء من الصف الخامس بمعدل ثلاث حصص أسبوعيا ثم بدأ التدرج في تعليم اللغة الأجنبية إلى الصفوف الأدنى، أي أن وزارة التربية قد تنبهت بعد قرابة النصف قرن بأن الدراسات التربوية أثبتت أن قدرة الطالب على تعلم اللغات الأجنبية تضعف بعد سن العاشرة، وحتى إذا تعلمها بعد هذا السن فإنه سينطق بها بلكنة لهجته المحلية، فحاولت أن تتدارك الوضع بعد أن تخرج جيلان من مدارسنا وجامعاتنا الرسمية لا يتقنان اللغة الأجنبية حتى أن معظم من يتخرجون من فروع كلية الآداب باللغات الأجنبية لا يستطيعون التحدث باللغة التي حصلوا على الإجازة فيها، كما أن طلابنا الموفدين للدراسة في الخارج يمضون أكثر من سنة ليتمكنوا من تفهم دروسهم باللغة الأجنبية، وفي ذلك مضيعة للوقت والجهد وزيادة في النفقة علاوة على مشاعر النقص التي يولدها.

ولولا أن وزارة التربية سمحت للمدارس الابتدائية الخاصة بتدريس اللغة الأجنبية في صفوفها لتفاقم الوضع أكثر. وقد نظمت الوزارة هذا التعليم الخاص عام 1973 بالسماح بتدريس اللغة الأجنبية من الصف الأول الابتدائي بمعدل ست حصص أسبوعية، على أن توافق الوزارة بشكل مسبق على كتب ومنهاج وجهاز تدريس اللغة الأجنبية وأخضعت ذلك لمراقبة مراقب اللغة الأجنبية في الوزارة.

ج - تدريس اللغات الأجنبية في المراحل الإعدادية والثانوية والجامعية :

إن دراسة اللغة الأجنبية إلزامية في المراحل الإعدادية والثانوية، وتشير الإحصائيات إلى أن المتقدمين إلى فحوص الشهادات مع اللغة الفرنسية 10% في

فحوص الثانوية العلمية و 11.5% في فحوص الثانوية الأدبية و 7.5% في فحوص الإعدادية، أما في كلية الآداب فإن توزيع الطلاب على الأقسام هو بمعدل 46% للغة العربية و41.7% للغة الإنكليزية و 12.4% للغة الفرنسية. وهكذا يتبين انحسار إقبال الطلاب على اللغة الفرنسية واتجاههم إلى تعلم اللغة الإنكليزية لأنها أصبحت اللغة الأكثر استعمالا وانتشارا في العالم فهي لغة الاقتصاد والمال والأعمال والحاسوب والتقنيات الحديثة، وهذا تيار عالمي لا تيار محلي.

ومن المفارقات أن دولتنا التي دعمت الموقف السلبي للطلاب من اللغة الفرنسية عام 1944 أصبحت الآن توجه ثلث الطلاب إلى شعب اللغة الفرنسية والثلثين إلى شعب اللغة الإنكليزية ورغم ذلك فإن الطلاب يتهربون من شعب اللغة الفرنسية فاعتمدت المدارس أسلوب القرعة والإلزام بدلا من الاختيار الحر بغية تأمين نسبة الثلث المطلوبة، فلماذا تتبع وزارة التربية هذا الأسلوب الإلزامي في تعليم اللغة الفرنسية ولا تلجأ إلى حل "هذا المأزق فتقرر تعليم اللغتين الأجنبيتين الإنكليزية والفرنسية ابتداء من الصف الرابع الابتدائي بمعدل ثلاث حصص أسبوعية لكل لغة ومع بدء المرحلة الإعدادية يصار إلى تحديد لغة الطالب الأجنبية في ضوء العلامات المحصلة في المرحلة الابتدائية، هذا مع الإشارة إلى أن تعلم لغة أجنبية واحدة يسهل كثيرا تعلم اللغة الثانية.

د – تراجمة اللغات الأجنبية :

يشير الأخوان راسل في كتابهما "" تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر "" إلى ما يلي فيما يتعلق بتراجمة القنصليات في حلب:

- يصنف التراجمة في ثلاث مراتب أولى وثانية وثالثة.
- يرافق التراجمة القنصل عند مقابلة الوالي الذين عليهم تقديم فروض الطاعة إلى الوالي فينحنون أمامه ويقبلون كم يده، وعندما يستجيب الوالي لطلب القنصل يحنو الترجمان الأول ويقبل حاشية ثوب الوالي، وكان الوالي يقدم هدية للترجمان الأول عباءة ولباقي التراجمة مناديل
- كانت القنصليات تزكي المرشحين للترجمة إلى الباب العالي وتصدر الأوامر السلطانية بقبول ذلك مقابل مبالغ كبيرة.

- كان الترجمان يستفيد من الحماية القنصلية ويعفى من دفع الخراج ويخضع في نزاعاته لقانون دولة القنصلية وعند وفاة الترجمان يمهر القنصل لا القاضي على ممتلكاته، كما كان يحق للترجمان ارتداء قبعة خاصة من الفرو مع خف أصفر.

وقد تطورت مهنة الترجمة المحلفة في عهد الاستقلال، كما نظمت بقانون خاص وكذلك الحال بالنسبة للإدلاء السياحيين واصبحوا يخضعون إلى فحوص ويصدر القرار باعتمادهم عن وزير العدل بالنسبة للتراجمة وعن وزير السياحة بالنسبة للأدلاء وفي حلب تراجمة وأدلاء سياحيين باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية والإسبانية واليونانية، ويوجد فقط تراجمة باللغات التركية والأرمينية والرومانية والبولونية ومجموع التراجمة في حلب 105 ومجموع الأدلاء 134 قرابة نصفهم باللغة الإنكليزية.

هذا ومن الضروري تنظيم تراجمة الكتب والدراسات من اللغات الأجنبية، في جمعية تحدد شروط الانتساب إليها أسوة باتحاد الكتاب، كما يقتضي إحداث مؤسسة للترجمة بالإضافة إلى قسم الترجمة في وزارة الثقافة للاستفادة من الكتب الأجنبية ذات القيمة العلمية والأدبية وفي ذلك إغناء للمكتبة العربية. ولا بدّ من الإشارة إلى مشروع الترجمة الآلية بالحاسوب الذي أخرجته شركة بريطانية اعتمادا على البرنامج الذي أعده الباحث السوري برهان بخاري والذي اصبح أكثر البرامج مبيعا في الشرق، فهذا البرنامج يسهل على التراجمة الترجمة من العربية واليها.

هـ - أدباء حلبيون كتبوا بلغات أجنبية :

بعد افتتاح قناة السويس هاجر عدد كبير من المثقفين الحلبيين وأشهرهم رزق الله حسون إلى استنبول ولندن ومساعداه دلال ومراش إلى لندن وبعدها إلى باريس كما هاجر بعض أفراد عائلتي كوسا وتوتونجي المتصاهرتين إلى استنبول فنالوا تقدير السلاطين لسعة ثقافتهم وإتقانهم اللغات الأجنبية، فعين السلطان فرانكو كوسا أفندي متصرفا على جبل لبنان عام 1868 وحتى وفاته. وفي عام 1892 عين السلطان نعوم توتونجي باشا متصرفا على جبل لبنان وفي عام 1902 عينه

سفيرا للسلطنة العثمانية في باريس وفي عام 1907 عيّن السلطان يوسف فرانكو كوسا باشا متصرفا على جبل لبنان حتى 1912.

وفي نهاية القرن الماضي هاجر الحلبي زكي مغامز إلى استنبول وحرر في أهم صحفها واصبح عضوا في قومسيون إدارتها وقام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى التركية بمجلدين كما ترجم إلى التركية بثلاثة مجلدات كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان. كما انتقل إلى استنبول الشيخ أبو الهدى الصيادي نقيب الأشراف في حلب وكافة ولايات سورية وديار بكر وبغداد والبصرة، فقربه السلطان عبد الحميد وجعله رئيس مجلس المشايخ في دار الخلافة كما جعله نديمه وأغدق عليه الأموال والمناصب والأوسمة وطبقت شهرته الآفاق وشغل الناس طوال ربع قرن وألف قرابة المائة كتاب معظمها باللغة العربية حول التصوف وطرقه والسلالة الرفاعية، وقد دعم السلطان عبد الحميد وكفّر الاتحاديين أعداء الدين والأمة، وعندما هاجم الاتحاديون قصر عبد الحميد هاجموا في الوقت ذاته قصر الصيادي ونقلوا أبو الهدى وهو على فراش المرض إلى جزيرة الأمراء حيث توفي عام 1909، وقد اختلف الباحثون في أمره بين مؤيد ومعارض.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن العديد من شعراء وأدباء حلب كتبوا شعرهم وأدبهم باللغة الفرنسية ونذكر منهم رزق الله سالم واميل كوسا والياس زحلاوي ورينيه خوام (الذي ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية) وجوزيف شلحت وجبرائيل دلال وعبدالله مراش وزوية حمصي غضبان ونهاد رضا، وحديثا كتبت باللغة الفرنسية مريم انطاكي روايتيها المحبوبة وقوافل الشمس، كما كتبت ماري سورا معمارباشي باللغة الفرنسية كتبها - غربان حلب - شرق قريب منا - مملكتي من الهواء - نزهة في حلب (صالونات - قطن - ثورات).

و - الآثار الثقافية لانقسام الطوائف المسيحية في حلب:

لا بّد من التنويه بأن كلا من الطوائف المسيحية الرئيسية الثلاثة في حلب، وهي طوائف الروم والسريان والأرمن قد انقسمت بدء من عام 1724 إلى طائفتين الطائفة الأولى أرثوذكسية والثانية كاثوليكية تتبع الفاتيكان في روما، ولم تعترف السلطنة العثمانية بالطوائف الكاثوليكية ولم تسمح لها بممارسة عباداتها وإنشادة كنائسها حتى دخول إبراهيم باشا المصري إلى حلب عام 1831 فسمح لطائفة الروم

الكاثوليك بإشادة كنيستها الحالية في ساحة فرحات، وبذلك مهّد لاعتراف السلطنة العثمانية بالطوائف الكاثوليكية والإنجيلية وشملها بقانون الملة العثماني، وساعد ذلك على فتح مدارس ومكتبات ومطابع جديدة لكل طائفة اعتمدت الأساليب التعليمية الغربية المتطورة إضافة إلى تعليم اللغات الأجنبية، فساهم ذلك في تثقيف عدد لا يستهان به من الكتاب والشعراء الحلبيين التنوريين الذين قاموا بدور هام في حياة حلب الأدبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ونذكر منهم رزق الله حسون - عبد الله وفرنسيس ومريانا مراش - جبرائيل ونصر الله دلال - انطوان ومخائيل صقال - قسطاكي حمصي - عبد المسيح انطاكي - نجيب هندية - والآباء توما أيوب وجرجس شلحت وجرجس منش وقسطنطين الخضري وفرديناند توتل - زكي مغامز - شكري كنيدر - فتح الله وديع قسطون - يوسف شلحت - أمين هلال - انطونيوس قندلفت - بتراكي خياط - شارل خوري - عبد الله يوركي حلاق - انطوان شعراوي.

ثالثا - التحولات الاقتصادية الهامة في حلب

استفاد الحلبيون من موقع مدينتهم الجغرافي الممتاز على بوابة ثلاث قارات وكونها جزء من إمبراطورية مترامية الأطراف في أوربا وآسيا وأفريقيا بدء من فتح الإسكندر المقدوني قبل 2330 عاما وتتابعا مع الإمبراطوريات السلوقية والرومانية والبيزنطية والفارسية والأموية والعباسية والأيوبية والمملوكية وآخرها العثمانية التي استمرت 402 عاما.

وقد تمكن الحلبيون في عصر الإمبراطوريات أن يجعلوا من مدينتهم المركز التجاري والسياحي الأهم في العالم القديم وعقدة المواصلات الرئيسية في الشرق وقاموا بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب وبين الصناعي والمنتج والمستورد والمستهلك، فأصبحت كل الطرق تؤدي إلى حلب من طريق الحرير المسمى بالواحات وطرق الشاي والتوابل والمعادن وغيرها، تسير عليها القوافل المؤلفة من آلاف الجمال لتفرغ في حلب حمولاتها من الصين والهند وسائر المشرق وأوربا وسائر بلاد المغرب وتحمل من حلب بضائعها ومصنوعاتها ومستورداتها إلى مراكز استهلاكها في العالم القديم، فاصبح الحلبيون من أمهر تجار العالم فكونوا سمعة عطرة وحازوا ثقة الآخرين واشتهروا بحفظهم لعهودهم

واحترامهم لتعهداتهم وحسن أدائهم لمهامهم، فشكلوا مدرسة تجارية متميــزة، راح الأوربيون يرسلون أبنائهم إليها، ليتعلموا أصول التجارة وتقاليدها على يــد تجــار حلب.

ازداد النشاط التجاري بين حلب والغرب في العهد الأيوبي، بــالرغم مــن الحروب الصليبية ومن المراسيم التي أصدرها من شنوا هذه الحروب لمنع التعامل التجاري مع حلب، فقد راحت المدن الإيطالية الواحدة تلو الأخرى ترسل مبعوثيهـا إلى ملك حلب الأيوبي الظاهر غازي لعقد الاتفاقيات التجارية معه، فعقدت حلــب اتفاقية مع البندقية عام 1207 وجددت في عامي 1225 و 1229، بعدئذ وقع الملك الاشرف خليل بن قلاوون العديد من الاتفاقيات مع المدن الإيطالية الأخرى ومــع إسبانيا والبرتقال وصقلية وكورسيكا وغيرها من الممالك. وفي عــام 1525 وقــع السلطان سليمان القانوني مع ملك فرنسا فرنسيس الأول معاهدة أدت إلــى تنشــيط التجارة بين الدولتين وزيادة تعداد أفراد الجالية الفرنسية المقيمين في حلب.

لذلك توسعت تجارة حلب حتى وصفها ابن الشحنة في القرن الخامس عشر بما يلي:

يتفق أن يباع في يوم واحد في حلب ما لا يباع في غيرها في شهر، كــل ذلك بأطيب ثمن ورغبة، مثلا إذا احضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يــوم واحد ويقبض ثمنه، ولو أحضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال فإنها لا تباع في شهر.

أما تشيسني، صاحب مشروع الملاحة النهرية من البحر المتوســط إلــى الخليج العربي عبر سورية قبل افتتاح قناة السويس، فقد وصف تجارة حلــب فــي كتابه الصادر عام 1850، بما يلي :

وفي أيام الرخاء وازدهار التجارة كانت تخرج من مدينة حلب ست قوافــل متجهة إلى بغداد وكانت اعظم هذه القوافل وأهمها تتألف من 12000 جمل واقلهــا بين 5000 – 6000 جمل، وفي إحدى السنين بلغ مجموع الجمال التي خرجت من حلب باتجاه بلاد الأناضول والعراق أكثر من خمسين آلف جمل، تحمل البضائع من مختلف الأشكال والأنواع عدا القوافل الأخرى التي كانت تتجه إلى البلاد الشــامية ومنها دمشق وبيروت.

وتقول الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها الجاليات الأجنبية في الدولة العثمانية ما يلي :

عاشت دمشق في القرنين السادس والسابع عشر تحت وطأة شهرة حلب، وكانت قد أضاعت قسطا من طاقته الصناعية منذ عهد تمورلنك – عام 1401 الذي نقل عددا كبيرا من صناعها المهرة إلى عاصمته سمرقند، فعاشت تمارس حياتها التجارية، إنما في نطاق أضيق مما كان عليه في الماضي، ولم تعد تعتمد على وارداتها الخاصة الوافدة إليها بطريق قوافل الحجيج الإسلامي من بلاد الحجاز ولا على ما يأتيها من مصر برا وبحرا، فقط وإنما أخذت تستند إلى ما تحمله إليها القوافل من مدينة حلب.

ازدادت التجارة الأجنبية في حلب حتى اصبح لإنكلترا عام 1662 أكثر من خمسين شركة ولفرنسا أكثر من ثمانين تاجرا في خان الجمرك وصل حجم عملهم إلى أربعة ملايين فرنك فرنسي في العام، وعندما أحدثت الملكة اليزابيث عام 1581 شركة الهند الشرقية في لندن – وهي الشركة التي تحكمت باقتصاد العالم في ذلك العصر – فإن هذه الشركة افتتحت فرعا لها في حلب بعد سنتين فقط من تأسيسها في لندن، وقد أسهم الإنكليز المقيمون في حلب بمبلغ تسع عشرة ألف جنيه أرسلوها كمساهمة منهم في تكاليف بناء كنيسة القديس بولس الملكية الشهيرة في لندن عام 1610 ، وقد سجل الأخوان راسل، طبيبا الجالية الإنكليزية في حلب بين 1742-1768 بأن حلب عاصمة سورية والمدينة الثالثة بعد الآستانة والقاهرة، فيها ثمانون مؤسسة تجارية عائداتها 18 مليون فرنك.

لقد تأثرت تجارة حلب في القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي بالعديد من الأحداث، نوجز أهمها فيما يلي:

1 – دخول ابراهيم باشا المصري الى حلب :

بعد أن دخل إبراهيم باشا حلب عام 1831 فرض العديد من الإجراءات العسكرية أهمها مصادرة المحاصيل والبضائع والدواب

وفرض التجنيد الإلزامي، مما أضعف التجارتين الداخلية والخارجية فدفع ذلك التجار الأجانب إلى الرحيل عن حلب، وقد ذكر تشيسني، بأن عدد المحلات

التجارية الفرنسية والإنكليزية تدنى إلى محل واحد لكل منهما كل ذلك نتيجة الإجراءات التي اتخذها إبراهيم باشا.

وإثر رحيل الأجانب عن حلب حلّ الحلبيون المتقنون للغات الأجنبية محلهم في أعمال القومسيون والوساطة التجارية، وبذلك بدأت البرجوازية الحلبية تتكون مستقلة عن التجار الأجانب واصبح لها اتصالاتها المباشرة مع الزبائن في مختلف الأمصار.

2 – افتتاح قناة السويس :

بعد أن افتتحت قناة السويس بتاريخ 1869/11/12 لم يعد الطريق البري إلى الهند عبر حلب قادرا على مزاحمة الخط البحري الجديد عبر قناة السويس، الذي اختصر الخط البحري القديم حول رأس الرجاء الصالح إلى أقل من نصفه، خاصة وإن السفن تستطيع نقل حمولات آلاف الأطنان من البضائع دفعة واحدة وبتكلفة أدنى من تكلفة النقل على الجمال والعربات التي تنقل الحمولات الصغيرة بأجزاء الطن.

يذكر العلامة خير الدين الأسدي في موسوعته أنه نتيجة افتتاح قناة السويس نزح معظم تجار حلب إلى لندن ومانشستر ونابولي وجنوة وباريس ومارسليا والإسكندرية والقاهرة والآستانة، بعد أن تدنت تجارة حلب من 18 مليون ليرة ذهبية سنويا إلى 1.75 مليون ليرة، فكان ذلك ضربة قاضية لتجارة حلب الخارجية وتحول تجارها الباقون إلى الاهتمام بالتجارة الداخلية.

وجدير بالذكر أن أول فرع فتحه البنك العثماني خارج استنبول كان في حلب عام 1893 كما أن غرفة تجارة حلب المحدثة عام 1883 كانت أول غرفة تجارة تؤسس في الشرق بعد غرفة العاصمة استنبول.

3 – انتهاء عصر الإمبراطوريات :

مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 انتهى عصر الإمبراطوريات الممتدة في ثلاث قارات، فوجدت حلب نفسها لأول مرة في تاريخها المديد، على حدود دول جديدة مجاورة، ولم يعد انتقال الأشخاص ونقل البضائع حرا كما كان

عليه طوال أكثر من ألفي عام، بل فرضت على هذا الانتقال المعاملات والرسوم والتقيد بالأنظمة الجمركية وأنظمة جوازات السفر.

فتغيرت كافة معطيات التجارة الخارجية في حلب وتجمدت في حدود الأسواق المحلية الضيقة والتي أفقرتها الحرب العالمية الأولى، واصبح على تجار وصناعيي حلب أن يتلاءموا مع المعطيات الجديدة.

4 - فصل لواء الاسكندرون :

كان مرفأ الاسكندرون هو مرفأ حلب الطبيعي وكان وكيل السفن يوصل أنباء وصولها إلى الاسكندرون لوكيله في حلب في مدة ثلاث ساعات ليعمم ذلك على التجار المستوردين حتى يسافروا إلى المرفأ لاستلام بضائعهم، كل ذلك قبل اختراع التلغراف والمورس والهاتف، وذلك باستخدام الحمام الزاجل.

وفي عام 1938 وبموافقة ضمنية من دولة الانتداب احتلت تركيا لواء الاسكندرون وضمته إلى أراضيها، فخسرت البلاد هذه المنطقة الغنية وخسرت حلب مرفأها الطبيعي الذي يبعد مسافة 155 كم، فلجأت إلى مرفأ بيروت الذي يبعد عنها 450 كم.

وأدى ذلك فيما بعد إلى سيطرة تجار بيروت على حركة الاستيراد والتصدير التي كان يقوم بها تجار حلب، وشكل أحد الأسباب التي أدت بعدئذ إلى القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان بموجب المرسوم التشريعي رقم 71 تاريخ 1950/3/14وكان من نتيجة ذلك إحداث مرفأ اللاذقية الذي أصبح المرفأ الرئيسي لتجارة حلب.

المراجع

إضافة إلى المراجع المشار إليها في متن البحث، فقد اعتمدت المراجع التالية :

الرقم	اسم الكتاب/المرجع	المؤلف
1.	-زبدة الحلب من تاريخ حلب	-ابن العديم (1192)
2.	-الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة	-ابن شداد(1217)
3.	-الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب	-ابن الشحنة(1485)
4.	-إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء	-راغب الطباخ (1921)
5.	-نهر الذهب في تاريخ حلب	-كامل الغزي (1926)
6.	-موسوعة حلب المقارنة (7 أجزاء)	-خير الدين الأسدي1980
7.	-أحياء حلب وأسواقها(تحقيق عبد الفتاح قلعه جي)	-خير الدين الأسدي
8.	-العلامة خير الدين الأسدي	-عبد الفتاح قلعة جي
9.	-تاريخ سورية	-فيليب حتي(1951)
10.	-حلبيات	-عبد الله يوركي حلاق(1983)
11.	-حلب القديمة	-فايز الحمصي(1983)
12.	-الجريدة الرسمية للجمهورية العربية السورية	-المطبعة الرسمية
13.	-المتحف الوطني بحلب	-وحيد خياطة(1976)
14.	-عدة محاضرات عن حلب	-د.محمود حريتاني
15.	-محاضرات الدورة السادسة للتأهيل السياحي والأدلاء في حلب 198	جمعية مكاتب السياحة والسفر في حلب
16.	-الجاليات الأجنبية في الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر و السابع عشر- دار الرسالة	-د.ليلى الصباغ
17.	-أسواق المدينة بحلب	-د.محمود حريتاني
18.	-محافظة حلب	-د.عبد الرحمن حميدة
19.	-أقدم ما عرف عن تاريخ حلب	-صبحي الصواف

الرقم	اسم الكتاب/المرجع	المؤلف
20.	-حلب في مائة عام (3 أجزاء)	-فؤاد عنتابي- نجوى عثمان
21.	-وثائق تاريخية عن حلب (4 أجزاء)	-الأب فرديناند توتل اليسوعي
22.	-الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية	-د.حسن حمامي 1971
23.	-حلب التراث	-د.عثمان مهملات
24.	-الحلبيون في المهجر	-عبد الله يوركي حلاق
25.	-موجز مقتبسات من كتاب الإفرنج في حلب	-تعريب قسطون
26.	-خانات حلب	-دعد حكيم
27.	-تاريخ سلاطين مصر والشام ومنطقتها	-الرباط
28.	-سورية (1918-1968)	-د.جورج جبور
29.	-من هم في سورية (1949)	-جورج فارس
30.	-حلب تاريخها ومعالمها الأثرية	-د.شوقي شعث
31.	-خطط الشام (1925) - ستة أجزاء	-محمد كرد علي
32.	-الحركة التصحيحية في عيدها العشرين	-حزب البعث العربي الاشتراكي
33.	-أدباء حلب ذوو الأثر	قسطاكي الحمصي
34.	-دليل حلب الماضي والحاضر (بالفرنسية) طبع في حلب 1930	-بول بوران
35.	-أهم حوادث حلب في النصف الأول من القرن 19 (المطبعة السورية في مصر)	-المطران بولس أروتين
36.	-الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا	-د.أسد رستم (5 مجلدات)
37.	-حركة التنوير العربية في القرن 19 (حلقة حلب)	-جمال باروت
38.	-الحركة الفكرية في حلب	-عائشة الدباغ
39.	-سورية في القرن التاسع عشر	-عبد الكريم غرايبة
40.	-تجارة حلب في القرن 19 (مجلة الكلمة 1949)	-محمد سعيد الزعيم

الرقم	اسم الكتاب/المرجع	المؤلف
41.	حلب في كتب البلدانيين العرب	د.شوقي شعث وفالح بكور
42.	الحركة الأدبية في دمشق 1918/1800	د.اسكندر لوقا
43.	الطباعة والصحافة في حلب	د.سهيل الملاذي
44.	الموسيقى في سورية	صميم الشريف
45.	محمد سعيد الزعيم رجل الاقتصاد والأدب	أمية الزعيم
46.	الشباب والقضايا السكانية	اتحاد شبيبة الثورة
47.	حلب بين التاريخ والهندسة	د.محمود فيصل الرفاعي
48.	من ذكرياتي في المحاماة –جزآن	فتح الله صقال 1958
49.	سورية في العهد العثماني- خمسة أجزاء	يوسف الحكيم
50.	المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني	د.ليلى الصباغ
51.	دراسة في تاريخ سورية السياسي والمعاصر 1920-1950	د.نزار الكيالي
52.	أوراق فارس الخوري(1و2)	كوليت خوري
53.	أهل الطرب في حلب وبلاد العرب	نور مهنا- قدري دلال- منى نعال- عبد الحليم حريري
54.	أعلام الأدب والفن	أدهم آل جندي
55.	قضايا وقف العثمانية أمام المحاكم المختلطة السورية	المحامي فتح الله صقال
56.	أعمدة الحكمة السبعة	الكولونيل إدوارد لورنس
57.	مبادئ التعايش في سورية(بالإنكليزية)	ناوتو سايكو
58.	سورية اليوم	جان هيرو
59.	دراسات في حضارات غرب آسية القديمة	د. توفيق سليمان 1985
60.	فخ العولمة (عالم المعرفة238)	بيتر مارتنير
61.	تاريخ حلب الطبيعي في القرن 18 للأخوين راسل	ترجمة خالد الجبيلي

الرقم	اسم الكتاب/المرجع	المؤلف
62.	-وصف سورية بالمعلومات إصدار عـــام-المكتب المركزي للإحصاء 2000	
63.	-سوريا-صنع دولة وولادة أمة	-د.وديع بشور
64.	دليل حلب – الإصدار الخامس	فؤاد هلال ونديم فقش
65.	النظام واللائحة التنفيذية للغرفة	مطابع الخط-الكويت الإسلامية للتجارة والصناعة
66.	تجار دمشق وتجارتها	غرفة تجارة دمشق
67.	دليل حلب التجاري 1998-1999	غرفة تجارة حلب
68.	المجموعة الاقتصادية السنوية لغرفة تجارة حلب من 1919 الى1964	
69.	BULLETIN ECONOMIQUE DE LA CHAMBRE DE COMMERCE D'ALEP	
70.	للتاريخ والذكرى- قصة جهد وعمـــر(3 أجزاء)	بدر الدين الشلاح
71.	من هم في العالم العربي 1957	جورج فارس
72.	تاريخ الثورات السورية	ادهم الجندي 1960
73.	نظام غرف التجارة في السلطنة	رفعت سليم انطاكي
74.	سلسلة أوراق اقتصادية	اتحاد الغرف العربية
75.	ميثاق العمل الاقتصادي العربي المشترك	اتحاد الغرف العربية
76.	النظام الأساسي لاتحاد الغرف العربية	اتحاد الغرف العربية
77.	الغرف التجارية العربية-الأجنبية 1993	اتحاد الغرف العربية
78.	الاقتصاد العربي بين الحاضر والمستقبل	برهان الدجاني-6 أجزاء
79.	النظام الأساسي واللائحة التنفيذية للغرفة	مطابع الخط في الكويت الإسلامية للتجارة والصناعة
80.	دليل سورية ومصر التجاري لسنة 1908	محمد أمين عبد العال عبدو فضل الله عبد النور
81	الدليل اللبناني السوري -السنة4/عام1925	الياس وجرجي جدعون

الشعر والشعراء في دولة الزنكيين

محمود فاخوري
كلية الآداب- جامعة حلب

تمتد الحقبة التي حكم فيها الزنكيون قرابة ستين عاماً هجرياً (518 – 577) هـ، وكانت تلك الفترة حافلة بالأحداث الكبرى التي كانت تنذر قرونها بين الحين والآخر من خلال تمزق أوصال جسم الخلافة العباسية إلى دويلات تخضع اسمياً للخليفة القابع في بغداد، وتتناحر فيما بينها متنافسة على كراسي الحكم، أو فيما بين أمراء الأسرة الواحدة الحاكمة.

وهذا ما جعل الحملات الصليبية تجد الفرصة سانحة منذ أواخر القرن الهجري الخامس، حين قدمت الحملة الأولى منها، وراحت تعقبها الثانية فما بعدها.

في ذلك الحين كانت الدولة الزنكية (أو النورية) في مشارف تأسيسها منطلقة من الموصل، كما كان الشأن أيام الدولة الحمدانية من قبل. ثم قامت دعائمها باسقة بفضل بطلين اثنين من تلك الدوحة الزنكية هما عماد الدين زنكي مؤسسها الحقيقي، ثم ابنه نور الدين محمود، الملقب بالشهيد. فقد عمل هذان الرجلان الفذّان على توحيد شمل الأمة في بلاد الشام ومصر، وتجنيد أبنائها للوقوف في وجه الغزاة الصليبيين، واسترداد كثير من القلاع والحصون والمدن التي احتلوها، وخوض المزيد من المعارك والفتوح التي لم تكن تهدأ أو تنقطع خلال الفترة التي حكم فيها هذان الأميران، في أنحاء بلاد الشام كافة، وفي منطقة حلب وما يحيط بها خاصة، ويتردد في هذا المجال ذكر المعارك مع الصليبيين في الأثارب، وبعرين (بارين)، واللاذقية، وكفر طاب، والمعرة، وجعبر، والرها، وحارم، وأفامية، وبغراس، ويحمور، وأنطرطوس، ودمشق، وبصرى، والجولان، وبعضها لم نسمع به كثيراً مثل ، مابولة، وكثر لاثا، وبصر فوث، ودلوك، كما تتردد أسماء بعض القواد من الصليبيين مثل جوسلين، والبرنس.

وكانت حلب منطلقاً لكثير من تلك المعارك والمواقع.

وقد كان الشعر في هذه المرحلة صدى لذلك كله من الأحداث الكبرى، فضلاً عن الأغراض الشعرية الأخرى.

في تلك العقود الستة من حياة الدولة الزنكية في حلب، تألق عدد من الشعراء الذين عاصروا تلك الفترة، وحفلت قصائدهم بأحداثها وأخبارها، وأشهرهم:

ابن القيسراني (-548 هـ)، وابن منير الطرابلسي (-548 هـ) وأسامة بن منقذ (584 هـ)، والعماد الأصفهاني (-597هـ). وبعضهم شهد أول تلك الفترة كابن قسيم الحموي (-541 هـ)، وبعضهم شهد آخرها فما بعدها، كالقاضي الفاضل (-596 هـ) وفتيان الشاغوري (-615 هـ).

ويلاحظ أن هؤلاء الشعراء ينتمون إلى أوطان شتى، وأن معظمهم لم يكونوا يقيمون في بلدة واحدة، بل كانوا يتنقلون بين مدن شتى، لأسباب سياسية أو معيشية أو علمية، ما بين العراق، ومصر وبلاد الشام. ثم أنهم لم يقتصروا على نظم الشعر وحده، بل كان فيهم من يجمع إلى الشعر: الخطابة، والتأليف، وكتابة النثر الفني، كالخطيب الحصكفي، وأسامة بن منقذ، وابن الدهان الموصلي، والعماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل.

ثم أن فيهم من اتصل بالأميرين عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ومدحهما، وأشاد بفتوحاتهما وجهادهما، كابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، وأسامة بن منقذ...كما أن فيهم من لم يفعل ذلك لأسباب مختلفة، كعرقلة الكلبي (567هـ) الذي كان منصرفاً إلى لهوه ومجونه، سالكاً سبيل الوليد بن يزيد، وأبي نواس، والحسين بن الضحاك (الملقب بالخليع)، وكابن الدهان الذي كان منصرفاً إلى الفقه والتأليف والتدريس، وكابن قسيم الحموي الذي قنع بعمله في أحد مساجد حماة، لا يكاد يغادر هذه المدينة...

ولعل أبرز الموضوعات التي تسيطر على الشعر إبان الدولة الزنكية ما قيل في الأحداث الكبرى التي صحبت المعارك والصدامات مع الغزاة الفرنجة في كل مكان من أرياف حلب وما هو قريب منها، على جانب المعارك الأخرى في مناطق بعيدة عن حلب التي هي كانت – أو دمشق – منطلقاً لتلك المعارك.

و هذه الأشعار ذات طابع حماسي، صوّرت عصر الجهاد ضد الصليبيين بما فيه من الوقائع الحربية، وفتح المدن والحصون، وسقوط القتلى والجرحى واخذ الأسرى في تلك المعارك التي تسعى إلى تطهير بلاد الشام المحتلة، ويتشوق أصحابها من العرب والمسلمين وقوادهم إلى تحرير تلك البلاد من نير الغزاة، وكثيراً ما نقرأ في تلك الأشعار أسماء الأماكن التي شهدت جولات الصراع الحربي، وأرخت لأحداث تلك الفترة، كما نطلع على ما قيل في مدح عماد الدين

وابنه نور الدين، اللذين جاهدا حق الجهاد، وحرّرا كثيراً من البلاد من قوات الاحتلال الفرنجي.

ومن أمثلة ذلك المعركة الكبيرة التي نشبت سنة 544 هـ حين ظفر الأمير نور الدين محمود بالبرنس صاحب إنطاكية وأصحابه، عند حصن (إنب) من نواحي عزاز، ثم حمل رأسه إلى حلب، فنظم ابن القيسراني قصيدة سجل فيها هذا الفتح المبين ومطلعها:

هذي العزائم، لا ما تدعي القضب — وذي المكارم، لا ما قالت الكتب

كما نظم ابن منير الطرابلسي في هذه المناسبة قصيدة طويلة تقع في /62/ بيتاً مطلعها:

أقوى الضلال، وأقفرت عرصاته — وعلا الهدى وتبلجت قسماته

ومنها قوله:

رفعت لنور الدين نار عزيمة — رجعت لها عن طبعها ظلماته
ويروقه ثغر العدى قانٍ دماً — لا الثغر يعبق في لماه لثاته
فتح تعممت السماء بفخره — وهفت على أغصانه عذباته
نشرت على حلب عقود بنورهم — حلل الربيع تناسقت زهراته
أنت الذي تحلي الحياة حياته — وتهب أرواح القصيد هباته

وحين أسر نور الدين جوسلين سنة 454 هـ وحمله معه إلى حلب، أقبل الشعراء يمدحونه ويهنئونه بالظفر الأغرّ، ومنهم ابن القيسراني في قصيدة مطلعها:

دع ما ادعى من غره النهي والأمر — فما الملك إلا ما حباك به الأمر

ويشيد أسامة بن منقذ بما حققه الأمير نور الدين من فتوح، وما فعله من قتل ملك الفرنجة أو أسرهم، في قصيدة طويلة (190) بيتاً تضم أيضاً أسماء المواقع والحصون. وكبار الأسرى الذين وقعوا في يده، ومنها قوله:

نسير إلى الأعداء، والطير فوقنا — لها القوت من أعدائنا، ولنا النصر
قتلنا البرنس، حين سار بجهله — تحف به الفرسان والعسكر المجر

وفي سجننا ابن الفنس خير ملوكهم وإن لم يكن خير لديهم، ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغماً وقد قتلت فرسانه فهم جزر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ليخشى من الأيام نائبة تعرو
فتحنا الرها حين استباح عدائنا حماها.(سهله) وسنى فلكها لهم الختر[1]
وفامية والبارة استنقذتهم لنا همة من دونها الفزع والغفر[2]
فقل لملوك الأرض: ما الفخر في الذي تعدونه من فعلكم، بل كذا الفخر

ومن الجدير بالذكر هنا أن القصائد كانت تأتى أحياناً من خارج بلاد الشام، يرسلها أصحابها إلى نور الدين إعجاباً وتقديراً لبطولاته ومآثره. كما فعل الملك الصالح (ابن رزيك) الذي أرسل من مصر قصيدة يحض فيها نور الدين على القتال، وتوحيد الشام ومصر ومنها:

فقولوا لنور الدين، لا فل حده ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فتوراً إن مضت منك حارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة إليهم، فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت، نروعهم ونخلف جهداً أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم وليس ينجي القوم منها الهزائم

ذلك شان الأحداث والمواقع الكبرى التي شغلت حيزاً كبيراً من شعر تلك الحقبة الزنكية. وإلى جانب ذلك أغراض تقليدية معروفة في الشعر العربي، من قبل ومن بعد من وصف، ومدح تقليدي مستهل بالنسيب، وخمريات، وغزل، وشكوى الفراق، ووصف الحنين والاشتياق، ومكاتبات ومعاتبات، وطرائف وملح، وافتخار ورثاء، وحكم وأمثال، وزهد ومواعظ،...ولا أريد أن أقف عند ذلك كله، لأن معظمه لا يخرج عن معاني القدماء، التي ألفناها في تلك الأغراض التقليدية. ولكنني أشير إلى بعض الظواهر البارزة في مطاوي ذلك كله، في بطون الدواوين وكتب التراجم، فمن ذلك مثلاً الإكثار من وصف بلاد الشام عامة، ودمشق ومنتزهاتها وأرباضها خاصة، كقول عرقلة الكلبي الدمشقي:

---

[1]-الختر: الغدر والخديعة.
[2]- الفرغ، والغفر: من منازل القمر.

هذا هو الزمن البـديع المونـق والعيشة الرغد التي هي تعشـق
والشام شامة وجنة الـدنيا، كمـا إنسان مقلتها الغضيضـة جلـق
من آسها لـك جنـة لا تنقضـي ومن الشـقيق جهـنم لا تحـرق

وكذلك وصف النواعير التي تدور وتغني فوق الماء بأنغام شـجية عذبـة، يقول ابن منير الطرابلسي متخذاً من علو الناعورة وانخفاضها في دورانهـا مـثلاً لقسمة الحظوظ بين الناس:

لنواعيرهـا علـى المـاء ألحـان تهـيج الشـجا لقلـب المشـوق
فهي مثل الأفـلاك شـكلاً وفعـلاً قسمت قسـم جاهـل بـالحقوق
بين عـال سـام، ينكسـه الحـظ، ويعلـو بسـافل مـرزوق

والظاهرة الثانية ما شاع في مطاوي الغزل من قصائد ومقطعات قيلت فـي التشبيب بالنساء غير العربيات من العنصر التركي، ومن الروميات والفرنجيـات[1]، وممن بلغ في ذلك شأواً بعيداً لم يدركه شعراء آخرون. ابن القيسراني الذي أقام مدة في انطاكية، وتحدث عن معالمها، وكانت تحت حكم الصليبيين يومئذ، بـل كانـت أكبر ممالكهم في الشرق، ووصف كنائسها، وتغزل بالنساء الفرنجيات اللواتي رآهن هناك، فهو لا يطرب لذكر حبيبات عربيات مثل سعدى وريّا، بل كلّ همـه وجـه مغنية رومية أو فرنجية من مولدات انطاكية اسمها (ماري) فيقول:

إذا مـا زرت ماريـا فمـا سـعدى؟ ومـا ريّـا؟
فتـاة كقضـيب البـان يثنيهـا الصـبا طيـا
لهـا وجـه مسـيحي تـرى الميـت بـه حيـاً

ومن معانيه الغزلية الجميلة قوله في محبوبة على خدها خال (شامة).

كأن خديه دينـاران قـد وزنـا وحرر الصيرفي الوزن واحتاطا
فخف إحداهما عن وزن صـاحبه فخط فوق الذي قد خفَّ قيراطـاً[2]

---

[1]- وهذا ناتج عما أحدثته الحروب الصليبية من تأثير وتطور في معاني الشعر العربي بعد اختلاط العرب بأولئك الغزاة، وإطلاعهم على أحوالهم.
[2]- قوله:"إحداهما" صوابه، أحدهما" يعني أحد الدينارين، ولكن الوزن اقتضى هذه الضرورة الشعرية.

ومن المعاني الجميلة في الغزل قول ابن الدهان:

ويمر بي، يخشى الوشاة، ولفظه ... شتم، وملء جفونه تسليم

ومن هذا القبيل قول ابن قسيم الحموي:

قمر عصيت الله من كلفي به ... وتبعت طاعة شيخنا إبليس
قد كان يعتقد المسيح ويرتضي ... عند الصباح بضجة الناقوس

وظاهرة ثالثة في شعر تلك الفترة هي وصف الارتحال والأسفار بين البلاد، كقول ابن القيسراني:

ومررنا في ديار بني عدي ... يجاذب لوعتي شرق وغرب
يتيمني بأرض الشام حبّ ... ويعطفني على بغداد حب

وقول أسامة بن منقذ:

أظن العدا أن ارتحالي ضائري؟ ... ضلالاً لما ظنوا، وهل يكسد التبر؟
وما زادني بعدي سوى بعد همة ... لما زاد نوراً في تباعده البدر
ولو كان في طول الثواء فضيلة ... كما انتقلت في أفقها الأنجم الزهر
ولو لزمت أغمادها البيض ما انجلت ... بها غمرات الحرب واتضح النصر

أما المذهب الفني لشعراء تلك الفترة الزنكية فإننا نجد ثلاثة اتجاهات في أساليب أولئك الشعراء، على تفاوت تلك الأشعار بين العذوبة والرقة، والشدة والجزالة، واستخدام الأبحر المجزوءة تارة، والتامة تارة أخرى: •

الاتجاه الأول:الاعتماد على الانسجام في الشعر، ومجاراة الطبع السليم في النظم والابتعاد عن التكلف والغرابة، والموشى من الألفاظ، وتجنب التعقيد اللفظي والصنعة البديعية من طباق، وجناس وتورية وما إلى ذلك. وممن يمثّل هذا الاتجاه:

ابن قسيم الحموي (-541 هـ).

وحمّاد الخياط (-565 هـ).

الاتجاه الثاني: الكلف بالصنعة البديعية، على مذهب مسلم بن الوليد وأبي تمام، من جناس وطباق ومقابلة وترصيع،...وغير ذلك مما عُد سبيلاً إلى التفوق، والتجديد

والابتكار في الأساليب. ومن أمثلة ذلك أشعار ابن القيسراني، ولا سيما غزله في قصائده التي سميت (بالثغريات) وهي اجمل شعره، وقد نظمها خلال مروره بالعواصم والثغور التي كانت محتلة من الصليبيين، فنراه يعمد إلى الصنعة فيستخدم (الثغر) في معنييه: الفم، والمكان الذي يخاف منه هجوم العدو، كقوله:

واحربا في الثغور من بلد   يضحك حسناً كأنه ثغر

ومثله ابن منير الطرابلسي الذي كان يتلاعب بأسماء بعض المواضع وأسماء قواد الفرنجة، بغية التجنيس والتورية وردّ العجز على الصدر، وغير ذلك من المحسنات البديعية، كقوله مادحاً نور الدين، وذاكراً البرنس، ويوم الخطيم، وإنب:

وسقى البرنس – وقد تبرنس– ذلة   بالروج ممقر ما جنت غدراته[1]
فانقاد في خطم المنية حطمه   يوم الخطيم، وأقصرت نزواته[2]
ومضى يؤنب تحت إنب همة   أمست زوافر غيها زفراته

الاتجاه الثالث: وهو مذهب معتدل، ونجده في أشعار أسامة بن منقذ، الذي لا يسلم من الصنعة البديعية الخفيفة مع عدم تعلق بها، وهي تجري مع الطبع والسليقة في معظم الأحيان.

لكنه قد يستخدم الألفاظ الصعبة الوعرة احياناً بلا إكثار. فتمتزج بغيرها، كقوله فيما كتبه إلى صديق له:

وقد كنت أرجو أن أراك، وبيننا   مفاوز أدناها الشناخيب وتسهب[3]
فلما تدانينا يئست، وزادني   تباريح شوق، ضقت ذرعاً بها، القرب

1- الممقر: الحامض، والمر.
2 الخطم (الأولى) بضم الخاء، جمع خطام. وهو ما يوضع على أنف الجمل ليقاد به. ويطلق الخطام أيضا على زمام الدابة. والخطم (الثانية) بفتح الخاء: الأنف، أو مقدمه.
3- المفاوز: الصحارى – الشناخيب: رؤوس الجبال – السهب: الفلاة. وسهوب الفلاة: نواحيها التي لا مسلك فيها.

علاقات البندقية التجارية مع حلب

محاضرة الباحثة فيرا كوستانتيني
ترجمة: د.نبيل اللو

ارتبطت جمهورية البندقية بعلاقات مع سورية منذ ولادتها كجمهورية وحتى زوالها لكن أولى علاقات المدينة القائمة مع سورية تعود في الواقع إلى ألفٍ ونيف من السنين. واستمرت هذه العلاقات بلا انقطاع فترة 700 عام متتالية حتى زوال البندقية كدولة مستقلة. وإذا ما تجولنا اليوم في شوارعها الضيقة وفي قنواتها المائية ونحن نتأمل بإعجاب الأعمال الفنية الخالدة كبيرها وصغيرها من نصب وقصور وكنائس وبيوت التجّار الفخمة القديمة يتولد لدينا انطباع بأن مدينة البندقية هي اكثر قرباً من مدن الشرق من قربها من مدن أوربا التي تنتمي إليها.

يجد موقع البندقية الجغرافي له شبه نظير في جنوب المشرق مع مدينة البصرة. فكلتاهما تتوضعان في خلجان ضيقة طويلة وظلتا مدينتان ذات سيادة طيلة فترة العصر الوسيط والنصف الأول من العصر الحديث. والبندقية والبصرة تبدوان كلتاهما مدينتي وصل بين اليابسة والماء، وبين مسافات جغرافية وثقافية شاسعة بفضل وساطتهما التجارية، ولقد كان بينهما صلات متبادلة. غير أن البندقية خلافاً لمدينة البصرة التي تقع على حدود صحراء، هي جزيرة تقع في مركز بحيرة شاطئية، فهي من جهة تبسط فروعها في البحر واليابسة، كثيفة السكان وتتعاطى الزراعة، ومن جهة أخرى ترنو بناظريها إلى الشرق، بموهبتها البحرية التي جلبت لها الثروة وكانت مصدر أرزاقها خلال قرابة ألف عام.

وعلينا أن نذكّر السياح الكثر الذين يزورون اليوم مدينة البندقية أن القصور الباذخة الفخمة، واللوحات الجدارية، واللوحات الفنية، وأعمال الصنّاع المهرة التي تفخر بها المتاحف يعود وجودها هنا، في البندقية، إلى سبب تاريخي: هو أن المدينة كانت تشكّل المحطة الخيرة من محطات دورة دولية للبضائع، وطريق التوابل الآتية من مرافئ الهند البعيدة وكانت تحمل الفلفل وزهر القرنفل والمنسوجات الفاخرة في بطن السفينة وعلى ظهور الجمال عبر رحلة بين البحار والصحارى.

حمولات من الأرز والخزف الصيني كانت ترد من (بنغال)، والفلفل الأسود وجوز الطيب من (باتافيا)، وهو الاسم القديم لإندونيسيا، والقرنفل من (سيلان)،

والقرفة من (كوشين)، والآلوي وخشب الصندل المعطر من (ماهي)، واللؤلؤ من (البحرين) يصطاده الغواصون من جزر كيش. لقد كانت سفن التجار العرب والفرس والهنود تصعد الخليج العربي حتى تصل ميناء البصرة، وهي تشتري وتبيع في كل مرفأ تلقي فيه المرساة. ومن البصرة كانت السفن تبحر في كانون الول وفي نهاية نيسان. وكان يصل عدد قطار الجمال في القرن السابع عشر حتى عشرة آلاف دابة محملة بالبضائع. وكانت أحياناً تتحاش تالاترا!؟ وتتوقف محطة في بغداد. قطار طويل من السنام المتأرجحة المتهادية كان يصل في نهاية المطاف إلى سورية، ويحط الرحال في دمشق، وفي حلـــب، التي كانت وقتها إحدى اكبر وأهم محطات التبادل التجاري في حوض المتوسط بأسره.

وتجار البندقية الذين كانوا يعودون أدراجهم قادمين من حلب كانوا يقصون على مواطنيهم أن أهالي حلب يعتقدون أن مدينتهم تقع في مركز العالم. ويبدو أنه في القرن السابع عشر عندما كانت الإمبراطورية العثمانية بأسرها تشرب قهوتها الموكا، وتدخن أوراق التبغ العجمي كان هناك في مركز حلب مقهى كان يحق له أن يفاخر أنه في مركز العالم. وعندما نتحدث عن التجارة من الصين إلى أوربا، فإنه لمن العسير علينا، أن نجد مركزاً بعينه كمحطة أولى وأخيرة، فقد كان الأمر في الواقع يتعلق بجولة بضائع لا تهدأ حركتها ولا تتوقف أبداً، لأنها كانت تجد بداية لها ونهاية في كل مرفأ كانت تحط الرحال فيه، وفي كل مدينة كانت تصلها قوافل التجار. كان من المفهوم أنه في سورية التي تجنح إلى الشرق، وتطأ بآن معاً مياه البحر المتوسط، حيث يتم مقايضة التوابل الهندية بزجاج وبروكار البندقية، أن تلمع في أذهان أهالي حلب الفخورين دوماً بمدينتهم، وبتاريخها الموغل في القدم، فكرة أن مدينتهم تقع في مفترق طريق بعضه في اليابسة، وبعضه الآخر في البحر، طريق يحمل الفلفل إلى موائد أوربا كلها، وحلي البندقية إلى أصابع الأسرة المالكة في الصين.

لقد ارتبطت البندقية بعلاقة مع سورية عندما كانت كلتاهما ما تزالان تعدان جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية. وقد وصل البحارة الشجعان من يونان وسوريين حتى أعالي البحر الأدرياتيكي مؤمنين بذلك المبادلات التجارية داخل أوربا البيزنطية حتى نهاية الألف الأول. وبعض المؤرخين يدعمون فكرة أن الوحدة المتوسطية التي ضمنها الترابط والانسجام الديني في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية

قد اختفت لحظة وصول العرب شاطئ المتوسط، فاتحين جزءاً كبيراً من سورية ومصر، ومتوغلين حتى قبرص. وكان اعتماد وحدة المتوسط في العصر الوسيط على الترابط الديني أقل من اعتمادها على الترابط الاقتصادي في المبادلات التجارية والاستهلاكية. ففي أرجاء الإمبراطورية البيزنطية نفسها يبدو من غير المقنع أن نتكلم عن توافق ديني، في الوقت الذي كانت تسود فيه هرطقات وطقوس مختلفة تزعزع الأصقاع البعيدة والقريبة من القسطنطينية.

وحتى بعد الفتح العربي، وبعد خمسة قرون من الاحتلال العثماني ما زالت سورية تحديداً، والمشرق معها يشكلان أنموذج اندماج ثقافي، وتنوعاً ضمن منظومة تسامح وتعددية، لا نظير لها في الحضارة الأوربية السالفة الذكر في ذلك الوقت.

ما إن فتح العرب حلب والإسكندرية حتى توطدت بين المدينتين وبين البندقية علاقات وثيقة. ولم يتردد البابا وقتها في إصدار أمر بابوي منع فيه المسيحيين من الاتجار مع الديار الإسلامية. وقد تكرر صدور هذا الأمر البابوي عدة مرات، لكن دون أن يؤثر ذلك في الفعالية الاقتصادية المتنامية لمدينة البندقية مع ديار الإسلام. واستمر مواطنو الجمهورية السامية يقيمون في مراكز سورية، وعلى الشواطئ اللبنانية والفلسطينية بين بيروت وعكا ويتصلون بالتجار العرب الذين كانوا يساومون بأسعار بضائعهم القادمة من البصرة، ويتواصلون مع أبناء جلدتهم من الإيطاليين الذين استمروا في رحلاتهم المكوكية بين بلدهم والمشرق.

هذه الميزة في التغلغل التجاري البندقي يجب أن يسلط عليها الضوء جيداً، فقد كان الأمر يتعلق بعلاقة مباشرة بين التجار بوساطة لسانية وحيدة يؤمنها المترجم. وبفضل التجار المقيمين المستقرين في مرافئ الشرق من أبناء جلدتهم والذين كانوا يؤمنون استمرارية العلاقات بين السلطات المحلية، وبين شبكة التجار لم يكن تجار البندقية بحاجة للاستعانة بوسطاء. فضلاً عن ذلك فإن تواتر أسفارهم إلى سورية وإلى ديار إسلامية أخرى، وهذا النمط من العلاقات التي ترتبط بها ثرواتهم وقوتهم قد جعل من النظام البندقي نظاماً متوافقاً توافقاً كلياً مع الأنظمة التجارية الأخرى التي يتعامل معها: البيزنطية بداية، تلاها المملوكية، لتنتهي بالعثمانية.

ولقد سمحت هذه التوافقية بغنى متبادل استمر حتى القرن الخامس عشر وبعد بقليل. كانت البندقية تستورد البضائع من أوربا الشمالية، وتعيد تصديرها إلى المشرق مع أشياء ثمينة تصنعها يدوياً اتحادات حرفية فنية. وكانت هذه البضائع تقايض في ساحات المشرق الكبرى في استنبول وحلب والإسكندرية بمنتجات شرقية يدفعون عليها ضريبة دخول وخروج للجمارك تصل إلى حد 7% من قيمتها.

اندلعت حرب قبرص عام 1569م مع حصار نيقوسيا. وقد قضت هذه الحرب على التبادل التجاري المربح. ولم تنظر النخبة العثمانية إلى قرار نقض الصلح مع أهل البندقية الذين كانوا يحكمون الجزيرة منذ قرابة قرن من الزمان نظرة متهاونة. فقبل كل شيء كان لكل من أهل البندقية والعثمانيين في قبرص مصالح مختلفة، فالبندقية كانت ترى في الجزيرة مرفأ مهماً لتفريغ البضائع، وبلداً مورداً للمواد الأولية كالسكر والقطن، في حين كان العثمانيون يرون في الجزيرة موقعها الاستراتيجي من الناحية السياسية والعسكرية. وليس من العسير تقدير أهمية جزيرة موجودة في قلب شرق المتوسط، في مفترق طرق المواصلات التي تربط استنبول بمصر وسورية وقد أصبحتا منذ عام 1517 ولاية عثمانية. بقيت البندقية مع ذلك الشريك التجاري الأساسي للإمبراطورية العثمانية، واندلاع حرب كهذه من شأنه أن يؤدي إلى قطيعة حاسمة بينهما كان يخشاها الطرفان. وفي لقاء جرى بين لالا مصطفى باشا أحد أركان السلطات العثمانية مع فرنشيسكو باربارو Francesco Barbaro ابن سفير البندقية في استنبول ذكر مندوب السلطان القوي الشاب ابن الدبلوماسي بالمنافع التي حصلت عليها جمهورية البندقية من السلام المعقود مع الباب العالي. الأمر الذي وسّع من حركة النقل بين مصر وسورية والقسطنطينية مع بلدان أخرى حيث يوجد الحرير والصوف والتوابل والحبوب. فهل كان احتلال قبرص يساوي حقاً التجارة المربحة مع سورية ومصر؟ ألم يكن بالإمكان إيجاد حل وسط دبلوماسي لاقتسام أراضي الجزيرة لقطع الطريق على سياسة الشقاق في جزر بحر إيجه التي كان من الممكن أن تؤدي إلى حرب دموية تمتد من جزيرة كريت، وحتى موريا خلال عقود القرن السابع عشر الأولى؟ لقد تصلبت حكومة البندقية في موقف دفاعي مبالغ فيه، ووقفت في نهاية المطاف مع الجبهة الكاثوليكية والرابطة المقدسة محققة نصراً مهلهلاً وحيداً في مياه ليبانتو. أما

العثمانيون فقد كان لهم نظرة بعيدة المدى: فالإنكليز والهولنديون كانوا قد دخلوا وقتها المتوسط مع الفرنسيين، وكانوا ينتظرون الفرصة الملائمة لكسر احتكار البندقية لتجارة المشرق. في الوقت الذي رفرفت فيه بيارق السلطان العثماني في قبرص تلقت البندقية ضربة قصمت ظهرها. لقد أفادت المم الجديدة التي دخلت معترك التجارة من ضعف البندقية خلال فترات الحرب الطويلة، وخلال الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت أوربا المتوسطية برمتها في القرن السادس عشر. وقد حصلت هذه الأمم الجديدة من السلطان على مزايا جمركية، وتمكنت من خفض ضرائبها إلى 3%، وتلك مزية لم ينجح البندقيون في الحصول عليها إلا في منتصف القرن السابع عشر.

عندما اندلعت الحرب بين البندقية واستنبول سحبت البعثات الدبلوماسية كلها من المدن العثمانية. والسفير الذي بقي في استنبول ظل حبيس قصره. في أثناء ذلك عاد قناصل حلب وإزمير وإسكندرونة إلى بلادهم تاركين تجارتها دون حماية، ودون قنصل يرعى شؤونها. رغم كل ذلك تابع تجار البندقية شؤون تجارتهم واضطروا إلى وضع أنفسهم تحت حماية بلدان أخرى. فطلبت الشركات التجارية الحماية من قناصل شركة المشرق، وهي شركة تجارية بريطانية قوية. وقد حذا الطليان في ذلك حذو غرفة تجارة مرسيليا. وابتداء من القرن السابع عشر بدأت هذه الشركات تستحوذ على فضاء البضائع السورية، واستأثرت في نهاية القرن بثلاثة أرباع مجمل مداخيل وخروج بضائع مدينة حلـب. لكن السؤال الذي يطرح في هذا السياق هو كيف كانت أنظمة التغلغل التجاري عند هؤلاء الشركاء الجدد في تجارتهم مع سورية؟ وهل كانت استراتيجياتهم المتبعة متوافقة مع البنى المحلية؟.

كان لخيار قطع العلاقات مع قبرص عواقب وخيمة مباشرة على أهل البندقية، لكن العثمانيون أيضاً، وعلى المدى المتوسط والقصير، تجرّعوا من الكأس نفسها. ولم تظهر نتائج الإستراتيجية التجارية جليّة خلال القرن السادس عشر، إنما طفت في القرن السابع عشر التوترات على السطح. وكانت توترات مرتبطة بمجموعات من الأشخاص كان عددهم يتنامى على الدوام، ربطهم الأجانب بهم فيما يعرف بـــ berat (بيزات)؟ وهي عبارة عن شهادة حماية يحصل عليها قنصل أوربي من السلطان لرعايا عثمانيين، ليراعوا له مصالحه التجارية وليقوموا ببيع

بضائعه، وكانوا عبارة عن وسطاء حقيقيين، لأنهم كانوا يتمتعون بحماية السلطات الدبلوماسية الأوربية ويعفون من الضرائب فور حصولهم على هذا التفويض.

وعلى خلاف البندقيين الذين كانوا يديرون تجارتهم مباشرة مع نظرائهم السوريين كان الإنكليز والهولنديون والفرنسيون يلجؤون إلى وسطاء يرتبطون بهم حتى من الناحية القانونية. فمن كان هؤلاء المواطنين العثمانيين الذين كانوا يرتبطون مع الأوربيين بمثل هذا النوع من الصلات؟ وإلى من لجأ تجار شركة المشرق وغرفة التجارة عندما بدؤوا تجارتهم في إمبراطورية العثمانية؟ لقد لجؤوا إلى مواطنين غير مسلمين: من مسيحيين مشرقيين، ويهود وموارنة، وأرمن، وكانوا كلهم يرون في الحماية الأجنبية وسيلة لعدم دفع الجزية، الضريبة المكروهة، التي كان على أهل الكتاب دفعها للمسلمين، ليتمكنوا من ممارسة شعائر دينهم بحرية في دار الإسلام. فضلاً عن ذلك وسعت الحماية الأجنبية كثيراً من حدود إمكانات هؤلاء الوسطاء في العمل التجاري، إلى حد أنهم كانوا قادرين في منتصف القرن الثامن عشر على إثارة مشكلات كبيرة، عندما نافسوا تجارة الشركات الأوربية التي كانت تحميهم. وعندما تنامى عدد الذين حصلوا على هذا التفويض، ظهروا كسلاح ذي حدين: فقد تعرض الإنكليز والفرنسيون لمنافسة الشركات التجارية المشرقية بسبب إثراء وتضخم طبقة اجتماعية طالت مصالح الأجانب، وكانت في الوقت نفسه طبقة تعيش في كنف الإمبراطورية العثمانية. وكان لذلك كله آثار مدمرة على تماسك اللحمة الداخلية في مجتمعات المدن العثمانية الكبرى.

كان هؤلاء المواطنون المحميون يلبسون ثياباً ويعتمرون قبعات تميّزهم عن سواهم من السكان. والإعفاءات المالية التي وفرتها لهم الحماية الأجنبية سببت عند غير المسلمين شعوراً بالفرقة والتقسيم ضمن وحدة الإمبراطورية. ففي حلب عام 1740 دفع الجزية 8120 مسيحي، وانخفض هذا العدد بعد أربعة عشر عاماً إلى 7213 ليهبط في عام 1793 إلى 5200. كانت التجارة الدولية وقتها قد أصبحت في أيدي المحميين.

في هذا الوضع وبعد أن عقد أهل البندقية السلام الأخير مع العثمانيين حوالي منتصف القرن السابع عشر، عاد قناصل البندقية إلى حلب وإلى باقي مدن الإمبراطورية. وصل جيرولامو بريغادي Gerolamo Brigadi إلى المقر القنصلي الجديد في حلب عام 1754 في الأيام التي تلت عيد الفطر السعيد، وكان

يتبع العائلة الخدم، والمرافقون ومعهم 34 حصاناً ينقلون المتعة. وقد وصلت تسميته قنصلاً للبندقية إلى لارنكا في قبرص، حيث كان يتعاطى التجارة. وكان شيوخ التجار الذين يمثلون المكتب المخصص لإدارة السياسة التجارية قد رأوا ضرورة إعادة فتح قنصلية البندقية في حلب، فاقترح سفير البندقية في استنبول اسم بريغادي كمرشح محتمل لهذه المهمة. ولعله هو نفسه كان وراء طلبات تجار البندقية الملحة الذين كانوا يقطنون في حلب. ووصل قنصل البندقية الجديد إلى حلب عن طريق الإسكندر ون: مرفأ حلب على المتوسط. من هناك وصل بيلان حيث توقف لمدة تسعة أيام، ليتمكن بعدها من رؤية القلعة وقمم المآذن في محطته الأخيرة حلب بعد أن قضى أياماً على ظهور الخيل. وعلى أبواب المدينة استقبلته ثلاث عائلات من تجار البندقية الذين بقوا يزاولون التجارة في المدينة.

كان قنصل حلب يهتم بتنظيم حركة البضائع التي كانت تعبر سورية تحت علم البندقية. وكان له معاونون هم : نواب قنصل الإسكندرون واللاذقية وطرابلس لبنان وبيروت وعكا ويافا. وكانت إحدى أهم مشاغل نواب القنصل هؤلاء تكمن في تامين التواصل بينهم وبين سفير استنبول، وخصوصاً مع شيوخ التجار. وهذه الرسائل ما تزال محفوظة في أرشيف دولة البندقية وهي عبارة عن مجموعة من المغلفات معنونة " قنصلية حلب" وهي رسائل كتبها بريغادي ومن خلفوه إضافة إلى معاونيه القريبين والبعيدين، نستشف من خلالها قبساً من حياة تجار البندقية اليومية في حلب وسورية في القرن السابع عشر.

كانت مغامرات القناصل والتجار تدور في حلب ذات الألف وجه ووجه، وهي تتزين استعداداً لعيد الفطر السعيد، أو لولادة ابن السلطان، أو هي منكوبة يحاصرها الطاعون والمجاعة، أو هي ثائرة على المتسلطين من أعوان الباشوات. قليل من الباشوات تمكن من إتمام فترة ولايته في حلب القرن السابع عشر. فلقد كان الحكام من الولاة، يسعون، بعد شرائهم منة الولاية عليهم من السلطان بمبالغ ضخمة، لاسترداد المبالغ التي دفعوها من تحصيل الضرائب، فتفننوا في فرض مبالغها الباهظة على أهالي المدينة الذين رفضوا دفعها، وتمردوا عليها بعنف أكثر من مرة، حتى أنهم في بعض المرات طردوا الولاة من المدينة. وفي عام 1775 وفور وصول علي باشا إلى المدينة بدأ بتطبيق عملية بلص وسلب منظمين على طبقات اجتماعية: فبدأ بالموردين، ثم بالصرافين(وكان أهل البندقية يسمونهم

صرافي Saraffi) وصولاً إلى صنّاع النسيج، وجماعات أخرى من أهل الحرف والصناعة في المدينة. حتى العائلات الغنية القوية كعائلة الكواكبي لم تسلم من أذاه. فهرب الصرافون من المدينة. لينقذوا المبالغ الضخمة التي أودعها عندهم التجار الأجانب. وطلب هؤلاء التجار من السلطان عزل الباشا اللص من منصبه، قبل أن تتعرض أعمالهم للتلف وأرزاقهم للهلاك. ونظم رجال الدرك في غضون ذلك مع أهالي المدينة الثورة ودون انتظار وصول أمر السلطان أخرجوا علي باشا من قصره، وطردوه من مدينة حلب.

خلال أشهر جائحات الطاعون كانت الشوارع تقفر من الأهالي، ويلزم الناس بيوتهم، ويخرج الخدم لابتياع الحاجات الضرورية. وكان القناصل يشرحون بعناية كيفية تعقيم الطعام والماء. وكان يتبع الطاعون والأوبئة التي كانت تجتاح الشرق الأوسط دورياً مجاعة طاحنة، يكون سببها غالباً سوء المحاصيل. وحكى قنصل البندقية دومنيكو سيريولي Domenco Serioli في رسالة كيف أن الناس في تلك الفترات كانوا يموتون جوعاً، وهم يجرجرون أقدامهم في الأسواق، وكيف ازداد عدد المتسولين كثيراً.

كان لدى أهل البندقية قرون من التجارب في عالم الشرق، وحتى الحوادث التي كانت تنجم عن اختلاف في العقلية الدينية والسياسية، بأسبابها المختلفة، كانت تنم، مع ذلك، على قدرة كبيرة على الاندماج. وحدث مرة أن طباخ قنصل البندقية المدعو أنطونيو ماركوني Antonio Marconi، وقع أسير هوى فتاة حلبية مسلمة، فقبل اعتناق الإسلام، ليتمكن من الزواج منها. ويقص القنصل علينا في رسالة، كيف أن الطباخ المذكور خرج يصرخ في الشوارع: "أريد أن أصبح تركيا، أريد أن أصبح تركيا"، فأمسك به حرس القنصلية، واقتادوه إلى الإسكندرون، ورحلوه إلى البندقية. وكان تعبير " أصبح تركياً" يعني بلغة أهل البندقية وقتها أصبح مسلماً. ففي زمن النظام القديم لم تكن للفوارق العرقية واللسانية بين الأتراك والعرب والفرس ثقلها وشأنها كما هي عليه اليوم. كانت الإمبراطورية العثمانية والإسلام في نظر أهل البندقية شيئاً واحداً: عالم متنوع وواحد بآن معاً متسامح نسبياً حيال الاختلاف والأجانب. وأصبحت كلمة تركي مرادفة لكلمة مسلم.

وتروي قصة أخرى عن امرأة تاجر بندقي، تدعى انطونيا بوبولاني Antonia Popolani، عنّفها ذات مرة القنصل ساليزيو ريتزيني Salesio

Rizzini، ووبخها لإدارتها حانة كانت تبيع فيها الخمور، وهي مهنة محظورة في بلاد المسلمين. لكن أنطونيا ضربت غضب القنصل عرض الحائط، وتابعت تجارتها في مكان آخر، لكن شجاراً حصل في الحانة، تسبب في افتضاح أمرها، فأوقفت، وعانى القنصل الأمرّين، لإخراجها من ورطتها.نجحت عودة النشاط القنصلي، ورواج تجارة أهل البندقية عن قبولهم دورا ثانويا في منظومة التجارة السورية. ففي حين كان الإنكليز ينسحبون تدريجيا من المشرق، ليتجهوا أكثر فأكثر للتجارة مع العالم الجديد. قبل الفرنسيون المكان الذي تركه الإنكليز شاغراً معتمدين استراتيجية تغلغل تجاري، نجلى في شراء المواد الأولية، وبيع المنتجات المصنعة، فسبوا بذلك أذىً للصناعات المحلية. على العكس من ذلك كان أهل البندقية يتعاطون منذ البداية نمطا تجاريا نفعيا وظيفيا للإنتاج المحلي. ومثال (الحطة) بليغ في هذا السياق فمنذ قرون وأهل البندقية يصدرون إلى حلب قماشا مربع الشكل سميكا من الصوف، كان السوريون يشترونه، ليصنعوا به الحطّات، وكان ذلك تحديدا في الستينات من القرن السابع عشر. وحدث أن أدخلت غرفة تجارة مرسيليا إلى أسواق حلب حطّات جاهزة بسعر أرخص من سعر القماش الإيطالي وتكلفة تصنيع الحطة، مكّن تطور الصناعات الفرنسية تقنيا في كاركاستون ولانغدوك من إنتاج أقمشة من الصوف بسعر زهيد ولكن رديء النوعية. وقد أغرقت هذه الأقمشة الأسواق المشرقية. بينما ظلت الأقمشة الفاخرة القادمة من البندقية والمطرزة والموشاة بخيوط الذهب والفضة تباع حصرا لنخبة من الزبائن من علية القوم، كانت قادرة على شراء منتجات البندقية الباذخة: كالأقمشة والمرايا ذات الأطر المذهبة والعقاقير باهظة الثمن. لكن تجارة المنتوجات الباذخة لم تكن لتصمد أمام سيل تجارة المنتجات الشعبية الآخذة في النماء، فقد أقبلت شريحة كبيرة من عامة الناس على شراء المناديل البراقة الخفيفة والأقمشة القطنية، فازدادت أرباح التجار الفرنسيين ازديادا كبيرا.

لهذا السبب رأت حكومة البندقية أن تقيم على أرضها عددا من المصانع المميزة قادرة على منافسة الإبداعات التقنية، لدى الأمم الأخرى التجارية، وخصوصا فرنسا. إلا انه وخلال القرن كله ظلت منتوجات البندقية الرائجة تقليديا في تجارتها مع حلب هي: الورق، والنسيج الفاخر، والعقاقير الطبية، والمرايا، واللؤلؤ الزجاجي المسمى كورنيوله Corzniole، والقناديل، والإبر والدبابيس،

ومنتجات معدنية أخرى، كانت البندقية تشتريها من ألمانيا وتقايض بها المشرق لتحصل مقابلها على: القهوة، والتبغ، والتوابل، والحشيش، والأقمشة الصوفية والقطنية. كان القطن السوري هو التجارة الرائجة في حوض المتوسط في القرن السابع عشر، قبل أن تجتاح الخيوط الأمريكية الأسواق العالمية، لفضل الوساطة التجارية الإنكليزية. وكانت السفن الفرنسية تبحر من الموانئ السورية محملة بالقطن الخام أو نصف المصنع الذي كان الفرنسيون يستخدمونه في مصانعهم الكبيرة، لإنتاج نسيج رخيص الثمن.

لقد عاشت تجارة البندقية في الخفاء محتفظة لنفسها بموطئ قدم في عالم التجارة النشط في سورية القرن السابع عشر. فمن ناحية حدث ركود تجاري، ومن ناحية أخرى، وبفضل تنوع بُنى أنظمة تجارة الشركات الغربية، ظل التبادل التجاري بين البندقية وسورية في القرن السابع عشر غريباً عن فكر وروح مرحلة ما قبل الاستعمار الناشئ الذي انتشر فيما بعد كما النار في الهشيم. هذا الاستعمار الخطر الذي جرّ خلفه الويلات والدمار في القرن التالي. ولم تساهم البندقية في تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، كما أنها لم تعش التجارب الاستعمارية السيئة في الشرق الأوسط. وتاريخ علاقاتها في الشرق ظل على الدوام تاريخ توافق اقتصادي ومؤسساتي مبني على الاحترام المتبادل.

معاهدة كامبوفورينو Compoforino لعام 1797 التي نصت على دخول البندقية في الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية، وضعت حداً لوجود قديم لواحدة من الدول الإيطالية التي بقيت مستقلة عن الدول العظمى الأخرى في عهد النظام القديم. وبعد قرن من الزمان وعبر نضال مرير ولدت الدولة الإيطالية الموحدة. إن تاريخ العلاقات بين البندقية وسورية هو اليوم إرث تاريخي لإيطاليا كلها، وعلى العلاقات الإيطالية السورية أن تستلهم اليوم من هذه التوافقية، الإحساس بالانتماء إلى عالم ثقافي متوسطي.

حكـايــة دوروثي
(الجزء الأخير)

م.خلدون فنصة

(1)

تعرفت إلى حميدو[1] في مكان تاريخي في قلب حلب القديمة، ولعل سبباً ما دفعه إلى أن يروي لي هذه الحكاية، كان قلبه يقطر أسى، ولكنه كان متماسكاً، يذكر بعض التفاصيل الدقيقة عن دوروثي، ويقول بين الحين والآخر: رحمة الله عليك يا دوروثي.

يقول حميدو: "قبل أكثر من خمس سنوات جاءني في أحد الأيام أبو محمد، حارس إحدى قاعات متحف حلب، ليخبرني بأمر غيب شاهده بالأمس: سيدة مسنة وقفت بالمس أمام تمثال ربة الينبوع، لأكثر من ساعتين، وكانت كأنها تقلبه بالدوران حوله لتراه من كل الأطراف والزوايا...وقد عادت اليوم لتقف أمام بعض المنحوتات الآشورية مدة طويلة وهي ما تزال الآن في الداخل!..".

...لم أعط حديث الحارس كثير أهمية، وقلت له: لعلها باحثة في الآثار ممن يتردد كثيراً على متحف حلب. أو لعلها دارسة أو فنانة..ولكنه عاد في اليوم التالي وهو يؤكد لي غرابة أمر تلك السيدة الذي لاحظه منذ يومين..أنها السيدة ذاتها وهي تقف اليوم منذ أكثر من ساعة – أمام نقش هيروغليفي، وكأنها تحاول قراءته أو فك رموزه!!.

...دفعني الفضول إلى ترك مكتبي والذهاب مع أبي محمد لمشاهدة تلك السيدة، الغريبة الأطوار!، وتقدمت إليها وتعارفنا، هي دوروثي ستيله، أميركية متقاعدة جاءت إلى هنا لزيارة حلب التي تعرفها من قبل، ولكنها قررت أن تبقى فيها ما تبقى من حياتها لأنها تحبها!!. هي غير متزوجة، وليس لديها أي ارتباط بأي مكان!!".

لم يصدق حميدو ما سمع، ودعاها إلى زيارة مكتبه بمبنى متحف حلب ذاته..فإذا به يعرف أيضاً أنها تعرف أيضاً أنها تجيد العربية بطلاقة[2] !!وأن عملها السابق هو أمينة مكتبة "أو مكتبية""!

---

[1] حميدو حمادة: أمين الآثار السورية القديمة في المتحف الوطني بحلب.

[2] تحدثها بالعربية أقرب إلى اللهجة المصرية.

يقول حميدو:"اطلعت دوروثي على عملي في المكتب بكثير من الفضول، وصارت تتردد عليَّ يوميا!! ثم أصبح حضورها أشبه "بدوام رسمي"!. وصارت تسألني عن أمور كثيرة في العمل فتثير استغرابي، ولكنني أيقنت – مع مرور الأيام– أني أمام إنسان غير عادية، ذات ثقافة موسوعية، كما أن معرفتها العميقة في صلب عملي لم أتوقعها من عالم آثار كبير!...

...كانت تجيبني باختصار شديد على كل محاولتي لمعرفتها أكثر، ولكني أعترف (بيني وبين نفسي) أن دوروثي رغم بعض الجوانب الخفية في شخصيتها بالنسبة لي، هي إنسانة ذات ذكاء وقّاد، وتعرف الكثير، ولكنها متواضعة لأقصى درجة، كما هي خفيفة الظل!...

...قدمت لها مرة صديقي الألماني الباحث كايكول ماير، فقالت له: إني أعرفك وأعرف مؤلفاتك. وناقشته بها وبتفصيل مدهش!!..

...وكم كانت متعتي كبيرة حين كنت أجيب على أسئلتها الفضولية..

...عرضت عليَّ دوروثي مرة مساعدتها لي في إنجاز لوحات التعريف (باللغتين العربية والإنكليزية) لنضعها على القطع الأثرية السورية القديمة في المتحف. وقد أنجزنا معاً ذلك فعلاً..

..ثم عرضت علي أيضا مساعدتها لي في اللغة الإنكليزية. صحيح أني أتكلم الإنكليزية، ولكني أعرف أن لي هفواتي وأغلاطي التي يسامحني عليها من أحاوره، فهي ليست لغتي الأصلية، وأستطيع مما أعرفه منها التفاهم مع من يتكلمها معي، كما أستطيع أن أشرح له اثار بلادي وحضارتها، ولكن تلك الهفوات والأغلاط تكون أكبر عندما تصبح اللغة مكتوبة، ويصبح عندها التصحيح ضرورياً...

...عرض دوروثي هذا لمساعدتي وضع أمامي فرصة لتصحيح كل ما أكتب عن المكتشفات الأثرية التي تقوم بعثتنا بالتنقيب عليها في تل العبر[1] بالفرات الأعلى (قرب جرابلس).

...وجاء موسم الحفر في الموقع، وحضّرت نفسي للسفر إليه، وكذلك الفريق الذي يعمل معي، فإذا بدوروثي تطلب زيارة الموقع معنا لتعرف شيئاً أكثر عن طبيعة عملنا هناك وأسلوبنا فيه، كما أنها ترغب بمعايشة الجو الذي نعمل فيه،

---

[1] يرأس حميدو هذه البعثة إضافة إلى عمله.

لأن ذلك – كما كانت ترى – يُسهل مهمتها (التي رسمتها لنفسها) في صياغة التقرير العلمي عن نتائج حفرياتنا...

...وسافرت معنا لأيام، ورأت هناك عمالنا الطيبين الذين يعملون في الحفر ورفع الأتربة، وشاهدت بعض نتائج بعثتنا الوطنية، فملأها ما رأت هناك اطمئناناً وغبطة، قد يكون أسلوبنا في العمل بسيطاً غير معقد، وليس فيه تجهيزات تقنية حديثة كالتي تعرفها دوروثي (أو تعرف عنها) في أمور الحفر والتنقيب، ولكن منهجنا لا يخلو من "علمية". وهذا ما جعلنا واثقين من أنفسنا، وكانت تدعم تلك الثقة وتعززها نتائج الحفر التي نحصل عليها والتي كانت تجمع وتصنف بذات المنهج العلمي الذي تمكنا منه في بعثتنا الوطنية..

..كانت دوروثي تعبر عن سرورها بما رأت وتشجعنا دائماً فتقول:" أنتم السوريون قادرون على عمل كثير، فرغم نقص الإمكانيات لديكم..أنجزتم عملاً هائلا يستحق التقدير".

يقول حميدو :"الله يرحمك يا دوروثي! قبل أن تغادر الموقع سلمتني مبلغاً من المال وقالت لي: وزّع هذا المبلغ يا حميدو على عمالك الفقراء. فهم يقومون بعمل عظيم إنهم يستأهلون كل خير؛ صحيح أن المبلغ بسيط. ولكنهم يجب أن يشعروا وأنت تعطيهم أن عملهم مهم ومقدَّر..

..وزعت المبلغ على العمال وأنا أحس بالزهو والفخر. كم أنت رائعة يا درووثي..رحمة الله عليك...

...ثم تكررت عملية إعطاء مبلغ في نهاية كل موسم (الثلاث مرات) ومع تكرار ذهابها معنا إلى موقع الحفر؛ وصار العمال بذلك أكثر حماساً واندفاعاً. بل أن ذلك جعلهم – بصراحة – يبقون للعمل في بعثتنا الوطنية ولا يغادرون إلى بعثات أجنبية تسمح طبيعة أنظمتها المالية بالدفع لهم أكثر!!...

..كانت نتائج بعثتنا في الحفر هي الأفضل والأسرع من نتائج البعثات أخرى كانت تعمل في مواقع مختلفة في القطر، وبشهادة كل من يرصد ويتابع تلك النتائج في مديريتنا أو غيرها..

..كانت في زياراتها لنا في موقع العمل، تعمل كل الوقت، تكتب وتسجل وتصنف وتناقش، ولكنها أيضاً توفر وقتاً للتأمل...كانت تقف على ضفة الفرات في سكون وخشوع، وكأنها في حالة وجد أو تعبد إمام إله مقدس"يقول حميدو :" في شتاء

1991 - 1992 جاءنا البرد شديدا فمرضت دوروثي..وكنّا في المتحف نفتقدها ونسأل عنها، فوجودها كان فعالية وحيوية ونشاطاً...وغيابها كان عكس ذلك تماماً!..

..ثم تماثلت للشفاء، وعادت إلينا، وعاد معها ذلك الجو البهيج الذي كانت تضفيه على عملنا، الذي صرنا نحس به كقيمة إنسانية رائعة. شكرتنا جميعاً...لأننا كنا نسأل عنها في غيابها ونرجو شفاءها، أو يعودها بعض منا أحياناً، وعبَّرت عن شوقها لنا، ثم دعتنا إلى عشاء في مطعم تابع لأحد فنادق حلـــب.

..أذكر في تلك الأمسية كم كانت دوروثي كريمة وودودة..مبتسمة ومرحة. وتصرفت وقتها وكأنها إحدى النبيلات من عصر الفرسان اللاتي قرأت عنهن...لا شك لديّ! اليوم في أنها جاءت من ذلك الأصل النبيل والمنبت الكريم..

..أسلوبها في ضيافتنا، وشكرها لنا على ما قدمناه لها، وكل تصرفاتها كانت تدل على ذلك الذي تأكدت منه في تلك الأمسية..

...وسمعنا في اليوم التالي نبأ وفاة دوروثي فصعقنا!!

..كانت بالأمس في أكثر حالاتها حيوية ونشاطاً و "شباباً"..كيف ذهبت دوروثي..كيف؟..

..ترى هل ألهمها الله أ، تدعونا بالأمس لتودعنا! كم كانت نبيلة ورائعة. لقد خطفها الموت منا..وأنا أشعر "باليتم فعلاً!..رحمة الله عليك يا دوروثي.."

2

"بيت باسيل" اسم الدار العربية العريقة التي زارتها دوروثي قبل خمس سنوات، أوائل فترة إقامتها في مدينة حلـــب[1]؛ وتركت تلك الدار أثراً فيها. فكانت تعلن عن محبتها دائماً لجو الدار الجميلة التي تمثل نموذجاً رائعاً ومحافظاً لبيت حلبي عريق في حلب القديمة وهي الآن ميتم للأطفال ترعاهم مجموعة من الراهبات اللاتي نذرن حياتهن لعمل الخير.

تقول الأخت ميلاني:"تعرفنا على دوروثي حين جاءت إلينا بزيارة وكم كانت ودودة ولطيفة، كنا نشعر بكل تعبيراتها – حتى التي تخفيها منها – حبها للدار التي نحن فيها، لأرض "الحوش" والليوان و "الزريعة" وشجرة الكباد...

---

[1]- يعتقد أن دوروثي وصلت إلى حلب في أوائل العام 1987.

..وطلبت منا دوروثي إيجاد سكن لها في حلب التي أحبتها كثيراً، وقررت أن تقضي ما تبقى من حياتها فيها. وساعدناها في ذلك، وأسكناها في بيت ضيافة تابع لنا يقع في ساحة فرحات بحي الجديدة".

وتتابع الأخت ميلاني:"حبها للأطفال هنا في الميتم كان كبيراً، ومداعباتها لهم كانت لطيفة، وعطفها عليهم متدفق. ولم نشهد لحنانها مثيلاً لدى امرأة ..أية امرأة!.

...كانت دوروثي – رحمها الله – تسألنا عن الفقراء الذين نعرفهم، وتعطينا بعضاً من المال لنوزعه بمعرفتنا، إضافة إلى ما تعطيه لنصرف على أطفال الميتم، كانت دوروثي محبة، محبة لعمل الخير دائماً.. كانت انسانة..انسانة بكل معنى الكلمة..لقد فاقت إنسانيتها وحبها لعمل الخير كل تصور، وصرنا نحن الأخوات – بكل الالتزام الذي فينا – نقف بدهشة أمام عطائها وتدفقها، ولكن الاحترام والإجلال كانا يرافقان تلك الدهشة، مع شعور غامر كنا نتحدث فيه فيما بيننا، عن روعة تلك الإنسانة، ذلك المثال النادر...رحمك الله يا دوروثي".

تقول الأخت لوسي:"كانت دوروثي تحب القراءة كثيراً...وكثيراً ما كانت تنفرد بنفسها في غرفتها، والكتاب جليسها، لتقرأ وتقرأ، كتاباً إثر كتاب، كما كانت تحمل دائماً دفتراً وقلماً، لتكتب وتسجل، وكأنها كانت تجد في القراءة والكتابة متعة ما بعدها متعة، وكانا يشغلان معظم وقتها!!لعلها باحثة أصلاً من نوع معين، ولكنها استمرت بعد تقاعدها في الحياة محوره القراءة والكتابة...

...كما عرفنا بعد فترة أن دوروثي كانت تكتب أيضاً مذكراتها!!.

وتتابع الأخت لوسي:"كانت تعرض علينا خدماتها في أي مجال..وقامت بتدريس اللغة الإنكليزية لعدد من الفتيات طالبات الرهبنة".

ثم تقول الأخت لوسي:"كانت دوروثي مثالاً للإنسانة المؤمنة، كانت تصلي كثيراً وبانتظام. هل تتصور أنها كانت أحياناً تصلي أكثر منا نحن!..فقد نتعرض إلى مرض أو توعك، أو لعل سبباً طارئاً يمنعنا من أداء صلواتنا، ولكنها كانت – رغم كل شيء – أكثر مواظبة على الصلاة.

..حاولنا مراراً معرفة مذهبها، ولكنها كانت تجيبنا بلطفها الذي عهدناه منها دائماً: أنا غير ملتزمة.

..كان في صلاتها خشوع ووجد لن نلحظه عند الكثيرين..إنه الإيمان الذي يعمر قلبها."

تقول الأخت ميلاني:" كم أحبت دوروثي مقرنا هذا ...أو هذا البيت الحلبي الذي نعيش فيه. كانت متعتها الكبيرة حين تزورنا هنا، بل لعلها تتحين الفرصة لزيارتنا والاستمتاع بهذا الجو النقي والهادئ الذي كانت تجده في "أرض الحوش"، أو في لون النبات الأخضر، أو لعلها تجده في البركة والنافورة، أو في إطلالة الليوان وكل الغرف، على جو الفناء البديع".

ماذا عن مرضها؟

تقول الأخت كاترين:"كان وضعها الصحي عاديا جدا رغم تقدمها في السن، فقد كان "الكريب" أو الرشح يعاودها مرة كل شتاء فيما نذكر. إلا أن شتاء 1992 كان الأشد والأقسى، لم نشهد لقسوته مثيلا منذ سنوات خلت. فجاءها"الكريب" قويا ذلك العام. وكنا نشرف على علاجها دون دعوة منها لذلك، وذهبنا معها إلى طبيب الأشعة الذي صور صدرها. ولشد ما دهشنا عندما عرفنا أنها بريئة واحدة!..وعزونا إلى حالتها تلك – بعد ذلك – كل عسر في تنفسها كنا نلاحظه عندما تجهد نفسها في عمل ما، أو عندما تشعر بالتعب في جو منغلق. أليس غريبا أننا لم نعرف بذلك إلا بعد التصوير بالأشعة!".

وتصل الأخت ميلاني حين تقول:" إنها لم تقل لنا شيئاً عن حالتها الصحية التي كانت فيها، كانت تداري نفسها بنفسها ودون تكليف لنا، كانت تؤدي أمورها الخاصة بذاتها...رحمك الله يا دوروثي..كم كنت خفيفة الظل".

وتعود الأخت إلى القول:" في تلك السنة الشديدة البرودة وبعد أن عافاها الله تماما، عادت إلى وضعها الطبيعي، واستمرت على ذلك الحال لأيام، ولكنها انتكست، وعاودها المرض أكثر شدة. وكانت تلك هي القاضية، وفاضت روحها الرائعة إلى ربها".

وامتلأ صوت الأخت حزناً وهي تقول:"رحمك الله يا دوروثي".

* * *

3

يقول عبد الله حجار[1]:"كم حزنت على درورثي لما رأيت اسمها على ورقة نعي سوداء؛ بل إن حزني زاد عندما أدركت أن تلك الورقة كانت بتاريخ مضى،

[1]- عبد الله حجار: مهندس مدني منذ العام 1963، اختص من خلال عمله بالطرق، يهوى الآثار السورية، وآثار مدينة حلب خاصة، اللتين صار بهما خبيرا. هو المستشار العلمي لجمعية العاديات بحلب، ويجيد اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية إلى جانب العربية.

وقد فاتني بذلك إمكانية مشاركة أصدقاء دوروثي في الوداع الأخير لها، إلى حيث وُريت الثرى في جبل السيدة.

"رحم الله دوروثي. لن أنسى كلماتها الهادئة عندما عرفتها لأول مرة..كان ذلك في مكتبة متحف حلب، وهي تقوم بتصنيف وترتيب الكتب والوثائق بأسلوب جديد، وكنت – وقتها – أبحث عن أحد المراجع الآثارية، واتفقنا على أن أعود بعد أيام، تكون فيها الترتيبات قد أخذت شكلها النهائي.

...حضور دوروثي للعديد من النشاطات الثقافية في المدينة كان أمراً مميزا، فها هي تجلس بتواضع في أمسيات جمعية العاديات الثقافية، وتختار غالباً الجلوس ما بعد الصف الأول، وعلى الطرف من القاعة، ترافقها أحياناً الباحثة الآثارية اليابانية في متحف حلب السيدة يائوني. ولكنها دائماً كانت تستمتع بالمحاضرات (ذات الموضوع الآثاري) وتبدي – بكل لطف – إعجابها بما تطرحه المحاضرة، وتناقش في بعض من زواياها.

..كان لباسها دائماً بسيطاً، وكانت تصرفاتها تنم عن خلق عال، بما تبديه للآخرين من اهتمام مقرون بتواضع جم.

...لقد ذهبت فجأة يا دوروثي. كنت أشعر أن هناك متسعاً من الوقت للحديث معك، وفي كل شيء. كنت أود أن أسألك عن مكتبة الكونغرس التي تعرفينها جيداً، وعرفتها أنا ولازمتها لأسبوعين عندما أقمت لفترة في واشنطن العاصمة".

ويستمر عبد الله:"فقدك يا دوروثي أثر في نفسي كثيراً، كنت أفكر سريعاً حين أراك صدفة بطريقة أنهل فيها منك..أحدثك عن أمور كثيرة تدور في ذهني، فقد كان لحديثك دائما طلاوة، وفي ما تقولينه دائماً متعة..متعة المعرفة التي كانت من ميزات شخصيتك..

رحمك الله يا دوروثي. السماء لأمثالك تفتح أبوابها...صلّي لأجلنا..."

* * *

4

حسب وصية دوروثي، فقد دفنت في حلب. وتبنى مراسم الصلاة على روحها ودفنها مجموعة من "الراهبات الحلبيات" في جو حزين ضمَّ كل أصدقائها

ومحبيها..فقد كانت " صديقة حلـــب" بكل المعنى لهذه الكلمة، وأبّنها حميدو بكلمة مؤثرة تقطر أسى، لفقده انسانة تركت في نفسه وفي حياته وفي عمله أثراً، بل آثاراً لن تنسى.

ويرقد الآن جسدها في قبر أعدّه أصدقاؤها، في مقبرة طائفة الروم الكاثوليك، ليس بعيداً عن قبر جورج سميث[1]: لوحته الحجرية محفور عليها اسم دوروثي ستيله باللغتين العربية والإنكليزية، وسنوات حياتها التي عاشتها بين 1914 – 1992. وأنها أحبت حلب وتمنت أن تنتهي حياتها فيها.

5

وصل النبأ الحزين إلى أخيها فيليب ستيله في الولايات المتحدة، فأرسل إلى حميدو (الذي عرفه من خلال رسائل دوروثي إليه) يشكره على لطفه ومودته اللذين أظهرهما بتعزيته بوفاة أخته دوروثي، كما أرسل له بعضاً من نصوص الرثاء والتأبين التي ظهرت في عدد من الصحف الأمريكية وهي تنعي دوروثي ستيله...

وذُهل حميدو، وكل أصدقاء دوروثي في حلب بما علموه عنها!!!إنها:

-أمينة في مكتبة الكونغرس في واشنطن (قسم الدراسات الشرقية).

-حاصلة على الدكتوراه في اللغات الشرقية، وهي أستاذة متخصصة في فقه اللغة العربية الجنوبية (اليمن وجنوب الجزيرة العربية).

-درَّست في جامعة عين شمس بالقاهرة في أوائل الخمسينات.

-درست اللغة المسمارية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو.

- تجيد عدداً من اللغات الحية...

- ....

* * *

6

تم إعلام سفارة الولايات المتحدة بدمشق بوفاة دوروثي ستيله باعتبارها مواطنة أمريكية، فأرسلت تطلب تأجيل موعد الدفن لترسل ممثلين لها...فكان ذلك.

---

[1] -جورج سميث: عالم آثار إنكليزي، مختص بالآثار الشرقية، ولد عام 1840؛ وهو أول من قرأ عام 1873 اللوح الطيني المكتوب بالطريقة المسمارية الذي يحكي قصة نوح والطوفان في ملحمة جلجاميش والمكتشف في نينوى (قرب الموصل) في مكتبة آشور بانيبال. توفي ودفن في حلب عام 1876.

وبعد انتهاء مراسم الدفن زار ممثلو السفارة دير البشارة للراهبات الحلبيات (بيت الضيافة بحي الجديدة) ليعرفوا شيئاً عن حياة دوروثي في حلب وكيف كانت أيامها الأخيرة واستلموا رسمياً كل أشيائها الخاصة، بما فيها المذكرات التي كتبتها في حلب ليرسلوها إلى الولايات المتحدة.

* * *

7

أنجزت دوروثي خلال سنوات وجودها في حلب:

-إعادة فهرسة مكتبة متحف حلب الوطني وفق أحدث الأساليب العلمية.

-دليل متحف حلب الوطني (باللغة الإنكليزية)، مع الأستاذ وحيد خياطة مدير آثار حلب.

-دليل قلعة سمعان (باللغة الإنكليزية)، مع الدكتور شوقي شعث، المحافظ الرئيس لمتحف حلب.

-دليل الأختام الاسطوانية في الآثار السورية القديمة(باللغة الإنكليزية)، مع الأستاذ حميدو حمادة.

-دعم مكتبة المتحف الوطني بحلب بمجموعة من الكتب الاختصاصية الهامة، كانت تصل إليها بموجب طرود بريدية مدفوعة القيمة!!.

-..كما بدأت بإنجاز قائمة معجمية للمصطلحات الأثرية للفخاريات (عربي - إنكليزي)، أنجزت بنسبة 60% تقريباً، وهو عمل نادر متميز، وكان يمكن أن يكون سبقاً عالمياً في مجال الأبحاث الآثارية..

كل ما سبق، كان إضافة إلى ما ذكره حميدو عن دعمها، ومساهمتها الفعالة، مادياً ومعنوياً في برنامج حفريات البعثة الآثارية الوطنية في تل العبر...

حلب- شباط 1993

سجل الفصول الأخيرة في حياة دوروثي ستيله[1]

خلدون فنصة[2]

الكلمة الأخيرة

دوروثي، يا صديقة حلب، وقلعتها، وبواباتها، وشوارعها القديمة. ماذا سأقول للفرات إن سألني عنك؟ وماذا سأحكي لكتب المكتبات عن صديقتها؟!.

لقد دقت أجراس الكنائس هذا الصباح تودع دوروثي، فبكى المسجد الأموي، وشحب لون قلعة حلب، وتحدثت لي تماثيل المتاحف مبدية رغبتها في المشاركة بتشييع جثمانك الطاهر.

هاهم أصدقائك يا دوروثي، هاهم حولك، إنهم ينتمون إلى مختلف الجنسيات والديانات، إنهم يمثلون الإنسان، الذي كنت رمزاً له طيلة حياتك المليئة بالعطاء، العطاء الذي لم ينقطع حتى آخر نفس من عمرك الحافل بالخبرة والمعرفة والمواقف الإنسانية.

لا تظني بأنك غريبة هنا، فأنت في ضيافة سيف الدولة الحمداني ملك حلب، أنت مع أبي فراس والمتنبي والبحتري والسهروردي وجورج سميث وغيرهم..

لقد كنت لي أماً وصديقاً وسنداً. وكل أملي أن أكون قمت بواجبي تجاه هذه الأم العظيمة، الأم التي لم تلد ولم تتزوج لكنها أنجبت أبناء في كل مدينة حلّت بها.

نعاهدك يا دوروثي أن نكون كما عهدتنا. لقد تعلمت منك الكثير، وداعاً يا أمي، وداعاً يا دوروثي، يا عمود البعثة السورية.

حميدو حمادة

(في تأبين دوروثي أثناء مراسم دفنها)

---

[1] DOROTHY STEHLE-

[2] خلدون فنصة: مهندس معماري، لم يعرف دوروثي مطلقا، سمع عنها من المصدر الأول (حميد)، فتأثر بما سمع وقرر أن يسجل حكايتها في حلب، وقصد المصدر الثاني للحكاية (الراهبات الحلبيات)، ليستكمل ما سمع عنها. ثم حدثه عنها عبد الله حجار، فكان مجمل ما سجله هنا هو: حكاية دوروثي (الجزء الأخير).

صورة حلب لدى الرحالة والزوار

د.سمير انطاكي

توطئة:

منذ أقدم العصور شعر الإنسان بضرورة السفر والترحال للتعرف إلى أمصار جديدة ولاكتشاف مناطق مجهولة ولزيادة معرفته وعلمه وإشباع فضوله وإغناء تجارته. فهذا من اكتشف قارة في رحلة بحرية وغيره من اكتشف مضيقاً أو طريقاً جديدة في رحلة بحرية ومن تعرف إلى شعوب جديدة وإلى حضارات مختلفة...والإنسان بطبيعته وغريزته يحب السفر.

اسمعوا الشاعر الفرنسي جواشان دوبيلي. **JOACHIN DU BELLAY** الذي عاش من العام 1522 م إلى العام 1560 يقول:

Heureux Qui Comme ulysse A Fait un beau voyage
Ou comme celui la qui conquit la toison
Et puis est retourne plein D'usage et raison
Vivre entre ses parents le reste de son age

ومعناه بالعربية:

سعيد الذي يسافر سفرة جميلة مثل "أوليس"
أو مثل الآخر الذي ظفر بالجزة الذهبية
وعاد من بعدها كله معرفة وحكمة
ليعيش مع ذويه باقي أيام حياته

وهذه إشارة واضحة إلى المكاسب التي يحققها المسافر من علم ومعرفة وحكمة بوجه خاص نتيجة احتكاكه مع الشعوب الأخرى.

وهذا ابن الوردي في لاميته الشهيرة يدعو أيضاً إلى السفر ولكن لأسباب أخرى فيقول:

حبك الأوطان عجزٌ ظاهر ... فاغترب تلق عن الأهل بدل

وما هو إلا فضولنا اليوم الذي يدفع الإنسان إلى غزو الفضاء واكتشافه، فلكل زمان رحلاته ورحالته ووسائطه للتنقل والسفر.

وكانت حلــب من هذه المدن التي قصدها الناس منذ نشأتها حتى ســماها البعض لؤلؤة الشمال. وكانت بوابة الشرق لكل القــادمين مــن أوربــا والشــمال والجنوب. وكانت محطة هامة على طريق الحرير.

ولقد عشقها العديد من العلماء والفلاســفة والمفكــرين، فكانــت مصــيف أفلاطون ومقام الفارابي. كما زارها العديد من الرحالة الأجانب والعرب منذ أقــدم العصور وفي ظروف صعبة آنذاك. كل ذلك وإن دل على شيء فهو يدل علــى أن حلــب لم تكن مدينة كسائر المدن، إنما كانت لها خصوصيتها وســحرها، ففتنــت الألباب. ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا بأنه جاء ذكرها في عهد ريموش الأكادي بين عامي 2515 و2530 ق.م كما أنها ذكرت في رقم مملكة إيبلا (تل مرديخ) التــي تعود إلى العام 2250 ق.م وورد اسمها "حلبا" في رقم مدينة ماري (تل الحريري) في العام 1750 ق.م على أنها عاصمة مملكة يمحاض...كما ورد ذكرها في آثــار الحثيين والعمالقة.

وقد عاصرت مدينة حلب نينوى وبابل وممفيس وماري وأوغاريــت وأور وأفاميا والرصافة وكركميش، وتعرضت مثل شقيقاتها للغزوات والحصار والفــتح والتحرير عشرات المرات، ورغم ذلك لا تزال حلــب شامخة الرأس رابضة، تهزأ بعوادي الزمن في وقت لم تبق فيه من زميلاتها من المدن المذكورة والتي كانــت عواصم إمبراطوريات عظمى قديمة سوى أسماء وأكوام مــن التــراب والــتلال والأطلال...

لذا تعتبر حلــب أقدم مدينة مأهولة في العالم دون انقطاع، ومن أهم المدن في التاريخ، ونظراً لجمالها المعماري والذي حافظت عليه عبر العصــور قــررت منظمة اليونسكو تسجيلها في قائمة المعالم التاريخية العالمية الواجــب المحافظــة عليها أسوة بفلورنسة والبندقية.

كما أن موقعها الجغرافي جعل منها عقدة للمواصــلات التجاريــة. وأمــا المناطق الزراعية الخصبة التي تحيط بها فقد جعلتها مصدراً كبيراً للمواد الغذائيــة من زيت وحبوب...وغيرها من المنتوجات، حتى أنها عدت مدينة يتزاحم عليهــا الطامعون من كل مكان. ويجبل ألا ننسى بأنها كانت مركز إشعاع علمــي كبيــر، وبشهد على ذلك ما كانت تضمه من مدارس ومراكز علــم جــاء علــى ذكرهــا

المؤرخون.فكانت قبل فتح قناة السويس أقصر طريق للقوافل التجارية بين الغرب والشرق الأقصى.

أما في العهد العثماني فكانت تعتبر ثالث مدينة في الإمبراطورية بعد الأستانة والقاهرة، واشتهرت حلب من القدم بطيب هوائها وكرم أهلها وطيب أخلاقهم، فقصدها الشاعر والأديب والمؤرخ والرحالة والزائر منذ أقد العصور بغية التمتع بجمالها ومناظرها الخلابة والتلذذ بأطايب مآكلها. وهناك من زارها بقصد العمل، وغيرهم من عاش فيها لفترة من الزمن في بلاط الأمراء أو في القنصليات التي فتحت أبوابها في القرن السادس عشر. فالقنصلية الفرنسية في حلب تأسست في العام 1535م، وهي أول قنصلية لفرنسا في الشرق وكان قنصلها يمثل الأمة الفرنسية في سورية كلها، أما قنصلية إيطاليا (البندقية وفلورانس) فقد افتتحت في العام 1548م، والقنصلية الإنكليزية في العام 1583م، أما القنصلية الهولندية فتأسست في العام 1607م.

إلا أن العلاقات مع الأوربيين بدأت قبل ذلك عندما وقع أمير البندقية اتفاقاً مع أمير حلب الأيوبي في العام 1208م، يضمن فيه إقامة البنادقة في حلب وحمايتهم. ولا يزال إلى اليوم يوجد خان يحمل اسم خان البنادقة.

فهؤلاء القناصل ومن عاش معهم من موظفين وأطباء وتجار...كتبوا أيضاً عن حلب فوصفوا المدينة وأبنيتها وخاناتها وأسواقها وأماكن عبادتها وقلعتها الشامخة كما وصفوا مناخها وهواءها والأوبئة التي اجتاحتها، وتكلموا على عادات أهلها وتقاليدهم...وهذا ما جاء بشكل خاص في كتاب "الأخوين راسل" الذي سنتكلم عليه بعد قليل.

ورغم أن البعض اعتبر بان العديد من الرحالة الجانب وممن زاروا ومكثوا في حلب في الأزمنة الغابرة وكتبوا عنها هم ليسوا غلا جواسيس هيئوا بكتاباتهم هذه لبعض الغزوات...ورغم أن غيرهم اعتقد بأن هذه الكتابات تنطوي على معلومات كاذبة أحياناً وآراء خبيثة غايتها تضليل الرأي العام بإعطائه انطباعاً مشوهاً عن واقع أهل المشرق...إلا أننا نعتقد بأن العديد من زوار هذه المدينة القديمة العريقة من كتاب وشعراء ورحالة وغيرهم ممن أمضى فترة من حياته في حلب تاجراً كان أم طبيباً..قد فتنوا بسحرها وجمالها وبدماثة أخلاق أهلها فأحبوهم

وأحبهم هؤلاء الآخرون. وإن ما كتبوه من شعر ونثر وكتب علمية وكتب رحلات ليس إلا دليلاً على ذلك.

ولا عجب إن كان أرسطو قد مكث في حلب بعد أن استأذن تلميذه الاسكندر المكدوني، وقد بقي فيها أشهراً إلى أن شفي من مرض أصابه، وهذا ما حدثنا عنه ابن العديم.

في عهد سيف الدولة الحمداني:

وقبل أن نتكلم على الرحالة لا بد أن نذكر فترة هامة من تاريخ حلب في عهد سيف الدولة الحمداني الذي عاش في بلاطه العديد من الشعراء والعلماء والفلاسفة وكالفارابي والخوارزمي وابن خالويه وابن جني والخالديين..وأبي فراس الأمير والشاعر والفارس. أما المتنبي الذي عاش أيضاً في هذا البلاط من العام 948 م إلى العام 957م حيث كان الشاعر المفضل على جميع شعراء الأمير، فكتب أبياتاً جميلة عن حلب وأجمل ما كتب كان لدى عودته إلى الكوفة بعد سفره إلى مصر تلبية لدعوة كافور الإخشيدي، فقال:

كلما رحب بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا وإليها وجيفنا والذميل

أما الصنوبري فقد كتب أيضاً العديد من الأبيات وصف فيها مدينة حلب ومعالمها ورياضها الخضراء ونهر قويق وصفاً دقيقاً وجميلاً ومن اجمل ما قال:

أنا احمي حلباً دا راً وأحمي من حماها
حلب أكرم مأوى وكريمٌ من اواها
فاخري، يا حلب، المد ن يزد جاهك جاها

من القرن الثاني عشر إلى الخامس عشر:

ولو أردنا أن نتكلم على كل الرحالة الذين مروا بحلب وكتبوا عنها لاستغرق ذلك ساعات طوالاً، ولكننا سنكتفي بذكر البعض منهم مع سرد مقتطفات مما كتبوا عنها.

فمثلاً يعتبر ابن جبير من مشاهير الرحالة العرب وهو من علماء الأندلس وعاش من العام 1144م إلى العام 1216م وقد قام بثلاث رحلات هامة زار خلالها حلب. ويأتي في كتابه على ذكر "مدينة حلب حرسها الله تعالى" فيقول:" بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها في النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسلت عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع...أين أمراؤها الحمدانيون وشعراءها؟ لقد فني جميعهم ولم يبق إلا بناؤها، فيا عجب لبلاد تبقى ويذهب ملاكها ويهلكون....هذه حلب وكم أدخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان..."

وبعد أن يصف القلعة يأتي على ذكر المدينة فيقول:"وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل الترتيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط(أي صف) صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقوف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق فيها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز(المتهيئ للوثوب) تعجباً..." هكذا كانت أسواق حلب وما زالت منذ القرن الثالث عشر ميلادي فيا لدقة الوصف.

وهذا ياقوت الحموي الذي عاش من العام 1179م إلى 1228م والذي أمضى أواخر أيام حياته في حلب وأقام في ظاهرها يقول في معجم البلدان ما يلي:" إن الله تعالى خص حلب بالبركة وفضلها على جميع البلاد، إنه يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عدياً لا يسقى إلا بماء المطر ويجيء مع ذلك رخصاً غضاً روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح في جميع البلاد..."، وهذه الإشارة إلى القطن هامة إذ ما زالت حلب من أهم منتجي القطن كماً ونوعا في العالم. ويقول أيضاً ياقوت الحموي وهو يتكلم على حلب قوله الشهير:"مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات صحيحة الأديم والماء...".

أما "ابن بطوطة المولود في طنجة في العام 1304م والمتوفى في العام 1377م، والذي اشتهر برحلاته الثلاث حتى أصبح اسمه مقروناً بكل من يحب السفر في يومنا هذا، فإننا نجد في كتابه"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" تكراراً لما كتبه سلفه ابن جبير في وصف مدينة حلب وقلعتها، ثم يضيف:

"إن مدينة حلب هي من أعز البلدان التي لا نظير لها في حسن الوصف وإتقان الترتيب واتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض، وأسواقها مسقوفة، فأهلها دائماً في ظل ممدود وقيسارياتها لا تماثل حسناً وكبرا وهي تحيط بمسجدها الذي هو من أجمل المساجد في صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبره بديع الصنع مرصع بالعاج والأبنوس، وبالقرب من جامعها مدرسة مناسبة له، أما خارج المدينة فهو بسيط فسيح عريض فيه المزارع العظيمة وكرمة الأعناب منبسطة والبساتين على شاطئ نهرها قويق (رحمه الله) وهو عزيز المياه منتشرة. والنفس تجد في جوها انشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها. وهي من المدن التي تصلح للخلافة حقاً".

وقد زار حلب أيضاً" ابن بطلان" و غيره من الرحالة العرب المهمين...وقد ورد في كتاب "الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب" لابن الشحنة الذي عاش من العام 1402م إلى العام 1458 وهو من أهالي ما يلي على لسان ابن شداد:

"وعلى كل حال فإنها أعظم البلاد جمالاً وأفخرها زينة وجلالاً مشهورة الفخار عالية البنا والمنار ظلها ضاف وماؤها صاف وسعدها واف ووردها لعليل النفوس شاف. وأنوارها مشرقة وأزهارها مؤنقة وأشجارها مثمرة مؤرقة نشرها أضوع من نشر العبير. وبهجتها أبهج منظراً من الروض في الزمن النضير. خصيبة الأوراق، جامعة من أشتات الفضائل ما يعجز عنه الآفاق. لم تزل منهلاً لكل وارد وملجأ لكل قاصد. يستظل بظلها العفاة. ويقصد خيرها من كل الجهات. لم تر العيون اجمل من بهائها. ولا أطيب من هوائها، ولا أحسن من بنائها ولا أظرف من أبنائها..." ثم يذكر ما قاله سعد الدين ابن الشيخ محي الدين العربي شعراً:

حلب تفوق بمائها وهوائها — وبنائها والزهو من أبنائها
بلد يظل الغريب وكأنه — في أهله فاسمع جميل ثنائها

أما الرحالة الأجانب فقد خصوها بقسط وفير من المؤلفات الموزعة في العديد من المكتبات الهامة في العالم، وذلك منذ القرن الخامس عشر، وستقرأ عليكم بعض ما كتبوها عن هذه المدينة العامرة التي سحرت العديد من الناس حتى قصدوها رغم كل مخاطر السفر من أبعد مدن أوربا.

نبدأ بالرحالة والتاجر الروسي"بازيل Basiel" الذي استغرق سفره سنة كاملة بدأه عام 1465 فوصف حلب قائلاً:

"إن مدينة حلب مدينة كبيرة جداً، ويمكن رؤيتها من بعيد من مسافة ثلاثة أيام مشياً على الأقدام. هناك جبل اصطناعي عال جداً. إن جدران المدينة مبنية من حجارة. إننا ندخلها ونخرج منها من باب واحد وهناك جسر كبير في أطرافه نوافذ لرمي السهام ومن طرفيه توجد أبواب حديدية، وفي وسط الجسر يوجد برج شبيه بالبرج الأول أي كبير جداً. المدينة محاطة بأسوار مع خندق ولها عدد كبير من الأبراج ويمكن دخولها من أبواب سرية. هناك جسر فوق الخندق مبني مثل أسوار المدينة وله بابان. المدينة نفسها مستديرة والخندق العميق الذي يحيط بها بشكل كامل مليء بالماء الجارية التي تأتيها من الأقنية الكبيرة. وهذه المياه تعج بالأسماك" بالطبع إن كل هذا الوصف هو لقلعة حلب وليس لمدينتها. ويتابع بازيل وصفه فيقول:" حول هذه المدينة الكبيرة (أي القلعة) تمتد مدينة أخرى أكبر من الأولى، مع أسواقها العديدة وحمامات ممتازة".

وفي الفترة نفسها اشتهرت في حلب معامل الزجاج حتى أن حافظ ابرو من حيرات Hafiz Abrou De Heart كتب ما يلي:" هناك صناعة مميزة في حلب وهي صناعة الزجاج. إننا لا نجد في أي مكان آخر من شدة جمال هذه الأواني المزخرفة بأناقة وذوق رفيع. إن أواني حلب الزجاجية نقلت إلى كل البلدان كي تقدم كهدايا".

في القرن السادس عشر والسابع عشر:

ولقد تناول العديد من الرحالة مدينة حلب من الناحية التجارية إذ كانت في القرن السادس عشر أهم مدن سورية تجارياً حتى أن عدد سكانها كان في نهاية القرن يقارب المئتي ألف نسمة.

ويقول بولون**Belon** الذي زار حلب في العام 1537:" إن قوافل بلاد العجم والهند والعراق كانت تحمل إليها محاصيلها وإن كل المسافرين نحو هذه الأقطار المذكورة كانوا يجدون في حلب تجاراً مستعدين لمرافقتهم. وكان الإنسان يجد في هذه المدينة كل محاصيل الشرق، وكان البنادقة يرسلون أولادهم إليها ليتقنوا اللغة وعادات أهل سورية".

ويلاحظ الرحالة دارامونD'Aramon بأنه في العام 1548 كانت حلب مخزناً للتوابل وللأدوية وللحرير ولغيرها من البضائع الثمينة التي كانت تصلها من الهند كما أنها تحوي بضائع شتىّ تصلها من أوروبا في طريقها إلى آسيا الوسطى والشرق الأدنى...

أما ليوناردو راولي Leonard Rawoli الذي زار حلب في العام 1573 – 1574 فهو يعتبر بأن حلب هي المركز الرئيس لقوافل الهند وبلاد فارس وأرمينيا ومصر...وبأنه في حلب يتم تبادل السلع والبضائع الآتية من أوروبا مع البضائع الأخرى كالأقمشة البراقة والسجاد القيم والتوابل والخزفيات واللؤلؤ والأحجار الكريمة...

وهذا كوتوفيكوس Cotovicus الذي زار مدينة حلب في العام 1599 فإنه يعدد الملل والجناس التي التقى معها في هذه المدينة مما يدل على أهميتها التجارية. فيعدد الفرس والهنود والأرمن والجيورجيين. ومن بين أهل أوربا: البنادقة وأهل مرسيليا وكتالونيا وجنوا والإنكليز والألمان والبلجيكيين...

وقد بلغ صيت حلب مسامع شكسبير Shakespeare كبير أدباء الإنكليز، الذي عاش ما بين 1564و 1616، فذكرها في مسرحيته الشهيرة "مكبث" عندما تكلم على زوجة البحار التي جلست تأكل الكستناء متشوقة إلى زوجها الذي سافر إلى حلب" Macbeth Act 1- Scene3 " Her husband's to Aleppo Gone.

كما ذكرها في مسرحية عطيل Othello عندما قال:"حدث مرة في حلب". فهذا دليل آخر على أهمية مدينتنا التي ذاع صيتها في كل أرجاء المعمورة.

وأما موريسون Moryson الرحالة البريطاني الذي مر بحلب في العام 1617 فأطلق عليها اسم مدينة حلب الشهيرة The Famous City of Aleppo.

ومما يذكر أنه عندما وصل قنصل فرنسا الجديد "جدعون الملقب بالتركي Gedoyn Le Turc الذي عينه الملك لويس خلفاً للقنصل "فيغيي" Viuier الذي كان تجار مرسيليا قد عينوه كما جرت العادة، ولما بادر إلى الزيارة التقليدية للباشا فقد رافقه مئة تاجر فرنسي كانوا مقيمين في حلب، وكان ذلك يوم 27 آب 1624. وهذا دليل آخر على أهمية حلب التجارية.

ثم تسلم القنصل بونان Bonin زمام القنصلية الفرنسية في حلب في وقت لاحق ولكن بعد وفاته "تهافت العديد من الفرنسيين ليخلفوه نظراً لأهمية حلب

ولأهمية القنصلية الفرنسية فيها، لأن حلب كانت مستودع العديد من البضائع التي كانت تأتيها من الشرق وكانت الطريق الطبيعي للوصول إلى بلاد فارس عن طريق البر وإلى غيرها من ممالك الشرق، إن هذه التجارة الهامة جعلت من مدينة حلب أكثر مدن الإمبراطورية العثمانية أهمية من الناحية التجارية كما جعلت للقنصلية الفرنسية فيها شأناً بالغاً ومعتبراً".

ومن مشاهير القناصل الذين سكنوا حلب قنصل فرنسا "الشوفاليه دارفيو" Chevalier M. D'Arvieux الذي عاش فيها من تشرين الثاني 1679 ولغاية بداية 1686. وقد خص حلب بمذكراته "Memoires du Chevalier d'Arvieux " التي احتوتها ستة مجلدات، والتي صدرت في باريس في العام 1735. وكان يجيد العربية والفارسية والتركية واليونانية.

وقد وصف حلب بشكل دقيق ومفصل وعدد أسواقها وخاناتها وأسماء شوارعها والأحياء داخل الأسواق وخارجها. كما وصف بساتين حلب وما تحتويه من أشجار وخضار وفواكه وصفاً مفصلاً، حتى أنه ذكر بأن الفستق الحلبي الأخضر هو أطيب من المجفف والمملح.

ثم أتى على وصف أهل حلب: فقال:" إن الأمر الخارق العادة هو امتياز الحلبيين وسموهم على سائر شعوب الممالك العثمانية كلها. وأنهم أحسنهم طباعاً وأقلهم شراً وألينهم جانباً وأشدهم تمسكاً بمكارم الأخلاق من جميع شعوب هذا الملك العظيم..." وقال أيضاً:"والحلبيون هم أكثر سكان الإمبراطورية وداعة وأقلهم إيذاء وأفضلهم معاملة. ومهم أناس طيبون لا يستطيعون إلحاق الأذى بمن جاورهم، وهم يحبون الأجانب، ولاسيما الفرنجة، وهم مهرة في التجارة ولكنهم صادقون". إذاً لا عجب أن يقول الحلبي "فرنجي برنجي".

كما انه تكلم على النشاط الاقتصادي الهام الذي كان سائداً في مدينة حلب والذي دفع العثمانيين ومنذ العام 1683 إلى خلق حواجز جمركية لخنق وتدمير هذه المدينة وتحويل القوافل إلى مدينة أزمير Smyrne.

بعد أن تكلمنا على مشاهير القناصل الفرنسيين الذين مكثوا وكتبوا عن حالب في القرن السابع عشر لا بد لنا من أن نذكر الرحالة والمصور الهولندي الشهير كونيلوس دوبرانCornelis De Bruan من مواليد مدينة "دين هاغ" في العام 1652 الذي زار مدينة حلب في أثناء رحلته الأولى وعاش فيها من

1682/5/12 ولغاية 10/4/ 1684 حيث أقام في خان الجمرك في منزل التاجر الهولندي كونراد كالكبيرنر Coenraad Calckberner. وقد كان يتوق إلى زيارة تدمر المكتشفة حديثاً ولكن القبائل المنتشرة في الصحراء حالت دون ذلك، لأنها كانت تنشر الرعب بين المسافرين والمستكشفين. ولدى عودته إلى هولندا اشترك في نادي الرسامين وبدأ التحضير لكتابه. "رحلات إلى المشرق" والذي ترجم إلى الفرنسية والإنكليزية. وقد ضم كتابه هذا صوراً رائعة قام برسمها هو بنفسه في المواقع التي زارها وهذا شيء هام بالنسبة إلى تلك الحقبة من الزمن، ومنها صورته الشهيرة لمنظر بانورامي لمدينة حلب وقلعتها الشامخة، إلا أنه لم يتكلم في النص على المدينة كما فعل غيره، وعلى الأرجح أن يكون قد انتحل بعض النصوص عن كتاب و رحالة آخرين. كما أنه رسم صورة لتدمر التي لم يزرها للأسباب التي ذكرناها، إنما استوحاها من لوحة لزميله"هوفستيده" Hofstede. كما أن دوبران خلد رسوماً رائعة للعديد من المعالم في سورية وفلسطين ومصر وبلاد فارس وتركيا. وهناك طبيب هولندي عاصر كورنيلوس اسمه"أولفرت دابر" Olfert Dapperكتب كتاباً أسماه "وصف مفصل لسورية وفلسطين" مع رسوم جميلة أيضاً وخريطة لطبوغرافية سورية. ولكن على الأرجح أنه لم يقم بزيارة هذه المنطقة إنما اعتمد على نصوص رحالة إنكليز وألمان وفرنسيين، منها ما كان منشوراً ومنها من لم يكن، فليس هناك ما يدل على أن دابر قد غادر أمستردام على الإطلاق. ويأتي في كتابه على ذكر حلب ودمشق.

القرن الثامن عشر والتاسع عشر:

وقال "جاك سواري دي تروسلون" في الجزء الأول من قاموسه التجاري العام المطبوع في 1732م "إن حلب لا تضاهيها بلدة في تجارتها وبالتجار الذين يقصدونها من أقطار العالم، فإن خاناتها التي لا تقل عن أربعين خاناً لا تزال غاصة بالهنود والفرس والترك والفرنجة وغيرهم..ومن خصائصها التجارية وجود الحمام الذي ينقل لتجارها الأخبار من الاسكندرونة خلال ثلاث ساعات وذلك بسبب تربيته بحلب وحمله إلى الاسكندرون بأقفاص". وهذا دليل آخر على أهمية حلب من الناحية التجارية. وهنا يجب أن نذكر بأن الاسكندرونة كانت تعتبر مرفأ لحلب.

ويذكر "شارل رو" CHARLES ROUX في كتابه LES ECHELLES DE SYRIE ET DE PALESTINE "غادرت حلب في 12 شباط 1743م قافلة مؤلفة من مئة وثلاثين جملاً متجهة إلى الاسكندرونة تحت حراسة شديدة بعد شكاوى قنصل فرنسا إلى الباشا لأن القافلة التي سبقتها بيوم واحد تعرضت لهجوم مجموعة من قاطعي الطرق الأكراد الذين كان عددهم مئتين وخمسين شخصاً. وكانت هذه القافلة لحساب فرنسا".

ثم يتابع في مكان آخر من كتابه فيقول:"كما بالنسبة إلى البضاعة وإلى الناس كانت حلب أيضاً طريقاً للمراسلات ولنقل المعلومات والأخبار. فكان قنصل فرنسا في حلب يوصل البرقيات الآتية من البلاط في فرنسا إلى ممثليه في بلاد فارس والبصرة، وبالعكس كانت ترسل البرقيات والمعلومات إلى فرساي VERSAILLES وبشكل خاص بين عامي 1730 و1755م تاريخ الحرب بين الأتراك والفرس...."

وأما "بوكوك" الرحالة الإنكليزي الذي زار حلب في العام 1746 فيقول:" إنها من أجل مدن الشرق". وهذا "الكسندر دروموند" **ALEXZNDRE DRUMMOND** فيقول في كتابه" أسفار" في العام 1754م ثم وعلى مسافة قصيرة من القرية، تراءت أمامي حلب التي من هذا المكان لها مظهر جميل جداً وبخاصة قلعتها التي تتوسط المدينة شامخة والتي تشبه من الغرب قصر ادنبرا".

ومن المعروف أن دروموند هو الرسام الذي خلد لوحات عديدة عن مدينة حلب.

ومن أهم الكتب التي تناولت مدينة حلب هو كتاب"تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر" للأخوين "الكسندر وباتريك راسل" الذي صدرت طبعته الأولى في لندن في العام 1756 وطبعته الثانية في لندن أيضاً في العام 1794م. وقد قام بترجمة قسم منه وعلق عليه الأديب الراحل الأستاذ وديع قسطون في الأربعينات من القرن الماضي، ونشرته له مطبعة الضاد في العام 1969. وقد ترجمه بشكل كامل وعلمي أخيراً الأستاذ الصديق خالد الجبيلي في العام 1997 وطبع في حلب. وقد عاش الأخوان "راسل" في مدينة حلب وتعاقبا على تطبيب الجالية البريطانية فيها من العام 1742 إلى العام 1768. وقد شمل كتابهما هذا وصفاً دقيقاً لمدينة حلب من كل جوانبها(الجغرافيا، الهندسة، الزراعة، الموسيقى، الاقتصاد، الطب

والمجتمع، العادات والتقاليد، الطقس، والمواسم، والأوبئة.....) وقد أثبتا في كتابهما الموضوعي معلومات عديدة وردت في كتب الرحالة الذين سبقوهما.

كما ذكر أكثر من ثلاثين رحالة ومؤرخاً زاروا حلـب، أبـرزهم بلينـي PLINY وغالينوس **GALEN** وراوولف **RAUWOLFF** وموريسون **MORYSON 1596**م والليدي ماري ورتلـي **LADY MARY WORTELY** والشـوفاليه دارفيـو **CHEVALIER D'ARVIEUX** وبيتر تيكسييرا **PETER TEIXEIRA** الذي قام برحلة من بغداد إلى حلب في العام 1605م وبيري **PERRY 1743** بيترو ديلافالي **PIETRO DELLAVALLE** وغيرهم...فقدما بهذا خدمة جلى وللحقيقة والتـاريخ وإضافة إلى ما ذكرا من انطباعاتهما عن مدينتنا وعنا لقياه فيهـا مـن أوضـاع ومظاهر جمعاها في كتابين ضخمين.

"إن هذا الكتاب لأثر نفيس وتحفة نادرة، وهو أوسع مؤلف وضع في لغـة غربية أو شرقية عن مدينة معينة في عصر معين من عصورها، سواء أكان مـن حيث شمول الأبحاث لكل نواحي الحياة في هذه المدينة، أم من حيث التقصي فـي درس تلك النواحي المختلفة منها. هذا ما جاء في مقدمـة كتـاب الأسـتاذ وديـع قسطون، الذي تساءل عن الدافع إلى ترجمة هذا الكتاب وطبعه، فقال:" إذاً لا بد أن يكون السر كامناً في عظمة حلب، إذ لا يعقل أن يحمل ذلك الطبيبان نفسيهما مـا حملاها من عبء فادح، وأن يجازفا بوقتهما الثمين في سبيل مدينة نكرة، خاملـة الذكر في الشرق مغمورة الاسم في الغرب صغيرة في أهلها حقيرة في دولتها...

ولكن حلب كانت على العكس من ذلك، كبيرة في الشـرق، كبيـرة فـي الغرب، قد انتزعت الزعامة الإقليمية من دمشق بوفرة عـدد سـكانها، وخطـورة موقعها الجغرافي والتجاري وكثرة الأجانب المقيمين فيها، حتـى أصـبحت كمـا وصفها راسل "عاصمة سورية والثالثة بعد الآستانة والقاهرة في العظمة والشـأن بين مدن السلطنة العثمانية (المترامية الأطراف يومئذ).

ومن الذين زاروا حلب وكتبوا عنها الرحالة والفنان لويس فرانسوا كاساس **LOUI FRANCOIS CASSAS 1756- 1827** الذي وار سورية وفلسطين ومصر وهو واحد من هؤلاء الذين أسهموا أحسن الإسهام في تعريف الغـرب بالأهميـة البالغة لسورية ولتراثها ولجمال مناظرها الطبيعية لأنه كان بالدرجة الأولى رساماً. فقد ترك كتاباً من ثلاثة مجلدات ضخمة فيها أكثـر مـن مئتـين وخمسـين مـن

الرسومات الجميلة التي خلد فيها المدن التي زار (مناظر طبيعية، آثار، أزيـاء...) أسماه "رحلة مصورة في سورية. وقد قال عن حلب التي زارها في أواخـر عـام 1784م بأن ما أدهشه فيها هو سمو سلوك سكانها وعاداتهم وجمال ألبستهم.

أما ألرحالة الشهير فولني M.VOLNEY الذي زار حلب في العام 1784-1785 وكتب "رحلة في سورية وفي مصر" عن أهل حلب:" إن الحلبيين يعتبرون بحق مسلميهم ومسيحييم أكثر سكان تركيا ثقافة، ولا يتمتع التجار الأوربيون في أي مكان بمثل ما يتمتعون به هنا من حرية..." ويتابع قائلاً:" ولكن الحلبيـين كـانوا عنيفين أشداء في موقفهم من السلطات العثمانية فتحدوها أكثر من مرة".

ثم يتكلم على الأوضاع السائدة في البلـد وعلـى تعسـف وجشـع جنـد الانكشارية فيقول:" إن عبدي باشا الذي حكم حلب في النصف الثاني مـن القـرن الثامن عشر تمكن من جمع أكثر من أربعة ملايين ليرة ذهبية في مدة خمسة عشر شهراً وذلك بتغريم كل أرباب المهن بما في ذلك العاملين في تنظيف الغلايين". أي انه لم يستثن أحداً، وفي ذلك ما يكفي لتصور مدى سوء الإدارة والفساد اللذين كانا سائدين في تلك الفترة.

ويعود إلى وصف المدينة فيقول:"قد تكون أنظـف مدينـة فـي السـلطنة العثمانية وأجملها بناء وألطفها عشرة وأصحها مناخاً، والحلبيون هم أكثـر أهـل السلطنة تمدناً وا حسرتاه...

ويروي السائح الفرنسي دورازال DE RAZEL الذي زار الشـهباء فـي منتصف القرن الثامن عشر "أن حلب أكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السـلطان". ويؤيده في ذلك مواطنه بوجولا POUJOULAT القائل:"إن حلب كانت فـي سـنة 1800 أهم مدينة في المملكة العثمانية بعد القاهرة والآستانة".

ولكن أهمية حلب التجارية بدأت تخف في بداية القرن التاسع كما جاء فـي كتاب "أسفاري" للميجور تايلور MAJOR TAYLOR والمترجم إلـى الفرنسـية والمنشور في باريس في العام 1806 حيث يقول:" أن التجارة في الشرق قد خفت بسرعة منذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح. لقد كان في حلب في الماضي أكثر من أربعين بيتاً تجارياً إنكليزياً أما اليوم فلا اعتقد أننا نجد أكثر من بيتـين يسـتأهلان التكلم عليهما". ويقول الميجور في مكان آخر :" أن شعوب البصرة وحلب هم أكثر ثقافة من غيرهم من شعوب تركيا وفلسطين والهند...".

وقال لورانس قنصل فرنسا في حلب في العام 1821 " حلب أجمل مدن السلطنة يحكمها باشا بثلاث شرابات أزقتها ضيقة ولكن بيوتها عامرة بالحجر الصلب..."

أما الشاعر الفرنسي المشهور لامارتين LAMARTINE فقد زار حلب وعاش طويلاً في حي الكتّاب حيث كان يسكن العديد من الأوربيين من السلك الدبلوماسي، وكان ذلك في العام 1830. وقد لقب حلب "بأثينا آسيا". كما أثنى على سمو ونبل أخلاق أهلها وتصرفاتهم المستحبة ووقارهم، وجاء ذلك في كتابه "رحلة إلى الشرق" الذي صدر في العام 1833. يضاف إلى هذا أنه وصف في إحدى قصائده سيدة حلبية وهي تدخن النركيلة قرب بركة ماء، وقد عزبها شعراً عيسى المعلوف ونشرتها مجلة الضياء. ويعتقد كما جاء في كتاب "بول بوران" PAUL Borain بأن السيدة هي Mme.JOrelle وهي أخت السيدة MOLINARI. وزار "لامارتين" بيروت بعد حلب حيث فقد ابنته جوليا البالغة الرابعة من عمرها والتي دفنت في مقبرة اللاتين فيها في العام 1832.

كما أن الكاتب المعروف شاتوبريان CHATEUBRIAND زار سورية وكتب عنها في كتابه" من باريس إلى القدس".

أيضاً هناك قس إنكليزي اسمه هنري مندريل HENRI MAUNDREEL مر بحلب في أثناء رحلته إلى الأراضي المقدسة وكتب عنها أيضاً.

أما في العام 1839 فقد زار حلب السيد أوزنيب دوسال EUSEBE DE SALLE الفرنسي، وكان أستاذ اللغات الشرقية الحية وعضو الجمعية الآسيوية، وأعجب بما رآه في منزل قرأ لي" قرب بوابة الياسمين من زخارف الفن النباتي، كما أعجب جداً بما شاهده في بيت صادر من المصنوعات الخشبية المزوقة في سقوفه، ثم قارن بين حلب والقاهرة قائلاً:"حلب تفضل القاهرة كما يفضل الحي على الميت فناً وحسن أخلاق" إلى أن قال وهو يجتاز طريقاً ضيقاً في حلب:" آه حقاً حلب ملكة الشرق".

وزار حلب أيضاً رامبليز الإنكليزي في العام 1859 وقال ": حلب هي لندن الصغرى". ومن أواخر الأجانب الذين ألفوا كتباً عن حلب الدكتور تيودور بيشوف الجرماني. وهو طبيب ألماني قدم إلى حلب في السنوات الأخيرة من العهد العثماني وعمل في تطبيب الجالية الإنكليزية فيها. وأصدر كتاباً اسمه "كتاب تحف الأنباء في

تاريخ حلب الشهباء" طبع في المطبعة الأدبية في بيروت سنة 1880. ويقول في مقدمة كتابه هذا السجع:" وحينما فارقت أهلي والأوطان وصرت اخترق ساحات البلدان. حللت بعون علام الغيوب. مدينة حلب الشهباء وقت الغروب. ولما وطئت حصاها. وتراءى لي السرور بمرآها. أقمت بها مطلوق السراح. وامتزجت مع سكانها امتزاج الماء بالراح. فعاشرت فيهم أولي الفضل والنباهة وأهل الظرف والنزاهة. والعالم النحرير. والغني والفقير. فألفيتهم أصحاب أخلاق رضية. وأفعال مرضية. ونفوس زكية. وألسن عربية فقطعت بينهم شرخ الشباب. أقتطف من العيش اللباب. وانشق رياحين الآداب.." ثم يتابع في سرد تاريخ هذه المدينة العريقة ومن تعاقب عليها من شعوب وأمم.. وهو كتاب من القطع الصغير يقع في مئة وثلاث وستين صفحة.

القرن العشرين:

ويقول موريس ميرسيه MAURICE MERCIER في العام 1920 "إنه رغم اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي كان قاتلاً للعديد من المدن في الشرق بحسب الميجور تايلور، ورغم السياسة الجمركية المجحفة التي دامت أكثر من قرنين ونصف ورغم شق قناة السويس، إلا أن كل هذه العوامل لم تستطع أن توقع مدينة حلب في الفوضى الاقتصادية، وهذا أكبر دليل على أن امكانات هذا البلد لا تنضب".

كما زار حلب ومكث فيها العديد من الشخصيات العسكرية والسياسية ورجالات الفكر الأدب في بدايات القرن العشرين وهذا دليل آخر على اهتمام الناس بهذه المدينة. وقد وجدنا في سجلات وأرشيف "فندق بارون" الذي افتتح في العام 1911 أسماء العديد من هذه الشخصيات أمثال "لورنس" و "الجنرال ديغول.. كما أمضت فيه وقتاً طويلاً على فترات متقطعة اعتباراً من العام 1935 القاصة الإنكليزية اغاثا كريستي التي اشتهرت برواياتها البوليسية، بينما كان زوجها السير ماكس مالوين SIR MAX MALLOWEN عالم الآثار ورئيس البعثة الأثرية الانكليزية في سورية. ينقب في منطقة جرابلس (كركميش) ولقد كانت اغاثا كريستي تمضي معظم أوقاتها جالسة على شرفة هذا الفندق تكتب وتؤلف. ومن أشهر ما كتبته في حلب "قطار الشرق السريع" القصة التي لاقت رواجاً كبيراً.

وهذا شبلي الملاط شاعر الأرز فقد قال يوم تكريمه في 26 أيار 1934 في نادي الشبيبة الكاثوليكية بحلب:

وددت لو أن في الشهباء داري إذا أزمعت عن وطني ارتحالا
وإن جار الزمـــان علـــيَّ فيـــه فلست أرى سوى حلب مـــآلا

وفي العام 1935 عندما زار حلب الأخطل الصغير بشارة الخوري بدعوة من السيد محمد سعيد الزعيم قال في حفل التكريم الذي أقيم له:

نفيت عنك العلى والظرف والأدبا وإن خلقت لها إن لم تزر حلبا
لو ألف المجد سفراً عن مفـــاخره لراح يكتب في عنوانه حلبـــا

أما **جان سوفاجيه** SAUVAGET عالم الآثار فقد قال في العام 1930: " قلَّ أن نجد في الشرق الأدنى مدينة تضارع مدينة حلب في ما تحتوي عليـــه مـــن الآثار العربية الإسلامية التي تعين على دراسة تاريخ العمارة الإسلامية ".
وفي الأربعينات من القرن الماضي ذكر في مقدمة مؤلفه الضخم والفريد عن تاريخ وحياة وطبيعة مدينة الشهباء الذي أسماه "حلب" ما يلي:
"يجتاز المسافر الأوروبي القادم شمالاً إلى حلب سهوباً متماثلة، ولا يجد كما هـــو الأمر في أوروبا ما يوحي له
بالاقتراب بالضرورة من مدينة كبرى ... فلا شيء في الأفق أو في الأرض يقوده إلى هذا الاستنتاج، ولكن الدمعة تنتابه على حين غرّة عندما تبرز أمامه في الأفـــق دون انتظار كتلة القلعة الضخمة والمدينة الكبيرة الملتفة حولهـــا بمآذنهـــا وقبابهـــا وأبنيتها وحدائقها وسمائها المشرقة وحياتها المليئة بالحركة .
ويتساءل هذا المسافر بحيرة عن السبب في وجود المدينة في ذلك المكان فلا يجـــد جواباً على تساؤله، إذ أن الكثير من الأمكنة التي مرّ بها في طريقه تصلح أكثر من هذا المكان لبناء المدينة. ويزداد عجباً حين يعلم بأزمة شح المياه التي قاست منهـــا حلب طويلاً، حين كان بالإمكان نقل المدينة إلى ضـــفاف الفـــرات القريـــب، ثـــم تتضاعف دمعته أيضاً حين يرى بعد ذلك أطلال المدن الأثرية التي عاصرت حلب في عهودها المختلفة، بل وفاقتها أحياناً، ثم اختفت أو تضاءلت أهميتها مثل قنسرين

والرصافة وأنطاكية وأفاميا... فيما لا تزال حلب صامدة شامخة... وقد يعترض قائلاً بأن هذه المدن تهدمت بنتيجة الحروب وتدمير الغزاة، ولكن حلب تعرضت عبر تاريخها الطويل الحافل إلى غزوات أشد هولاً والى دمار لا مثيل له في العنف"

ويتابع قائلاً عن سبب استمرارها وصمودها فيقول:"وأما السبب الآخر فهو إرادة الحلبيين، تلك الإرادة المكونة من صمود قديم قِدم المدينة، ومن ثقة لا حدَّ لها في وطنهم وخلوده ومستقبله، ومن رغبة جياشة فعالة في الدفاع عن أرض بلادهم وعن بقاء مدينتهم العتيدة ... وقد برهن كرُّ العصور التي لا عداد لها عن ثبات هذه الإرادة لدى جميع الأجيال التي تعاقبت على المدينة منذ الغزوات الحثية حتى عصرنا الحاضر، وكانت هذه الإرادة الراسخة الغريزية العامل الأساسي في انبعاث المدينة من جديد بعد كل كارثة تمر عليها وكل دمار يحل بها ..."

وهذا **بارتيليمي** A. BARTHELEMY الذي كان قنصلاً لفرنسا في هذه البلاد وأستاذ شرف في مدرسة اللغات الشرقية ومدير شرف في المدرسة التطبيقية للدروس العالية، يكتب معجماً عن " لهجات سورية (حلب،دمشق،لبنان والقدس) يصدره في باريس في العام 1935. ويكون بذلك قد سبق المغفور له خير الدين الأسدي صاحب موسوعة حلب. وفي كتابه هذا يأتي على ذكر وشرح العديد من الكلمات المستعملة حصراً في مدينة حلب مثل: " خيت وتشتش وتخت ..." وهذا دليل آخر على اهتمام الناس بهذه المدينة وبكل ما يخصها حتى لهجتها.

ولنا كلمة:

بعد هذه الجولة المطولة عن الرحالة وزائري حلب وما قالوه وكتبوه عنها لا يمكن أن ننهي لقاء هذا المساء بدون أن نؤكد بأننا نضم صوتنا الى صوت كل هؤلاء لنقول بأننا نحب حلب فهي التي أعادتنا من بلاد الغربة رغم المغريات الكثيرة والمناصب الكبيرة التي عُرضت علينا. نحبها لأنها حلب، ونضم صوتنا الى "جان هيرو" صاحب "كتاب سورية اليوم" الذي يقول:"حلب من بين جميع المدن السورية لها التأثير الأعمق على الزائر، انها بمنائرها التي تعلو غابة من المنازل قصيدة من الحجر رماديةٌ في النهار ومذهبة في المساء تظهر لأول وهلة من كل

جوانبها شبيهة بالانطباعات الرومانتيكية القديمة، لها مظهرٌ عمراني رائع مغلق بالضباب ومسحوق بالشمس".

والحلبيون كما قال "بول بوران" شديدو الاعتزاز ببلدهم: "إنه يوجد في قلب كل حلبي منطقة صغيرة حساسة جداً يجب أن نعرف كيف نصل اليها كي نحصل على ما نريد منه. وإن كان لغيرها من المدن سحرٌ خاص لكن اياكم أن تفضلوها على حلب. وإن أول سؤال يسأله الحلبي لأي كان من الزوار حتى وإن كان هذا الأخير في بداية زيارته هو: كيف وجدت حلب؟ هل أعجبتك؟ ويُسر الحلبي جداً إن كان الجواب ايجابياً وهذا من حقه." والكلام " لبول بوران " .

نحن نقول نعم "لبول بوران" إننا نحبها كما أحبها كلّ هؤلاء الرحّالة والشعراء والتجار والسياسيين والمؤرخين وعلماء الآثار منذ أقدم العصور، ورغم غاياتهم المختلفة. وإنَّ عدد الذين كتبوا عنها وعدد الكتب التي أُلّفت فيها لا يدل الا على شيءٍ واحد وهو أهميتها التاريخية والجغرافية والتجارية والأدبية والانسانية. فنحن فخورون بكلّ ذلك، وكلنا أمل بأننا، بحسن اهتمامنا بها، سنحث الكتّاب والمحللين على مواظبة الكتابة عنها للأجيال المقبلة، التي نريدها أن تكون فخورةً كما نحن، بانتمائها الى هذه المدينة العريقة الرائعة.

المصادر

1- رحلة ابن جبير ، دار صادر بيروت.
2- رحلة ابن بطوطة ، دار صادر بيروت.
3- مجلة العمران، مجلة علمية اجتماعية فكرية، حلب، عدد خاص، 1965.
4- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، دار الكتاب العربي، 1984.
5- حلب مدينة الماضي والحاضر والمستقبل، غرفة تجارة حلب،1989.
6- معالم حلب الأثرية، المهندس عبد الله حجار، 1990 .
7- محافظة حلب سلسلة بلادنا (1) د. عبد الرحمن حميدة ، منشورات وزارة الثقافة، 1992.
8- كتاب تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ، الدكتور تيودور بيشوف (الجرماني)، المطبعة الأدبية بيروت، 1880.
9- الكتاب نفسه تحقيق الدكتور شوقي شعث والأستاذ فالح بكور، الطبعة الثانية، 1992.
10- اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، المنسوب إلى إسماعيل أبي النداء، تحقيق محمد كمال وفالح البكور – منشورات دار
القلم العربي بحلب ، 1989.
11-حلب تاريخها ومعالمها التاريخية ، للدكتور شوقي شعث، منشورات جامعة حلب،1991
12- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، تأليف أبو الوفاء بن عمر الحلبي العرضي 993 – 1071 هجرية، حققه وشرحه الدكتور محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، 1978.
13- الإفرنج في حلب في القرن الثامن عشر، تعريب وشرح وديع عبد الله قسطون، مطبعة الضاد، 1969 .
14- تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، الكسندر وباتريك راسل، لندن، 1794 ترجمة خالد الجبيلي، حلب،1997 .
15- عاديات حلب ، الكتابان الثامن والتاسع، 1998.
16- دليل حلب السياحي، للسيدين فؤاد هلال ونديم فقش، 1994.
17- "معجم البلدان" للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، من سلسلة تراث العرب، 5 مجلدات، دار صادر بيروت، 1986.

18- "حباً في الاستطلاع" رحلة هولنديون إلى الشرق الأوسط في القـــرن الســـابع عشر، كورنيليس دوبراون وأولفرت دابر، كُتيب وزع في المعرض الذي نظمتـــه السفارة الملكية الهولندية في دمشق والمعهد الهولندي للشرق الأدنى، دمشق وحلب، 2001.

19- لويس فرانسوا كاساس 1756-1827 ورحلته إلى سورية، لجان غولميه، ترجمة فريد جحا، الحياة التشكيلية ص 220 - 225 ، 1986.

20 -ALEP AUTREFOIS AUJOURD'HUI, PAUL BORAIN, LIBRAIRIE CASTOUN - ALEP 1930.

21 - CHRONIQUE DE L'ECHELLE DE SYRIE, MAURICE MERCIER, PARIS ,1922 .

22 -LES ECHELLES DE SYRIE ET DE PALESTINE AU XVIII SIECLE, FR. CHARLES ROUX PARIS ,1928 .

23-DICTIONNAIRE ARABE – FRANCAIS , DIALECTES DE SYRIE , ALEP,DAMAS, LIBAN , JERUSALEM A. BARTHELEMY , PARIS ,1935.

موضوعات عامة

الفلكي الصوفي
وآثار أعماله في الشرق والغرب

الأستاذ الدكتور باول كونيتش
جامعة مونيخ- ألمانيا الغربية

من المعلوم انه كانت للعرب القدماء معرفة جيدة بالسماء والكواكب استدلوا بها على المواسم والأزمان واهتدوا بها في نقلاتهم في البر والبحر. كما وتعرف العرب، بعد فتوح بلدان الشرق الأوسط، على علوم اليونان وترجموا كثيراً من كتبهم العلمية ومن بينها الكتب الفلكية التي أهمها كتاب المجسطي لبطليموس القلوذي المؤلف أصلاً حوالي السنة 150 م والذي حصلت له عدة ترجمات عربية ما بين أواخر القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

من كبار الفلكيين المسلمين أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي الذي ولد في الري (قرب طهران) سنة 291هـ/903م وتوفي سنة 376هـ/986م، أي قبل ألف سنة تقريبا.

ترك الصوفي عدداً من المؤلفات في ميادين علم الفلك والآلات الفلكية وعلم أحكام النجوم وعلم الهندسة، تبقى منها إلى اليوم – حسب إحصاء فؤاد سيزكين في تأليفه حول المؤلفات العربية :1) رسالة في عمل أشكال متساوية الأضلاع،2)كتاب صور الكواكب، 3) كتاب العمل بالأسطرلاب، في عدد من الروايات المختلفة، 4)كتاب العمل بالكرة الفلكية، 5)كتاب المدخل إلى علم النجوم وأحكامها، 6)رسالة في تصحيح طالع عضد الدولة. هذا بالإضافة إلى بعض التصانيف أخرى التي لا نعرف منها إلا عناوينها ولم يُعثر إلى الآن على مخطوطات لها. وأضيف هنا أن الصوفي مع انه ولد في إيلان وقضى – كما يبدو – معظم حياته هناك في ظل حكام أسرة البويهيين، إلا انه ألف كتبه كلها باللغة العربية ويعتبر بالتالي من مجموعة العلماء التابعين للحضارة العربية الإسلامية بمعناها الوسع الشهير.

لم يقتصر نشاط الصوفي العلمي على التأليف فقط، بل إنما يبدو أنه قام كذلك بعمل الآلات الفلكية بنفسه. فقد ذكر ابن القفطي في "تاريخ الحكماء" (ص440) من رواية ابن السنبدي أن الوزير المصري أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي قام في سنة 435هـ/44-1043م باعتبار – أي بجرد – خزانة الكتب

بالقاهرة، حضر هذا الجرد ابن السنبدي بنفسه ورأى هناك "كرة سماوية من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة [البويهي] وزنها ثلثة آلاف درهم فقد اشتريت بثلثة آلاف دينار.

انفرد الصوفي بين العلماء الفلكيين العرب والإسلاميين في علم معرفة الكواكب الثابتة وأصبح في هذا العالم قطباً لمعاصريه ولكل الأجيال اللاحقة. وأصبح أهم مؤلفاته وأشهرها وأوسعها تأثيراً في الشرق والغرب كتابه في صور الكواكب الثابتة الثماني والأربعين.

يأتي الصوفي في هذا الكتاب بوصف دقيق لصور الكواكب الثماني والأربعين التي أثبتها بطليموس في جداول الكواكب الثابتة المضمومة إلى كتاب المجسطي. يصف الصوفي كل هذه الصور على إحدى محتفظا بتسلسل الصور حسب نظام بطليموس. وتضم صفته لكل صورة ما يلي: 1) وصفاً عاماً للصورة مع تعداد الكواكب الداخلة في الصورة، مع ذكر مواضعها حسب بطليموسي، ومع إضافة ملاحظاته المبنية على أرصاده هو لكل تلك الكواكب، وفي حالة الضرورة مع نقده لما ورد في المجسطي مقارناً بما وجده هو في أرصاده؛ 2)وصفاً مسهباً لأسماء الكواكب (الداخلة في تلك الصورة) من روايات العرب القدماء مع تحديده هوية كل كوكب منها من بين كواكب بطليموس؛ 3) رسمين للصورة، واحداً على ما ترى في السماء، وواحداً على ما ترى في الكرة حيث دائماً تكون الجهات اليمنى واليسرى والغربية والشرقية مقلوبة بالنسبة للمنظر الطبيعي في السماء؛ 4) جدولاً للكواكب الداخلة في تلك الصورة، على نمط جداول بطليموس، محتوياً على الطول والعرض والعظم لكل كوكب، أما الأعظام، أي أقدار الكواكب الضوئية، فقد أورد الأعظام التي جمعها هو بنفسه من خلال أرصاده بدلاً من تقليد أعظام المجسطي.

للأسف لا توجد حتى اليوم طبعة صحيحة لهذا الكتاب المهم. فقد نُشرت سنة 1874م ترجمة فرنسية للكتاب بقلم الدانماركي شيلروب وهي مبنية فقط على مخطوطتين متأخرتين نسبياً تعودان إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر م. ثم طبع النص العربي سنة 1954م في حيدر آباد في الهند، معتمدا على خمس مخطوطات قيمة، إلا أن الطبعة مكتظة بالأخطاء وخاصة في جداول الكواكب حيث صحح الناشرون بعض الأخطاء بخط اليد بالحبر الأسود، وأعيدت هذه الطبعة بشكلها المغلوط في بيروت سنة 1981م. ومن حسن الحظ فقد نشرت مؤخراً، على

شكل تصويري، من قبل معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت، أقدم مخطوطة للكتاب ألا وهي مخطوطة في مكتبة البودليان في أوكسفورد، نسخها الحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد – ويبدو انه ابن الصوفي نفسه- سنة 400هـ/ 10- 1009م.

أنتقل الآن إلى ذكر عدد من اشهر الفلكيين العرب والمسلمين الذين اعتمدوا على كتاب الصوفي وناقشوه أو انتقدوه فيما يتصل بأمر الكواكب الثابتة.

منهم البيروني العالم الشهير (973- 1048م) الذي، على سبيل المثال، يذكر الصوفي في كتابه "التفهيم" (ص72) حيث يورد شيئاً من كتاب الصوفي فيما يخص هيئة صورة" المرأة المسلمة". ثم أن نفس البيروني في كتابه الشهير "القانون المسعودي" يُكثر من ذكر الصوفي وخاصة في المقدمة لجداول الكواكب الثابتة في "القانون" (ص 1012) حيث ينوه بما قام به الصوفي من تصحيح المجسطي كما ويعيبه في نفس الآن على قلة هذه التصحيحات مع أن الصوفي كان مؤهلاً كل التأهيل لتصحيح أكثر من ذلك أو كله.

استأنف فيما بعد ابن الصلاح (المتوفى 1154م) هذا التأنيب في رسالته "في سبب الخطأ والتصحيف العارضين في جداول ...كتاب المجسطي..." (ص5 عربي/39 ألماني) رامياً الصوفي بنفس التهمة التي رماه بها البيروني، بل وعاتباً كذلك على البيروني نفسه وآخذاً عليه نفس المأخذ.

وبلا شك يعود السبب في هذه الاختلافات حول مواضع الكواكب أصلاً إلى أنه حصلت للمجسطي عدة ترجمات عربية مختلفة، كلها مبنية على مخطوطات يونانية مختلفة، مما أدى بالطبع إلى تباين ملحوظ في التفاصيل ما بين النسخ المختلفة. أما الصوفي فيقول في مقدمة كتابه (ص3 ط حيدر آباد) ما نصه:" إنا تأملنا نسخاً كثيرة لكتاب المجسطي ووجدنا بعضها يخالف بعضها في كواكب كثيرة". نستنتج من ذلك أنه لم يتبع في إثبات الكواكب نسخة معينة من المجسطي بل انه انتقى ما بدا له من النسخ والترجمات المختلفة.

وعلى ذلك فالغالب أن يرجع السبب في خلافات هؤلاء العلماء حول مواضع الكواكب إلى كثرة نسخ المجسطي التي اعتمدوا عليها. لذلك علينا أن نفهم الانتقادات الموجهة على الصوفي والبيروني في هذا الخصوص في حدود ظروفها التاريخية. أما الاختلافات بين الترجمات المختلفة للمجسطي فقد تعمق واختص في

دراستها بشكل علمي قريب من الأسلوب الحديث ابن الصلاح في رسالته المذكورة انفا.

أذكر بعد ذلك زكريا بن محمد القزويني (1203- 1283م) الذي ضم كتابه الشامل "عجائب المخلوقات" أوصافاً مفصلة لصور الكواكب الثابتة (ص29-41) ولمنازل القمر كذلك (ص41-51). وأثبتت المقارنة الدقيقة للنصوص أن الفقرة الخاصة بمنازل القمر مأخوذة بالحرف من "كتاب الأنواء" لابن قتيبة كما وأخذت الفقرة الخاصة بصور الكواكب حرفياً من كتاب الصوفي. عرض لي عند ذلك السؤال فيما هل نقل القزويني كلام الصوفي فقط أم انه نقل الصور المرسومة كذلك. وقمت لذلك بفحص أربع مخطوطات لكتاب"عجائب المخلوقات" موجود الأهلية بمونيخ ألا وهي المخطوطات العربية رقم 463- 466. وكانت النتيجة ان القزويني لم ينقل كلام الصوفي فقط فيما يخص صور الكواكب، بل أنه نقل الرسوم أيضاً، ولو لم تتناقلها كل المخطوطات لكتابه بل حُذفت من بعضها، لا شك من اجل تسهيل عملية النسخ والتقليل من نفقات نسخها.

أدت شهرة كتاب الصوفي وأهميته عند الفلكيين إلى عدد من الترجمات إلى الفارسية وإلى التركية أيضاً. وأشهر من ترجم كتاب الصوفي إلى الفارسية العلامة المعروف نصير الدين الطوسي (1201 – 1274م) وكان تاريخ ترجمته سنة 647هـ/1250م. أهم مخطوطة لهذه الترجمة هي المخطوطة آيا صوفيا رقم 2595 التي تحمل في أخرها التاريخ المذكور والتي يعتبرها بعض العلماء النسخة الأصلية من يبد الطوسي نفسه، أما انا فلا أتأكد من ذلك، لكن لا أهمية لهذه المسألة في مناسبة بحثنا هذا. عدا هذه الترجمة فقد ألف الطوسي فيما ألف رسالة فارسية في الإسطرلاب بعنوان"بيست باب" (أي الأبواب العشرون) ضمنها باباً حول الكواكب التي ينبغي رسمها في هذه الآلة. وقد اعتمد في أوصاف تلك الكواكب على أوصاف الصوفي على ما جاء في كتابه (وربما أيضاً في كتاب الصوفي في العمل بالإسطرلاب) وأخذ فيما بعد العالم الإنجليزي توماس هايد عدداً من أسماء الكواكب العربية الأصل المترجمة إلى الفارسية الواردة في هذه الرسالة وذكرها في كتاب له سوف يأتي ذكره فيما بعد، ولا يزال الفلكيون في كل العالم يستعملون بعضها في علم الفلك الحديث حتى الآن.

آخر الفلكيين الشرقيين الذي أ101.39.239.216]ف جداول كاملة للكواكب

على نمط جداول المجسطي كان ألغ بيك بن شاه رخ بن تيمور (1394-1449م) حفيد تيمور ملك المغول الذي كان لهم بنفسه من سنة 1447 إلى 1449م والذي هو معروف بميله لعلم الفلك. جمع ألغ بيك حوله عدداً من علماء الفلك وأسس مرصداً في سمرقند ما زالت بقاياه موجودة هناك حتى الآن وألف بمعاونة هؤلاء الفلكيين زيجه المعروف بعنوانه الفارسي"زيج جديد سلطاني". أما جداول الكواكب التي أوردها زيجه هذا فقد اعتمد فيها- حسب نص أقواله في مقدمة الجداول - على كتاب الصوفي في أوسع نطاق. فقد لاحظ المستشرقون من زمان أن نصوص أوصاف الكواكب في جداول ألغ بيك لم تكن إلا عبارة عن ترجمة فارسية للأوصاف الواردة في كتاب الصوفي. وعند هذا تساءلت أنا كيف قرأ ألغ بيك كتاب الصوفي الذي هو مكتوب بالعربية وكيف ترجمه إلى الفارسية. وقمت لذلك بمقارنة دقيقة بين نص جداول ألغ بيك من جهة وبين نص الترجمة الفارسية التي قام بها الطوسي لكتاب الصوفي من جهة الأخرى.فوجدت أن نص ألغ بيك في أوصاف الكواكب يساوي حرفياً نص الطوسي. فتبين بذلك أن ألغ بيك لم يقرأ كتاب الصوفي بنصه العربي الأصلي بل أنه قرأ الترجمة الفارسية للطوسي لهذا الكتاب واتخذها أساساً لنص جداوله.

ليكفنا هذا من ذكر آثار كتاب الصوفي عند الفلكيين العرب والمسلمين في مختلف العصور. وإنما بقي علينا أن نضيف أن معظم صناع الكرات السماوية في الشرق الإسلامي استعملوا كتاب الصوفي عند وضع الكواكب في آلاتهم، من حيث المواقع والأسماء وأشكال الصورة وكثيرون منهم أثبتوا اسمه بالحرف على آلاتهم للدليل على صحة عملهم من الناحية العلمية.

هكذا ما زال كتاب صور الكواكب للصوفي يمارس نفوذه في الشرق الإسلامي عبر القرون يدين له أشهر الفلكيين الكبار وكثير من العلماء الآخرين بمعلوماتهم في أمر الكواكب الثابتة وصورها.

لنترك الآن الشرق ولنتجه إلى الغرب للبحث في آثار كتاب الصوفي عند الأوربيين. وهنا أقول أولاً: إنما لم يكن كتاب الصوفي من بين الكتب العلمية العربية التي ترجمت إلى اللاتينية في إطار حركة الترجمة الشهيرة في الأندلس في القرن الثاني عشر م. ولذلك فتكون كل نقاط تعرّف الأوربيين على هذا الكتاب خارج تلك الحركة المذكورة.

سوف أسرد فيما يلي ست نقاط التعرف المباشر للأوربيين على كتاب الصوفي والتي تتوزع على القرون الثالث عشر إلى التاسع عشر م.

أذكر إلى جانب ذلك أن اسم الصوفي ورد أيضاً في بعض الكتابات العربية الأخرى التي تلقاها الغربيون، هكذا عرفوا اسم الرجل وبعض ما نسب إليه من المعلومات الفلكية من كتاب "أصول الزيجات الفلكية" للعالم اليهودية الأندلسي ابراهام بن عزرا (في وسط القرن الثاني عشر م). قد وضع كتابه على ما يبدو باللاتينية، وجاء فيه ذكر الصوفي مراراً بشكل "Azophi" وسوف نلقى هذه الصيغة اللاتينية لاسم الصوفي فيما بعد.

آتي الآن على النقطة الأولى من نقاط تعرف الغرب على كتاب الصوفي، ويبدو أن نقطة التعرف هذه كانت في صقلية في القرن الثالث عشر م. فإنه وجدت للآن ثماني مخطوطات لاتينية تحوي ما أطلق عليه "المجموعة الصوفية".

تتكون هذه المجموعة من عدة عناصر أولها وأهمها جدول كامل الكويكبات والكواكب على شكل جدول المجسطي. وفعلاً يكون نص أوصاف الكواكب في هذا الجدول نص الترجمة اللاتينية للمجسطي التي قام بها جيرارد الكريموني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر م في طليطلة مترجماً من العربية إلى اللاتينية. وذلك يعني بكلمات أخرى أن نص هذا الجدول ليس بنص كتاب الصوفي بل إنما هو نص المجسطي المترجم من العربية إلى اللاتيني. إلا أن شخصاً مجهولاً حوّل أطوال الكواكب في هذا الجدول إلى أطوال الصوفي مضيفاً إلى الأطوال الأصلية الزيادة التي أضافها الصوفي إلى أطوال المجسطي ألا وهي 12 درجة و42 دقيقة. كما وأضاف هذا المصنف المجهول إلى الجدول رسوم الكوكبات التي وردت في كتاب الصوفي رسماً واحداً لكل كوكبة فقط بدلاً من الرسمين عند الصوفي). وذكر في عنوان الجدول اسم الصوفي بشكل لاتيني. وذكر كذلك سنة أصل جداول الصوفي بالتاريخ الهجري وغلط هنا أيضاً إذ جعل السنة 325 بدلاً من 352 التي تساوي تقريباً التاريخ الحقيقي الذي يذكره الصوفي نفسه ألا وهو أول سنة 1276 لذي القرنين /1 أكتوبر 964م. هذه هي العناصر الصوفية الأصلية الموجودة في تلك "المجموعة الصوفية اللاتينية". ومن المرجح أن تصنيف المجموعة وقع في القرن الثالث عشر ما بين 1231 و 1270م، ويقرب بالتالي من مدة حكم الإمبراطور فريديريك الثاني الألماني في صقلية التي دامت من سنة

1212 إلى 1250م.

أما نقطة التعرف الثانية فهي في الأندلس في القرن الثالث عشر م، وبالضبط في بلاط ألفونسو العاشر ملك قشتالة(ومدة حكمه 1252- 1284م) الذي هو معروف بميله إلى العلوم والآداب. فقد جمع حوله عدداً من العلماء المجيدين للغة العربية ولغيرها من اللغات المستعملة في العلوم، وألفوا بأمره وتحت رعايته باللغة الأسبانية القديمة مجموعة كبيرة من الرسائل حول الآلات الفلكية وبعض المعاني الفلكية المهمة، بعضها مترجمة عن كتب عربية والبعض مؤلفة استناداً إلى نماذج عربية.

عُرفت هذه المجموعة باسم" كتب المعرفة في علم الفلك" وتتكون من 18 رسالة أو كتاباً. وتُفتتح المجموعة بـ"كتاب الكواكب الثابتة" وليس هذا الكتاب إلا تحريراً حراً لكتاب الصوفي باللغة الأسبانية القديمة نجد فيه كل التفاصيل الواردة في كتاب الصوفي.

وذكر اسم الصوفي مرة في سياق نص الكتاب، وذلك بكنيته"أبو الحسين". وقد حصلت لمجموعة ألفونسو العاشر الأسبانية في سنة 1341م ترجمة إلى الإيطالية القديمة ما زالت توجد لها مخطوطة واحدة إلى الآن في مكتبة الفاتيكان في روما. لم تؤثر هذه المجموعة الأسبانية كثيراً في تطوير العلوم في الغرب خارج أسبانيا إذ ما زالت اللغة اللاتينية هي لغة العلوم ولم يهتم العلماء كثيراً بما كتب بغيرها.

أما نقطة التعرف الثالثة فكانت في ألمانيا في السنوات ما بين 12530 و 1540م. فقد ألف آنذاك بيتر آبيان، أستاذ الرياضيات في جامعة إينغولشتات الألمانية (وهي الأم التي انحدرت منها فيما بعد جامعة مونيخ) عدداً من الكتب الفلكية أوردها بعض أسماء الكواكب وحتى صوراً لبعضها اقتبسها بطريقة ما من كتاب الصوفي. ولن أمس الموضوع هنا بالتفصيل، فقد خصصت لبيتر آبيان محاضرة بذاتها بمناسبة مؤتمر الصوفي وابن النفيس المنعقد في عمان سنة 1987.

نقطة التعرف الرابعة بين الغرب وكتاب الصوفي متصلة بهولندا. فقد حمل المستشرق الهولندي الشهير ياكوب غوليوس من إحدى رحلاته في الشرق مخطوطة لكتاب الصوفي – وهي تلك المخطوطة القيمة المذكورة آنفاً التي نسخها ابن الصوفي في سنة 400هـ/10-1009م، والتي انتهت بعد وفاة غوليوس إلى

حوزة مكتبة البودليان في أكسفورد. وعندما أراد صانع الكرات السماوية ياكوب كولوم الهولندي حوالي السنة 1635م إنتاج كرة سماوية ذات القطر 34 سم ناوله غوليوس أسماء الكوكبات وأهم الكواكب العربية على ما تأتى في كتاب الصوفي لوضعها على تلك الكرة. وتمكن بذلك كولوم من أن يثبت في كرته هذه الأسماء العربية بشكلها الصحيح – بالعكس من بعض صانعي الكرات الغربية الآخرين الذين ضموا كراتهم أسماء عربية خيالية أحياناً وغير صحيحة محرفة غالباً. جاء إدخال الأسماء الصوفية على تلك الكرة السماوية بدون ذكر اسم الصوفي، ولكن ثبت بالبحث والدراسة هذا التسلسل في نقل المعلومات ما بين الصوفي والمستشرق غوليوس وصانع الكرات كولوم.

نتحول بعد ذلك إلى نقطة التعرف الخامسة التي كانت في إنجلترا في القرن السابع عشر م، حيث قام العالم المستشرق الإنجليزي تماس هايد في أوكسفورد بتحقيق جداول الكواكب الواردة في زيج ألغ بيك التي سبق ذكرها. فقد أصدر هايد في سنة 1665م جداول ألغ بيك بنصها الفارسي مصحوباً بترجمة لاتينية من قلمه. كما وأضاف إلى ذلك حواشي كثيرة مهمة استعمل فيها عدداً كبيراً من المؤلفات الفكية وغيرها باللغات الشرقية المختلفة، من بينها رسالة "بيست باب" في الإسطرلاب للطوسي التي تحوي عدداً من أسماء الكواكب الصوفية مترجمة بالفارسية، وكذلك كتاب الصوفي نفسه. وأصبح لكتاب هايد فيما بعد تأثير مهم في علم الفلك إذ اختار منه الفلكي الإيطالي جيوسيبي بياتسي نحو مائة اسم عربي للكواكب وأدخلها في جداوله للكواكب في نشرتها الثانية المجددة في سنة 1814م. ودخل بذلك عدد كبير من أسماء الكواكب الواردة في كتاب الصوفي في علم الفلك الحديث، عن طريق توماس هايد وجيوسيبي بياتسي.

تبقى لنا بعد ذلك نقطة التعرف السادسة وهي كانت في ألمانيا في القرن التاسع عشر، حيث أصدر المؤرخ والفلكي لودفيك إيدلر نص الفقرة الخاصة بصور الكواكب من كتاب " عجائب المخلوقات" للقزويني/ بنصها العربي مصحوبا بصور بترجمة ألمانية وبشرح مطول مستفيض. وصدر كتابه في برلين في سنة 1809م. استعمل ايدلر في كتابه وفرة من المصادر الكلاسيكية الغربية و عدداً من المصادر الشرقية. وللأسف لم يكن كتاب الصوفي منها وربما ذلك لأن مخطوطة له لم تكن في متناول يديه آنذاك. ومع ذلك كان يعرف أهمية كتاب الصوفي وكان على إطلاع

على ما ذكره منه توماس هايد في كتابه سنة 1665.

من الناحية الأخرى نعلم أن فقرة كتاب القزويني المعنية ليست إلا مقتطفات مستخرجة من كتاب الصوفي. وعلى هذا السبيل فقد انعكس عمل الصوفي في كتاب ايدلر أيضاً، ويعود ما كان لكتاب ايدلر فيما بعد من تأثير في علم الفلك الحديث من ناحية تسمية الكواكب، يعود ذلك أصلاً إلى الصوفي نفسه.

سبق لي أن ذكرت الصيغة اللاتينية لاسم الصوفي التي ابتكرها أبراهام بن ع زرا في القرن الثاني عشر وهي Azophi وأشير إلى أن هذه الصيغة شاعت فيما بعد وحازت على شهرة واسعة عندما نشرت في نورمبرغ/ألمانيا، سنة 151، الخريطتان السماويتان التي وضعهما الفنان الرسام الألماني الشهير ألبرشت دورر، بالمعاونة مع اثنين من العلماء الرياضيين والفلكيين المقيمين في مدينة نورمبرغ أيضا واللذين من أصدقائه. فقد أضاف دورر إلى خريطة النصف الشمالي من السماء صوراً خيالية لأربعة فلكيين مشهورين رمزاً لمساهمة الشعوب والحضارات المختلفة في تطوير علم الكواكب الثابتة. وهنا وضع في الركن الأسفل الأيمن صورة للصوفي مضيفاً فوقها اسمه باللاتينية.

وفي ختام محاضرتي أضيف أن الفلكي الإيطالي اليسوعي يوحنا باتيتستا ريتشيولي اتخذ هذا الاسم بهذه الصيغة اللاتينية المذكورة وأطلقه على إحدى فوهات القمر عندما وضع خريطة لوجه القمر قد نُشرت في كتاب له سنة 1651م. وتمسك فيما بعد علماء الفلك بنظام ريتشولي في تسمية فوهات القمر وجباله وبحاره وأثبتوه كنظام رسمي لتسمية القمر في علم الفلك الحديث. وأصبح بذلك للصوفي مكان على وجه القمر وحاز اسمه على شرف التخليد في عالم العلم إلى الأبد.

الصراع الدولي حول بيت المقدس في العصور الوسطى
(القرن الحادي عشر - الرابع عشر الميلادي)

د.شوقي شعث

مقدمة:

كان المشهد السياسي في آسيا الغربية في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي يتميز بالفرقة والتشرذم، فهناك الخلافة العباسية وفي بغداد الضعيفة التي يسيطر عليها السلاجقة وهم الترك الغز وهناك الممالك والإمارات الصغيرة والمشيخات العربية في بلاد الشام التي كانت تتنافس فيما بينها وإلى الجنوب هناك الفاطميون الشيعة في مصر الذين كانوا يترقبون كل ما يحدث. وبالمقابل كانت هناك القوى المسيحية التي تتمثل في الدولة البيزنطية التي كانت تمثل للمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين وإلى الغرب منها في أوربا كانت هناك الممالك الإفرنجية الكاثوليكية والبابوية المسيحية الكاثوليكية.

كان لكل قوة من قوى الصراع تلك دوافع متعددة في الصراع، لكن محور الصراع المعلن كانت السيطرة على بيت المقدس، المدينة المقدسة عند المسلمين سنة وشيعة وإسماعيلية وعند المسيحيين كاثوليك وأرثوذكس وغيرهم، لقد تصدر العامل الديني كل العوامل وبدت الحرب بين جميع الأطراف وكأنها حرب دينية مقدسة في مراحلها الأولى على الأقل.

بدت معركة مناز كرد (ملاز كرد) عام 1071م بين السلاجقة بقيادة ألب أرسلان والإمبراطور البيزنطي لأول مرة رومانس الرابع ديجانيس التي انتصر فيها السلاجقة على البيزنطيين وأسر الإمبراطور، وقضت على تطلعاتهم أي البيزنطيين في استرداد بيت المقدس[1] بعد أن تفرق شملهم، هنا استشعر البيزنطيون الخطر الداهم، القادم من الشرق، فارتفعت الأصوات منددة به ومحذرة مما هو قادم، وأرسلت السفارات إلى الغرب تستنهضه وتطلب المساعدة في وقف التقدم السلجوقي التركي، مذكرة بأن الخطر القادم من الشرق سيحتاج الغرب كله وسيسلب حقوقه لسياسية. وانطلاقاً من هذا، وانطلاقاً من الكره المتركز في نفوس الإفرنج ضد العرب والمسلمين قامت قيامة الغرب كله منددة بالعرب والمسلمين داعية إلى الانتقام منهم أي من الكفرة والقتلة والسفاحين على حد تعبيرهم فعقدت

---

[1] ـ ماجد عبد المنعم: بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة، مجلة التاريخ العربي، عدد 11 (1999) ص 167.

المؤتمرات وأقيمت المهرجانات الشعبية والدينية لتعبئة الناس للقيام بحملات عسكرية إلى الشرق لاستخلاص بيت المقدس ليصبح الحج المسيحي إلى هناك آمناً لكل المسيحيين من الإفرنج وغيرهم. كما قام البابا أوربان الثاني بعقد مؤتمر كليرمونت ودعا المسيحيين إلى المساهمة بتلك الحملات، ومنح كل من يشترك بتلك الحملات بالغفران وطلب الرحمة له من عند الرب، كما وعدهم بكل الخيرات، ناهيك عن أن الاشتراك بالحملات واجب ديني مقدس.

يصف جوزيف نسيم مؤرخ الحروب الصليبية حالة الغرب الأوربي في تلك الفترة قائلاً: (كان أهل الغرب الأوربي يتوقون في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي للاستيلاء والسيطرة على العالم العربي والإسلامي بالاستيلاء على أرضه وتأسيس الممالك والإمارات لحسابهم الخاص متسترين بالدين والرغبة في إنقاذ قبر المسيح لتحقيق غاياتهم، فأخذوا أولاً الأرض المقدسة من اجل تحرير القبر المقدس)[2] ويضيف نفس المؤرخ ذاكراً انه (باسم الدين وتحت راية الصليب، هاجم الإفرنج مصر والشام وشمال أفريقيا، كذلك باسم الدين وتحت راية الصليب تعددت الحملات العدوانية الاستعمارية منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر، تلك الحملات التي لم يكتب لها النجاح في نهاية الأمر وعادت من جديد وإن تميزت المرحلة الأولى من تلك الحملات بالاستقرار في سوريا وفلسطين)[3].

أما الدولة البيزنطية التي حرضت المسيحية على القيام بالحملات الصليبية عن معركة اليرموك التي هزمت فيها أمام المسلمين عند قدومهم إلى سوريا، وعن معركة مناز كرت، وعن غيرها من المواقع للمحافظة على أملاكها وعلى عقيدتها، إلا أنها لم تفلح ولقد سلبها اللاتين كل شيء حتى انهم عزلوا الإمبراطور البيزنطي وعينوا مكانه إمبراطورا لاتينياً في بيزنطة، كما عزلوا البطريرك الأرثوذكسي وعينوا مكانه آخر كاثوليكياً.

لم تؤثر معركة مناز كرد على البيزنطيين فقط، بل امتد أثرها إلى منافس آخر من المعسكر الإسلامي ألا وهو الفاطميون، فقد شعر هؤلاء بتوجه السلاجقة نحو الشام واحتلالها، حينها سارعوا إلى أخذ بيت المقدس ووضعوا نائباً عنهم فيها،

---

[2] - يوسف جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت 1981، مكتبة الحروب الصليبية، ص 287.

[3] - نفس المرجع: ص 288.

سماه الناس" نائب المصري"، وخصّوه بحامية مصرية من سودان مصر والمصامدة البربر[4]، وينقل عبد المنعم ماجد عن المؤرخ سبط بن الجوزي، الذي انفرد بأخبار مفصلة عن تحركات السلاجقة نحو بيت المقدس على حد قول ماجد: لقد أمر تتش حاكم سورية السلجوقي قائده اتسز بأخذ جنوب الشام وبيت المقدس فأخـذها عـام 465هـ/1073م والذي كان بأيدي الفاطميين منذ وصولهم إلى مصر، لقـد أخـذ اتسز بيت المقدس دون إراقة دماء، ونادى على منابر بيت المقدس للقائم بأمر الله العباسي والسلطان السلجوقي. إلا أن الفاطميين الذين حرصوا على الاحتفاظ ببيـت المقدس لم يسلموا بالأمر، فيذكر ابن تغرة بردي في كتابه "النجوم الزاهـرة فـي أخبار مصر والقاهرة "(ج4،ص72،س7)، إن من أسباب قدوم الفاطميين إلى مصر هو خوفهم من استيلاء البيزنطيين على بلاد الشام، وفي هذا السياق يتحدث المعـز لدين الله الخليفة الفاطمي أمام جماعة من المصريين من أهـل الفسـطاط جـاءوا لاستقباله"إنه لم يسر لازدياد في ملك ولا رجال وإنما جاء للجهـاد ضـد الـروم البيزنطيين".[5]

بعد أخذ بيت المقدس سار اتسز إلى مصر زاعماً أنه يريد القضاء علـى الدولة الفاطمية التي كانت تخالف السلاجقة في المذهب فكانوا يقولـون لا بـد أن يكون العالم الإسلامي كله سنياً، إلا أن حملته باءت بالفشل إذ هزم الجيش الفاطمي بقيادة بدر الجمالي الوزير الفاطمي القوي، وبهذه الهزيمة خرجت بيت المقدس من أيدي السلاجقة وعادت إلى الحكم الفاطمي وجعلوا عليها نائباً رجلاً "افتخار الدولة" وقد ظلت بيت المقدس في قبضة الفاطميين حتى مجيء الإفرنج الصليبيين وأخذها منهم[6].

رأينا في الصفحات السابقة، أن السـلاجقة، ومـن ورائهـم العباسـيون، والإمبراطورية البيزنطية في بيزنطة والخلافة الفاطمية في القاهرة بمصر وأخيـراً الإفرنج الصليبيين، فقد كان كل منهم يسعى للاستحواذ على بيت المقـدس، ففـي القدس مقدسات إسلامية مثل المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة وعـدد كبير من الأضرحة الإسلامية التي لأصحابها دور بارز في التاريخ الإسلامي[7]، كما

4_ ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 11، ص 167.
5_ ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 11، ص161-ص162.
6_ ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 11،ص 168.
7_العسلي الكامل: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، الأردن.

أن القدس هي المكان الذي أسري منه بالرسول الكريم وهي القبلة الأولى للمسلمين، وهذه الأسباب وغيرها جعلت المدينة مقدسة عند المسلمين. وهي عند النصارى مقدسة لاعتقادهم أن السيد المسيح هو ملك القدس وبها كنيسة القيامة وكنيسة الجسمانية ويشترك في هذا نصارى بيزنطة الأرثوذكس ونصارى الإفرنج الصليبيون الكاثوليك: ومن هنا جاء الصراع على بيت المقدس والتنافس من أجل السيطرة عليها واستمر ذلك زمناً طويلاً[8]. والآن فما هو دور كل من تلك القوى في ذلك الصراع.

البيزنطيون:

كان البيزنطيون يعتبرون أنفسهم بتلك الصفة للدولة الساسانية والدول المعاصرة لهم كالخلافة العباسية والدولة الفاطمية في مصر وحتى لدول الاسم بالأندلس، فقد عرفنا في السابق أن الفاطميون إنما جاءوا إلى مصر لإنقاذ بيت المقدس وحمايته من الروم البيزنطيين، فقد ورد ذلك في خطبة الخليفة الفاطمي التي ألقاها في وفد من أهالي الفسطاط، كما مر معنا في الصفحات السابقة، وعليه فقد اعتبر الفاطميون منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر، مبدأ الجهاد، دعامة من دعائم الإسلام وركناً من أركانه[9]. ومما يشير إلى تلك الحماية البيزنطية هي انه في عام 624م هاجم الساسانيون القدس وأخذوا الصليب الخشبي من كنيسة القيامة بالقدس وعندما عقد السلم الدائم بين الدولتين كان في مقدمة شروط الدولة البيزنطية استعادة الصليب الخشبي لإعادته إلى مكانه بالقدس، وقد تم بالفعل ذلك حيث تم تسليم الصليب إلى البيزنطيين بمدينة حلب السورية[10].

لقد وجد البيزنطيون معارضة شديدة من الفاطميين في أول استقرارهم في مصر لأسباب كثيرة منها: أن البيزنطيون كانوا يطمعون دائماً بالعودة إلى سوريا ومصر على اعتبار أنها كانت سابقاً من ممتلكاتهم، ومنها أنهم كانوا دائما يسعون لحماية المسيحيين في مصر والشام، ولما كانت الدولة الفاطمية قوية في أول أمرها

---

[8] -كانت القدس وما فيها من الأمكنة المقدسة المسيحية محجا للمسيحيين على مختلف مذاهبهم لذلك حرصت بيزنطة والغرب المسيحي على أن تظل القدس مفتوحة دون عائق للزيارة والحج أمام المسيحيين، انظر (الدكتور أحمد حطيط، التاريخ العربي عدد 12) (2000).

[9] -ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 11، ص 161- ص162.

[10] -شعث شوقي: قلعة حلب: ص25، دار القلم العربي، 1996.

حيث كانت تملك جيشاً قوياً واقتصاداً مزدهراً، فقد قاتلوا البيزنطيين بشدة وبوسائل متعددة، وخاصة في عهد حكم يوحنا تزيميسكيس 363هـ/973م وباسيل الثاني 375هـ/985م. وفي عام 397هـ/1001م عقدت هدنة بين الحاكم بأمر الله الفاطمي والبيزنطيين مدتها عشر أعوام، وعندما علم الخليفة الفاطمي أن البيزنطيين ينوون نقض الهدنة عام 400هـ/1009م، أوعز بهدم كنيسة القيامة بالقدس(بيت المقدس) نكاية بالبيزنطيين حتى لا يتخذون حمايتها حجة لهم بالتحرك نحو بيت المقدس وفرض لبس السواد على المسيحيين حتى يعرف المسلم من المسيحي، ثم بدأ يجبر البيزنطيين على الخروج من مصر[11]. أمام هذه الضغوط اضطر الروم البيزنطيين إلى تجديد الهدنة مقابل السماح لهم بإعادة بناء كنيسة القيامة، كما سمح لهم بزيارة الأماكن المسيحية المقدسة ببيت المقدس والحج إليها.

يتحدث وليم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية، وهو يمثل وجهة نظر الإفرنج في كتاباته، بأن الفاطميين عاملوا الحجاج الذين زاروا بيت المقدس من النصارى معاملة حسنة[12] كتلك المعاملة التي وجدوها أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وكان الخليفة الفاطمي العزيز بالله متسامحاً تسامحاً كبيراً مع النصارى واليهود الذين كانوا يزورون بيت المقدس بحرية تامة[13] ولعل ذلك كان يهدف لفك ارتباط النصارى بالبيزنطيين.

كانت الأخطار البيزنطية محدقة ببلاد الشام وتهدد المصالح الفاطمية فيها ومن أجل ذلك رأى الفاطميون ضرورة وحدة مصر والشام للوقوف في وجه تلك الأخطار[14]، لقد سعى الفاطميون بضرورة عقد تحالف مع الممالك الإسلامية التي كانت تحكم بلاد الشام واحتلال ما يمكن احتلاله منها، فنجدهم يتعاونون مع الحمدانيين بحلب والذين وقفوا طويلاً في وجه البيزنطيين وكبدوهم خسائر كبيرة، كما تحالفوا مع المرداسيين الذين أكملوا دور الحمدانيين بعد سقوطهم وانحلال دولتهم.

بعد معركة ملاذ كرد عام 1071م، التي مر ذكرها سابقاً، ظهر منافس

11-ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 1، ص 163، الحباري مصطفى: القدس نحن حكم الصليبيين، القدس في التاريخ، ص 168-ص169.

12- ماجد عبد المنعم: نفس المصدر، ص 164.

13- ماجد عبد المنعم: نفس المرجع ونفس الصفحة.

14-ريلي سميث جوناثان: ما الحرب الصليبية، ترجمة د.محمد فتحي الشاعر: 1، 1999 ص14-ص18.

جديد للبيزنطيين والفاطميين ألا وهو السلاجقة، وسنرى طبيعة علاقتهم مع الفاطميين فيما بعد، إلا أنه من الضروري الآن التحدث عن طبيعة علاقتهم مع البيزنطيين، لقد استشعر البيزنطيون الخطر السلجوقي إثر معركة ملاذ كرد المشهورة فكانت أول إشارة خطر تدق باب البيزنطيين والغرب، عندها سارع البيزنطيون للاستنجاد بالغرب الأوربي من الخطر الإسلامي التركي القادم من الشرق، وهو إن تمكن لن يفرق بين مسيحي شرقي أرثوذكسي أو مسيحي غربي كاثوليكي، وهنا هب الغرب الكاثوليكي إلى نجدة الشرق الأرثوذكسي البيزنطي، لا شك أن الغرب الأوروبي كان في ذلك الوقت مثقل بتراكمات الكراهية ضد المشرق وجاءت فرصة استنجاد البيزنطيين سانحة لغزو الشرق لأسباب كثيرة مرتبطة بكراهية دينية تحمل في ثناياها رغبة في تأمين طريق الحج المسيحي إلى بيت المقدس وتخليص القبر المقدس وكنيسة القيامة من أيدي الكفار. على حد تعبيرهم على نحو ما مر معنا سابقاً.

فهل نجح البيزنطيون في مسعاهم هذا؟

لقد نجح البيزنطيون في إثارة الغرب الكاثوليكي ضد الشرق المسلم، ووضعت قواعد وأصول للحرب ضد الشرق، فكان الغفران يمنح لكل من يشارك في الحملات الصليبية على بيت المقدس أو الدفاع عن النفوذ الصليبي في الشرق الإسلامي، وأشاعوا بين الناس المسيحيين أن تلك الحروب إنما هي حروب مشروعة وعادلة، تدور رحاها من اجل استرداد الممتلكات المسيحية وتصد هجوم العدو وهي بهذا تهدف إلى هدف قويم ومشروع[15]، وكانت بيت المقدس منذ البداية لها الأولوية في فكر البابا أوربان الثاني[16]. وعلى سائر المشارع الكنسية. ومن اجل ذلك عقد أساقفة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا في الأسبوع الأول من شهر آذار عام 1095م. مجمعاً كنسيا في "بباشنيترا" واشترك في هذا المؤتمر الإمبراطور البيزنطي الكسوس الأول كومنيوس (Alexius 1 Commenus)، وكان الغرض من ذلك الاجتماع هو حث الحبر الأعظم وسكان غرب أوربا للدفاع عن الكنيسة الشرقية ضد خطر الأتراك السلاجقة، فاستجاب البابا ورد بعظة دينية تشجع الناس على ما هو مطلوب وطالب الناس بمساعدة الإمبراطور البيزنطي. وفي 18 نوفمبر

---

[15]– ريلي سميث جوناثان: نفس المرجع، ص 29.

[16]–ريلي سميث جوناثان: نفس المرجع ص28.

عقد مجمع كليرمونت في فرنسا، افتتح البابا المجمع وبعد انتهاء أعماله وانفضاضه، خطب البابا أوربان الثاني في الجموع المحتشدة معلناً بدء الحملة الصليبية الأولى.

عندما توجهت الحملات الصليبية إلى الشرق اتخذوا من بيزنطة محطة هامة للتوجه إلى الشرق، إلا أنهم عاملوا البيزنطيين معاملة مهينة ولم يسمحوا لهم بتولي مراكز هامة في الحروب الصليبية على اعتبار أنهم شركائهم في الحرب بل زادوا أكثر من ذلك بأن عزلوا الإمبراطور البيزنطي وولوا مكانه إمبراطوراً خاضعاً لهم كما عزلوا البطريرك الأرثوذكسي وعينوا مكانه بطريركاً كاثوليكياً، وعملوا أفعالاً كثيرة ساعدت على توسيع شقة الخلاف بين الطرفين البيزنطي والإفرنجي.

ظل البيزنطيون في صراع دائم مع جيرانهم المسلمين منذ طردهم عام 636م، من بلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد العربية وظلوا يحلمون بالعودة إلى الأرض التي فقدوها ولكن دون نجاح. ففي سبيل خططها الرامية إلى توسيع رقعتها وإيجاد مكان لها في حلبة الصراع، فكم مرة تهاونت مع العباسيين ومع الإمارات التابعة لهم، وكم مرة تهاونت مع الفاطميين وعقدت تحالفات معهم، إلا أن ذلك لم ينقذها من قدرها المحتوم ألا وهو سقوطها عام 1452م[17] على يد الأتراك العثمانيين المسلمين بقيادة محمد الفاتح بعد أن أصبحت ضعيفة جداً محصورة في رقعة صغيرة من الأرض.

الفاطميون في مصر:

مر معنا أن الفاطميين ما جاءوا من أفريقيا إلى مصر إلا للوقوف في وجه الإمبراطورية البيزنطية وحماية بيت المقدس لتظل في أيدي المسلمين، لقد حاولوا أن يكون لهم موطأ قدم في بلاد الشام وربما ساعدهم في ذلك انتشار التشيع فقد أصبحت بلاد الشام حتى بغداد في وقت من الأوقات شيعية، فالحمدانيون في حلب وجاء بعدهم المرداسيون وغيرهم من الإمارات كانوا شيعة حتى بغداد. حتى يصبحوا في مواجهة البيزنطيين ساروا شمالاً وأصبح الحمدانيون موالين للفاطميين وجاء بعد الحمدانيين كما ذكرنا المرداسيون وكانوا أيضاً من الخاضعين إلى

[17]- سقطت بيزنطة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية على يد محمد الفاتح السلطان العثماني وبذلك انتهت المقاومة البيزنطة التي كانت عقبة أمام العثمانيين للتوسع في أوربا.

الفاطميين ناهيك عن أن بيت المقدس ودمشق كانتا خاضعتين للفاطميين.

وعندما جاء الإفرنج ليعاونوا البيزنطيين لدفع خطر المسلمين عنهم، وعندما وصلوا إلى أنطاكيا وضربوا الحصار عليها، أرسل الفاطميون على حد قول مؤرخي الإفرنج، لهم سفارة نيرتين من الأفضل الوزير الفاطمي ومعها عرضاً بالسماح لهم بزيارة بيت المقدس والإقامة فيها شهراً شريطة أن يدخلوها دون سلاح[18]، إلا أنهم رفضوا ذلك العرض، وردوا على الفاطميين رداً قاسياً وأنهم سوف يستمرون في زحفهم إلى أن يصلوا بيت المقدس. وعندما تأكد للفاطميين نية الإفرنج ومن وراءهم البيزنطيين استعدوا لمواجهتهم في الدفاع عن بيت المقدس فقام " افتخار الدولة" النائب الفاطمي في بيت المقدس يطمس آبار الماء المحيطة بالقدس ووضع السم فيها، وأخفى الماشية، وقوى التحصينات المحيطة بالقدس، كما قام بطرد النصارى من المدينة حتى لا يقوموا بمعاونة الفرنجة، هذا إلى جانب طلب النجدة من مصر[19] لقد دافع الفاطميون دفاع المستميت عن بيت المقدس لكنها سقطت في النهاية في أيدي الإفرنج وسمح للنائب الفاطمي بالخروج مع أتباعه وتركت القدس لقمة سائغة للإفرنج والنصارى.

تتحدث المصادر النصرانية نفسها عن الفظائع التي أوقعها الإفرنج بالمسلمين، فذكرت بأنهم لم يروا مثل هذه المذابح من قبل في المسلمين، فقد استمر القتل ثمانية أيام ذبح الإفرنج من المسلمين أعداداً كبيرة فقد ذبحوا كل من وجدوه من المسلمين من شيوخ وأطفال وأحرقوا من هرب منهم إلى مسجدي قبة الصخرة والأقصى بمن فيهم العلماء والفقهاء، وهكذا سقطت القدس بعد أن ظلت منذ فتحها زمن الخليفة عمر بن الخطاب أي نحو من أربعمائة وخمس وسبعون عاماً بأيدي المسلمين[20].

كتب ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ وصفاً مثيراً للمذابح التي أوقعها الإفرنج بالمسلمين يوم دخولهم إلى القدس يوم الجمعة 7 شعبان عام 492 هـ قائلاً:"دخل الصليبيون بيت المقدس ضحوة النهار من يوم الجمعة السابع من شعبان، وركب الناس السيف ولبس الإفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واضعي

---

[18]– ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 1، ص171.

[19]–ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 1ص171.

[20]– ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 1، ص172، الحباري مصطفى: القدس تحت حكم الصليبيين (1099-1187) في القدس في التاريخ ص 176، عمان، 1992.

جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الإفرنج الأمان، فسلموا إليهم وخرجوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا فيها، وقتل الإفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة ووزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا مثوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء[21].

تركت مذبحة القدس أثراً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي وأدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين وقد وافق ذلك رغبة الإفرنج في جعل بيت المقدس مدينة إفرنجية خالصة[22]. وفي نفس الوقت أججت الكره في نفس المسلمين قاطبة، فقد ظل الفاطميون يعتبرون الإفرنج أعداءهم وأعداء الإسلام والمسلمين واستمروا في استعداداتهم الحربية ضدهم. كما غيروا مواقفهم من السلاجقة وقد حدث تقارب وتعاون لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي الإفرنج والدفاع عن الممتلكات الإسلامية في مصر والشام وعلى الرغم من جدية ذلك التعاون إلا أنه لم يؤد إلى نتائج حاسمة بسبب وجود مشكلات لدى كل منهم أي السلاجقة والفاطميين، كانت تمنعهم وتعيقهم عن الجهاد الشامل[23].

السلاجقة الأتراك:

جاء السلاجقة السنة وطردوا البويهيين الشيعة الذين كانوا يحكمون إلى جانب الخليفة العباسي، وبظهورهم على مسرح الأحداث عادت المشاعر الإسلامية قوية وأصبح الدين عندهم هو عماد الحياة ومنهجها وقالوا بضرورة أن يكون المسلمون كلهم من أهل السنة وهذا ما جعلهم في مواجهة أهل الشيعة وخاصة الفاطميين، ومن اجل تحقيق أهدافهم أسسوا المدرسة التي أخذت على عاتقها نشر

---

[21]_ ابن الأثير: الكامل في التاريخ م8/ص189، دار الكتاب العربي، العسلي بسام: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس بيروت ص1، عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ص1، ط3، 1978، ص736.

[22]_ العسلي بسام: المصدر السابق، ص 124.

[23]_ ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، 11، 174.

المذهب السنّي في القرن الرابع الهجري، اشتهرت هذه المدرسة باسم المدرسة النظامية نسبة إلى الوزير السلجوقي نظام الملك وقد تكون هذه المدرسة أول مدرسة أقيمت في الإسلام وأخذت على عاتقها تدريس العلوم الشرعية وفق المذهب السنّي، كما اعتبر المسجد امتداداً لها في هذا الباب[24].

لقد سعى السلاجقة عبر مدرسة الدعوة تلك، إلى الاستحواذ على ثقة المسلمين وزادت تلك الثقة بالسلاجقة وزاد التفاف المسلمين حولهم بعد انتصارهم الحاسم على البيزنطيين في موقعة مناز كرد عام 463هـ/1071م التي سبق أن تحدثنا عنها ففي تلك المعركة أصيب البيزنطيين بضربة قوية جداً فقد أبيد الجيش البيزنطي وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجانيس لأول مرة، وفي نفس الوقت فرض السلاجقة أنفسهم كقوة في المنطقة لا يمكن تجاوزها خاصة في بلاد الشام الشمالية وشرق الأناضول. كما أصبح لهم دورا منافس وقوي للفاطميين الذين كانوا يحتلون فلسطين وقسماً من سورية سيما وأنهم على حد قول الدكتور عبد المنعم ماجد يحملون أيديولوجية مغايرة للفاطميين[25].

لقد تأثر الفاطميون كثيراً بوصول السلاجقة في عهد ألب أرسلان إلى بلاد الشام وقد زاد توسعهم في عهد ملكشاه بن الب أرسلان. ومما زاد الممر تعقيداً أمام الفاطميين إقطاع ملكشاه أخاه تتش بن الب أرسلان أملاك الفاطميين الذي وفر له فتح الشام ومصر وبلاد المغرب، وقام تاج الدولة تتش بدوره بإصدار أمره لقائده اتسز بن أوق الخوارزمي بالتحرك إلى جنوب الشام فأخذ بيت المقدس من ايدي الفاطميين[26]. ويحدثنا المؤرخ سبط بن الجوزي الذي أورد أخباراً مفصلة عن تحركات السلاجقة في جنوب الشام وخاصة بيت المقدس الذي كان لا يزال في أيدي الفاطميين[27]، وقد سبق أن ذكرنا أخذ بيت المقدس من أيدي الفاطميين وسار نحو مصر إلا أنه هُزم وعاد أدراجه إلى الشمال حيث تمكن الفاطميون من استعادة بيت المقدس، وقد أثارت هزيمة اتسز بمصر غضب سيده تتش عليه ويقال إن هناك سبباً آخر لغضب تتش وهو قسوة اتسز على الناس في بيت المقدس، فقتله وولى مكانه سقمان بن أرتق وأخاه ايلغازي إلا أن القدس كما ذكرت عادت إلى الفاطميين

[24]– ماجد عبد المنعم: المصدر السابق ص 165- ص166.
[25] - ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، ص 167.
[26]– ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، ص 167.
[27]– ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الإيمان، ج8 قسم 1، حيدر أباد، 1951.

وولوا عليها نائباً اسمه افتخار الدولة وقد ظل بيت المقدس بيد الفاطميين حتى مجيء الإفرنج[28].

ساعد الصراع على بيت المقدس، بين القوى الإسلامية: السلاجقة والفاطميون من جهة والبيزنطيون والإفرنج من جهة أخرى، على اتخاذ ذريعة للحروب الصليبية الإفرنجية، كما ساعدهم في تعبئة الشعوب الأوربية والبيزنطية للمشاركة في الحملات الصليبية الإفرنجية، وتحمل السلاجقة الضربات الأولى من الإفرنج وقد عجزوا عن صدها بسبب الانقسام الذي دب في جسم الإمبراطورية السلجوقية، خاصة بعد موت الملوك الخمسة العظام، ولجوئهم إلى تطبيق النظام الإقطاعي الأتابكي[29] ، لم يهب الفاطميون إلى نجدة السلاجقة كما لم يقدموا أي عون لهم وهذا ما ساعد الإفرنج على الاستيلاء على كثير من المدن مثل نبقيه وقونيه وإنطاكيا على الرغم من الدفاع المستميت الذي أبداه السلاجقة. وهذا ما جعل بعض المؤرخين العرب إلى القول بأن الفاطميين قد خانوا المسلمين وأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين الإفرنج ليستعينوا بهم على السلاجقة واتفقوا مع الإفرنج على اقتسام ممتلكاتهم[30].

الإفرنج وبيت المقدس

بعد أن اغتصب الإفرنج بيت المقدس وأقدموا على ارتكاب المجازر البشعة في المسلمين، التي أتينا على وصفها في الصفحات الماضية، التفتوا إلى المدينة نفسها ليجعلوها مدينة كاثوليكية إفرنجية بعد أن أفرغت من سكانها المسلمين، أما اليهود فأحرقوهم جميعاً في معابدهم بما فيهم القرائيه والربانين ولم يسمحوا لهم بالسكن بالقدس/بيت المقدس.

ومما فعلوه ليجعلوا مدينة بيت المقدس مدينة لاتينية إفرنجية تستطيع القيام بالوظائف الجديدة للسكان الجدد يمكن إجماله في الآتي:

1-استولوا على مساجد بيت المقدس وحولوها إلى كنائس.

2-غيروا أسماء الأماكن المقدسة فأطلقوا على قبة الصخرة المشرفة اسم "معبد

---

[28]-ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، ص 168.

[29]- ماجد عبد المنعم: المصدر السابق، ص 170.

[30]- ماجد عبد المنعم المصدر السابق، ص 170.

سليمان" إلا أنهم لم يخربوها وجعلوا فوقها صليباً من الذهب وعملوا لها سقفاً من الرخام وأقاموا مذبحاً بالقرب منها وغيروا وطمسوا الأسماء والكتابات عليها[31].

3- أقاموا مستودعاً لأسلحتهم إلى الغرب من المسجد الأقصى على امتداد السور الجنوبي للحرم.

4-جعلوا الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم الشريف إسطبلا لخيولهم.

5-غيروا الأسماء التي كانت تطلق على الأماكن المقدسة فجعلوا المسجد الأقصى معبد سليمان أو القصر عندما استخدمه الملوك الإفرنج مكاناً لإقامتهم، وفيما بعد استخدمه فرسان المعبد.

6-إضافة إلى السلب والنهب الذي وقع ضد الممتلكات الإسلامية في قبة الصخرة والمسجد الأقصى[32].

هذا إلى جانب تغيير البنية السكانية، فعندما أصبحت المدينة بدون سكان بعد أن أفرغوها من سكانها الأصليين من المسلمين ومنعوا اليهود من السكن فيها كما طردوا المسيحيين الأرثوذكس منها. وقام ملك القدس الإفرنجي "بلدوين الأول" بجلب جموع من المسيحيين الشرقيين والسريان ممن يؤيدونه.

يذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بأن الفضل في تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ملوك الإفرنج الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش المملكة والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعموري، ويعيد الفضل في نجاح الملوك أولئك إلى:

1-قدرتهم على استغلال الظروف واختيار الرجال الذين يتعاملون معهم.

2-استغلال الخلافات الموجودة في المعسكر الإسلامي مثل الخلافات بين العرب والترك وبين السنّة والشيعة.

3-التنافس الذي كان واقعاً بين الحكام في دمشق وحلب أي بين رضوان ودقاق وبين اتابكيهما.

4-التحالف الذي بين ملك بيت المقدس الفرنسي وبين الباطنية التي استخدمت في إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامي عن طريق اغتيال عدد كبير من المجاهدين

---

[31]- عبد الرحمن عفيف: القدس مكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث. ص 37م وهو بحث القي في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام المكرس لفلسطين، ونشر بالمجلد الخاص بالقدس.

[32]- عبد الرحمن عفيف: المرجع نفسه، ص 239.

المسلمين.

لقد أقام الإفرنج الصليبيون حكومة في بيت المقدس أطلق عليها مملكة بيت المقدس في حين لم يسمح للإمارات الأخرى بحمل هذا اللقب بل اكتفى بإطلاق الإمارة أو الكونتية كما حدث مع الرها أو انطاكيا أو طرابلس الشام. وكان الملك على رأس تلك الحكومة وكان في البداية يعين بالانتخاب ولكن فيما بعد رؤي الانتقال إلى نظام الوراثة. إلا أن البعض من الإفرنج أنفسهم كان يرى أنه لا يجوز أن يكون هناك ملك للقدس، لأن ملك القدس الحقيقي موجود ألا وهو السيد المسيح لذلك سمي الملك الأول للقدس" حامي القبر المقدس[33]. وبناء عليه كان الملك في القدس في العصر الإفرنجي لم يكن يتمتع بكثير من الصلاحيات. وربما كان هذا السبب في عزوف الكثير عن ملكية بيت المقدس. يشارك الملك في الحكم أمراء المناطق وأمراء المدن الساحلية ورجال الكنيسة وأصحاب الإقطاعيات الأخرى مثل الداوية الإسبتارية وهذا ما جعل الملك عاجز عن اتخاذ القرارات في كثير من الأمور دون موافقة تلك الأطراف[34].

الحياة الاقتصادية في مملكة بيت المقدس اللاتينية:

تعددت مصادر الدخل في مملكة بيت المقدس الصليبية منها:

1-الموارد التي تنتج عن المبادلات التجارية ورسوم تجارة الترانزيت(المرور) ورسوم الاستيراد والتصدير حيث كانت التجارة بين بلاد الشام والبلاد التي اغتصبها الإفرنج مسموحة وكان كل طرف يرسل البضائع التي يحتاجها الطرف الآخر.

2-موارد الأراضي الزراعية التي كان يمنحها الملك للفلاحين أو الإقطاعيين[35]، إلا أن تلك الثروة الكبيرة لم يكن الملك حر التصرف بها، فقد كانوا يوزعون تلك الدخول على الكنيسة وهبات الفرسان وغيرهم مما أفقد الملكية كثيراً من دخولها وكانت النقود المتداولة في تلك الفترة إلى جانب العملات التي سكّها الصليبيون العملات الإسلامية والعملات البيزنطية نظراً لسهولة التبادل التجاري بين كل

[33]- عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية المصدر السابق، ج1، ط3، 1978، ص220.

[34]- عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 465.

[35]- عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص470 وما بعدها.

الأطراف. وكانت البضائع التي يتاجر بها بضائع كمالية وبضائع ضرورية، فمن البضائع الأولى كان هناك الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والطيور تلك البضائع كان الإفرنج يصدرونها على أوربا لجني الأرباح الكثيرة منها، أما البضائع الأخرى فكانت الغلال التي يحتاجونها للغذاء ومما اشتهر في المتاجرة بتلك الغلال البدو[36] الذين كانوا في كثير من الأحيان ينقلون الغلال بصورة غير شرعية رغبة في جني الأرباح.

طبقات المجتمع في مملكة بيت المقدس اللاتينية:

كان المجتمع في مملكة بيت المقدس الصليبية يتألف من عدة طبقات وفقا لمنابعهم وأصولهم ومهنهم ويشير ذلك إلى عدم الانسجام بين طبقات المجتمع في القدس وغيرها من المجتمعات الصليبية في بلاد الشام وقد كان لذلك التنوع للطبقات نتائج سلبية على الإفرنج أنفسهم، ذلك لأنهم كانوا قلة بسبب عودة الكثير منهم إلى أوربا[37] وعليه أصبح الإفرنج قلة وعلية، كانت أغلبية سكان المملكة من المسيحيين المحليين والشرقيين على مختلف مذاهبهم. هذا ويمكن تقسيم طبقات المجتمع الإفرنجي الصليبي إلى عدة طبقات[38]:

1-الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان وكانوا قلة لا يتعدى عددهم في بيت المقدس ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال، ومثل ذلك في الإمارات الإفرنجية الأخرى مثل الرها وانطاكية وطرابلس مجتمعة.

2-عامة المحاربين وهم من الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء وكانوا يؤلفون فرق المشاة في الجيش الإفرنجي وقد تزوج هؤلاء بعد استقرارهم من المسيحيين الشرقيين المحليين خاصة من الأرمن، وكانت نتيجة ذلك التزاوج ظهور طبقة جديدة هي طبقة الإفرنج Pullani ومع الوقت حلت هذه الطبقة محل الطبقة العامة[39].

3- هناك طبقة المسيحيين الشرقيين من أرمن وموارنة وسريان ويعاقبة وأقباط. لم يحترم الصليبيون الغربيون هذه الطبقة وتبادلوا معها الكراهية نتيجة الخلافات

---

[36]–عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص475.

[37] - عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 477.

[38]– عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 278.

[39]– عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 479.

المذهبية لكن الأمر لم يصل إلى حد الطرد، كما فعلوا مع اليهود، وظلوا يشغلونهم في الاشتغال بالأعمال التي تتطلب مهارة يدوية وأعمال الخدمات والأعمال الحقيرة التي كان الإفرنج يأنفون منها، إلا أن طائفة الأرمن كانت احسن حالاً فقد كانوا يُشجعون على النزوح إلى مملكة بيت المقدس للحلول محل المسلمين الذين يتركون بيت المقدس نتيجة الضغط الإفرنجي[40].

4-التجار الإفرنج خاصة الإيطاليون وقد تركزوا في الموانئ مثل: يافا، عكا، قيسارية وارسوف وصور وبيروت وجبيل واللاذقية والسويدية، وقد كان هؤلاء يسكنون في أحياء خاصة بهم ويتكلمون لغتهم ولا يختلطون بأحد إلا ما تفرضه المعاملات، ودرج تجار مرسيليا وتجار برشلونه على ما درج عليه الإيطاليون.

5-العرب المسلمون وهم أهل البلاد الأصليين في مدينة القدس والمدن التي اغتصبها الإفرنج، وقد ظل قسم كبير منهم يعيشون وسط المجتمع الصليبي ومنهم الذين سكنوا المنطقة الممتدة بين بانياس وعكا ومنطقة حوض العاصي وسهل البقاع وإلى جانب أولئك كان البدو.

6-وأخيراً كان الرقيق والأقنان وهؤلاء كانوا ضروريين للأعمال التي يعجز الأخرون عنها، وكانوا مضطهدين من قبل الصليبيين، مما جعلهم ينزحون إلى المناطق التي يحكمها المسلمون[41].

لم تكن هذه الطبقات منسجمة مع بعضها البعض وقد كان لذلك نتائج سيئة على طبقات المجتمع الصليبي، ذلك لن الإفرنج كانوا قلة بسبب عودة الكثير الكثير منهم إلى أوربا كما أسلفنا وعليه كانت الغالبية من السكان المسيحيين المحليين والشرقيين على مختلف مذاهبهم، والمدقق للبقاع القلاع الإفرنجية في بلاد الشام، سورية وفلسطين ولبنان والأردن، يرى توزع تلك القلاع في أماكن استراتيجية من حيث الاقتصاد والأمن وقد استمر ذلك ردحا طويلاً من الزمن خاصة في الفترة الأولى من حكم الصليبيين للشرق، أما الجانب الإسلامي فعلى الرغم من ضعفه إلا أنه ظل يتطلع إلى ذلك اليوم الذي تتخلص فيه بلاد الإسلام والمسلمين من الكفار وأهل الشرك، وكان لا بد من العمل والوصول إلى ذلك اليوم. وجاءت الصحوة الأولى على يد عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود في الموصل وحلب، لقد

---

40 عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 480.

41 عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 481،ط3، 1978.

رفع عماد الدين زنكي وولده راية الجهاد وجنّد كل الموارد لتخليص البلاد والعباد من رجس الإفرنج وصلفهم فكان الإسفين الأول في نعش الحركة الصليبية في الشرق على يديه، فقد استعاد أول إمارة صليبية أقامها الإفرنج في الشرق وهي إمارة الرها، فكانت استعادتها أول ضربة قاصمة وبداية النهاية للحركة الصليبية في الشرق عشية عيد الميلاد عام 1144م.

إن تحرير الرها أنعش الآمال الإسلامية وبعث في النفوس الأمل والرجاء لتحرير كافة البلاد الإسلامية التي يغتصبها الإفرنج، فكان لا بد من توحيد البلاد الإسلامية التي كانت تتوزع كقطع الفسيفساء في آسيا الغربية وكان لا من مواصلة الحث على مواصلة الجهاد فكان: التحرير ووحدة البلاد هما الهدفان اللذان سعى إليهم عماد الدين ومن بعده ولده نور الدين محمود زنكي. فدفع جهودها نحو الغرب محررين حلب ودمشق والبلاد التي بينهما.

صلاح الدين الأيوبي وزعامة المسلمين في آسيا الغربية:

تطورت الأمور في سوريا ومصر، فقد توفي الحليفة الفاطمي وتوفي نور الدين في بلاد الشام مما مهد الطريق إلى صلاح الدين لأن يرث مصر والشام ليصبح حاكم المسلمين في مصر والشام ومما فتح الطريق أمامه لتنفيذ طموحاته في تحرير البلاد من الإفرنج. كان صلاح الدين الأيوبي أحد القادة في جيش نور الدين محمود وكان هذا القائد ممن تربى على الأفكار والمبادئ التي أسسها وسار عليها عماد الدين وولده نور الدين زنكي وكان مقتنعاً بالأفكار والمبادئ التي رفعها نور الدين وهي وحدة البلاد الإسلامية وتحريرها من أيدي الإفرنج الصليبيين، ومن اجل ذلك بذل الكثير، وسبق أن ذكرنا أن السلاجقة اقتنعوا بأن المدرسة من الأساليب المثالية في نشر الأفكار الجهادية فأسس عماد الدين ونور الدين فيما يعرف بالعهد الزنكي، المدارس الكثيرة على مختلف تخصصاتها لتعبئة الناس ضد الإفرنج وقد طبع العهد كله بطابع الجهاد فجرى الإنفاق فيما يخدم الهدف تأسست المدارس والبيمارستانات ومدارس الطب والهندسة خدمة لأغراض الجهاد حتى أن العمارة جاءت قوية خالية من الزخارف والحليات المعمارية المكلفة، فكان كل شيء موجه إلى المعركة. والأهم من ذلك توازن القوى الإسلامية والصليبية، فبعد الوحدة التي جمعت كافة القوى الإسلامية أصبحت تلك القوى مهمة وقوية في المنطقة ويحسب

حسابها في كل عمل سياسي.

عندما ضعفت الدولة الفاطمية في مصر ودبّ الخلاف بين الوزيرين الفاطميين شاور ودرغام استنجد كل طرف من الأطراف المتصارعة بالقوى الإسلامية التي كان على رأسها نور الدين محمود في حين استنجد الطرف الآخر بالإفرنج وهكذا نقل الصراع من بلاد الشام إلى مصر وأصبحت مصر ساحة معركة للصراع معنية بما يجري في بلاد الشام، ومرة أخرى استنجد الوزيرين الفاطميين بالقوى الفاعلة في بلاد الشام ولكن هذه المرة غير المرة الأولى فاستنجد كل منهما بالطرف الذي كان ينجد عدوه في السابق، وعبر تلك الصراعات حضر صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه للدخول في ذلك الصراع وقد نجح الطرف الإسلامي أن يحسم الصراع لصالحه فأصبح شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي، وبعد وفاته استوزر الخليفة الفاطمي "صلاح الدين الأيوبي" بدل عمه. وهكذا أصبح الخليفة الضعيف "شيعي" والوزير القوي "سني" مما ساعد على التفكير بإسقاط هذه الدولة الضعيفة التي يحكمها خليفة مريض تتصارع فيها أطراف كثيرة من أجل السلطة والمال وهكذا سقطت الخلافة الفاطمية التي كان لها شأن كبير من شمال إفريقية ومصر وبلاد الشام وصارعت البيزنطيين والإفرنج والخلافة العباسية وما تفرع عنها. ويعلق أحد المؤرخين أن الدولة الفاطمية سقطت وخطب للخليفة العباسي دون أن ينتطح عنتران، والبعض يذكر أن هذه الأحداث جرت دون أن يعلم آخر الخلفاء الفاطميين لأنه كان يحتضر.

تحرير بيت المقدس من الإفرنج الصليبيين:

بعد أن أسقط صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية كما ذكرنا، يكون قد أنجز نصف مشروعه الحلم في إقامة ملك أيوبي في مصر والشام، فبعد أن صفى صلاح الدين مصر لصالحه وأخضع الثورات الصغيرة المعارضة ضده، سار إلى الشام لحماية ممتلكات سيده نور الدين زنكي والحفاظ عليها على حد قوله، وتخليص ولده أي ابن نور الدين الملك الصالح إسماعيل من أيدي الأمراء وأمراء الجند الذين يحيطون به، فجاء إلى دمشق واستخلصها منهم وتزوج أرملة نور الدين "الخاتون" وعندما انتقل الصالح مع عسكره إلى حلب لحق بهم صلاح الدين، وتدخلت الأقدار هنا حيث توفي الصالح إسماعيل الذي أوصى بالملك بعده لابن عمه عماد الدين

الثاني من آل زنكي، وبعد مفاوضات طويلة اتفق مع الملك الجديد على أن يأخذ صلاح الدين حلب ويعوضه عنها بلاداً أخرى، وتابع إخضاع المدن والقلاع إلى أن أصبحت بلاد الشام ومصر مملكة أيوبية على رأسها صلاح الدين وقد ولى على أقاليم تلك المملكة ملوكاً من البيت الأيوبي من إخوانه وأبنائه. وبهذا تفرغ صلاح الدين إلى الإفرنج وحربهم لأن الروح الجهادية التي أسسها عماد الدين نجد صلاح الدين يسير على نفس الخطى، يحمل أمانة تحرير البلاد الإسلامية وطرد الإفرنج. وجد صلاح الدين نفسه في مواجهة الإفرنج الأقوياء ولم تكن معاركه معهم كلها موفقة فقد تخللتها نكسات كثيرة إلا أن تلك النكسات لم تضعف عزمه، أو تقلل من تصميمه، فلقد هزم قبله آل زنكي، إلا أن العزم والمثابرة والصبر حقق لهم الانتصارات تلو الانتصارات، واقتداء بهم نهض من نهض من كبوته بسرعة وصب الهزائم على رؤوس الإفرنج مجتمعين وفرادى[42].

ومن مقدمات معركة حطين معركة صفورية التي حدثت قبل شهرين من موقعة حطين ففي تلك المعركة معركة صفورية التقى المسلمون بالإفرنج الصليبيين ودارت معركة رهيبة سقط فيها خلق كثير من الإفرنج بين قتيل وأسير ومن جملتهم مقدم الإسبتارية[43] وعدد كبير من فرسانهم، ونجى آخرون من بينهم مقدم الداوية، ويقول أبو شامة صاحب كتاب الروضتين أن هذه المعركة كانت "باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من صبا من الحركات"[44]. بعد هذه المعركة سارع ريموند الثالث أمير طرابلس إلى العودة إلى طاعة الملك جاي لوزنيان مخالفاً العهد الذي كان بينه وبين السلطان صلاح الدين. ومن المقدمات الأخرى لمعركة حطين وإنقضاض حاكم قلعة الكرك المدعو "أرناط" على قافلة للمسلمين وسلبها، ورغم العهود التي قطعها على نفسه ذلك الحاكم الفارس اللص كما يسميه أحد مؤرخي الحروب الصليبية، انقض على القافلة نهبها ووضع قادتها وحراسها في السجن كأسرى، ولم يستجب لمطالبة السلطان له بإطلاق سراح رجال القافلة، وبلغت به الجرأة أن قال لرسول صلاح الدين قولوا "لمحمد يخلصكم" ولجأ صلاح الدين إلى الملك "جاي لوزنيان" ملك بيت المقدس ليحل تلك المشكلة إلا أن أرناط لم ينفذ طلب الملك

[42] -حمادة محمد ماهر: الحروب الصليبية والغزو المغولي للعلم الإسلامي، مؤسسة الرسالة، سلسلة وثائق الإسلام (4)، ط1 (1979) ص 35-ص 36.

[43] – عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر السابق الجزء الثاني، ط23 (1976) ص 727.

[44] - عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 773.

باطلاق سراح أسرى القافلة[45]. ويدل هذا على ضعف الملك ثم على ضعف الإفرنج وانقسامهم فقد كان ملك بيت المقدس وآخرون في طرف وكان أمير طرابلس وأمير إنطاكية في طرف آخر اللذان كانا على وفاق مع السلطان صلاح الدين. وذكر بعض المؤرخين أن أرناط هذا حاول غزو الحرمين في مكة والمدينة ولتكون له السيادة على البحر الأحمر[46]. بعد معركة صفورية زحف صلاح الدين على طبريا واقتحمها واستعصت عليه قلعتها وكان الهدف من مهاجمة طبريا دفع الإفرنج إلى ترك مراكزهم عند صفورية وقد نجح في ذلك. بدأ الجيش الصليبي زحفه نحو الجيش الإسلامي في أوائل تموز 1187 في ظروف بالغة السوء فقد كانت روح الجيش متدهورة ومعنوياتهم منحطة، هذا بالإضافة إلى ارتفاع درجة الحرارة وقلة الماء وصعوبة الطريق وقد زاد الأمر تعقيداً بالنسبة للصليبيين هي أن الجيش الإسلامي أخذ يهاجم الصليبيين الإفرنج أثناء زحفه[47]. وعندما وصل الجيش الصليبي إلى تل حطين أو المنطقة التي تسمى بقرون حطين، كان في حالة سيئة جداً، ومما زاد الأمر تعقيداً أن العطش اشتد بالعسكر حيث لم يتمكنوا من الوصول إلى الماء الذي كان يسيطر عليه صلاح الدين وجيشه، وعندما جاءت ساعة اللقاء كان الجيش الصليبي منهك القوى يشتد به العطش فلاذ قسم كبير منه إلى الفرار وبهذا انهزم الجيش الصليبي بعد أن تفرق شمله، فلم يسلم من القتل إلا ريموند كونت طرابلس ومعه قلة من رجاله الذين فروا إلى صور ووقع الملك جاي لوزنيان وأرناط ومقدم الداوية وغيرهم من أكابر الصليبيين أسرى[48]، لقد كانت خسارة الإفرنج في حطين كبيرة، فقد كانت أكبر خسارة خسروها منذ أن وقعت أقدامهم الأرض العربية في بلاد الشام، سيما وأن قادتهم ومقدميهم وكبار رجال دولتهم أضحت أسيرة لدى صلاح الدين وعلى رأسهم الملك غي لوزنيان بعد معركة حطين[49].

لم يتوجه صلاح الدين بعد حطين إلى القدس لتحريرها وهو قادر على ذلك بعد أن حطم جيش الإفرنج بأسر ملكهم وقادتهم، إلا أنه فضل أن يحرر مدن وقرى شمال فلسطين وجنوب لبنان والساحل حتى يصبح الطريق إلى بيت المقدس سالكاً،

---

45 _ عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 769.

46 _ أسر أرناط من قبل المسلمين عام 1160م، وظل سجينا حتى عام 1175 حين أطلق سراحه.

47 _ عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ج2، ط3، 1976، 775.

48 _ عاشور سعيد عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص777.

49 - قلعة جي قدري: صلاح الدين الأيوبي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، بيروت 1992، ص 327.

عندها فقط توجه إلى بيت المقدس فوصلها 1187/7/25، فحاصرها وفاوض أهلها على الاستسلام متعهداً باحترام الأماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية[50]، وكتب لهم كتاباً يذكر فيه" إنني أنا نظيركم أيضاً وأعرف أن القدس هي بيت الله ولست آتياً كي ادنس قدسيتها، بسفك الدماء، فعليكم أن تدعوها أكفيكم أمركم وأذهب لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون أن تعملوا فيه" إلا أنهم رفضوا عرض صلاح الدين ورغبوا في المقاومة والقتال[51].

يتحدث الدكتور عبد الفتاح عاشور في كتاب الحركة الصليبية (ص779،ط2،3) حول الانتصار الإسلامي في حطين، قائلاً إنه لم يكن نصر عادي أحرزه المسلمون بل كانت في حقيقتها تشير إلى نجاح المسلمين في القضاء على اكبر حركة استعمارية في العصور الوسطى من الناحية الاستراتيجية، فقد أصبحت بلاد الشام بعد معركة حطين تحت رحمة صلاح الدين فأخذ يستولي على البلاد، كما مر معنا سابقاً، والمدن الصليبية واحدة بعد الأخرى، ففي اليوم الثاني لمعركة حطين استسلمت قلعة طبريا التي استعصت قبل حطين على المسلمين ربما تركوها حتى لا ينشغلوا بها عن المعركة القادمة.

وقد عامل صلاح الدين صاحبتها الأميرة اشيفا Eschive معاملة كريمة وأوصلها إلى زوجها أمير انطاكيا ريموند الثالث. وفي 10 تموز 1187 أي بعد أيام قليلة من معركة حطين استولى المسلمين على عكا وعاملوا أهلها بالرحمة والرأفة[52]، كما سمح للبنادقة والجنوية أهل بيزا بالبقاء في المدينة وممارسة أعمالهم التجارية مما أدى إلى استمرار رواج الحياة الاقتصادية في بلاد الشام[53].

إثر رفض الإفرنج تسليم مدينة القدس إلى السلطان صلاح الدين، قام الطرفان المتحاربان، المسلمون والإفرنج الصليبيون، بشحن الجند وتحصين مواقعهم وتحسين وسائل الدفاع وتجنيد الجند، وقام السلطان صلاح الدين بتفقد أسوار المدينة فوجد الجزء المواجه لجبل الزيتون ضعيف التحصينات، فقام باتخاذ الجبل مركزاً لجنده ونصب المنجنيقات قبالته، ولما كان يوم السابع والعشرين من رجب الموافق 1187/10/2، حمل المسلمون على المدينة واجتازوا الخندق المحيط

---

50 - قلعة جي قدري: المصدر نفسه، ص 332.
51 - قلعة جي قدري: المصدر نفسه، ص 332
52 - عاشور عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 783.
53 - عاشور عبد الفتاح: المصدر نفسه، ص 783.

بالمدينة ونقبوا السور تحت وابل قذائف الإفرنج وسهامهم[54].

رغم الخلافات الكثيرة بين الإفرنج أنفسهم خاصة بين الكاثوليك والأرثوذكس داخل المدينة المحاصرة، إلا أن الإفرنج اظهروا بسالة كبيرة في الدفاع عن المدينة التي كانت الحروب الصليبية بسببها ورغم ذلك صمد المسلمون يفرضون الحصار حول مدينة بيت المقدس دون كلل، وعندما تأكد الإفرنج أن المدينة سائرة لا محالة إلى السقوط بأيدي المسلمون، عندها استقر الرأي على طلب الأمان وتسليم المدينة، وبعد مفاوضات أفرزت معاهدة سلام رؤوفة بالإفرنج تقرر تسليم المدينة[55]

دخل المسلمون المدينة وحفظوا للناس كرامتهم للنساء والأطفال حرمتهم وحرروا الكثير من الناس دون فدية، كما أحسنوا للإفرنج الذين بقوا في المدينة وعاملهم السلطان معاملة حسنة، ووسع على المسيحيين السوريين والبيزنطيين لهم في أملاكهم ومنحهم الحرية وكانوا يتمنون العهد العربية السالفة شأنهم في جميع أنحاء البلاد مؤكدا أنه أي السلطان لم يكن يحارب المسيحية والمسيحيين وإنما كان يقاوم الاستعمار والمستعمرين[56]، كما سمح للمسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة بالبقاء بالقدس على أن يدفعوا الجزية، وبهذا أعطيت الفرصة للكنيسة الأرثوذكسية باستعادة نفوذها وهيمنتها على الأماكن المقدسة[57]. كما استفاد اليهود من فتح القدس فقد سمح لهم بالعودة للمدينة.

تحدث مؤرخ الحروب الصليبية رنسيمان" كان المنتصرون معقولين وإنسانيين فعلى حين نجد الإفرنج عند استيلائهم على مدينة بيت المقدس منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم، لا نجد في هذه المرة بناء نُهب ولا إنسان أصابه أذى، وترى الحراس تنفيذاً لأوامر صلاح الدين مجندين لحراسة الطرق والأبواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم"[58]، كما يذكر للمدنيين الإفرنج ومعاملة الإفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين عاما[59].

---

[54]- قلعة جي قدري: صلاح الدين الأيوبي، بيروت، ط1، 1992، ص 333.

[55]- قلعة جي قدري: المصدر نفسه، ص 334، عاشور عبد الفتاح: المصدر السابق، ص 783.

[56]-قلعةجي قدري:المصدر نفسه، ص 345

[57]- عاشور عبد الفتاح: المصدر السابق، ص 794.

[58] -رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية. تعريب: بيروت.

[59] - حتي فليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، المجلد الثاني، ص ، دار الطليعة ومؤسسة فرانكلين، قلعة جي قدري، المصدر السابق، ص 338.

بعد تحرير بيت المقدس دخل المسلمون المدينة وقد أمر صلاح الدين بتطهير المدينة والمقدسات وفي مقدمة تلك المقدسات المسجد الأقصى والصخرة من الأقذار والنجاسات وصلى مع الناس صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى وأم الناس يومها قاضي دمشق الخطيب والإمام محي الدين بن ذكي[60].ثم انصرف السلطان لتنظيم أمور المدينة المقدسة وضبط الأمر فيها فلم تتعرض دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه فقد كان رجال صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب مفتوحة لمنع كل اعتداء يقع على المسيحيين[61].

هكذا حررت بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي ورجعت إسلامية، إلا أنها بقيت حيّة في أذهان الإفرنج انتقلت المملكة اللاتينية إلى صور وظل عرشها بملوك من الإفرنج بشكل رمزي ذلك أن القدس كانت محور الحروب لصليبية، فالقول بموت المملكة قد يصيب أوروبا بخيبة أمل كبيرة وإحباط يؤدي إلى توقف المساعدات المادية والمعنوية وعليه ظلوا يحلمون دوماً بتحرير القدس وعودتها إلى الحظيرة الصليبية فقد جرت محاولات كثيرة لاستردادها من أيدي المسلمين إلا أن تلك المحاولات كلها باءت بالفشل[62] حتى جاءت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد عام 1191 م[63] وظل ملوك اللاتين يعتبرون أنفسهم ملوك بيت المقدس بالرغم من أن بيت المقدس لم تكن تحت حكمهم. ويذكر أحد كتاب الحوليات أن الملك حنا ملك بيت المقدس (في المنفى) قدم نصيحة عام 1218م بغزو مصر أثناء انعقاد مجلس حرب الحملة الصليبية الخامسة قائلاً:"إذا تمكنا من الاستيلاء على إحدى المدينتين يقصد الإسكندرية ودمياط، فإني أعتقد أنه بإمكاننا استرداد كل الأراضي المقدسة في مقابل إعادة "تلك المدينتين للمصريين"[64]، وبناء على هذه النصيحة قام الإفرنج بمهاجمة مصر في شباط عام 1219م، وإبان هذه الحملة أظهر الملك الكامل بن الملك العادل استعداده للتنازل عن بيت المقدس مقابل جلاء الإفرنج عن مصر.

[60] - العسلي بسام: المرجع السابق، ص 130.
[61] - العسلي بسام: نفس المرجع ونفس الصفحة.
[62] - العسلي بسام: المرجع نفسه، ص 133.
[63] - العسلي بسام: المرجع نفسه، ص 136.
[64] - جوناثان ريلي سميث: المصدر السابق، ص 31.

عودة بيت المقدس مدينة إسلامية:

ومرة أخرى تشهد المدينة المقدسة تغييرات أساسية في السكان والحياة الاجتماعية والأشغال والسكن، فكما فعل الإفرنج في القدس عندما اغتصبوها حيث غيروا وظيفة كثير من المباني المقدسة مثل المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة وغيرها الكثير، فقد أجريت كما مر معنا تغييرات كثيرة خلال فترة حكم الإفرنج للمدينة لتخدم الحياة الروحية والاجتماعية والفكرية والحياة اليومية للقاطنين الجدد. ومرة أخرى بعد عام 1187 أي بعد تحرير القدس تحتاج إلى تغييرات تختلف عن تلك التغييرات التي أجرتها الحكومة اللاتينية، لقد أدرك صلاح الدين خلال بقائه بالقصر في المدينة أنها بحاجة إلى تحصين وترميم السور[65] ليصمد أمام أي هجوم في المستقبل، كانت الأولوية بالطبع للحرم الشريف في المسجد الأقصى وقبّة الصخرة.

فقد أزيلت جميع الإضافات العمرانية والزخرفية التي أضافها الداوية ورجال كنيسة القديس أوغسطين أثناء سكنهم في المنطقة وقاعة الطعام والحواجز داخل المسجد الأقصى، باختصار أزيلت كل الإضافات التي أضافها الإفرنج وجرى تنظيف الحرم كله بشكل ملائم، كما غُسلت القبّة بماء الورد الذي جلبه إليه ابن أخي صلاح الدين/ تقي الدين عمرو[66]، كما تم تجديد محراب المسجد الأقصى وترميمه، هذا إلى جانب نقل منبر نور الدين من حلب إلى القدس والذي صُنع خصيصاً للمسجد الأقصى ليقام فيه بعد التحرير[67]، وأعيد اعمار المساجد المهملة إبان الاحتلال الإفرنجي ولقيت القلعة في المدينة عناية السلطان صلاح الدين وجعلها كما كانت في السابق مقراً لحاكم المدينة وحاميتها وعين لجامع القلعة وغيره من الجوامع الأئمة والمؤذنين والموظفين يساعدونهم، كما حوّل بعض المباني مثل كنيسة القديسة حنة إلى مدرسة سميت المدرسة الصلاحية[68]، وحوّل مجمع الإستبارية إلى بيمارستان سمي البيمارستان الصلاحي وجعلت له الأوقاف للإنفاق

---

[65] - الحياري مصطفى: القدس تحت حكم الصليبيين (1099 – 1187) القدس في التاريخ، ص 188، عمان 1992.

[66] – الحياري مصطفى: المصدر نفسه، ص 189، كذلك انظر: الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح المقدسي تحقيق محمد صبح، ص 127، ص 140، ص 144.

[67] – حول نقل منبر الدين محمود، انظر: دراسات في تاريخ وآثار فلسطين سعد كواكبي، المجلد الأول، وقائع الندوة الأولى للآثار الفلسطينية، تحرير الدكتور شوقي شعث 1983.

[68] – الحياري مصطفى: المرجع السابق، ص 189، الأصفهاني: الفتح، ص 145، ص 661- ص 612.

من ربعها[69].

أما فيما يتعلق بسكان المدينة المقدسة فقد توافدوا على المدينة بالآلاف بعد التحرير، لكنهم ما لبثوا أن غادروها إلى أوطانهم أو ذهبوا لأداء فريضة الحج، وقد ظهر أن المجموعة الأولى من المسلمين الذين نزلوا المدينة كانوا من الجند والموظفين المدنيين وأفراد عائلاتهم إلى جانب العلماء والفقهاء والصوفية الذين عملوا في المدارس التي نشأت حديثاً ونظّار الأوقاف والخطباء والمؤذنين والمدرسين والوعاظ في مساجد الحرم وغيرها[70]. وقد تبين أن هؤلاء جميعاً سكنوا حول الحرم في حارة البطرك، وهكذا أخذت الحياة في المدينة تعود تدريجياً إلى طبيعتها، كان ذلك في نحو عام 587هـ/1191م، هذا وقد عمد السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى بناء الأسوار وترميمها وأنشأ البيمارستان وجهزه بتجهيزات ضرورية كما زاد الأوقاف على المنشآت الخيرية التي أقيمت في السابق.

ظهر في هذه الفترة بالقدس داخل الأسوار، حارتان صغيرتان جديدتان هما: حارة المغاربة وحارة اليهود وكانت حارة الشرف تفصل بينهما. حارة المغاربة هذه أوقفها الملك الأفضل (ملك دمشق الأيوبي) على المغاربة المقيمين بالقدس أو الواردين إليها وأقام فيها مدرسة على المذهب المالكي[71]، أما حارة اليهود فسكنها نفر من اليهود الذين كانوا يقيمون في المدينة إضافة إلى جماعة من يهود المغرب جاءوا إلى الشرق في الفترة ما بين 1198 و 199 1م وجماعة من يهود فرنسا، هذا إلى جانب اليهود الذين سمحت لهم سياسة صلاح الدين التسامحية بالعودة إلى القدس والإقامة فيها بعد أن حرمهم الإفرنج من ذلك. إلا أنهم عادوا للخروج من المدينة والنزوح إلى الساحل عندما عادت إلى الإفرنج بموجب المعاهدة الكاملية التي قضت بإعادة المدينة إلى الإفرنج لمدة عشرة أعوام سيما بعد أن أعيد العمل بالتشريعات الإفرنجية المعادية لليهود التي تقتضي منع سكن اليهود مدينة القدس، إلا أنه بعد مفاوضات سمح لعائلة يهودية واحدة بالبقاء بالقدس والإقامة فيها لتكون

---

[69] - الحياري مصطفى: المرجع السابق، ص 189، الأصفهاني: الفتح القسي ص 612، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج1، ص 391.

[70] – الحياري مصطفى: المرجع السابق ص 192، الأصفهاني: الفتح القسي، ص 134.

[71] – جاء المغاربة إلى فلسطين من المغرب (شمال افريقية والأندلس) للمساهمة في صد العدوان الإفرنجي الصليبي عنها، منذ عهد عماد الدين زنكي وبقي كثير منهم في بلاد الشام وخاصة بالقدس، واستوطنوا في حارة المغاربة، كما جاءت أعداد كثيرة منهم إلى القدس في طريقهم إلى مكة المكرمة للحج وطاب لهم العيش في الأرض المقدسة وجاوروا الحرم القدسي الشريف (القدس في التاريخ ص 190).

دارها محطة للحجاج اليهود الذين يحصلون على موافقة لزيارة المدينــة[72]. إلا أن تطور الأحداث حرم القدس من وسائل الدفاع اللازمة للدفاع عنهــا فقــد ســويت الأسوار بالأرض وسحبت القوات العسكرية منها وأرسلت إلى أماكن أخرى ونقلت الأسلحة والمعدات العسكرية إلى دمشق[73].

القدس بعد وفاة السلطان صلاح الدين:

بعد الانتهاء من تحصين مدينة القدس ومن إدارة الخنــدق حــول المدينــة وإصلاح المسجد الأقصى، وبعد أن أجرى بعض الإصلاحات الإداريــة[74]، عــاد السلطان إلى دمشق وقد أنجز إنجازاً لا مثيل له في التاريخ الإسلامي فقد انتصــر في حطين وحرر القدس الشريف وبهذا وضع بداية النهاية للحركة الصليبية في بلاد الشام. ولم يمهل القدر صلاح الدين بعد عودته إلى دمشق فقد مرض ووافته المنية فجر يوم 27 صفر عام 589هـ الموافق آذار عام 1193م وكان عمره لا يتجاوز السابعة والخمسين عاماً. وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته بطلاً عظيماً من أبطــال الإسلام والمسلمين الذين قدموا خدمات جليلة[75].

بعد وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله انتقلت إلى ولده الملك الأفضــل نور الدين علي الذي كان قريباً لوالده، إلا أنه لم يستفد من منهج والده في العمــل السياسي والعمل العسكري فبدأ بإقصاء رفاق والده ومستشــاريه والعقــلاء الــذين أسهموا مع والده في بناء الدولة لبنة لبنة وقد كان هذا العمل بدايــة لشــق البيــت الأيوبي وخاصة بين أبناء السلطان صلاح الدين، فكان الخــلاف وكانــت الفرقــة وانتقل الخلاف إلى النزاع المسلح حين قام الملك العزيز ملك مصــر الأيــوبي أن داخله الطمع في أملاك أخيه بالقدوم إلى دمشق ليستخلصها لنفسه من أخيه الملــك الأفضل الملمح إليه أعلاه حينها تدخّل الملك العادل عم الملكين الأيوبيين فأصــلح ذات البين بينهما وأقنع الملك العزيز بالعودة إلى مصر توخياً لوحدة البيت الأيوبي وبالتالي الدولة الأيوبية[76].

---

[72] ـالقدس في التاريخ، ص 193.

[73] ـ القدس في التاريخ، ص 193.

[74] ـ قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 432.

[75] ـقدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 434، ص435.

[76] ـقدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 471.

إلا أن الخلاف سرعان ما دبّ بين الأخوين مرة ثانية بسبب السيرة السيئة التي كانت تسيء للملك الأفضل الذي لقب بالملك النوّام الغارق في اللهو والترف وتسيء للإسلام والمسلمين على حد تعبير الملك العزيز وحاشيته، وقد دفعت هذه السيرة السيئة الملك العزيز ليزحف من جديد لتخليصها من يد أخيه الأفضل، وعندما استنجد الأفضل بعمه العادل مرة ثانية إلا أن الأخير وجدها فرصة للتدخل في شؤونهما[77] محاولاً الاستفادة من ذلك الخلاف بعينه، كان الملك العادل يتقن الأدوار جيداً وكان طامعاً في أن يكون هو سيد البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان صلاح الدين واستمر النزاع بين الأخوة ونتيجة لذلك دخلت بيت المقدس في ملك الملك العزيز، كما خرج الملك العادل سيّداً للبيت الأيوبي وهذا ما كان يطمع إليه كما أشرنا[78].

وعندما لم يتمكن الإفرنج من استرداد بيت المقدس من المسلمين فكروا في تغيير استراتيجيتهم فكان أن فكروا باحتلال مدينتي دمياط والإسكندرية كوسيلة ضغط على ملك مصر الأيوبي لإعطائهم مدينة بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر عند احتلالها، وفي هذه الفترة ظهر خطر جديد على العالم الإسلامي ألا وهو الغزو المغولي وتوجهه إلى أخذ مصر بعد أخذهم بغداد وبلاد الشام وما رافق ذلك من مذابح ودمار. إضافة إلى اتصالهم بالإفرنج لمحالفتهم ضد الأيوبيين مقابل هذه الاستراتيجية تمسك الأيوبيين بمصر ودافعوا عنها دفاعاً قل نظيره حفاظاً عليها وإفساداً للخطط الإفرنجية والمغولية، وقد يكون تفسخ البيت الأيوبي في مصر والشام والمنافسات والصراعات التي وقعت بين أبناء البيت الأيوبي هو الذي شجع الملك الكامل بن الملك العادل ملك مصر أن يعرض على الإفرنج التنازل لهم عن بيت المقدس مقابل الجلاء من مصر، إلا أن الإفرنج لم يوافقوا ورفضوا العرض لظنهم أن الملك الكامل ملك مصر قد اصبح ضعيفاً وأن القدس غدت بالنسبة لهم أمراً ثانوياً[79]، عندها قاموا بالهجوم على مصر لكنهم ردوا على أعقابهم، وعلى الرغم من ذلك وللأسباب التي أشرنا إليها أعلاه انتهز الملك الكامل هذه الفرصة أي هزيمة الإفرنج وعرض عليهم وللمرة الثانية عقد هدنة وإعطائهم مدينة القدس

[77]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 433
[78]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص478- ص499
[79]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 488

وعسقلان وطبريا وجبلة واللاذقية[80]، إلا أن الإفرنج رفضوا عرض الملك الكامل للمرة الثانية وأصروا على احتلال مدينة دمياط ومن ثم القاهرة[81]، نظراً للوضع الحرج للمعسكر الإسلامي.

تواصلت هجمات الإفرنج على مصر واشتدت وخاصة على مدينة دمياط، ونتيجة للحصار الذي فرضه الإفرنج على مدينة دمياط الذي دام نحو ستة أشهر واثنين وعشرين يوماً ونظراً لغلاء الأسعار وانتشار الأمراض تحرج موقف المسلمين واضطروا إلى الاستسلام وسلموا مدينة دمياط في 25 شعبان 616هـ/ تشرين الثاني عام 1219م، وفي هذا الوقت وصلت نجدة من الملوك الأيوبيين إلى مصر منها نجدة الملك الأشرف حاكم خلاط والجزيرة، كما وصلت نجدة من الملك المعظم ولكن بعد تدمير حصون تبنين وبانياس وصفد وأبراج القدس وسورها حتى لا يقع بيد الإفرنج محصنة. ينقل قدري قلعجي عن صاحب كتاب ذيل الروضتين(ص115)"[82]فوقع البلد في ضجة مثل يوم القيامة وخرجت النساء المخدرات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وثقالهم وامتلأت الطرقات منهم فتوجه بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى الكرك والبعض إلى دمشق".

وبعد سقوط دمياط بيد الإفرنج وتخوف الملك الكامل من زحفهم إلى القاهرة جدّد عرضه للمرة الثالثة وهو إعطاء الإفرنج مدينة القدس ومدن فلسطينية أخرى سبق ذكرها. إلا أن الإفرنج رفضوا العرض مرة أخرى واشترطوا مقابل الموافقة على العرض أن تكون لهم الكرك إضافة إلى مدن فلسطينية ومبلغاً من المال بقدر نحو 300 ألف دينار[83]. وفي هذا الوقت وصلت الحملة الصليبية المعروفة بحملة لويس دوق بفاريا إلى دمياط فاشتد ساعد الكاردينال بها وقرر الزحف على القاهرة لاحتلالها وفي نفس الوقت أرسل إلى ملك القدس في المنفى "يوحنا دي برين" يطلب منه المشاركة في الزحف على القاهرة ولم يستطع التخلص من هذا الطلب خوفاً أن يتهم بعرقلة أعمال الصليبيين في مصر، وأقام الاستعدادات لغزو القاهرة، وخوفاً

---

[80]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 489
[81]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 490
[82] - قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 492
[83]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 493

من النتائج التي ستترتب على ذلك، جدّد الملك الكامل عرضه للمرة الرابعة بتسليم القدس لهم أي الإفرنج، إلا أن الإفرنج لم يوافقوا على العرض واشتطوا في طلباتهم، ومن الجدير ذكره أن المسلمين كانوا يختلفون فيما بينهم حول العروض التي كان يقدمها الملك الكامل للإفرنج فبعضهم كان يقبل بإعطاء القدس للإفرنج وبعضهم كان يرفض رفضاً تاماً.

ازداد رفض الإفرنج لتلك العروض المتكررة أي عروض المسلمين بالتنازل لهم عن القدس مقابل الجلاء عن مصر قرر المسلمون المقاومة والدفاع عن مصر وحدثت معركة رهيبة بين الطرفين من اجل دمياط، اشترك فيها الجند والعامة من المسلمين، وقد تمكن المسلمون من الوقوف في وجه الإفرنج فشاعت الاضطرابات والفوضى في صفوف الإفرنج وأصابهم الذعر فلم يجددوا مفراً من طلب الأمان، على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة وعاد جندها إلى بلادهم بعد أن رفضوا أربعة عروض باستعادة القدس وفلسطين مقابل الجلاء عن مصر[84].

عاد الإفرنج للضغط على ملك مصر الأيوبي الملك الكامل سياسياً وعسكرياً وكثر الطامعون وأحاطت الأخطار بملكه، من تلك الأخطار خطر أخيه الملك المعظم وأخطار الخوارزمية الذين أخذوا يهددون الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية وأخيراً الخطر الإفرنجي وهو الخطر الذي كان يتربص بالأيوبيين جميعاً. استعان الملك الكامل بالإمبراطور فريديريك الثاني لدفع الأخطار الخارجية والداخلية، وقد اتفق الطرفان الإسلامي والإفرنجي على توقيع معاهدة يافا التي نظمت العلاقة بين الطرفين في 18 شباط (فبراير) 1229 وقع المعاهدة الإمبراطور فردريك الثاني[85]، عن الجانب الإفرنجي ووقعها عن الجانب الإسلامي ممثلو الملك الكامل فخر الدين بن شيخ شيوخ وصلاح الدين أمير أربيل ونصت المعاهدة على أن تحصل مملكة بيت المقدس النصرانية على بيت المقدس وبيت لحم وشريط من الأرض يصل يافا والقدس على أن يظل الحرم القدسي بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة بيد المسلمين ولهم حرية العبادة فيها على أن تكون مدة المعاهدة عشرة

84- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 493

85- الإمبراطور فردريك الماني من ناحية أبيه، أما أمه فكانت ايطالية، تأثر بالشرق عن طريق صقلية، كان فيلسوفا محبا للجدل والرياضيات، كان يتذوق الشعر العربي يتحدث بلغات ست إضافة إلى عدد من المهارات، ولكنه كان محروما من الكنيسة لذلك كان كثير من الإفرنج يكرهونه.

أعوام[86]، وفي يوم السبت 17 آذار 1229 قام الإمبراطور فردريك بالحضور إلى القدس وتسلمها من القاضي شمس الدين قاضي نابلس نيابة عن الملك الكامل[87]. تخلص الملك الكامل باتفاقه من الإمبراطور فرديدريك من أعدائه الثلاثة وهم: الإفرنج الصليبيون – ابن أخيه الملك الناصر داوود – الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين[88].

رفض المسلمون هذه المعاهدة رفضاً قاطعاً وقاوموها مقاومة شديدة فقد أعلن الملك الناصر داوود الحداد بدمشق متهماً الملك الكامل بأنه خان الإسلام والمسلمين وكثرت الشائعات عليه في سائر الأقطار الإسلامية وفي القدس نفسها "اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل. وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان"[89]. لم تلق هذه المعاهدة قبولاً من المسلمين كما أشرنا، كما أنها لم تلق قبولاً من الإفرنج الصليبيين أنفسهم فقد كان الإمبراطور الذي استعاد القدس محروماً من الكنيسة وبالتالي لم يرحب أحد بإقرار السلام وحقن الدماء في الأراضي المقدسة، وقام بطريرك القدس في مملكة القدس جيرولد بحرمان المدينة المقدسة وحرمان من يستقبل الإمبراطور وتوقفت الصلاة في الكنائس وامتنع الكهنة عن أداء المراسم الكنسية مما جعل الإمبراطور حين دخل القدس في آذار عام 1229م وتسلم مفاتيحها، من أن يتوج نفسه في كنيسة القيامة.

على الرغم من استرداد الإفرنج الصليبيين بيت المقدس طبقاً للمعاهدة التي عرفت باسم المعاهدة الفردريكية – الكاملية، إلا انهم لم يأمنوا الجانب الإسلامي وظلت المدينة المقدسة[90] تدار من قبل حكومة في المنفى في عكا بإشراف مجلس بلدي يرأسه"حنادي ابلين" خصم فردريك الإمبراطور بينما تحكم من قبل مندوب عن الإمبراطور بوصفه الوصي على ابنه كونراد من زوجته "يولاند"[91]، إلا أنها أي المدينة المقدسة لم تتمتع بشيء من أهميتها السابقة التي كانت لدى الإفرنج الصليبيين الأوائل.

وفي عام 1244/1243 / أقر الملوك الأيوبيون الثلاثة: الصالح أيوب ملك

---

[86]– العسلي بسام: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص 136، الحركة الصليبية، ص 967.

[87]– عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية 2، ص 971.

[88]- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 506

[89]– عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية 2.

[90] - قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 513

[91]– عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية2، ص 995.

مصر والصالح إسماعيل ملك دمشق والناصر داوود مبدأ استيلاء الإفرنج على الحرم الشريف وقد سمح هذا القرار للإفرنج بالسيطرة الفعلية على الأماكن المقدسة وعلى الحرم الشريف حيث بدؤوا يدنسونها بإساءة استخدامها وقد سبب ذلك إيذاء شعور المسلمين. ذكر القاضي جمال الدين بن واصل عند مروه بالقدس عام 1244 قائلاً:"فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الآذان بالحرم"[92].

اشتدت في هذه الفترة الصراعات بين ملوك البيت الأيوبي، وكذا اشتدت الصراعات بين الإفرنج خاصة المنظمات العسكرية، وحاول الأيوبيين التحالف مع الإفرنج وأصبحت القدس رخيصة لديهم يقدمونها إلى كل من يتحالف معهم من الإفرنج، وفي نهاية المطاف نجد الصالح إسماعيل والناصر داوود يتحالفان مع الإفرنج ضد الملك الصالح أيوب مما دفع الأخير للاستنجاد بالخوارزمية، وقد كان هؤلاء قساة على المسلمين وغيرهم، فجاءوا إلى القدس وارتكبوا الكثير من الفواحش 11 تموز عام 642 هـ/1244م، وأصبحوا عبئاً على حليفهم مما دفع حليفهم الملك الصالح أيوب إلى الخلاص منهم بالدهاء والحيلة ليجنب البلاد تخريبهم، واستطاع عام 1246م هزيمتهم في معركة جرت بين حمص وبعلبك، ذلك بعد أن ساعدوه على هزيمة الملوك الأيوبيين من خصومه ومن معهم من الإفرنج هزيمة ساحقة في موقعة غزة[93].

استطاع الملك الصالح أيوب بعد القضاء على الملكين: الملك الصالح إسماعيل والملك الناصر داوود والإفرنج توحيد البيت الأيوبي، وقام بزيارة القدس عام 646هـ - 647/ 1248- 1249م وأعاد تجديد أسوارها وحصونها وتقوية دفاعاتها، وكسب ولاء الملوك والأمراء من البيت الأيوبي وفي الوقت نفسه تقلصت الحدود الإفرنجية إلى يافا.

وهكذا تحررت مدينة القدس بمساعدة الخوارزميين الذين استعان بهم ملك مصر الأيوبي الملك الصالح أيوب من الإفرنج، وظلت بأيدي المسلمين ولم يتمكن أي جيش إفرنجي مسيحي من دخولها إلا بعد حوالي سبعة قرون عندما دخلها

92- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 518، الحركة الصليبية ص 999. يطلق المؤرخين على معركة غزة اسم "حطين الثانية" نظراً للخسارة الكبيرة التي وقعت للإفرنج في هذه المعركة.

93- العسلي بسام: الأيام الحاسمة، ص 137- ص 138.

البريطانيون[94] في الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال اللنبي، والذي قال عند دخوله القدس:"الآن انتهت الحروب الصليبية".

والسؤال الآن هل اقتنع الإفرنج بالنكسات التي منوا بها؟ حيث فشلوا في استعادة بيت المقدس والعودة إليها على حد قولهم؟ لقد ظل الإفرنج يحاولون استرداد بيت المقدس إرضاء لمواطنيهم في أوروبا في إطار تلك المحاولات قام لويس التاسع ملك فرنسا بحملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الصليبية السابعة[95] على مصر لأنه يحمل في ذهنه أن مصر في عصره كانت القاعدة الأساسية للدفاع عن القدس فإذا ما انهارت مصر انهارت معها القدس وغيرها من البلاد التي كانت تابعة لمصر في ذلك الوقت.

عارض حملة لويس التاسع هذا الإمبراطور فردريك الثاني، فقد تظاهر أول الأمر بتأييدها، إلا أنه أرسل من طرف آخر إلى الملك الصالح أيوب أخباراً بتحركات الحملة، كما أن البنادقة عارضوا الحملة بسبب رغبتهم في حماية مصالحهم التجارية مع مصر التي أظهرت في ذلك الوقت، في تلك الفترة مرض الملك الصالح أيوب وبرزت زوجته شجرة الدر كمصرفة للأمور إلى أن توفي الملك في 22 تشرين الثاني 1249/ 647هـ وتولى ولده المعظم توران شاه الأمور.

لم توفق حملة لويس التاسع فقد واجهت صعوبات كبيرة بسبب البسالة التي أبداها شعب مصر لتلك الحملة، مما جعل الملك لويس التاسع يعرض على المعظم توران شاه طلب الصلح ويعرض التنازل عن دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس، إلا أن السلطان الأيوبي رفض ذلك العرض رفضاً قاطعاً. وعندما عاد لويس التاسع يطلب بعض المدن الساحلية فقط قام السلطان الملك توران شاه برفض الطلب مرة ثانية قائلاً:" إن بيت المقدس وكل شبر من أرض العرب هي أرضنا لا نفرط فيها قط، وانتم في مكانكم الآن لا ينبغي أن تنساقوا وراء خيالاتكم وأوهامكم[96]

إلا أنه بعد عدة صدامات وكر وفر وانسحابات وقع الجيش الإفرنجي في النهاية بأسره بين قتيل وأسير كان من ضمنه الملك لويس التاسع حيث حُمل إلى

---

94 - قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 522

95- قدري قلعة جي: صلاح الدين، ص 545

96- نفس المرجع: ص 546 - ص547.

مدينة المنصورة واعتقل هناك في دار كاتب الإنشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بحراسته إلى الطواشي صبحي المعظمي.

بعد مقتل توران شاه على يد مماليك والده بتدبير من شجرة الدر أرملة والده، على قول المؤرخين، تولى أولئك المماليك الحكم في مصر فعقدوا معاهدة مع لويس التاسع في أوائل مايو 1252م/ ربيع الأول 650هـ، بعد فكاك أسره وإقامته في قيسارية بفلسطين من بين بنودها: أن يتعهد الأمراء المماليك بإعادة بيت المقدس إلى الإفرنج وجميع الأراضي التي كانوا يملكونها في الأراضي المقدسة والواقعة غربي نهر الأردن باستثناء أربع مناطق هي: غزة، الداروم، نابلس، الخليل[97]

لم يكتب لهذه الاتفاقية النجاح بسبب الموقف الأيوبي منها في كثير من بنودها وسقط التحالف العسكري بين الطرفين، فلم يخاطر المماليك بالانتقال إلى بلاد الشام، إلا أن بعض البنود نفذت كتبادل الأسرى وتسليم رؤوس الإفرنج التي كانت معلقة على أسوار مدينة القاهرة منذ موقعة غزة[98].

ظل الصراع قائماً بين أمراء المماليك الذي كان يتزعمهم عز الدين ايبك، والأيوبيين بزعامة ملك حلب الأيوبي صلاح الدين يوسف الثاني، لقد تقدم الأيوبيين إلى أن وصلوا غزة كما تمركز المماليك في بلدة الصالحية استعداداً للمواجهة إلا أن الخليفة العباسي المستعصم بالله تدخل لإقرار الصلح بين الطرفين بوساطة الشيخ نجم الدين أبو محمد عبد الله البادراني [99].

كان لويس التاسع يهدف من كل ما فعله استخلاص بيت المقدس من قبضة المسلمين وتمكين النفوذ الفرنسي في الأراضي المقدسة مستغلاً الخلاف بين المماليك والأيوبيين إلا أنه لم ينجح فعقد اتفاقاً مع التتار الذين اجتاحوا العراق وأسقطوا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ضد المماليك والأيوبيين لتخليص بيت المقدس إلا أنه فشل في ذلك المسعى بعد هزيمة التتار في موقعة عين جالوت بفلسطين[100].

يصف وليم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية حالة القدس في القرون الثلاثة الأولى من الألف الثاني بعد الميلاد قائلاً:"وهكذا فإن المدينة المقدسة...تتقلب

97-يوسف جوزيف نسيم: الحروب الصليبية، ج3، ص 178.

98-يوسف جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام (2) هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ص 180.

99-يوسف جوزيف نسيم: نفس المصدر، ص 183.

100- يوسف جوزيف نسيم: العدوان الصليبي، ص 186 وما بعدها.

الأحداث المستمرة عليها، كثيراً ما بدلت أصحاب الأمر فيها وقد جرّبت فترات من الصفاء والوئام تبعاً لشخصيات الأمراء الذين تعاقبوا عليها، وحسنت أحوالهم أو ساءت شأنها شأن الرجل المريض، حسب ضرورات الزمان لكن تمام العافية كان من المستحيلات...[1].

خاتمة:

في الصفحات السابقة عرضنا إلى الصراع الدولي حول القدس، بيت المقدس، كما عرضنا إلى أسباب الصراع والدول المتصارعة والنتائج التي آل إليها ذلك الصراع. كما بينا أسباب الصراع حول القدس والأسباب التي دفعت كل طرف من المتصارعين للمشاركة في ذلك الصراع وهي أسباب دينية، وكيف أن تلك الأسباب تلاشت وظهرت الأسباب الحقيقية لذلك الصراع وهي الأسباب السياسية أو الاقتصادية للاندفاع إلى الشرق. لقد قام الإفرنج الصليبيون باحتلال الأرض المقدسة وأقاموا الممالك والإمارات والكونتيات طمعاً في الاستقرار، إلا أن ذلك الاستقرار لم يتحقق بسبب مقاومة العرب المسلمين وسكان البلاد، ذلك الاستعمار الاستيطاني وظلت أوربا تدفع الموجات البشرية كلما عمَّ إليها ذلك، لتعزيز خططها في الاستقرار، على ذلك التعزيز لم يكتب له النجاح وتلاشى الحماس الذي كان ملوك الغرب الإفرنجي يبدونه وتحول من حماس يلتهب بسبب دوافع دينية إلى حماس تنظمه دوافع تجارية وتتحكم فيه وتوجهه أطماع اقتصادية استعمارية.

ظلت الحملات الإفرنجية تتقاطر على الأرض المقدسة محاولة إنجاح المشروع الإفرنجي الصليبي إلا أن تلك المحاولات سقطت في النهاية أمام المقاومة التي أداها العرب المسلمون لإفشال ذلك المشروع. لقد فشل المشروع، وحاول الإفرنج بعث الحياة فيه بالهجوم على مصر محاولين اتخاذ موطأ قدم لهم في مصر للانتقال إلى بيت المقدس وفلسطين وبلاد الشام، إلا أن مصر لم تمكنهم من إنجاح خططهم. وهكذا سقطت استراتيجيات الإفرنج أمام إصرار المسلمين على المقاومة والحفاظ على بيت المقدس، وبالتالي فشل المشروع الإفرنجي الصليبي في الاستقرار رغم محاولاتهم في بذر الشقاق بين المسلمين ورغم محاولاتهم التحالف

[1] -الحياري مصطفى: القدس في التاريخ، ص 194- ص 195، Williaur of Tyre History I,63-64

مع التتار اللذين جاءوا إلى البلاد الإسلامية طمعاً في الثروة والسلطة، إلا أن تلك الوسائل لم تنجح وظل العداء مستحكماً بين الإفرنج والمسلمين إلى أن تلاشت الحركة الصليبية وعادت بيت المقدس والبلاد العربية الإسلامية من جديد لأصحابها الشرعيين. لقد كانت الصليبيات بمثابة العدوان الأوربي المسيحي على البلاد الشرقية الإسلامية، وكان ذلك العدوان يتجدد بين آن وآخر كلما سنحت السانحة بدلالة أننا لا نزال نعاني من عقابيل ذلك العدوان إلى يومنا هذا. لقد عادوا إلينا بثوب جديد هو ثوب الاستعمار الحديث فالشعوب الأوربية التي ألهبت المشاعر المسيحية في العصور الوسطى والتي كانت العناصر الأساسية في العدوان الصليبي الإفرنجي على البلاد الإسلامية هي نفسها التي جاءت في ثوب المستعمر، فقد جاء الفرنسيون إلى المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا وسوريا ولبنان، وجاء الإنجليز إلى مصر وفلسطين والعراق والأردن. وكان قادة الحملات العسكرية الغربية يحرصون على إظهار حملاتهم بأنها استمرار لحملات الأسلاف في العصور الصليبية كيف لا وقد قال الجنرال الإنجليزي اللنبي عندما دخل القدس "الآن انتهت الحروب الصليبية" وقال الجنرال الفرنسي غورو عندما زار قبر البطل صلاح الدين بدمشق" ها قد عدنا يا صلاح الدين"، في إشارة إلى البطل الإسلامي صلاح الدين الذي يرجع إليه الفضل في طرد الصليبيين من البلاد العربية وتحرير القدس من أيديهم.

واليوم تعيش القدس/بيت المقدس في أزمة لا تقل عن تلك التي عاشتها في العصور الوسطى زمن الإفرنج الصليبيين بل أشد فتكاً وضراوة على يد صنيعة الغرب الاستعماري "إسرائيل الصهيونية". وسيظل الصراع من اجل القدس ومن اجل المقدسات مفتوحاً إلى أن تتحقق عدالة السماء على يد الأجدر أمانة من أبنائها وتتحقق المساواة ويتلاشى العنف والطاغوت وليس بذلك على الله بعزيز.

المصادر والمراجع:

راجع الباحث عدداً كبيراً من المصادر والمراجع، نذكر منها ليستطيع القارئ إن رغب مراجعتها:

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ.
2- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - 3 مجلدات.
3- رنسيمان: الحروب الصليبية، 3 مجلدات (معرب).
4- العسلي بسام: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية - بيروت ط1، 1978.
5- عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، الجزء الأول، ط3، 1978 - الجزء الثاني ط3، 1976.
6- عبد المنعم ماجد: بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة، التاريخ العربي، 11، 1999.
7- شعث شوقي: القدس الشريف، اسيسكو، الرباط 1983.
8- قلعة جي قدري: صلاح الدين الأيوبي، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد بيروت 1992.
9- يوسف جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو (2)، 1981، بيروت.
10-يوسف جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام (3) 1981 بيروت.
11-يوسف جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية، 1981 بيروت.
12-العسلي كامل: القدس - الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني.
13-العسلي كامل (مترجم ومحرر): القدس في التاريخ، عمان.

الأسطورة في الرواية*

أ.نبيل سليمان

قد ينطوي نظر الكاتب في عمله على مرارة، بقدر ما يتبين له كم هي الرواية مقبرة للفرص الضائعة. كما قد ينطوي ذلك النظر على حلاوة، بقدر ما يتبين للكاتب سر ما أنجز وقيمته. والأهم في الحالتين تقشيرهما من النرجسية ومن المازوخية. والأهم أيضاً هو ما يتوفر في الحالين من خبرة تناديها كتابة تالية، لصاحب النظر نفسه، وربما لسواه.

1-والأمر كذلك، أرى الآن ما اشتغلت عليه (مدرارات الشرق) من الأسطورة، كما في اسمي الست زهرة والباشا شكيم، واتصالهما بكوكب الزهرة وبنابلس التوراتية، أو كما في عنوان الجزء الثاني (بنات نعش)، أو كما في شخصية حمادي الحسون، أو كما في تقمصات تحسين شداد في الجزء الأخير (الشقائق): من تحسين الأول إلى تحسين الثاني إلى تحسين الخفي إلى العسكريين/التحاسين الذين صنعوا نصفنا الثاني من القرن العشرين. وربما كان قاسيون في كل جزء من (مدرارات الشرق) ذلك الكيان المادي الأسطوري التاريخي.

لكنني الآن أتحسر أمام مقبرة الفرص الضائعة على ما فوتت الرواية من مدونتها، من الربوة ذات القرار المنعين إلى مغائر أهل الكهف والأربعين ومولد عيسى ومذبح هابيل على يد شقيقه، إلى قبور موسى ويحيى (يوحنا المعمدان) ومقامات إبراهيم ولوط وأيوب والخضر، ملء الفضاء الدمشقي بين قاسيون، إلى زيارة آدم وحواء لقاسيون، إلى طلب الله من قاسيون أن يعطي شيئاً من بركته للقدس، فلما وفعل كوفئ ببناء حرم بين يديه هو معبد جوبيتر: معبد هدد: الجامع الأموي إلى سيبقى قائما؟ أربعين يوماً بعد خراب الدنيا يوم الحشر.

2-بعد (مدرارات الشرق) حاولت (أطياف العرش) تشكيل أمر الأسطورة على نحو آخر قوامه الزعيم السياسي – الديني المؤسس في واقع الأسطورة وفي واقع المخيال الاجتماعي.

هكذا! قامت شخصية الطويبي في (أطياف العرش) بفضل الخضر. ومن جديد تنشب الحسرة أمام مقبرة الفرص الضائعة، على ما فوتت الرواية من

* - محاضرة ألقيت بدعوة من جمعية العاديات بحلب بتاريخ 1999/8/24

مدونتها، من رواية ابن عربي في فتوحاته المكية عن لقاءاته العديدة مع الخضر، إلى الصخرة الأسطوانية المغروسة – كعضو ذكري هائل – في رمل الشاطئ قبيل بانياس: الصخرة التي تزورها العاقر لتخصب: الصخرة التي يقال إن الخضر قد رماها، وكنت طوال نشأتي الأولى قد لقنت أن الإمام علي هو من رماها. وأخيراً، وليس آخراً فقد فوتت الرواية ما بين الخضر والبحر، وتركت البحارة الأرواديين وحدهم ينادونه: يا ريس، كما تركت سواهم ينادون مار الياس أو مار جرجس أو ايليا التوراتي أو ذلك العبد الصالح الذي لاقى موسى في مرج البحرين. لكن أمر الطويبي والخضر لم يكن سوى طيف للبداية من (أطياف العرش). ومن بعده ستشتبك أطياف الكاريزم الكلي والألق الديني الكلي، بلغة مكسيم رودينسون، بالزعيم السياسي الاجتماعي، بالجماعة التي تنوء – كأية جماعة تقليدية – تحت وطأة الميثولوجيا التي تعوضها عن التأخر، بالعجائبي. وهذا فيما أحسب هو شأن مجتمعنا في عهد الطويبي ورواية (أطياف العرش) بين عشرينات ومنتصف ال القرن العشرين، كما كان شأن مجتمعنا من قبل ومن بعد، من أمد غير معلوم إلى أمد غير معلوم.

ها هنا يصل أمر الأسطورة في الرواية إلى مقدس ما مدنس ما، هما في شخصية الطويبي: المقدس الديني والمدنس الدنيوي، وهما في الرواية: شقاقها الفني على المقدس الفني، مما بات وكدي منذ (ثلج الصيف).

واللافت في شأن المقدس، لغة، هو اشتباك الديني بالدنيوي فيه. ففي (لسان العرب) أن القدس هو السطل، لأنه يتقدس منه، أي يتطهر. وكما استقرأ محمد الجويلي بامتياز، تقوم هنا، في الأس اللغوي للمقدس وللمدنس، صفة دنيوية تنسحب على متاع الدنيا، أي تلتصق بعالم البشر[1]. وفي المقدس إذن إنساني، في الديني دنيوي، في الإلهي بشري، وهذا ما يضيء ثنائية المقدس والمدنس، ثنائية الجوهر والعرض، الزمني واللازمني، المتعالي والتاريخي، الطهارة والرجس...وهي الثنائية التي سعت (أطياف العرش) لتجسيدها في شخصية الطويبي، كما ستسعى(مجاز العشق) لتجسيدها في الماء، ليس على طريقة الفصل الأفلاطوني بين

---

[1]– محمد الجويلي: الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس، دار سرس، تونس 1992، الفصل الأول.

عالم المثل وعالم المحسوسات، بل على طريقة الاشتباك.

3-على هدي مما تقدم ومن سواه، كتب (مجاز العشق) متذرعاً بما تحقق من أمر الأسطورة في الرواية العربية، فيما كتبت آخرون من أجيال شتى وبتجارب شتى، ومفيداً بالطبع مما أنجزت الرواية الأمريكية اللاتينية وسواها، ورائياً لكتابنا الذين أطاشتهم لعبة ماركيز وأقرانه، كما أطاشت سواهم لعبة جويس أو فوكنر أو غوركي وسواهم.

لقد رامت (مجاز العشق) أن تكتب كشقاق فني. لذلك فكرت في نفسها عبر ما تداوله فؤاد صالح وصبا العارف وفاتن طروف في كون الرواية حكاية أم بحثاً أم أسطورة أم ماذا؟.

في صميم هذا السؤال جاء قانون الشعث، جاء النظام في الفوضى والفوضى في النظام، جاء مروق على مقدسي فني، فطفق المدنس الفني يشغل الأسطورة في الرواية – كتشغيله الوثيقة أيضاً – حفراً في مقدس: من الخلق إلى الموت إلى الجنس إلى الصراع العربي الإسرائيلي إلى...وقد ابتدأت هذه المغامرة بملحمة جلجاميش، حيث الخلق والطوفان ونطفة الماء إن صحت العبارة، حيث الخلود والعبور أيضاً. ولقد ركنت من بين الصياغات العديدة لملحمة جلجاميش إلى ما صاغه فراس سواح ورسمه سعد يكن في الألبوم الذي ستحمله صبا العارف إلى عرسها في الزبداني بعد ما نيفت الرواية على ربعها الأخير.

بيد أنني اخترت أن ألاعب نص فراس سواح، حيث اقتطفت. وربما ضاعت جرأتي على هذا1 الصنيع ما لحظت من فروق بين صياغات المرويات الآثارية بعامة. وليس ملحمة جلجاميش وحدها. ومن بين ما يحضرني الآن من ذلك حسبي أن أشير إلى ما بين صياغات الأسطورة الأوغاريتية (بعل) على يد أبو عساف وحسني حداد وسليم مجاعص. هكذا لاعبت الرواية إذن المقتطف نبضة من الرواية فنبضة. والنبضة الأولى ترسم الأنثى- الرواية على لوح من الماء كما ترسم الذكر الملك الذي ينصب حقيقة ما قبل الطوفان مقابل ما تنصب الأنثى – الرواية من حياة فيما بعد الطوفان. وإزاء هذه البداية ستنتهي الرواية في آخر متن (كالمتن)، حيث يغدو فؤاد صالح وصبا العارف وقد عاشا ما عاشا، عابراً وعابرة، بلا فخامة، يسلمان الرواية إلى قارئ يكتب ما يشبه الخواتيم.

إلى ذلك ستوالي الرواية ملاعبة الملحمة في فقرتي – حركتي(حداء الكاتب)

و (وظيفة)، أي في الموت وفي الأنوثة والذكورة. كما ستلاعب أساطير أخرى إسلامية ومسيحية وعبرية وطوائفية إسلامية ومما قبل الإسلام، من سد مأرب إلى نهر الأردن إلى الهيكل إلى البقرة الحمراء إلى المزارات، مما توخت الرواية أن يصوغ نبضاتها في الكتابة والموت والتطبيع والسلام والصراع على المياه. ومن بين ذلك جاءت صخرة عين العرقوب – بعد صخرة سليمان – ونزنيزها لتغدو – ربما– إيقاعاً أكبر. ولن الرواية كانت تفكر في نفسها، فكرت في هذا الذي جربت من أمر الأسطورة إزاء ما وصلنا إليه مع الحداثة وما بعد الحداثة، وقال فؤاد صالح:"هذا الخيال الجديد يقلقني: صورة توحد العالم وتذروه، صورة تبدد أحلام النومة السابعة: صورة تقوض الأسطورة كما تقوض التاريخ: أي خيال سيكون إذن لرواية؟".

قد تكون (مجاز العشق) أشارت إلى بعض من الجواب على هذا السؤال، وبخاصة في فقرات – حركات (عابرة – حياة – صخرة – أخلاط – مزار – وظيفة – حداء الكاتب – عرس – معرض – قلم – نوح – حكاية جوا حكاية – أم قيس – في غيابها). وقد اختارت الرواية أن يكون بعض من الجواب في صدم ما اشتغلت عليه من الوثيقة بما لاعبت من الأساطير وربما حفرت في المخيال. وعلى أية حال، فإنني أقف الآن أمام مقبرة الفرص الضائعة، متحسراً على ما فوتت الرواية من مدونتها، وحسبي أن أشير من غمر إلى ما روى المطهر الحلي في كتابه (منهاج الكرامة في معرفة الإمامة) عن دفق الماء في الكوفة حتى خاف أهلها من الغرق، ففزعوا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فركب بغلة الرسول، وخرج الناس معه حتى نزل على شاطئ الفرات، فصلى، ثم دعا وضرب صفحة الماء بقضيب في يده ففاض الماء وسلم عليه كثير من الحيتان، فسئل عن ذلك: فقال:أنطق الله لي ما أطهر من السموك وأصمت ما حرمه وأنجسه وأبعده.

وفي هذا الكتب الذي رد عليه ابن تيمية في (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) يروي المطهر الحلي أن الإمام موسى الكاظم كان قائماً على البئر وبيده ركوة يستقي بها فسقطت الركوة في البئر فرفع طرفه إلى السماء وقال: أنت ربي إذا ظمئت إلى الماء، فإذا بالبئر كما يروي شقيق البلخي – قد ارتفع ماؤها، فأخذ افمام الركوة وملأها وتوضأ وصلى أربع ركعات، ثم مال إلى كثيب رمل هناك، فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة في الركوة ويشرب. لقد فات

على ما فات إذن، بيد أن ما تحقق قد يكون أضاف إلى ما د أبت منذ سنين على الدعوة إلى التفكير فيه، وأعني المنعطف الروائي العربي الجديد[2] الذي يبدو اشتغال الأسطورة في الرواية علامة كبرى من علاماته، بما يعني ذلك من الاتصال بالتراث السردي الشعبي الشفوي والمكتوب، وبالأدب الديني الشعبي والمكتوب، وبمرويات المكتشفات الآثارية، وباختصار: بكل ما ينهض به المخيال الاجتماعي.

في المنعطف الروائي الجديد تتوخى الرواية أن تكون حفراً في المخيال الذي يوجه إلى حد بعيد سلوكنا. وإذا كانت الرواية تفيد من المساهمة الفكرية المتواترة في العقود الثلاثة الأخيرة في نقد العقل العربي، فهي – الرواية – ترثي لمن يفصل بين العقل والمخيال. وهذه سانحة لمتابعة بول ريكور في ازدواجية المخيال الاجتماعي، إذ يعمل في شكلي الأيديولوجيا واليوتوبيا، في شكلين رئيسين للوعي الإنساني، نجدهما في الكتابة، رغم أنها تريد التنصل منهما.[3]

هكذا تتساءل الرواية عما إذا كان من الحق أن المكتوب ينتمي إلى الثقافة العالمة، بينما ينتمي الشفوي إلى الثقافة الوحشية (العامية)، وبالتالي: هل من الحق أن المخيال هو مجال الشفوي، بينما العقل هو مجال المكتوب؟.

فلنتابع في بعض التفاصيل إلى أن الرواية لا تتعكز على الأركيولوجي، ولا تتزوق بالسحري ولا تمثيل لسلطة تراث، ولا تصطنع خصوصية أو وبيئية أو محلية كفرجة لمستشرق أو كغواية لمن يترجم إلى لغة عالمية. كذلك ليست الأسطورة في الرواية لمامة من الغرائب والعجائب والخوارق والخرافات والحكايات الشعبية، بل هي أسئلة جديدة تحفر فيما بين المقدس والمدنس، فيما بين الماضي والحاضر والمستقبل، فيما بين الخيال والعقلاني، فينا بين الرواية والأيديولوجيا واللغة والهوية، فيما بين الإنسان – فرداً وجماعة – وبين الطبيعة.

ومهما يكن ما تحقق من ذلك في (مجاز العشق) فحسبها أن تحرض عليه، وهي التي تشكلت بالماء والمجاز. أما المجاز فلنسأل عنه أدونيس في قوله:

المجاز انتقال

بين نار ونار

---

[2] نبيل سليمان: بمثابة البيان الروائي، دار الحوار، اللاذقية 1998.

[3] محمد الجويلي: مرجع سابق.

بين موت وموت

لنسأل عنه محمود درويش في قوله:

لعلك حين تديرين ظلك لي، تمنحين المجاز

وقائع معنى لما سوف يحدث عما قليل

وأما الماء فسأعود به إلى أدونيس إذ قال:

لونك لون الماء

يا جسد الكلام

حين يكون الماء

خميرة أو صاعقة أو نار

فبهذه العودة يستقيم معنى المجاز الذي أطلقه محمود درويش نحو المستقبل، وتتبض الرواية بما سوف يحدث عما قليل، ما دامت امرأة قد أدارت ظلها لي وتركتني والرواية لحرب المياه القادمة، لا ريب فيها.

دور العرب في المنطق

د.ابراهيم كرو*

يعرف نيقولا رشر أستاذ المنطق بجامعة بيتسبرج المنطق العربي بأنه اسم نطلقه على تلك الجهود التي بذلها الباحثون في العالم العربي الإسلامي في مجال الدراسات المنطقية وما تمخضت عنه تلك الجهود من أعمال في هذا المجال. سواء كانت هذه الأعمال في صورة مؤلفات أو مترجمات أو شروح أو حواشي تدور حول مسائل منطقية. "والباحثون في العالم العربي الإسلامي" هم حسب مفهوم عدلته عن مفهوم رشر – كل من ساهم في حقل المنطق أياً كانت صورة هذه المساهمة، وكان يعيش في كنف الحضارة العربية الإسلامية من مشرقها إلى مغربها – بغض النظر عن دينه أو أصله الجغرافي وكتب باللغة العربية. ومن هنا فسوف نتقابل مع باحثين مسلمين ومسيحيين وصابئة كما سنقابل باحثين من بلاد الفرس والروم والعراق والشام ومصر والمغرب العربي والأندلس...ما دام هؤلاء الباحثين استظلوا بظل الحضارة العربية الإسلامية يعكسون متغيراتها ويعبرون عن مقوماتها ويتأثرون بجميع أحداثها، بل كثيراً ما ينطلقون من دراساتهم بتشجيع الخلفاء والولاة ومناصرة الوزراء المسؤولين.

يقسم المنطق الحديث إلى فرعين: الفرع الأول وهو الموضوع الذي سنعالجه في هذا المقال بشيء من التفصيل هو المنطق الرياضي. أما الفرع الثاني وهو المنطق الفلسفي والذي كثيراً ما يختلط مع منطق اللغة فقد كان أحد الظواهر الأولى في المنطق العربي حتى زعم بعضهم أنه يشمل المنطق كله ومثال ذلك الحوار الذي دار بين أحد النحويين ويمثلهم هنا أبو سعيد السيرافي – والمناطقة ويمثلهم أبو بشر متى بن يونس.

ساوى السيرافي بين المنطق والنحو فقال:" إذا كان المنطق وضعه رجل من اليونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، وما يتعارفون به من رسومها وصفاتها فمن إذاً يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوا فيه حكماً لهم وعليهم، وقاضياً بينهم، ما شهد له قبلوه، وما أنكره رفضوه؟".

وهكذا فعند الفريق الأول يختلف المنطق باختلاف النحو، وإذاً باختلاف

*- باحث وأستاذ جامعي.

اللغات، بل هناك من زعم أن النحو أعم من المنطق. أما رد أبو بشر فجاء قريباً من النظرة الحديثة للمنطق وتشبيهه إياه بالرياضيات، إذ قال:

لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة، والمعاني المدركة وتصفح الخواطر السانحة، والسوانح الهاجسة، والناس في المعقولات سواء، ألا ترى أن أربعة وأربعة تساوي ثمانية عند جميع الأمم وكذلك ما أشبهه".

مع العلم أن علاقة المنطق بالرياضيات ما زالت مصدر جدل واختلاف أراء ونقد حتى العصور الحديثة وحتى في الكتب الكلاسيكية للمنطق كما في أعمال برتراند رسل والفلاسفة الوجوديين، وستظل كذلك حسب تطور المنطق الرياضي في المستقبل. ونكتفي بذكر بعض وجوه الشبه الحديثة بين العلمين.

هنالك تشابه شكلي ورمزي كما هنالك تشابه مضموني كما لاحظ أبو بشر متى.

ولن ندخل في هذا التشابه لأن المنطق الرياضي لم يكن معروفاً بمعناه الحديث بل نكتفي بأن نشير إلى التحول التاريخي من جدل حول تعادل المنطق والنحو زمن العرب القدامى إلى جدل حول تعادل المنطق والرياضيات في العصور الحديثة. والمحرك الأول لهذا الاعتقاد إنما كان سببه ما قام به علماء المنطق الرياضي في القرن العشرين من مشروعات لصياغة الرياضيات كلها في لغة رمزية من منطق المحاميل وهي لغة المنطق الرياضي الحديث. وقد سمي هذا المشروع بمشروع هلبرت لأن الرياضي الألماني الكبير ديفيد هلبرت هو أول من قام به بصورة جدية في مجلدين كبيرين وتابع أعماله رياضيون آخرون كما تفرقوا واختلفوا مع بعضهم في منهجيات ومدارس مختلفة.

لن يكون حديثي عن المنطق العربي كلاسيكياً عادياً فهناك كتب كثيرة وكثيرة جداً تتحدث عن مباحث المنطق العربي ومدارسه وتربطه بالمنطق القديم، وأغلبهم يجعل من المنطق العربي منطقاً أرسطوطالياً ولا يتحدث عن إبداعهم وتجديدهم إلا العدد القليل من الباحثين، كما لا يتطرقون ولا يدرسون إلا كتب المنطق الشائعة الصيت كمنطق ابن سينا في الشفا ومعيار العلم للغزالي وغيرهما كثير. ولكنهم لا يدرسونها من وجهة نظر العلوم المنطقية الحديثة الرياضية واللغوية – فقد كان العرب مناطقة عظاماً باعتراف مؤرخي المنطق.

وقد بدأت بالفعل تظهر حديثاً دراسات لغوية ألسنية هي من صلب علم المنطق الحديث أي من ألسنيات القرن العشرين – وكذلك منها ما يمكن تطويره

وإدخاله في علوم القرن الحادي والعشرين، أما العلوم المنطقية الرياضية فلها علاقات شديدة القرابة بالعلوم اللغوية – ولم يدرسها أحد وما سبب ذلك إلا قلة المناطقة الرياضيين المحدثين الذين اطلعوا على التراث العربي. وقد كنت أحد هؤلاء، وكان اطلاعي على التراث عفوياً. فعندما عدت من دراستي في الغرب شاكياً نضوب المكتبات العربية من المراجع في العلوم الحديثة، لم يرو عطشي للعلم إلا مطالعاتي لكتب التراث التي تناقلتها الأيدي وقرأتها العيون بشكل سطحي أو توثيقي. وكانت قراءاتي لها غير ذلك. وبالرغم من أن مطالعاتي كانت محدودة بضيق الوقت إلا أن اكتشافي لعظم شأن العرب كان مدهشاً وهو يتلخص بما يلي:

أولاً: إسهامات تذهب أبعد من الأرسطوطالية والاقليدية وروح العلوم القديمة التقليدية وتطال آفاقاً لم يطلها العلم الغربي إلا في المئتي سنة الماضية من تاريخ العلم الحديث وقد نشرت هذه الاكتشافات في مجلات عربية وغربية.

ثانياً: لآليء معفرة بتراب الزمن أزلت عنها ترابها وصقلتها وطورتها وأضفتها إلى تاج العلوم الحديثة وقد حظي عملي هذا بتقدير بعض العلماء الألمان. ونحن كالعادة نلجأ إلى الغربيين لنحصل على رضاهم وموافقتهم لتقدير علومنا ومعارفنا وقد آن لنا أن نخط بأقلامنا طريقنا ونرسم شخصيتنا العربية المستقلة المميزة، وقد كانت لنا شخصيتنا المتميزة، وكان لنا مركز الصدارة في العلوم وخاصة علمي الرياضيات والمنطق. فلماذا لا نبعث هذا التراث من جديد ونقف على أرجلنا ونطاول بأعناقنا كبار علماء العصر. ولذلك فأنا أهيب بكل عالم عربي وصل إلى درجة من الكمال في اقتناء المعارف الحديثة، أن يعود إلى كتب التراث ليجد فيها أفكاراً دفينة بل قل كنوزاً".

وما أغنى بلادنا بالآثار وما أغنى كتبنا بالأفكار العذر التي تنتظر العلماء ليكملوا رسالتهم العلمية و يبعثوها عربية أصيلة.

وهذا يقودنا إلى السؤال هل هناك منطق عربي؟ يقول رشر:" وهنا يتساءل من يتساءل هل يعني الحديث عن المنطق العربي إن المنطق قد ينسب إلى قوم من الأقوام ويوصف بصفتهم، هل يمكن الحديث هنا عن منطق هندي ومنطق صيني ومنطق فارسي ومنطق إنكليزي..." ثم يتابع" المنطق لا ينتسب إلى شعب من الشعوب ولا لجنس من الأجناس، فالمنطق إنساني عام يتناول بالدراسة أموراً عقلية لا تختلف باختلاف الأمم والأجناس".

أنا لا أوافق رشر في ذلك فهو ينظر إلى المنطق ككائن جامد ويعاينه بنظرة محلية صغيرة. بينما المنطق كائن يتداخل مع العلوم الإنسانية الأخرى ويتفاعل معها ولأوضح نفسي: أنا لا أشك مثلاً أن قانوني التناقض والثالث المرفوع لأرسطو هما قانونان عامان يكاد يقبلهما الجميع – هذا من وجهة نظر مفردة، بينما لا يقبلهما الفيلسوف الشرقي* كالبوذي مثلاً، وذلك لأنه ينظر إلى روح القانون نظرة شمولية كونية، فمثلاً وضع أرسطو هذه القوانين واستخلصها من إرهاصات فكرية بدائية كأن يقول: أما أن يكون الحائط أبيضاً أو لا ولا ثالث لهما. بينما رجل الشرق ينظر فيرى حياتنا البشرية مليئة بالتناقضات وحتى الفيزياء الكوانتية نقضت هذا القانون. أي ان العالم الشرقي رأى بقوة البصيرة ما استغرق الغربي آلاف السنين ليراه في المختبر.

وسآتي على مثال آخر لذلك من رؤى عربية قديمة لفراغات لا اقليدية. ولقد نشأ بالفعل منطق لا ارسطوطالي ولكنه للأسف مصوغ في نظام معرفة أرسطوطالي – وهنا أيضاً تبرز روحانية الشرق الذي هو، إن صح القول، بقبوله المتناقضات الظاهرية واحتوائها أعم واخلى من المتناقضات والفصامات المنطقية الغربية، وبإمكاننا القول أن الغرب لم يتفوق بالعلم بل بالتكنولوجيا، فلا تكاد توجد حقيقة علمية واحدة أكيدة كما أشرت في مقالي(10): المتناقضات في العلوم قديماً وحديثاً". حتى مبدأ الذرية الذي درسناه في المدارس الثانوية فالهنود هم أول من وضعه وتبعهم الإغريق، هو مبدأ لم يؤيد قطعياً إلى اليوم كما رأينا، وكذلك السؤال هل فراغ الكون اقليدي أو ريماني أو غيره لا يمكننا الإجابة عنه وتظهر التجارب دائماً تناقض ما سلفها. ولكن هذا لا يعني أن الحضارة الغربية لم تستفد من ديالكتية التناقض التي وقعت فيها. فاستطاع الغربيون إنتاج القنبلة الذرية بالرغم من عدم استطاعتهم الإجابة على صحة مبدأ الذرية. كما استطاعوا استخدام الرياضيات – ذلك العلم السامي – في شتى ميادين الخدمات البشرية، بالرغم من عدم استطاعتهم أن يبرهنوا أن ($1+1 \neq 2$) بل لقد برهنوا على عدم وجود برهان لذلك.

مختصر القول هناك منطق جامد محلي وحيد البعد وهناك روح المنطق أو

*- عن نقض الغزالي لمبدأ أرسطو. اقرأ ص /13/ من كتاب "في تراثنا العربي الإسلامي" د.توفيق الطويل. (عالم المعرفة87).

منطق المنطق أو بكلمة علمية ميتامنطق – وهذا ما اختلف فيه العرب عن غيرهم من الأمم، وهذا الاختلاف هو الاختلاف بين منطق (العقل المجرد) بتعبير كانت ومنطق الروح. هو الفرق بين عقلانية الغرب وروحانية الشرق، والعرب بطبيعة وضعهم الجغرافي جمعوا بين المنطقين – العقلي والروحي – وإن كان الأخير لم يأخذ صبغة علمية بعد وما ذلك إلا لأسباب زمنية، وهو في الواقع منطق المستقبل، وقد اكتشف العلماء أن الدماغ البشري نصفه استنباطي استنتاجي ونصفه الآخر حدسي استقرائي. والحدس هو ما يربط الواقع بالروح حسب تعبيرنا غير الدقيق لعلم غير دقيق بعد.

ولن ادخل في ذلك اكثر من هذا ولكن اكتفي بأن أضيف أن الاختلاف بين المنطقين هو الاختلاف بين النظرة التفريقية التحليلية بين العلوم كل منها على حدة وبين النظرة الشمولية إلى العلوم الإنسانية والتي تتصف بالتركيبية. واحدد الاختلاف أكثر من ذلك فأقول هو في أحد وجوهه تنوع في المنهجية العلمية التي هي بدورها فرع من فروع المنطق، بل لقد خلطها أرسطو بالمنطق ذاته.

ونرى هذا التقارب في المؤتمرات العالمية المستمرة الانعقاد إلى يومنا هذا، والتي تجمع بين المنطق والمنهجية.

ولأبين لكم بعض الاختلاف بين المنهج الغربي الأرسطوطالي والمنهج العربي الذي تحرر من المنهج الإرسطوطالي: امتاز سكان البلاد العربية القديمة كالبابليين والمصريين، بعلوم عظيمة لكنها كانت تجريبية خدمية واقعية. ثم جاء الإغريق فأخذوها وجردوها وجعلوها علوماً بحتة، وقد غلبهم حبهم للعقل المجرد حتى طغى على المنطق الواقعي. وخير مثال على ذلك ظهور السفسطائيين الذين اهتموا بالكلام من أجل الكلام وليس من اجل الحقيقة التي يحملها، وحتى أرسطو له أخطاء منهجية فهو عندما وضع مبدأه أن الجسم الأثقل يسقط بسرعة أكبر من الأخف إنما دفعه لذلك حبه للمنطق المجرد وعشقه للفكرة المحضة وليس لتجسيدها الدنيوي، فلم يأخذ بنفسه عناء التجربة. وهذه منهجية لا علمية ابتعد عنها العلماء العرب.

وهناك أمثلة أخرى كاعتقادات أرسطو الكونية عن تركيب العالم من كرات ذات مركز واحد لا يوجد شيء خارجها وهي فكرة تمتُ إلى الخرافات ولا تمتُ إلى المنهج العلمي بصلة وأول من حاول أن ينظر نظرة شمولية إلى المنطق

ويطبقه كان الكندي – الذي لم تسحره مبادئ الهندسة التي وضعها اقليدس، ولم تغره النظرات الارسطوطالية فطبق النظري على العملي فحاول في رسائله الفلسفية إثبات كروية الأرض مستعيناً بالعلوم الهندسية، وحاول أن يبرهن على نشوء العالم مستعيناً بالمبدأ الاكسيومي الاقليدي، ويطبقه على علم الأعداد أو العظم والكونيات. ولكنه للأسف دمج بين العلم وإساءة فهم الدين، فوصل إلى تناقض في مفهوم اللامتناهي الذي أثبت صحته في الرياضيات الحديثة لا بل هو في أساس معظم الرياضيات الحديثة.

وهكذا فبينما أسقطت عقلية الغرب المحضة في نظام غير متكامل، كذلك روحانية الشرق المحضة في نظام غير متكامل، والعرب باستيعابهم لكلا المبدأين بإمكانهم أن يتابعوا طريق الكمال ولا يسقطوا بأخطاء كالتي سقط فيها الكندي، وكذلك رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى في معاملتهم للعالم الفذ غاليلو لمجرد سوء فهمهم للدين. فلا يجب أن نفرض مفهوماتنا الأرضية وعلومنا المحدودة المتناقضة على فكر الله السرمدي، أنَّا لنا أن نفهم فكر الله وأن ندرك حكمته.

الشمس أشرقت من الشرق وهي في الغروب وستعود إلى الشروق أسطع وأبهى، العلو ابتدعها الشرقيون القدماء بالهام وتبصر ثاقب وأكملها الغربيون بحذق وتحليل لا متناهيين. ولكن بعد الغروب شروقات – والعلم لا نهاية له – وخير برهان على كلامي أن كل الديانات ظهرت في الشرقين الأوسط والأقصى بينما امتاز الغرب بالعقلانية المحضة.

لا تغرنكم علاقة التعقيد وأحكام الصياغة بصحة المعتقد، فنحن مثلاً لا نستطيع أن نقارن كتابين محكمي الصياغة ككتابي الوجود والزمن لـ هايدكر، والوجود والعدم لـ سارتر وغيرهما مع بعض الحكم الشرقية من شرقينا الأدنى والأقصى. ولا يسعنا إلا أن نفتتن بالعقلية التحليلية التي صاغت الأول. ولكنه كبناء القصور على الرمال. فبساطة الثانية قد تفوق بحقيقتها المطلقة أعظم الأعمال المنطقية والفلسفة الغربية.

لا تحتاج الحقيقة إلى جيش من الحجج يحميها وهيكل من التحليل يحملها، وقد تتفوق البساطة والحدس الثاقب بالقدرة للوصول إلى حقيقة الوجود البشري على كل ما ذهب إليه هايدكر وسارتر.

لم يكن العرب بالرغم من تبصرهم وحدسهم الثاقبين – كما سأبرهن بعد قليل بتنبئهم بالهندسة اللا اقليدية – لم يكونوا ضعفاء في الموهبة الاستنباطية العقلانية والتحليل العلمي. واحد براهيني على ذلك مثال ابن الهيثم في كتابه (في حل شكوك اقليدس)، حيث نقض تعريف اقليدس الساذج للخطين المتوازيين بل أكمله. إذ عرف اقليدس الخطين المتوازيين بأنهما الخطان اللذان لا يلتقيان في الامتداد، لم يعجب هذا التعريف اللاعلمي عالمنا ابن الهيثم، فدخل في دراسات دقيقة وصحح التعريف وروضه (أي جعله رياضياً) إذ أدخل مفهومي الحركة والزمن ومفاهيم أخرى كالاستمرارية والبساطة والتي كما أشرت إليها في مقال آخر (12). سبق فيها مفاهيم الهندسة التفاضلية التي هي أساس الفيزياء الحديثة، وأخضع اللانهاية لمبدأ فلسفي رياضي هو مبدأ التركيبية **Constractivism**. و وتحدث عن حقيقة الوجود الرياضي بمعناه الحديث واستعمل بذلك مبدأ الخوارزميات في إنشاء اللانهاية، فاللانهاية عند ابن الهيثم هي نظام صيرورة ديناميكي بعكس نظام الخطوط المتناهية الساكن.

وهذه هي من أهم أساليب المنطق الرياضي الحديث. وهذا يقودنا للحديث عن الخوارزمي الذي أسس الخوارزميات. وهي بالحقيقة إخضاع الخيال الرياضي البحت لإجراءات عملية هامة جداً في عملية الحاسوب. وقد أسس الخوارزمي علم الجبر ولم يبتدئ بذلك من أسس تجريبية كالرياضيات الإغريقية، بل من مبدأ عملي جداً. فقد اكتشف الجبر وهو يحل مسائلاً في التجارة وتقسيم الميراث. ولكن العرب عندما اكتشفوا هذا العلم البالغ الأهمية، لم يتوقفوا عند حدود التطبيقات بل تطلعوا إلى آفاقه النظرية فحلوا المعادلات الجبرية، وأهم من ذلك كله أنهم مزجوا الجبر بالهندسة وكان ذلك من أهم الثورات المنهجية في الرياضيات. وكانوا أول من استعمل الاستقراء الرياضي، كما برهن رشدي راشد في كتابه" تاريخ الرياضيات العربية"، باستعمال السموءل والكرجي لمبادئ الاستقراء الرياضي، وقد برهنتُ أن الكندي قد سبقهما إلى إدراك هذا المبدأ. والاستقراء من دعائم المنطق وعلم الحوسبة.

وهكذا فتعدد وتنوع تطبيقات العرب للمنطق كما ظهر معنا حتى الآن، أفادا المنطق وأغنياه، ونحن نعرف اليوم أن تطبيق علم المنطق مثلاً أو الرياضيات في مجالات حياتية أخرى لا يفيد إلا خبرة فقط بل لذلك تغذية رجعية على العلم

الأصلي المطبق، والأمثلة على ذلك لا تعد لا تحصى. ويسرني أن أورد هنا مثالاً من علمي التفاضل والتكامل اللذين أوجدهما الغربيون في عصور النهضة أثناء دراساتهم الرياضية الفيزيائية، لكن العرب سبقوهم إليه كما بين يوشكيفيتش (4) في دراسته لـــ ثابت بن قرة ورشدي راشد (5) وغيرهما، وهي أساليب لا نهائية **Infinitistic.**

نستنتج من ذلك أن اهتمامات العرب التطبيقية وولعهم بالنظرة الشمولية للعلوم، أفاد المنطق والرياضيات كثيراً، وسأذكر لكم مثالاً آخر من المنطق لـــ يحيى بن عدي: لا شك أن يحيى استفاد من منطق أرسطو لكنه حاول أن يطبقه في قضايا لاهوتية ودنيوية، فأنشأ دراسة للعلاقات ووضع متناقضة العلاقة الفارغة وسبق بذلك الرياضي الإنكليزي برتراند راسل. وأنا بصدد محاولة إكمال نظريته في العلاقات، وحققت اكتشافات هامة في ذلك. وقد نشر الفيلسوف الألماني شتافوفياك نتائج بحوثه في كتابه المرجع من البراجماتية.

فتاريخ المنطق العربي حي وليس هو مومياء نشرحها كما يشرحها الغربيون، بل كائنات نائمة نبعثها حية ونطورها بأن نتقمص عقلية العالم العربي الذي وضعها، وهذه هي الطريقة الوحيدة لفهمها، ولذلك لم يفهم الغربيون العلوم العربية فهماً تاماً، وقد قال أحد فلاسفة الصين: لكي تفهم معنى الزهرة يجب أن تصير زهرة.

والآن سأتحدث عن الأمثلة المنطقية الرياضية والتي استقيتها من قراءتي للتراث، ودرستها من وجهة نظر حديثة مبرهناً بذلك أسبقية العرب في تفكيرهم بمسائل رياضية أو منطقية هي من أسس المنطق الرياضي الحديث:

المثال الأول: هو متناقضة يحيى بن عدي التي مر ذكرها، وقد بينت في مقالي عن المتناقضات، عن علاقتها بمتناقضة الكاذب للفيلسوف اليوناني وبمتناقضة الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل.

أما متناقضة الكاذب فهي الرجل الذي يقول:" أنا أكذب دائما" فهو صادق إذا كذب وكاذب إذا صدق.

أما متناقضة برتراند راسل فهي متناقضة مجموعة المجموعات التي ليست عنصراً من نفسها، فإن كانت عنصراً من نفسها كمجموعة، فهي من المجموعات التي ليست عنصراً من نفسها، فهي ليست عنصراً من نفسها، وإن لم تكن عنصراً

من نفسها فهي من المجموعات التي ليست عنصراً من نفسها، فيجب أن تكون عنصراً من نفسها لأنها تحوي تلك المجموعات بالضبط.

أما متناقضة يحيى فتنشأ عن تعريفه علاقة بين شيئين (هي العلاقة الفارغة بلغة المنطق الحديث) إذا لم تكن بينهما علاقة من أي نوع آخر. أي هي نفي لكل العلاقات بين هذين الشيئين، فإن كانت هذه العلاقة قائمة بين الشيئين فلا علاقة بينهما، وإن لم تكن بين هذين الشيئين أي علاقة فهذه العلاقة الفارغة القائمة بينهما. أي أن هذه العلاقة الفارغة هي عنصراً في مجموعة العلاقات بين الشيئين إذا لم تكن عنصراً منها، والعكس صحيح، وهذه مشابهة لمتناقضة برتراند راسل التي صححت أسسها نظرية المجموعات والعلاقات في المنطق الرياضي.

ولا يقف يحيى بن عدي عند ذكر هذه العلاقة بل هو يعرف الأشياء بالصفات التي تتصف بها، ويعرف الصفات بالأشياء التي تنتمي إليها. ولقد استعملت هذا المبدأ المثنوي ومزجته بالهندسة الجبرية في صياغة رياضية لها تطبيقات في نظرية العلاقات الرياضية، كما لها تطبيقات في علمي تمثيل المعرفة والتعرف على الأشكال. وهي من علوم الأنظمة المعلوماتية الحديثة والذكاء الصنعي. كما قادني البحث بعينه إلى صياغة نظرية النماذج العامة وإلى تمثيل مفارقة أو متناقضة البرهان القياسي – كما سميتها – وهذه النتائج هي قيد الإعداد والنشر.

أما المثال الثاني: فهو متناقضة اللانهاية عند الكندي (3).

وضع الكندي نظام بديهيات، سماها مقدمات أولية، لحساب الأعظام المتناهية وطبقه على اللامتناهي وإليكم بعض هذه البديهيات:

1-الأعظام التي ليس منها شيء أعظم من شيء متساوية، والمتساوية أبعاد ما بين نهاياتها متساوية بالفعل والقوة.

2- ذو النهاية ليس ما لا نهاية له.

3-كل الأجرام إذا زيد على واحد منها جرم كان أعظمها، وكان أعظمها مما كان من قبل أن يزاد عليه ذلك الجرم.

وأهم هذه البديهيات هي البديهية التالية: كل جرمين متناهيي العظم إذا جمعا كان الكائن عنهما متناهي العظم. وهذا واجب في كل عظم وكل ذي عظم.

وأهمية البديهية الأخيرة تكمن في علاقتها بالاستقراء الرياضي إلى جانب

تصريحات أخرى في رسالته " في مائية ما لا يمكن أن يكون لا نهاية له وما الذي يقال لا نهاية له، وهناك أربعة رسائل حول نفس المتناقضة.

والإبداع في عمل الكندي يكمن في انه طبق منطق البديهيات لدراسة إمكانية وجود عظم لا متناه. وهذا هو نفس الأسلوب الذي يضعه علماء المنطق الرياضي لدراسة عدم وجود تناقض في كيان رياضي معين.

أما برهان التناقض فقد حللته في مقالي (2)، وأخيراً نأتي إلى الهندسة اللا اقليدية عند العرب: في مخطوط حيدر أباد المتضمن رسائل البيروني ورقة يورد فيها البيروني ثلاثة أمثلة هندسية له وللكندي، ولقد درستها في (2) وأشرت إلى أهميتها كمنشأ للفكر اللا اقليدي، وأعدت دراستها في (12) من منطلقات رياضية جديدة موضحاً أهميتها كمنطلق للدراسة الهيبربولية من جهة، وكمنشأ لفكرة النسبية التي ظهرت أيضاً عند الكندي في رسائله الفلسفية والتي تشير إلى اعتماد مفهوم الفراغ على مفهومي الحركة والزمن.

كما أظهرت علاقة رسالة البيروني بأعمال أخرى لـ السجزي وابن الهيثم في مجال اللانهاية والاستمرارية والخطوط المقاربة.

المراجع:

1)- Garro, Ibrahim, “al-Kindi and mathmatical logic” proceedings of the first intental. Symposium for the history of Arsabic science, Aleppo 1976.

2)- Garro, I. “Paradoxes in arabic geometry – an archeology of scientific discovery” Logique et Analyse 1981 vol 24, pp 351-379.

3)-Garro, I. “The paradoxe of the infinite by al-Kindi” . JHAS, a994 vol 10, pp111-118.

4)-Youschkevitch, A.P. “Notes sur les demonstrations infinitesimales chez Thabit ibn Qurra” Arch. Intl. Hist. Des. Sci. 171,pp37-45, 1964.

5)- راشد، رشدي: تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب". بيروت 1989.

6)- رشر، نيقولاس: تطور المنطق العربي" – القاهرة 1985.

7)- كرّو، ابراهيم: "المنطق الرياضي عند العرب" مجلة الفيصل العـدد (40) ص 28- 30.

8)-كروّ، ابراهيم: علم المنهج ومنهج العلم عند العرب" مجلة الفيصل ، العدد (85) – 1984 ، ص 67-69.

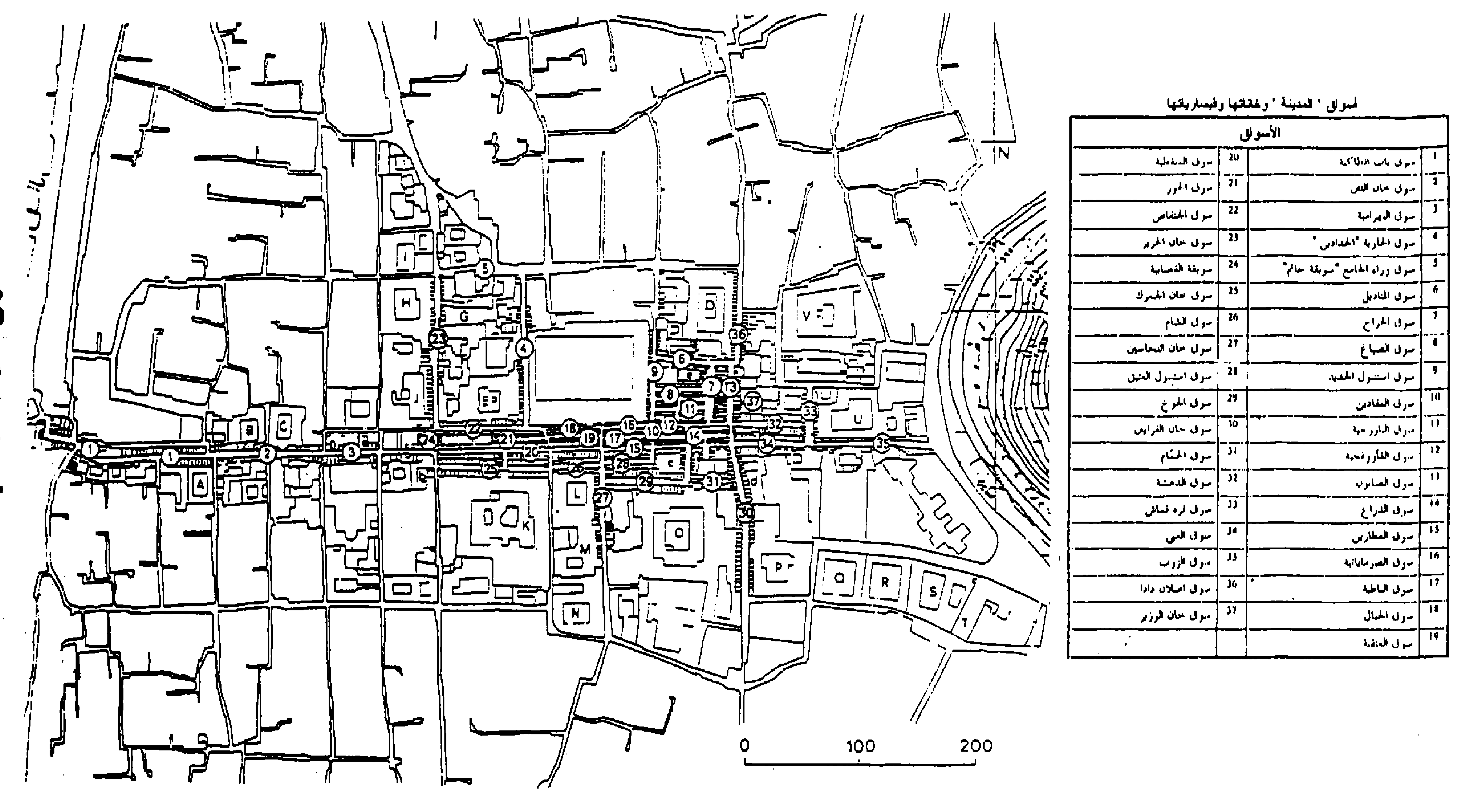
9)-كرّو، ابراهيم: "الهندسة اللا اقليدية عند العرب، مجلة الفيصل

10)-كرّو، ابراهيم: "دور المتناقضات في تاريخ العلوم قديماً وحديثاً".

11)- الكندي، يعقوب بن اسحق: "رسائل الكندي الفلسفية" القاهرة 1950.

12)-Garro,I. “Limits asymptotes and infinities old and new”. In preparation

مخطط أسواق المدينة القديمة في حلـب



أسواق "المدينة" وخاناتها وقيسارياتها

الأسواق			
1	سوق باب انطاكية	20	سوق السقطية
2	سوق خان التتن	21	سوق الحور [?]
3	سوق الدهرامية [?]	22	سوق الجنفاص [?]
4	سوق الحارية "الحدادين"	23	سوق خان الحرير
5	سوق وراء الجامع "سويقة حاتم"	24	سويقة القصابية
6	سوق المناديل	25	سوق خان الجمرك
7	سوق الحراج	26	سوق الشام
8	سوق الصياغ	27	سوق خان النحاسين
9	سوق استنبول الجديد	28	سوق استنبول العتيق
10	سوق العقادين	29	سوق الجوخ
11	سوق الدارزجية [?]	30	سوق خان الفرايين [?]
12	سوق القاووقجية [?]	31	سوق الحمّام
13	سوق الصابون	32	سوق الدهشة
14	سوق الذراع	33	سوق قره قماش
15	سوق العطارين	34	سوق العبي
16	سوق الصرماياتية	35	سوق الزرب
17	سوق الباطية	36	سوق اصلان دادا
18	سوق الحبال	37	سوق خان الوزير
19	سوق [illegible]		

الصورة الفنية

في شعر ابن عربي بين الإتباع والابتداع

ديوانه ترجمان الأشواق

د.محمود أحمد الحلحولي

أمام ابن عربي الإمام الأكبر في فكره الرحب، وثقافته الواسعة، ووجدانه الزاخر الجامع لشتى المعارف والإشراقات، وفي بحوثه المستفيضة ومصنفاته التي تموج بالإشارات والاصطلاحات التي تصعب أحياناً على أئمة الصوفية، بل وتستغلق حيناً على غير نفسه، أحول أن ألتفت إلى جانب ملئ ظرفاً وروحانية، وهو ديوانه "ترجمان الأشواق"[1]. في مقاربة – أحاول أن ألتزم بما تسمح به حدود عنوانها: الصورة الفنية بين الإتباع والابتداع.

وأقرر بدئاً أن الشاعر لا يوجد بمعزل عن التأثر بمن سبقه أو عاصره، أو بما حوله فالإبداع ليس قفزة في الفراغ، وإن قراءة الشاعر غيره، جنباً إلى قراءته الكون، تمده بالمعرفة والتأمل، وقد يحدث التقاء بين هذا الشاعر ومعاني بعض الشعراء أو الكتاب ممن تقدموه أو عاصرهم، غير أن أصالته تظهر في قدرته على تجاوز هذه المعاني، وفي تميز حركته بين التراث والبيئة والمستوى الحضاري الذي يعيش في أفيائه.

وتكمن القيمة الحقيقية لفاعلية خيال الشاعر بما يصبغ على الموروث" أو المستعار" من لبوس جديد، وبما يستلهم من نصوص يرثها ثم ينشئها في استواء جديد خلقاً آخر يعرف به.

وفي ضوء هذا التقرير يمكن القول أن ابن عربي لم ينفرد في استخدام

---

*- أستاذ في جامعة آل البيت – الأردن.

[1]- ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، صدر في عدة طبعات، ولعدة محققين، منها طبعة دار صادر، 1932 0اعتمدت على طبعة نيكلسون سنة 1911) وطبعة كطبعة السعادة بمصر، د.محمد عبد الرحمن الكردي، 1968، وطبعة بتحقيق د.عمر الطباع، دار الأرقم 1993، والطبعة التي اعتمدتها، طبعة دار المعارف بالقاهرة، 1995، بتحقيق ودراسة علمية لـ د. محمد علم الدين الشقيري، ولا تكاد تختلف هذه الطبعات في عدد نصوص الديوان وأبياته، فالديوان عدا مقطعتين في مفتتحه يقع في (61) نصاً، ولا يجاوز (600) بيت وفيه(22) قصيدة) جاوزت الـ(10) أبيات أطولها في (37) بيتاً، و (15) قطعة في أقل من (5) أبيات وسائرة فيما بين ذلك، وهو نفثات حارة تمتزج فيها صورة المرأة بالطبيعة في رموز مشوبة بالوجدان الصوفي. أما شعر ابن عربي في ديوانه "الكبير" وفي ثنايا "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية" فيبدو منعزلاً عن الخيال والشعور وتطغى عليه سمة التجريد.

الصور والرموز أو غيرها من أساليب التعبير المتاحة أو الشائعة عند المتصوفة وغيرهم، قبله، لكن رؤية ابن عربي أو "شهوده" هو من أتاح له أن يفتح آفاقاً جديدة، فهذا الشهود كان يفضي به إلى أن يشاهد العالم "عالماً صفاتياً" وبدل أن يبقى اللفظ المفرد واحداً يدل على ذات واحدة تجده عند ابن عربي، يتعدد بتعدد الحقائق الممكن قيامها في هذه الذات"وكل لفظ مفرد يدل على ذات هو في الأصل اسم لها، من الممكن أن يتحول إلى اسم لصفة أو لحال، أو لتربة فيه...وهكذا كل ما في الكون من مفردات لكل مفردة دلالتان: دلالة على الذات، ودلالة على أمر زائد على الذات، وهو ما تعطيه خصوصية تلك الذات من المعاني المحتملة التي يمكن قيامها فيها"[1].

وإزاء هذا الشهود، يظهر شعر الترجمان، ولا حاكم عليه من غيره، أو من غير ضوء فلسفة التجربة الصوفية وعناصرها الفكرية، فلا يقع نظر الدارس إلى ظاهر النص بمعزل عن صاحب التجربة الذي أكد في مفتتح ترجمانه إلى انه يشير به إلى معارف ربانية وأسرار روحانية وعلوم عقلية، وتنبيهات شرعية".[2]

يقول ابن عربي وقد نبهت بالمقصد في ذلك بأبيات هي هذه (19 بيتاً منها):

كل ما أذكره من طلل	أو ربوع أو مغان كل ما
أو نساء كاعبات نهد	طالعات كشموس أو دمى
صفة قدسية علوية	أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلما[3]

ويحيلنا ابن عربي في هذا المفتتح التأويلي لديوانه، وفي الشرح "الذخائر" من بعد، إلى جدلية الظاهر والباطن، والعبارة والإشارة[4]، إذ اللغة هنا بالضرورة الباطنية لغة تأويلية، سرية لا يمكن فهمها إلا بمنطقها الباطن وحقائقه وأبعاده[5]،

---

[1]- د. سعاد الحكيم، ابن عربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1991، ص 76.

[2]- ديوانه (الشقيري)، ص 175.

[3]-ديوانه، ص 177.

[4]-حول مفهوم الإشارة والعبارة ينظر، ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق د.عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، 1975، ج262/4-277. ود.نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند ابن عربي، دار التنوير، بيروت، 1983، ص 285.

[5]-أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، 1977، ج95/2.

وغاية الذخائر العبور مكن الظاهر – الواقع الخارجي – إلى الباطن !!

ولعل سؤالاً يخطر بالبال: ألم يكن الشعر وحده على هذا العبور؟ وهل كان ابن عربي مضطراً إلى شرح "الترجمان" وتمزيق أقنعته؟ ألم يكن فيه ما يومئ إلى هذه الواردات الإلهية أو يشي بضرورة تجاوز "الغزل الإنساني" إلى رحاب الحق المطلق الأسمى؟ حتى قال فيه بعض فقهاء حلب ما قالوه من أن الرجل إنما يتستر لكونه ينسب إلى الصلاح؟!

وأرى أن ابن عربي أراد أن يقدم الظاهر والباطن معاً وفي جدليتهما، فهو يشير بنفسه إلى أن ينظم عبارات شعره في إعراب عن دخيلته تجاه النظام ابنة شيخه مكين الدين بن رستم الأصفهاني فيقول:" فقلدناها من نظمها في هذا الكتاب (الترجمان) أحسن القلائد، بلسان النسيب الرائق، وعبارات الغزل اللائق...ثم يؤكد في الوقت نفسه ضرورة صرف الخاطر عن ظاهر هذه العبارات، فيقول:"ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية...جرياً على طريقتنا المثلى فإن الآخرة خير لك من الأولى"، هذه الطريقة التي ترى الوجود رسالة إلهية تمتلك من المعاني ما يمكن أن يخاطب به العام والخاص، بحيث يفهم منها كلاهما مضموناً يختلف عن الآخر، والمضمون الأول هو"النص" هنا من حيث دلالته الوضعية فيقول:"وجعلت العبارة بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوفر الدواعي على الإصغاء إليها"- والمضمون الثاني هو النص من حيث دلالته الباطنية، ويسمي ابن عربي هذه الرسالة – رسالة الوجود- وفي وجهيها – الأول – العبارة – والثاني – الإشارة. وعلى ذلك فنصوص الترجمان نصوص مفتوحة تتدرج في سياق الغزل العذري الإنساني، ويمكن أن تنساق في معراج التأمل في التجربة العرفانية، ويتم العبور من ظاهرها إلى باطنها عبر تغيير دلالات الكلمات والانتقال بها من معانيها الأولية الاعتيادية إلى معان صوفية يقترحها ابن عربي في شرحه الذخائر[1]، وبهذا يكفل حل التناقضات الظاهرية في ظل قراءة الظاهر بوصفه رمزاً لمعنى باطني كامن فيه، وإذ الأشياء كلها لها معان هي كالأرواح والظاهر دليل على الباطن، وطريق إليه، وحافز على استجلائه واكتناهه.

وابن عربي، وإن كان ينفي المماثلة بين الخالق والمخلوق(العبد والرب) إلا

---

[1] سعيد الغانمي، أقنعة النص، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1991، ص91.

انه يفسر "الصفات" التي توهم الشبه بالمخلوقين – كالعين واليد والسمع والبصر. تفسيراً يتفق مع فكرة أساسية لديه هي أن الله هو الظاهر والباطن، وأن الكون إنما هو"عرض للجوهر الكلي".

وعند ابن عربي الحب أساسه الجمال والإحسان، والله جميل يحب الجمال، والجمال محبوب لذاته، والحب سبب الإحسان، ولا محسن إلا الله، وما أحب أحد في الحقيقة سوى الله ولكنه احتجب تعالى بحب زينب وسعاد وهند والدنيا والدرهم[1]، وإذ ذاك جاز أن يدير ابن عربي ديوانه كله حول الحب، وهو ضمن هذه الرؤية يدور حول محبوب واحد!! ظاهره(النظام) ابنة شيخه، وباطنه(الحقائق والواردات الإلهية)...فهل تكمن خصوصية إبداع ابن عربي في ديوانه "الترجمان" في هذا الجانب وحده؟.

وهكذا تبدو المرأة في عرفان ابن عربي وهي تجسيم جمالي للصورة الإلهية في جمالها وجلالها وكمالها ورمز للأنوثة السارية في العالم[2]، وهي ترجمان ينقلنا من عالم الحس إلى عالم الرؤية الشهودية، وشهود ابن عربي في الإنسان باعتباره كوناً أصغر، فيه كل ما في الكون الأكبر من صفات وخصائص أفضى به إلى ألا يجد بأساً في الإهابة بالمستقر من عناصر الغزل الإنساني على أيدي الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه، وامتزاج المرأة بالطبيعة في تنوع مظاهرها وتقلب أحوالها، والرحلة التي تمثل الاغتراب، والمحبوبة في صدها وتمنعها، والمحب في نحوله وشكواه من العازل، والحادي، والناقة...وغير ذلك مما يضم "قوى روحية" ساغ له معها أن ينزلها هذه المنزلة العالية، غير انه ينبغي التنويه إلى إن هذا التوظيف للإرث الغزلي يتولد منه معاني لا يمكن فهمها في ظل بقاء هذا "المستعار" على "أحاديته" بل نراه مندمجاً في عرفان ابن عربي ليكون ثالثاً ليس هو أحدهما، لا القديم المستعار في صورته المستقرة، ولا المعنى الباطني في فكر ابن عربي وحده[3]، بل هو جديلة معقدة ناشئة من الاثنين معاً!!.

وابن عربي في عبارته الشعرية يحاول جاهداً أن يبقى في "تعبيره" خارج انفعال التجربة الصوفية الحازق، ويحاول – وهو يمنح من معنى مفردات الصور

---

[1]- الفتوحات، 274/2.

[2]-د.سليمان العطار، الخيال والشعر في تصوف الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1981، ص 111.

[3]- رأينا ابن عربي في نصوص ديوانه الكبير، وبعض الشعر المبثوث في الفتوحات، والنصوص التي تبدو سمة التجريد طاغية عليه، حتى يكاد يكون منعزلا عن عالم الخيال والشعور الذي هو أخص خصائص الشعر.

المتداولة عند الشعراء ممن سبقوه – أن يوظف ذلك في ميدان التصوف، وفي رحاب الابتداع الذي يبني علاقات جديدة بين مفردات هذه الصور ويتصعد بها إلى ما يجاوز النظرة الإنسانية...وقد كان بارعاً في هذه الحركة بين التراث الشعري الغزلي وبين التأصيل لشعر عرفاني ناضج، فكان يتنقل بين مستويات ثلاثة، مستوى الدلالات الحسية، ومستوى مرموزاتها الممكنة، ومستوى ما تشير إليه من ألطاف صوفية معنوية، وحتى يعرضها في آخر تجلياتها...وهذه المستويات تتداح في دوائر متداخلة، فالجمل والعبارات – من مفردات الصور المستعارة – التي يجيء بها الاستعمال الشائع تشكل بدءاً على محيط الدائرة الأولى، وهي تتصل في مدارها بنقطة أخرى هي القواعد أو الرموز التي تصدر عنها، ثم تفضي بها إلى دائرة ثالثة هي الأحوال والألطاف التي هي خاصة بأهل الذوق؟!.وما أشبه هذا بدوائر كروية ثلاثة متداخلة من الزجاج الملون – تتعين كل طبقة تقريباً ولكي يكون بين كل اثنين منها، ثم يكون بين كل واحدة منها وسائرها تعاكس وتأثير متبادل!!.

ونلحظ إجادة ابن عربي في تحولات الصورة هذه من طبقة إلى أخرى، ونرى سبكه القدير لكثير من العناصر الفكرية الرائجة عند الشعراء، وابتكار الأصيل لطريقة النظر في الكون والإنسان والمعتقدات، وهكذا جمع ابن عربي بين تيارين "تيار التصوف الذي يعنى بالباطن، ويزدري الظاهر، وتيار "الأدب الاتباعي" أي: بين أن تكون مفردات صوره نتاجاً من معين الثقافة التراثية والقراءة والمعرفة القبلية فتؤمن له مشتركاً ثقافياً يجمع بينه وبين نسبة عالية من المتلقين، وبين أن تكون في علاقاتها الجديدة مبتدعة وفق خطة تصويرية تتصعد نحو رحاب المطلق الأسمى، وينتشلها من حمأتها القديمة، ويغسلها في ضوء الإشراق والنور.

من الجائز أن نحكم على المرأة عند ابن عربي هي إعادة صياغة لتصور الوجود، في ولادة جديدة، فيها من المفردات المتعاورة المعروفة الكثير، وفيها من الجديد الكثير فتظل على حدود الانسجام مع الدلالات القديمة، ولكن سرعان ما نكشف أنه انسجام هش، فهو إذ يعبر بين ذاته وذوات الشعراء ممن سبقوه يوجه اللغة المستدعاة من تجاربهم في خروج شجاع، وفي ضوء شهوده للكون الذي هو"عرض للجوهر الكلي".

وفي هذه الصور التي تبدو مشتبهة بالغزل الإنساني، وفي هذا التقارب

الشديد بين أحوال الصوفية وأحوال المحبين "كوربان" تساؤلاً ويجيب عنه، "أهي تلكم الأنثى المتشخصة أم الحقيقة الإلهية التي كانت تلكم الأنثى صورة ونموذجاً عنها؟" ويقول: إن هذا التساؤل إنما يطرح معضلة زائفة!! حيث إنه لا يمكن رؤية أيهما دون الآخر!!وإذا نحن تأملنا جمال الأنثى بوصفه تجلياً إلهياً، فمعنى هذا أننا نتأملها في تشخصها الثنائي من حيث إنها توحي بالجلال والجمال، ومن ثم تربط تلويحات ابن عربي لجمال"النظام العذري وحكمتها المدهشة بين المقدس الآسر والجمال البسيط الذي يتميز به الجوهر الخالص".[1]

وتظهر هذه الثنائية في قول ابن عربي:

إني عجبت لصب من محاسنه   يختال ما بين أزهار وبستان
فقلت لا تعجبي مما ترين فقد   أبصرت نفسك في مرآة إنسان[2]

وإذا ما أدركنا طبيعة تجربة ابن عربي ومساقها الروحي هذا، وإذا ما عرفنا انه ما من سبيل إلى التعبير عما هو مقدس وإلهي إلا متمثلاً في "الكيف الحسي" للصور والأشكال بدت لنا هذه الصور الحسية مسقطة على أحوال وتنزلات إلهية وفق شهود ابن عربي الذي لا يشهد إلا الوحدة ظاهرة متجلية في تنوع الصور وتكثر الأشكال وهو لا يعاين إلا الواحد، فنحن أمام "الترجمان" أمام نوع من الحب الإلهي الذي يتقمص حالة الحب الإنساني حتى لا فرق بينهما، كيف وهو الذي يرى الوجود مسرحاً تتجلى فيه صفات الذات الإلهية وأسماؤها تجلياً مادياً، وإذ جميع المظاهر والأشياء والألفاظ والحركات رموزاً للمقاصد الروحانية وإشارات إليها.

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت   ركائبه، فالدين ديني وإيماني[3]

فتبدو هذه الصور التي تتراكم فيها المدركات الحسية على نحو ما يركبها

---

[1] نقلا عن د.عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1978، نقلا عن Greative Imagination in the Sufusm of Ibn Arabi, P.328

[2]- ديوانه، ص 236.

[3]- المصدر السابق، ص 245.

الخيال تنويعاً لوحدة جوهرية كامنة في الأنثى بوصفها رمزاً على الحب الإلهي، وهي مشربة بدلالات تلويحية، تحتفظ الصورة فيها بدلالاتها الحسية، وتحيل في الوقت نفسه، من خلال البنية الكلية للمقطعة الشعرية إلى ما لا يضبطه الإدراك الحسي!!.

* * *

وفي مطاردتنا لتتبع ابن عربي معاني من قبله، ننقل قول عبد القاهر الجرجاني الذي يلخص موقفنا من أتباع ابن عربي، يقول:" فلا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر فتؤديه بعينه، وعلى خاصيته بعبارة أخرى، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة، ولا وجه، ولا أمر من الأمور، ولا يغرنك قول الناس: قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على اوجه الذي يكون عليه في كلام الأول حتى لا تعقل هنا إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حالها في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينيك كالسوارين، ففي غاية الإحالة[1]. إذ أن ثمة اختلافات ذوقية وحضارية حدت بابن عربي، وهو ينتقي من رصيده المعجمي والثقافي والفكري، إلى أن ينظم شعره في جدلية من "الاختيار والتوزيع" الذي يتفق وشهوده، حتى إنه ليخرج حيناً عن حد المواضعة الأولى للمفردة، ذلك أن المفردة – كما سبق وأسلفنا – لا تدل على ذات واحدة، بل من الممكن أن تتحول إلى اسم لصفة أو لحال أو لمرتبة من المحتمل قيامها فيها" – وهو يجمع في ذهنه هذه المستويات المختلفة للمفردة!!.

وفي دراسة الإتباع في مفردات صور ابن عربي في ترجمانه نلحظ أنه يستقي من التراث شرقاً وغرباً ليخلق في أصالته أشواقاً لحبيبة رأى في جمال روحها نافذة إلى رحاب المطلق الإلهي، وقد سبق أن أشار د.سليمان العطار إلى استلهام ابن عربي رسائل أبي حيان التوحيدي"الإشارات الإلهية" ونبه إلى ملامح من الالتقاء المعجمي والأسلوبي بين الرسائل والشعر تارة، وبينها وبين الشرح أخرى، كما أشار إلى تأثره بالشعراء العذريين في أساليب الحب، وليس في أساليب الشعر، وتأثر ابن عربي بالموشحات والشعر بالأندلس[2].

---

[1]-الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد رشيد رضا، دار المنار، ط1، ص201.

[2]-د. سليمان العطار، الخيال ولشعر في تصوف الأندلس، ص 196 وما بعدها و ص 247، ويضرب أمثلة التأثر من ابن زهر الحفيد وابن هارون الرمادي، ويرى أن اختياراته تميل إلى الأخذ من التراث الأندلسي أكثر من غيره، في حين رأى د.عاطف جودة نصر إن ابن عربي كان أميل إلى أهل البادية العذريين، وأرى انه كان يأخذ من التراث شرقاً وغرباً

وإن الشعراء الغزليين لم يبلغوا ما بلغه ابن عربي من تماسك البناء، انطلاقاً من فلسفته التي ترى صدور النظرة في تلك العين الواحدة، والرؤية المختلفة للاسم الواحد، وتعدد المظاهر للعين الواحدة وصدور كل العيون إلى بعد ذلك من عين واحدة هي الذات.

أما د. عاطف جودة نصر، فيشير إلى مواضع من تأثر ابن عربي بالسابقين، ويرى أن قصيدة أبي العلاء المعري ومطلعها:

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني

حاضرة في قصيدة ابن عربي:

مرضي من مريضة الأجفان علَلاني بذكرها علَلاني[1]

وأرى أن حضورها، كان حضوراً معجمياً فحسب، وإلا فإن السياق الكلي للتجربة الذي يعد أساساً لفهم القصيدة مختلف تماماً، وإن معاني قصيدة أبي العلاء تتوارى إلى المستوى الخلفي حتى لا تظهر لها فعالية في قصيدة ابن عربي. ذلك أن مرتكز ابن عربي من"المزاج الشخصي، والإلهام الفطري، والتحصيل الثقافي، والوضع الاجتماعي والظرف الحضاري والمعتقد الديني" يكشف عن تصور مغاير للكون ورؤية مختلفة للعالم...وربما يأخذ في هذه القصيدة وغيرها من مفردات صور غيره، غير أنه في تركيبه الجديد لهذه المفردات، تستحيل الصورة إلى عالم مختلف، فتصبح نبعاً غريباً لعلاقات جديدة لم نألفها في "الموروث" الذي قام بتوظيفه، وهذا القول ينطبق تماماً على كل ما يظهر من معين التجربة الشعرية المشرقية والمغربية في شعر "الترجمان".

وأرى أن من له أدنى مسكة بالأدب العربي يلحظ في أجزاء شعر الترجمان أن ابن عربي يستقي من أنماط الصور ومفرداتها ما يصلح في نظره أن يكون جزء من صوره الخاصة به، وقد لاحظت – وأنا المنشغل بالشعر الأموي – أن ابن

ويختار أرقه وأنسبه لسياق تجربته الخاصة!! ويشير د.زكي نجيب محمود في دراسته التوصيفية لطريقة الرمز عند ابن عربي في ديوانه الترجمان (الكتاب التذكاري للمئوية الثامنة لولادة ابن عربي، دار الكتاب العربي، 1969، ص 87) إلى تقليدية معجم ابن عربي ودورانه حول المحور الذي دار حوله الشعراء الغزليون ممن سبقوه وهي دراسة قاصرة على 25 نصاً من الديوان، ولذلك فإن حكمه هذا كان قاصراً!!

[1]- د. عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 210.

عربي تأثر بالنميري الثقفي في قصيدته التي مطلعها:

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة عطـــرات

في مقطعته التي مطلعها(على البحر نفسه والقافية نفسها):

وزاحمني عند اســتلامي أوانــس أتين إلى التطواف معتجرات[1]

وهو تأثر في حدود منقطعة، وكذلك قول قيس بن الملوح:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد

في قوله:

ألا يا ثرى نجــد تباركـــت مــن نجــد سقتك سحاب المزن جوداً على جــود

قطعـــت إليهـــا كـــل قفـــر ومَهْمَـــهٍ على الناقة الكوماء والجمل القــود

إلى أن تراءى البرق من جانب الغضا وقد زادني مسراه وجداً على وجد[2]

وابن عربي يشير إلى مواضع خاصة من تأثره بالشريف الرضي مــثلاً، وابن سينا في قصيدته التي مطلعها، (وهي في النفس):

هبطت إليك مــن المحــل الأرفــع ورقاء ذات تعــزز وتمنــع[3]

وهو يرى في هذه المفردات وسيلة للتعبير عن المعاني الإلهية المكنونة في نفسه، التي توازي بشكل ما معاني الحب الإنساني، وقد رأينا من الصوفية من يرى في الأبيات من الغزل الإنساني، إذا ما نقلت إلى مجال التصوف أن ذلك من شـــانه أن يزيدها عمقاً ورونقاً وجلالاً فضلاً عما تحمل من قيم جمالية مدهشة، ولكنها لا تصل إلى هذا المستوى إلا بعد أن تحمل من خواطرهم ما يوائم أحوالهم، وهكــذا كان عبور ابن عربي في ذوات الشعراء من قبله في سعيه التعبير عــن وجدانــه، وعن الأصل الباطني الذي يمكن أن يكون باعثاً على خلق صـــور موازيـــة لهــذا

---

[1]- ديوانه، 222.

[2]- المصدر نفسه، 432.

[3]- المصدر السابق، 376، وينظر مواضع أخرى 328، 331، 345، 357، 361، وغيرها كثير.

الأصل، وأن يكون التعبير عنه بطرق مستعارة، انطلاقاً من أن عدم مواجهة الحقيقة والقصد إليها من وراء حجاب هو الأجمل والأمثل!!.

وهو إذ يستلهم من العذريين معطيات المعاناة والشعور بالفقد، والبرهة الطللية والرحلة، وتشوق الإبل، ولمع البرق، ومر النسيم، فإنما يدخل إليها في عبور جديدي يتفق وطبيعة المرحلة الحضارية التي يعيشها، والتي نضج فيها الفكر الباطني، فيعدل من هذا الموروث، ويغير بالحذف والإضافة حتى تظهر لمساته التي تأخذ بها القصيدة استقلالها – ولو جزئياً – من خلال طرحها لخصوصيتها الفنية، واستدراجها المعاني الظاهرية إلى المعاني العرفانية الباطنية"[1].

ولنأخذ مثالاً على هذه الحركة المتميزة بين التراث والبيئة الحضارية، في قصيدته التي مطلعها:

ما رحلوا يوم بانوا البزل العيسا ... إلا وقد حملوا فيها الطواويسا

ففيها الكثير من القرائن التي تدل على أن هذا الغزل إنما هو غزل في رحاب إلهي، يقول ابن عربي:

من كل فاتكة الألحاظ مالكة ... تخالها فوق عرش الدر بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى ... شمساً على فلك في حجر إدريسا
تحيي إذا قتلت باللحظ منطقها ... كأنها عندما تحيي به عيسى
توراتها لوح ساقيها سناً وأنا ... أتلو وادرسها كأنني موسى
أسقفة من بنات الروم عاطلة ... ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية ما بها أنس قد اتخذت ... في بيت خلوتها للذكر ناووساً
قد أعجزت كل علام بملتنا ... وداودياً وحبراً ثم قسيساً
إن أومأت تطلب الإنجيل تحسبنا ... أقسة أو بطاريقا شماميسا
ناديت إذ رحلت للبين ناقتها ... يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا
عبيت أجناد صبري يوم بينهم ... على الطريق كراديسا كراديسا
سألت إذ بلغت نفسي تراقيها ... ذاك الجمال وذاك اللطف تنفيسا
فأسلمت ووقانا الله شرتها ... وزحزح الملك المنصور إبليسا[2]

---

[1]- د.أمين عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ابن عربي، رابطة الكتاب الأردنيين، 1995، ص 180.

[2]- ديوانه، ص 184- 195.

فتصور القصيدة من حيث سطحها المباشر ارتحال المحبوبة محمولة في هودجها، محاطة بالنسوة الجميلات، ويسوق القافلة من يحدو لها بغناء شجي حزين، وإذ تظعن المحبوبة ينادي الشاعر الحادي ألا يرحل القافلة في حديث يذكرنا بالشعراء الغزليين، لكنه يضمن مقطعته إشارات إلى الأديان والأنبياء والكتب المقدسة، وتوحي تلويحاته إلى إدريس وموسى وعيسى، والإنجيل والتوراة بقدرة استنباطية مرتبطة بذوق فردي أتاح له أن يتصل من خلال ما يسمى بتيار الديمومة بحيوات السابقين من الأنبياء[1]، ولقد صور ابن عربي الحكمة الإلهية في القصيدة بالمرأة التي يفتك لحظها بمن يعشقها، وبدت له هذه الأنثى في رمزيتها تشخصاً لجمال ملكي آسر، وشمساً طالعة في حجر إدريس النبي، وألواح تشريع وتوراة هداية...وهذا كله يكشف عن تركيب رمزي للحكمة الإلهية التي تفتك بالعارف متى تجلت له، وتغنيه عن النظر إلى نفسه"وليس تصوير ابن عربي هذه الحكمة العلوية بالشمس الطالعة في حجر إدريس بالأمر الاعتباطي، ذلك أن الصوفية اعتبروا إدريس معلم الحكمة العرفانية"[2].

وهكذا ظهر نص ابن عربي، وقد جند قصص الأنبياء في إشارات متلاصقة إلى تمثيل الحكمة الإلهية، ويظهر من الرموز والصور التي تميز بها ابن عربي – والتي لا تحتاج إلى صرف الخاطر عن ظاهرها – قوله:

تثلث مجنوبي وقد كان واحداً كما صيروا الأقنام بالذات أقنما
فلا تنكرن، يا صاح قولي غزالة تفيء لغزلان يطفن على الدمى
فللظبي أجياداً، وللشمس أوجهاً وللدمية البيضاء صدراً و معصما
كما قد أعرنا للغصون ملابسا وللروض أخلاقاً وللبرق مبسما[3]

وفي ديوانه أمثلة كثيرة من هذا الابتداع[4]، ولنتأمل هذا المثال الذي يوظف "صورة المحب في نحوله" ويرثيها في معراج تأملي جديد، يقول:

إذا ما التقينا للوداع حسبتنا لدى الضم والتعنيق حرفاً مشدداً

---

[1]- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، 197.
[2]- المصدر السابق، 198.
[3]- ديوانه، ص 251.
[4]- من أمثلة ذلك ديوانه، 449، 486، 491

فنحن، وإن كنا مثنـى شخوصنا فما تنظر الأبصار إلا موحداً
وما ذاك إلا من نحـولي ونـوره فلولا أنيني ما رأت لي مشـهداً[1]

وربما يتبادر إلى الذهن أن هذا النص فيه من التناص الكثير، فهو ينظر إلى قول المتنبي – كما يشير ابن عربي نفسه – :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجـل لو لا محادثتي إياك لـم ترنـي!!

أو إلى قول بشار بن برد:

إن فـي بـردي جسـماً نـاحلاً لـو توكـأت عليـه لانهـدم!!

ولكن فرقاً شاسعاً بين الصورتين، فصورة النحول عند ابن عربي تأتي من معين"وحدة الوجود"التي آمن بها، والحرف المشدد في فكر ابن عربي له قصة في رسالته الخاصة بالحروف وهو لم يسبق إلى هذه الصورة، التي هي من محصلة ثقافته ونظرته في الوجود والقرآن، واللغة وحروفها، يقول:"الحرف المشدد حرفان مبطون أحدهما في الآخر" فانطلاقا من تمثل ابن عربي وحدة الوجود – وهو المنظر الأكبر لها – يقول في اللقاء: الذي يكون بين اثنين فصاعداً: أي بين الكثرة، والوحدة تستدعي ذوبان الكثرة في الوحدة، لذلك يلجأ ابن عربي إلى اجتراح صورة تظل مخلصة لفكره، فهو في هذه الصور يتجاوز الكثرة مستثمراً ثقافته اللغوية بالنظر إلى إدغام المثلين، فاستجلب الحرف المشدد ليصوغ صورة أولية، ولتكون منطلقاً للصورة الكلية في الأبيات، وهذا ما يتضح في البيت الثاني تتجلى فيه فكرة البيت الأول وصورته، إذ يندغم الاثنان في الواحد، ولنتوقف قليلاً عند هذا البيت الذي تتألف صورته من عناصر ابتداعية صرفة، تحيل إلى انه في حالة الشهود تنتفي الكثرة، وعنصر"الإبصار" هنا لا يرى الأضداد، ولا يستشعر إلا سريان الوحدة في الوجود، ولنعد مرة أخرى إلى تلك اللفظة التي استعرناها من بيئة تصوف ابن عربي، وهي"التجلي"، وهي نظرية قائمة بحد ذاتها، توازي معنى الخلق، ذلك أن الحق تعالى في تجل دائم غير منقطع، ومن الواضح في هذه الأبيات ظهور بنية التجلي في صورها، فالمعنى لم يختلف كثيراً بين البيت الأول والثاني،

---

[1]-ديوانه، ص 485.

وكأنما يريد أن يشير إلى الفكرة الواحدة في صورتين أو لنقل في "تجليين"، وهذا يعيدنا إلى القول بأن ابتداع الصورة عند ابن عربي متأثراً تأثراً واضحاً بفكره، ويعزز هذا ما جاء في البيت الثالث الذي ننظر إليه باعتباره تجلياً آخر للفكرة السابقة، ولكن من زاوية أخرى، وهي أن العبد لا يشهد ظهور الحق، وهو ظاهر أبداً وأزلاً، إلا بفنائه عن نفسه، وعن السوى، فلا يرى في الوجود إلا الحق وهو سريان النور الإلهي الذي ظهرت به الممكنات من عدمها، ولذلك مثّل ابن عربي لهذا المعنى بصورة النحول والتلاشي لشخصه باعتباره ممكناً أمام حقيقة أن النور الإلهي هو الوجود الحقيقي، ومن هنا يصح القول إن ظهور العبد خفاء للحق، وإن خفاء العبد ظهور للحق، ومن هذه البرهة الغنائية يظهر أن ابن عربي قد التفت إلى صورة تراثية سابقة فاستدعاها ليعد خلقها خلقاً جديداً وفقاً لتصوراته لعلاقة الحق بالخلق مبتدعاً في مستويين، مستوى المعنى والصورة معاً.

كذلك كان ابن عربي ابن عصره وبيئته في استخدام الوسائل البديعية في التشكيل الصوتي لبعض قصائده، ومنها قصيدته التالية، التي تتحدث عن نفسها في اهتمام ابن عربي بتزيين المفردة والجملة، لإرضاء الذوق العام، في محاولة للتوصيل، فقدمها مبهرجة تستقطب حواس الملتقي استقطاباً مؤثراً، وتظهر فيه صدور الأبيات وفيها من جناس الاشتقاق الكثير.

يقول ابن عربي:

لطيبة ظبي ظبى صارم	تجرد من طرفها الساحر
وفي عرفات عرفت الذي	تريد، فلم أك بالصابر
وليلة جمع جمعناها بها	كما جاء في المثل السائر
يمين الفتاة يمين، فلا	تك تطمئن إلى غادر
منى بمنى نلتها ليتها	تدوم إلى الزمن الآخر
تولعت في لعلع بالتي	تريك سنا القمر الزاهر
رمت رامة وصبت بالصبا	وحجرت الحجر بالحاجر
ونامت بريقاً على بارق	بأسرع من خطرة الخاطر
وغاضت مياه الغضا من غضى	بأضلعه من هوى ساحر
وبانت بيان النقا فانتقت	لآلىء مكنونة الفاخر
وأضلت بذات الأضا القهقري	حذاراً من الأسد الخادر

بـــذي ســـلم أســـلمت مهجتـــي إلـــى لحظهـــا الفاتـــك الفـــاتر
حمت بـــالحمى ولـــوت بـــاللوى لعطفـــة جارحهـــا الكاســـــر
وفـــي عـــالج عالجـــت أمرهـــا لتفلـــت مـــن مخلـــب الطـــائر
خورنقهـــا خـــارق للســـماء يســـمو اعـــتلاء علـــى النـــاظر[1]

وتلحظ في هذه الأبيات اهتمام ابن عربي بإقامة توازن بين المفردات في سياق البيت في توزيع متوازن، وكأنما تشير هذه الهندسة الفنية، والتداعي الصوتي بين لفظتي إلى ضرورة هز الكلمة وتحريكها، وإخراجها من وصـاية القـاموس، والعمل على استبدال الدلالات بشحنها بدلالات مغايرة لمعانيها المستقرة.

ويبقى المجال مفتوحاً لقول الكثير في هذا الحلم المستحيل في نصوص ابن عربي في "الترجمان" ولا يفيه القول حقه، وقد اتخذ طريقاً فريداً في عرض الباطن والظاهر في ظل قراءة قلبية مفتوحة في الوجود كله، تخرج عن ألفـة الوضـوح والاندراج في الجاهز عبر تغيير دلالات الكلمات والانتقال بها من معانيها المعجمية الاعتيادية، إلى معانٍ ذات دلالات جديدة، أقرب إلى المعرفة الذوقية التـي محلهـا القلب ومجلاها الشعر!!.

---

[1]- ديوانه، ص 499.

الكلمات العربية في اللغة الأرمنية

د.الكسندر كشيشان*

صدر كتاب باللغة الأرمنية في عام 2001 لمؤلفه البروفيسور ز. غازاريان من أرمينيا تحت عنوان "كلمات اللغة الأرمنية في القرون الوسطى". يتألف الكتاب من 228 صفحة من الحجم الصغير ويتكلم البحث حول الكلمات الأجنبية من عربية وفارسية وتركية ويونانية التي دخلت اللغة الأرمنية خلال حقبة القرون الوسطى .

وضع المؤلف جدولاً كاملاً بالكلمات العربية التي تم استخدامها من قبل الأطباء والصيادلة والحقوقيين والمزارعين والإداريين وغيرهم في الدولة الأرمنية.

تطورت العلاقات الأرمنية ــ العربية ضمن أراضي أرمينيا وخارج حدودها . وتنقسم هذه العلاقات كرونولوجياً إلى حقبتين رئيستين وهما :

1ــ تبدأ الحقبة الأولى من منتصف القرن السابع وتنتهي في أواخر القرن التاسع أي فترة تقارب ثلاثة قرون عندما كانت أرمينيا تحت حكم الخلافة العربية. ويلاحظ أن تأثير اللغة العربية علىاللغة الأرمنية كان ضعيفاً جداً في هذه الفترة ، لذلك فإن بعض الكلمات العربية التي دخلت في اللغة الأرمنية عن طريق المصادر الأدبية التي تنتمي إلى الفترة الممتدة بين القرنين 7ــ 10 ميلادية لا تحوز على أهمية كبيرة تذكر.

2ــ أما الفترة الثانية للعلاقات الأرمنيةــ العربية التي ارتبطت بالتبدلات الجدية في حياة الشعب الأرمني الإقتصادية والسياسية ، فإنها تبدأ من القرن الثاني عشر وتستمرحتى نهاية القرن السابع عشر. وعلى الرغم من زوال الحكم العربي عن أرمينيا ، إلا أن تأثير اللغة العربية القوي على اللغة الأرمنية بدأ يظهر في هذه الحقبة بالذات على شكل إستخدام مئات الكلمات العربية التي تشكل في الواقع القسم الأعظم بين الكلمات الأجنبية التي ولجت في صلب اللغة الأرمنية في هذه الفترة القروسطية .

أشار العلامة اللغوي الأرمني هراتشيا أجاريان Hratchya Ajarian في المجلد الثاني لمؤلفه الضخم " تاريخ اللغة الأرمنية " أن عدد الكلمات العربية في اللغة الأرمنية في حقبة القرون الوسطى كان 702 كلمة يستخدم منها 53 كلمة في اللغة الأرمنية الحديثة . بينما يؤكد البروفيسور غازاريان في دراسته على وجود 1436 كلمة عربية دخات في اللغة الأرمنية طوال قرون عديدة .

* عضو اتحاد الكتاب العرب.

أكد الباحث الألماني الاختصاصي في اللغة الأرمنية وآدابها Joseph Karst في مؤلفه Worterbuch des Mittlearmenischen أن عدد الكلمات العربية وصل إلى 1100 كلمة .

دخلت هذه الكلمات العربية إلى اللغة الأرمنية في القرون الوسطى شفهياً وعن طريق المؤلفات المكتوبة ، لذلك تصنّف إلى نوعين :

أـــ كلمات أدبية

ب ـــ كلمات عامية

معظم الكلمات العربية المستخدمة في اللغة الأرمنية تنتمي إلى هذا الصنف الأخير، لأنها دخلت إلى اللغة الأدبية الأرمنية عن طريق اللغة الشعبية المحكية .

لا يعني أ بداً أن ندرة الكلمات العربية في المؤلفات الأرمنية القروسطية كان نتيجة توقف العلاقات الأرمنيةـــ العربية وعدم إستخدام هذه الكلمات العربية في اللغة الأرمنية المحكية الشعبية ، لأن الحقائق التاريخية تؤكد أن ا لشعب الأرمني وعلى أرض بلاده بالذات كان على صلة بالأقوام العربية. علاوة على ذلك ـــ وقبل سقوط المملكة الأرمنية البقرادونية بوقت طويل كانت جاليات أرمنية كبيرة على علاقات مباشرة ووثيقة مع العرب ، لذلك فإن دخول الكلمات العربية إلى اللغة الأرمنية المحكية كان أمراً محتماً. وقد إحتفظت معظم هذه الكلمات العربية بحيويتها في اللغة الأرمنية القروسطية المحكية والأدبية . ودليلنا على ذلك الكلمات العربية العديدة التي لا تزال تستخدم في اللغة الأرمنية حتى يومنا هذا.

درس H. Hubschmann بدوره الكلمات ا لعربية المستعارة من قبل اللغة الأرمنية وجمعها في بحث تحت عنوان :

(Die Semitischen Lehnworter Im Altararmenischen)

Z.D. M.G. - 1892

بعد هذه اللمحة الموجزة جداً نقدم جدولاً ببعض الكلمات العربية التي استخدمت في مختلف اللهجات الأرمنية في القرون الوسطى :

الزراعة وعلم النبا ت

ا لعدد	ا لكلمة العربية	لفظها بالأرمنية	ا للفظ الأرمني بأحرف لاتينية
.1	أ قحوا ن	ախաւան	Akhavan

اللفظ الأرمني بأحرف لاتينية	لفظها بالأرمنية	الكلمة العربية	العدد
Ajur	աճուր	عجّور	.2
Aspur	ասպուր	عُصفر	.3
Aklil melik	աքլիլ մելիք	إكليل الملك	.4
Babunaj	պապունաճ	بابونج	.5
Bakle	պաքլէ	بقلة	.6
Zanjabil	զանճապիլ	زنجبيل	.7
Zarur	զարուր	زعرور	.8
Zafran	զաֆրան	زعفران	.9
Zbibjbel	զպիպ ճէպէլ	زبيب الجبل	.10
Reyhan	րէյհան	ريحان	.11
Rabisus	րապիսուս	رب السوس	.12
Temrhendi	թէմր հինտի	تمر هندي	.13
Lablab	լապլապ	اللبلاب	.14
Lupia	լուպիա	لوبية	.15
Kharnub	խարնուպ	خرنوب	.16
Kharshuf	խարշուֆ	خرشوف	.17
Khardal	խարտալ	خردل	.18
Khubaz	խուպազ	الخبيزة	.19
Halfa	հալֆա	حلفا	.20
Hamahim	համահիմ	هماهم	.21
Hamama	համամա	حمامة	.22
Habalsi	հապալսի	حب الآس	.23
Habakh	հապախ	حبق	.24
Hilion	հիլիոն	هليون	.25
Hina	հինա	الحنة	.26
Hendibe	հինտիպէ	هندبة	.27
Ghanbit	ղանպիթ	قنبيط	.28
Ghar	ղար	غار	.29
karaz	քարազ	كرز	.30
Gharanfil	ղարանֆիլ	قرنفل	.31
Mavz	մավզ	موز	.32
Yasvaj	եասվաճ	عوسج	.33

اللفظ الأرمني بأحرف لاتينية	لفظها بالأرمنية	الكلمة العربية	العدد
Yuleikh	եուլէիխ	عليق	.34
Shamam	շամամ	شمام	.35
Bahar	պահար	بهار	.36
Batekh	պաթէխ	بطيخ	.37
Sahtar	սահթար	زعتر	.38
Silkh	սիլխ	سلق	.39
Sinemaki	սինեմաքի	سنمكي	.40
Sonobri	սոնոպրի	صنوبر	.41
Tahlab	թահլապ	طحلب	.42
Kamon	քամոն	كمّون	.43
Kimi	քիմի	كمأة	.44
Khokh	խոխ	خوخ	.45
Husrom	հըսրոմ	حصرم	.46
Javz	ճավզ	جوز	.47
Mahlab	մահլապ	محلب	.48
Meshmish	մըշմիշ	مشمش	.49
Balut	պալութ	بلوط	.50
Badinjan	պատինճան	باذنجان	.51
Eruz	էրուզ	أرز	.52
Zeitun	զէյթուն	زيتون	.53
Savsan	սավսան	سوسن	.54
Arish	արիշ	عريشة	.55
Mazra	մազրա	مزرعة	.56
Nasb	նասպ	نصب	.57
Shitil	շիթիլ	شتلة	.58

علم الحيوان

Akhrab	ախրապ	عقرب	(1
Zurafe	զուրաֆէ	زرافة	(2
Timsah	թիմսահ	تمساح	(3
Khalizon	խալիզոն	حلزون	(4

Khatatif	խաթաթիֆ	خطاطيف	(5
Khenduz	խընտուզ	قند ز	(6
Ghubri	ղուպրի	قبّرة	(7
Ghermez	ղըրմըզ	قرمز(د ودة)	(8
Yahmur	եահմուր	يحمور	(9
Shabut	շապութ	شبّوط	(10
Bakhara	պախարա	بقرة	(11
Bghbgha	պղպղա	ببغاء	(12
Khuyl	խույլ	خيل	(13
Khuyul	խույուլ	خيول	(14
Hayvan	հայվան	حيوان	(15

ماكولات ومشروبات

Rub	ռուպ	رب(ا لبندورة مثلا)	(1
Tirit	թիրիթ	ثريد	(2
Halva	հալվայ	حلاوة	(3
Herisa	հերիսայ	هريسة	(4
Ghadaif	ղատաիֆ	قطا ئف	(5
Gulab	կուլապ	جُلاب	(6
Muraba	մուրապպա	مربّى	(7
Sharbat	շարպաթ	شربات	(8
Kebab	քէպապ	كباب	(9

أوزان ومكاييل ومقاييس

Ghantar	ղանթար	قنطا ر	.1
Mtkhal	մթխալ	متقا ل	.2
Tatlit	թաթլիթ	تثليث	.3
Tult	թուլթ	ثلث	.4
Tasdis	թաստիս	تسد يس	.5
Hasa	հասա	حصة	.6
Fard	ֆարտ	مفرد	.7

Alam	ալամ	عا لم	.18

أبنية ومؤسسات

Atuni	աթունի	أ تون	.1
Amarat	Ամարաթ	عما رة	.2
Burj	պուրճ	بر ج	.3
Kuba	քուպա	قبَة	.4
Dukan	տուքան	دكا ن	.5
Zevia	Զէւիա	زا وية	.6
Zukak	կուքաք	زقا ق	.7
Khezna	խըզնա	خزنة	.8
Ghale	ղալէ	قلعة	.9
Jami	ճամի	جامع	.10
Mahalla	Մահալլա	محلة	.11
Maghaza	մաղազա	مخزن	.12
Medresa	Մէտրէսա	مدرسة	.13
Meydan	մէյտան	ميدان	.14
Mehrab	Մէհրապ	محراب	.15
Mina	Մինա	ميناء	.16
Mnira	Մնիրա	منا رة	.17

مهن مختلفة

Baytar	պայթար	بيطري	.1
Dabagh	տապաղ	دبا غ	.2
Khabaz	խապազ	خبا ز	.3
Halaj	հալաճ	حلاج	.4
Hekim	Հէքիմ	حكيم(طبيب)	.5
Ghasab	ղասապ	قصا ب	.6
Ghavad	ղաւատ	قوا د	.7
Jarah	ճարահ	جراح	.8
Mudaris	մուտարիս	مدرس	.9
Metrub	մէթրուպ	مطرب	10
Yadar	եատար	عطا ر	11
Naghash	Նաղաշ	نقا ش	12

Najar	Նաճար	نجا ر	13
Bakhal	պախալ	بقا ل	14

لا تزال هذه الكلما ت التي تدل علي المهن تستعمل حتى يومنا هذا ككنية لعائلات أرمنية عديدة مثل: بيطريان ودباغيان وحلاجيان وحكيميان وقصابيان وجراحيان وعطاريان ونقاشيان ونجاريان وبقاليان وغيرها.

العلوم الدينية

Allah	Ալլահ	أ لله	.1
Ramadan	ռամադան	رمضان	.2
Iman	իման	إ يما ن	.3
Khayal	խայալ	خيا ل	.4
Khutba	խութբա	خطبة	.5
Ghiama	ղիամա	قيامة	.6
Ghuran	ղուրան	قرآ ن	.7
Mahdesi	մահտեսի	مقدّسي	.8
Mahrasa	մահրասա	مُرخَص	.9
Mlhed	մլհեդ	ملحد	10
Molla	մոլլա	ا لمّلا	11
Mudin	մուդին	ا لمؤذّ ن	12
Mughri	մուղրի	مقرئ	13
Murtad	մուրթադ	مرتدّ	14
Nalat	նալաթ	لعنة	15
Shekh	շեյխ	شيخ	16
Vokhv	վոխվ	وقف	17
Rasul	ռասուլ	رسول	18
Sala	սալա	صلاة	19
Salavat	սալավաթ	صلوات	20
Tlsim	թլսիմ	طلاسم	21
Millet	միլլեթ	ملّة	22
Zekat	զեքաթ	زكاة	23
Haram	հարամ	حرام	24
Halal	հալալ	حلال	25
Ghurban	ղուրբան	قربا ن	26

Menafekh	մինաֆէխ	منافق	27

المناصب والألقاب وغيرها

Amir	Ամիր	أمير	.1
Khalifa	խալիֆա	خليفة	.2
Haras	Հարաս	حارس	.3
Hejub	Հէճուպ	حاجب	.4
Melik	Մէլիք	ملك	.5
Muhtasib	մուհթասիպ	محتسب	.6
Muhassil	մուհասսիլ	محصّل	.7
Nayib	Նայիպ	نائب	.8
Rayis	րայիս	رئيس	.9
Sahib	սահիպ	صاحب	10
Sultan	սուլթան	سلطان	11
Vezir	վէզիր	وزير	12
Nazer	Նազէր	ناظر	13
Amr	ամր	أمر	14
Amir	ամիր	أمير	15
Btelmal	պըթէլմալ	بيت المال	16
Hukm	հուքմ	حُكم	17
Manshur	մանշուր	منشور	18
Malik	մալիք	مالك	19
Alam	ալամ	علم	20

التعابير القانونية

Davi	տաւի	دعوة	.1
Khism	խիսմ	خصم	.2
Khrer	խրէր	قرار	.3
Ghadi	ղատի	قاضي	.4
Maghkama	մաղքամա	محكمة	.5
Mufti	մուֆթի	مفتي	.6
Jaza	ճազա	جزاء	.7
Jalad	ճալատ	جلاد	.8
Fatva	ֆաթվա	فتوى	.9

Ghanon	ղանոն	قانون	10
Kharaj	խարաճ	خراج	11
Jiza	ճիզա	جزية	12
Mahr	մահր	مهر	13

أسلحة

Darit	տարիթ	طرّادة	.1
Rumh	ռումհ	رمح	.2
Khanchar	խանչար	خنجر	.3
Hasar	հասար	حصار	.4
Sleh	սլէհ	سلاح	.5
Joshan	ճոշան	جوشن	.6

العلوم الطبية

Araghan	արաղան	يرقان	1
Bahagh	պահաղ	بهاق	2
Zabcha	Զապչա	ذبحة	3
Zukam	կուգամ	زكام	4
Ekhtilaj	ըխթիլաճ	إختلاج	5
Rahsha	ռահշա	رعشة	6
Ramad	ռամատ	رمد	7
Tashanuj	թաշանուճ	تشنّج	8
Rupu	ռուփու	ربو	9
Tukhma	թուխմա	تخمة	0
Lakua	լակուա	لقوة	1
Khanazir	խանակիր	داء الخنزير	2
Khanikh	խանիխ	الخناق	3
Khulinj	խուլինճ	قولنج	4
Humra	հումրա	الحميراء	5
Harsanite	Հարսանիթ	حرصان	6
Jadari	ճատարի	جدري	7
Jedam	ճըտամ	جُذام	8
Nekris	նկրիս	نقرس	9

Shukak	շուկակ	شِقاق	0
Saratayn	սարաթայն	سرطان	1
Sil	սիլ	سلّ	2
Vasvas	վասվաս	وسواس	3
Tayun	թայուն	طاعون	4
Falij	ֆալիճ	فالج	5
Ahsha	ահշա	أحشاء	6
Ajuaf	աճուաֆ	الأجوف	7
Ghulin	ղուլին	الكولون	8
Ankabuti	անքաբութի	العنكبوتي	9
Avar	աւար	الأعور	0
Akhal	աքհալ	أكحل	1
Zujaji	զուճաճի	الزجاجي	2
Loh	լոհ	لوح	3
kharniye	խարնիէ	القرنية	4
Ghasabat	ղասապաթ	القصبات	5
Ghouda	ղուտա	الغدّة	6
Jalide	ճալիտէ	الجليدية	7
Jamb	ճամպ	الجنب	8
Mashima	մաշիմա	المشيمة	9
Multaham	մուլթահամ	ملتحمة	0
Mustaghim	մուսթաղիմ	مستقيم	1
Nkha	նխա	نخاع	2
Shiryan	շիրիան	شريان	3
Sulbiye	սուլպիէ	صُلبة	4
Bukhar	պուխար	بخار	5
Raba	ռապա	حرارة رباعية	6
Retubat	ռըթուպաթ	رطوبات	7
Esteskha	ըսթըսխա	إستسقاء	8
Tahajur	թահաճուր	تحجّر (البَرَدة)	9
Khafaghan	խաֆաղան	خفقان	0
Karha	քարհա	قرحة	1
Hajamat	հաճամաթ	حجامة	2
Hayz	հայզ	حيض	3

Hadba	հատպա	حدبة	4
Hokna	հոքնա	حقنة	5
Huma	հումա	حُمى	6
Ghashi	ղաշի	غشي	7
Jmud	ճմուտ	جمود (coma)	8
Mazmaza	մազմազա	مضمضة	9
Nazaf	նազաֆ	نزف	0
Namash	նամաշ	نمش	1
Namz	նամզ	نبض	2
Noba	նոպա	نوبة	3
Shakika	շաքիքա	شقيقة	4
Basur	պասուր	باسور	5
Blgham	պլղամ	بلغم	6
Sabat	սապաթ	سُبات	7
Savda	սավտա	سوداء	8
Safra	սաֆրա	صفراء	9
Sual	սուալ	سعال	0
Varam	վարամ	ورم	1
Tams	թամս	طمث	2
Padlat	փատլաթ	فضلات	3
Yaraghaniasvad	եարաղանիասվատ	يرقان أسود	4
Yaraghaniasvar	եարաղանիասվար	يرقان أصفر	5
Nafas	նաֆաս	نَفس	6

صخور ومعادن

Akik	աքիք	عقيق	.1
Asranj	ասրանճ	أسرنج	.2
Yaghut	եաղութ	ياقوت	.3
Rukham	րուխամ	رخام	.4
Hajar elyahud	հաճար էլեահուտ	حجر اليهود	.5
Hajar elhaya	հաճար էլհայա	حجر الحية	.6
Hajar elghamar	հաճար էլղամար	حجر القمر	.7
Johar	ճոհար	جوهر	.8
Madan	մատան	معدن	.9

Dahniyat	դահնիյաթ	دهنيات	12
Fahm	ֆահմ	فحم	13

تجارة واقتصاد

Amanat	ամանաթ	أمانة	.1
Dalal	դալալ	دلال	.2
Erzak	երզաք	أرزاق	.3
Rizk	րիզք	رزق	.4
Rahn	րահն	رهن	.5
Kharaj	խարաճ	خراج	.6
Hakh	հախ	حق	.7
Hasab	հասապ	حساب	.8
Mazat	մազաթ	مزاد	.9
Mal	մալ	مال	10
Mirat	միրաթ	ميراث	11
Mulk	մուլք	مُلك	12
Naghd	նաղտ	نقض	13
Samsar	սամսար	سمسار	14
Saraf	սարաֆ	صرّاف	15
Vasiyat	վասիյաթ	وصيّة	16
Arz	Արզ	عرض	17
Khast	խասթ	قصد	18

آلات وأشياء مستعملة في الحياة اليومية

Tabut	թապութ	تابوت	.1
Rkeb	ռքեպ	ركاب	.2
Tas	թաս	طاسة	.3
Tanjir	թանճիր	طنجرة	.4
Lehef	լեհեֆ	لحاف	.5
Khesir	խասիր	حصيرة	.6
Halkha	հալխա	حلقة	.7
Ghalam	ղալամ	قلم	.8
Ghafas	ղաֆաս	قفص	.9
Jara	ճառա	جرّة	10

Mahmez	մահմէզ	مهماز	11
Musa	Մուսա	موسى	12
Masara	մասարա	معصرة	13
Mil	միլ	ميل	14
Mekrad	մկրատ	مقصّ	15
Mushabak	մուշապաք	مشبك	16
Mashruba	մաշրուպա	مشربية	17
Msmar	մսմար	مسمار	18
Nal	նալ	نعل	19
Safara	սաֆարա	صفارة	20
Senduk	սնտուկ	صندوق	21
Tabl	թապլ	طبل	22
Tabagh	թապաղ	طبق	23
Finjan	ֆինճան	فنجان	24
Sala	սալա	سلة	25

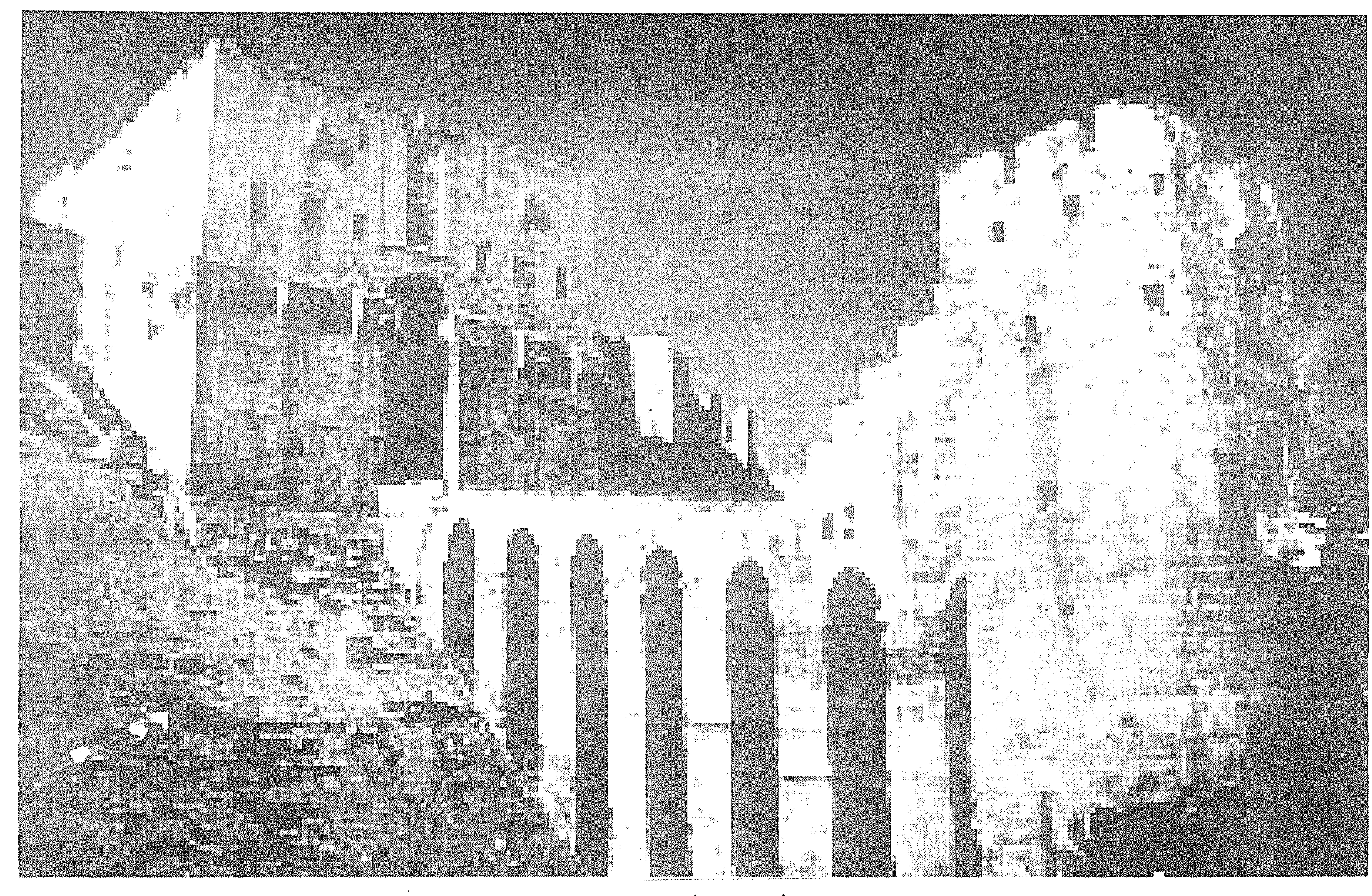
كلمات عامة أخرى

Azab	ազապ	أعزب	.1
Ayib	այիպ	عيب	.2
Ashegh	աշէղ	عاشق	.3
Pakhil	փախիլ	بخيل	.4
Bahr	պահր	باهر	.5
Ekhtitar	ըխթիթար	إقتدار	.6
Tahsub	թահսուպ	تعصّب	.7
Tamam	թամամ	تمام	.8
Lazum	լազում	لازم	.9
Layekh	լայէխ	لائق	10
Latif	Լաթիֆ	لطيف	11
Lutf	լութֆ	لطف	12
Khatr	խաթր	خاطر	13
Khales	խալէս	خالص	14
Khas	խաս	خاص	15
Khasa	խասսա	خاصة	16
Kharap	խարապ	خراب	17

Kher	խէր	خير	18
Khesmat	խըսմաթ	قسمة	19
Makhmour	մախմուր	مخمور	20
Kahra	քահրա	قهر	21
Hal	հալ	حال	22
Halal	հալալ	حلال	23
Haghighat	հաղիղաթ	حقيقة	24
Hajat	հաճաթ	حجة	25
Hayran	հայրան	حيران	26
Hashrat	հաշրաթ	حشري	27
Hasrat	հասրաթ	حسرة	28
Havas	հաւաս	هوَس	29
Hakr	հաքր	حكر	30
Hakir	հաքիր	حقير	31
Hila	հիլա	حيلة	32
Hillat	հիլլաթ	علة	33
Ghalat	ղալաթ	غلط	34
Ghabul	ղապուլ	قبول	35
Ghast	ղաստ	قصد	36
Ghafil	ղաֆիլ	غافل	37
Jor	ճոր	جور	38
Malul	մալուլ	معلول	39
Mahrum	մահրում	محروم	40
Mashkhul	մաշխուլ	مشغول	41
Mastour	մասթուր	مستور	42
Madat	մատաթ	مَدَد	43
Maflouj	մաֆլուճ	مفلوج	44
Mejlis	մէճլիս	مجلس	45
Meshum	մէշում	مشؤوم	46
Mizaj	միզաճ	مزاج	47
Mukhatara	մուխաթարա	مخاطرة	48
Mukhtal	մուխթալ	مختلّ	49
Muhtadil	մուհթատիլ	معتدل	50
Murad	մուրատ	مراد	51

Namus	նամուս	ناموس	52
Shar	շար	شرّ	53
Bala	բալա	بلاء	54
Sadagh	սադաղ	صدق	55
Salam	սալամ	سلام	56
Sabr	սաբր	صبر	57
Vafa	վաֆա	وفاء	58
Karam	քարամ	كَرَم	59
Harami	հարամի	حرامي	60
Khabar	խաբար	خبر	61
Ablah	աբլահ	أبله	62
Alem	ալեմ	عالم	63
Akhmakh	ախմախ	أحمق	64
Mane	մանե	معنى	65
Satrinj	սաթրինճ	شطرنج	66
Sahat	սահաթ	ساعة	67
Vaad	վաադ	وعد	68
Davr	դավր	دور	69
Hamla	համլա	حملة	70
Harakat	հարաքաթ	حركة	71
Sayran	սայրան	سيران	72
Anis	անիս	أنيس	73
Bahri	բահրի	بحري	74
Raiya	րաիյա	رعية	75
Mruaha	մրուահա	مروحة	76
Sala	սալա	سلة	77
Falah	ֆալահ	فلاح	78
Zarar	զարար	ضرر	79
Ghayim	ղայիմ	قائم	80
Halim	հալիմ	حليم	81
Amlas	ամլաս	أملس	82
Tafe	թաֆե	تافه	83
Lazij	լազիճ	لزج	84
Ghaliz	ղալիզ	غليظ	85

Khayin	խային	خائن	86
Buk	բուք	بوق	87
Khaziz	խազիզ	خسيس	88
Rapik	ռաֆիք	رفيق	89
Aman	աման	أمان	90
Bahr	բահր	بحر	91
Had	հադ	حدّ	92
Adat	ադաթ	عادة	93
Sahat	սահաթ	ساعة	94
Yasir	եասիր	أسير	95
Reshvet	ռեշվեթ	رشوة	96
Ilakha	իլախա	علاقة	97
Ikhrar	իխրար	إقرار	98
Khalkh	խալխ	خلق	99
Khezmat	խեզմաթ	خدمة	00
Khukha	խուխա	غوغاء	01
Ghamaz	ղամազ	غمّاز	02
Gharib	ղարիբ	غريب	03
Jahil	ճահիլ	جاهل	04
Jamahat	ճամահաթ	جماعة	05
Fulan	ֆուլան	فلان	06



قلعة حلب

تدمر تُكَرِّمُ مواطنيها

م. ملاتيوس جبرائيل جغنون*

قليلة هي حواضر التاريخ التي كَرَّمت مواطنيها بمثل ما فعلت تدمر. ونعرفُ هذه الحقيقة يقيناً من العدد الكبير من الكتابات المنقوشة على أبدان الأعمدة أو على جبهات قنصلياتها أو في مواضعَ بارزةٍ أخرى في الأماكن العامة كشارع الأعمدة [**انظر الصورة رقم " 1 "**] أو الأغورا (السوق العامة) أو المعابد في تدمر. وهذه الكتابات كانت تشير إلى النُّصُب أو التماثيل التي تعلوها للأشخاص المكَرَّمين والتي لم يصلنا منها اليوم إلا ما نَدَر. فما نراه من هذه الكتابات، والتي بقيت ولحسن الحظ، كان كلُّه تدعيمًا وشرحًا للتماثيل التي اختفت في عصور لاحقة حيث كانت تُبرزُ ملامح شخصياتها الذين كرَّمتهمُ المدينة باستحقاق نظراً لأعمال جليلة كانوا قد قدَّموها لخدمةِ مدينتهم وشعبهم. كل هذا نعرفهُ من استنطاق الأحجار الصمّاء في تدمر. هذه الأحجار الصماء التي كانت تنطق باللغتين: الآرامية التدمرية، وباليونانية القديمة. وهذه الأحجار هي المصدر الوحيد لمعلوماتنا الوثائقية عن هذا الموضوع.

من كان يُكَرَّم من في تدمر؟

الواضح أن موضوع تكريم أشخاص معينين في تدمر كان يتم بأمر من جهةٍ ما في المدينة تملك حقَّ التكريم بقوة القانون. ونَسْتَدِلُّ من العديدِ من هذه الكتاباتِ التكريميةِ المعلنةِ في أماكنَ بارزةٍ من المدينة أنها كانت صادرةً عن هيئتين تشريعيتين مُنْتَخَبَتَين هما مجلس الشيوخ (أو الشورى) والذي كان يُعرف باسم بولا " بالتدمرية وهي لفظة دخيلة من اليونانية η βουλή وتعني حرفياً الإرادة أو الرأي، ومجلس الشعب الذي كان يُعرف باسم دموس " بالتدمرية وهي الأخرى لفظة دخيلة من اليونانية ο δήμος وتعني الشعب. وكانت هاتان الهيئتان هما المولجتين الشؤون البلدية والتنظيمية والعمرانية في مدينة تدمر وتَحكُما المدينة

* ـ جمعية العاديات فرع حمص.

بضربٍ من الديموقراطية والاستقلال الذاتي[إلى جانب سلطات أخـــرى قضـــائية وإجرائية هي أعضاء مجلس العشرة δεκαπρώτους ووكلاء السلطة القضائية (سدقيا) و الأرخونين المكلّفين بالسلطة الإجرائية άρχοντας].

وأيضاً، وكما تشير النصوص التكريمية، فإن بمقدور من يشاء من أعيان تدمر أن يُكَرِّمَ من يشاء من مواطنيه، ولم يكن حقُّ التكريم مقتصراً على مجلسي الشيوخ والشعب فقط. وهناك تكريماتٌ قدّمتها هيئاتٌ أخرى كنقابات حِرَفية وغرف تجارة وغيرها.

نعلم جميعا، ولا شك، أن تدمر بَنَتِ اقتصادها وازدهارها وقوتها الحضارية والعسكرية على التجارة والترانزيت بالدرجة الأولى. فأهل تدمر اكتشفوا في حقبةٍ مبكرة من تاريخ مدينتهم أمراً هاماً وهو أنّ قوافل التجارة التي كانت تجوب المسافات الكبيرة على طرقها، كانت بحاجة إلى عدد من الخدمات الحيوية أهمها عنصر الأمن: أي تأمين الطرق ضد اللصوص وقُطاع الطرق ثم عنصر اللوجستية أي تأمين المبيت والاستراحة والخدمات البلدية المرتبطة بها وتأمين الحاجات الضرورية كالتزود بالماء وبالأغذية أثناء الإقامة أو العبور(الترانزيت). فقد عملوا على تأمين هذه الخدمات في مدينتهم وعلى طرق التجارة التي كانت تقع ضمن نطاق سيطرتهم. فحموا القوافل بأن ضمنوا لها الأمن والأمان بمرافقةِ خفرا كانوا يحرسونَها. ولعل هذا العنصر كان الأهم من بين كافة الخدمات الأخرى. ومن هنا نشأت أهميةَ القوة العسكرية التدمرية التي كانت توفر المحافظة على أمن المدينة وأمن القوافل وأمن المملكة ضد الدول المجاورة الطامعة. فلذا نرى أن من بين المواطنين المكرَّمين في تدمر الضباط وحَمَلة الرتب العسكرية. كما أن ترقية التجارة داخل المدينة وخارجها على نوعيها الداخلية والخارجية،كانت من مهام التجار الكبار ورؤساء القوافل وأرباب السوق وشيوخ الكار، فاستحق بعض هؤلاء التكريم أيضاً. كما أن الفئة الثالثة التي استحقت التكريم أيضاً هي فئة رجال الدولة من الإداريين والموظفين وغيرهم ممن كانت لهم آثارُ إيجابية على تنظيم الحياة والمرافق الحيوية في تدمر. ولا يخفاكم الدور الكبير لعملية الإدارة والتنظيم في

حياة المجتمعات المتحضرة. وثمّة أشخاص غير هؤلاء ممن لا ينتمون إلى أيٍّ من هذه الفئات الثلاث حظوا بتشريفاتٍ مماثلة أيضًا في تدمر كالكهنة مثلاً.

بعد هذه المقدمة، سنقوم باستعراض نماذجَ مختارةً من التدمريين الذين كَرَّمَتهم مدينتُهُم علانية، وغالبيتهم حظوا بتماثيلَ لهم كانت تقوم فوق قنصلياتِ الأعمدة سواءً منها تلك التي في المعابد أم في شارع الأعمدة أم في الأماكن العامة كالأغورا. والحق يُقال أن هذه القنصليات أو النواتئ البارزة من أبدان الأعمدة كانت سمة بارزةً لمدينة تدمر من بين الحواضر القديمة ولا نجد ما يماثلها من حيث كثرة عددها. ففي أفاميا يوجد عدد لا بأس به منها ولكن ليس بالكثرة التي هي عليه في تدمرَ. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على الديموقراطية الواضحة التي تميزت بها تدمرُ عن سواها، لأن هذه القنصليات كانت مُعَدَّةً سلفاً لتكريم مواطنيها ليس إلا. كما إن من اللافت أيضاً أن ملوك تدمر لم يحظوا بتمييز عن مواطنيهم في التكريمات أو التشريفات التي حظي بها هؤلاء الملوك، فكان الملوك من بين المُكَرَّمين فقط لا غير. غير أن التاريخ الذي وصل إلينا لم يردد أسماء عظماء تدمر بمثل التواتر الذي نعرفه ويعرفه العالم عن شخصية أذينة أو زنوبيا أو وهب اللات أو زبداس أو زبدا أو كاسيوس لونجينوس، حتى ليخال المرءُ أن تدمر لم تَجُدْ بذكر غيرهم من الشخصيات الهامة، وحتى أن المتداولين لتاريخ تدمر والمتحدثين عنها عموماً لا يعرفون إلا هذه الشخصيات فقط وانتهى الأمر. فهؤلاء " المتداولون" أو " المتحدثون" لا يقرؤون الكتابات التي تَعُدُّ بالمئات حيثما اتجهت في تدمر ولا يقرؤون ترجماتها المتوفِّرةَ لطالبيها لكي يمدوا أنظارهم إلى ما وراء أفق أذينة أو زنوبيا، والسبب واضح: وهو عدم إلمامهم باللغتين الآرامية التدمرية وباليونانية القديمة، بل وحتى أنهم لم يطلعوا على ترجماتها المنشورة في الدوريات والبحوث العلمية. غير أن الحقيقة هي غيرُ ذلك بالمرة، وإنّ ما جادت به نصوص تدمرَ من معلوماتٍ عن مواطنيها لافتٌ إلى الدرجة التي حملتني على التعريف بهم من خلال هذا البحث.

نبدأ، من زنوبيا الملكةِ العظيمةِ: فعلى بدن العمود الثاني من الأعمدة الثمانية إلى يسارك قبل بلوغك مصلبة التترابل تجد النصَّ اليتيمَ الذي يُكَرِّمُ ملكتنا

العظيمة التي كان يقوم تمثال لها على ناتئة أو قنصليةٍ مبتورة اليوم فوق الكتابة.
والكتابة باللغتين اليونانية من الأعلى وبالتدمرية من الأسفل.[الشكل رقم " 1 "]
يقول النص اليوناني:

Σεπτίμιαν Ζηνόβιαν την λαπροτάτην
εύσεβη βασίλισσαν. Σεπτίμιοι Ζάβδας
ο μέγας στρατηλάτης και Ζαββάιος
ο ενθάδε στρατηλάτης οι κράτιστοι
την δέσποιναν έτους πεντακοσιοστός ογδοηκοστός
δεύτερος μηνει Λωοω

" وتعريبه: صاحبة الجلالة زنوبيا الملكة الباهرة والتقية. صاحبا السعادة الأفضلان زبداس القائد الأعلى وزبّاي القائد المحلي للقوات (أقاماه) لسيدتهما عام 582 بشهر لوو."

أما النص التدمري فيقول:

"صلمت سبطيميا بت زبي نهيرتا وزديقتا ملكتا. سبطميوا زبدا رب حيلا ربا وزبي رب حيلا دي تدمور قرَطسطوا أقيم لمرتهون بيرح آب دي شنت 582".

وتعريبه:

" تمثا(لة) صاحبة الجلالة بات زابّي الملكة الباهرة والتقية، صاحبا السعادة الأفضلان زبدا رب أرباب القوات وزابّي رب قوات تدمر أقاماه لسيدتهما بشهر آب عام 582 " ويعادل هذا التاريخ عام 271م.

يُلاحظ من هذين النصين التكريميين اقتصارُ الألقاب التي حظيت بها الملكة على سبطيميا وهو لقب تشريفي استُخْدِمَ نفسُهُ في النص ذاته لمنصبي قائدي القوات أي الجنرالين زبدا وزابّي وكذلك استُخْدِمَت لفظة فاسيليسا اليونانية بمعنى ملكة التي تقابلها في النص التدمري لفظة مَلْكتا بالمعنى ذاته، ولم تُعط الملكةُ في هذا النص من الصفات سوى لفظتي "الباهرة" و"التقية" تكريماً لها. وهذه الألقاب والصفات متواضعةٌ جداً إذا ما قورنت بالصفات والألقاب التي كانت تُعطى للملوك في الفترة الأيوبية والمملوكية والأتابكية مثلاً. خذوا هذا المثال من تدمر نفسها.

فعلى واجهةِ معبد بل التي سدّها يوسف بن فيروز الأتابكي بجدارٍ ليُحَوّلَ المعبد إلى حُصنٍ، نقرأ الكتابة التالية:

" بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء ذلك الحائط المعمور وإنشاء الحائط الشرقي الأمير الحاجب الأجلّ، السيد الكبير، المؤيَّد، ناصر الدنيا والدين، عُدَّةُ الإسلام، سيف الدولة، مُعْتَمَدُ الملك، مُعين المجاهدين، شرف الأمراء، فخر الجيوش، ذو النجابتَين، أبو الحسن يوسف بن فيروز الأتابكي أمير المؤمنين من خالص ماله في شهور سنة سبع وعشرين وخمس ماية " ويوافق هذا التاريخ الهجري عام 1133-1134م.

وعلى العمود الثالث المجاور لعمود زنوبيا نقرأ نصاً تكريمياً آخر مكرساً هذه المرة لأذينة الملكِ العظيم وهو مكتوب بالتدمرية فقط:

"صلم سبطميوس أدينت ملك ملكا و متقننا دي مدنحا كله. سبطميوا زبدا رب حيلا ربا و زبّي رب حيلا دي تدمور قرطسطوا أقيم لمرهون بيرح آب دي شنت 582. " وهذا النص يُكَرِّم الملك بعد رحيله بثلاثة أعوام. وتعريبه:

" تمثال صاحب الجلالة أذينة ملك الملوك ومقوِّم الشرق كلّه... والباقي كما ورد في نص تكريم زنوبيا."

أذينة حظي ببضعة تكريمات أخرى قبل أن يتربع على عرش تدمر، وإليكم إحداها فيما يلي:

يأتينا هذا النص التكريمي لأذينة الذي لم يكن قد أصبح بعد ملكاً على تدمر، من شارع الأعمدة الذي يلي المصلبة وترتيبه الخامس إلى اليمين.

يقول النص الإغريقي المكون من عَشَرَة أسطر:

Σεπτίμιον Οδαίναθον Αιράνου Ουαβαλλάθου του
Νασώρου λαμπροτάτον εξάρχον Παλμυρηνών. Ιουλιος Α
υρήλιος Αθηνάκαβος Ογήλου Ζαβδιβώλου .... ΚΩΣΣΚ το
υ και Κωρρα...τατον φίλον στοργής ένεκεν
έτους πεντακοσιοστός εξηκοστός τρίτος μηνει Ξανδικω

ما تعريبه:

" لسبطيميوس أذينة بن حيران بن وهب اللات النصوري الإكسرخوس الباهر للتدامرة. صديقه يوليوس أوريليوس أثيناكافوس بن عجيلو بن زبدبول المعروف أيضاً بقُرَّا، أقامه تكريماً له عام 563 في شهر كسانذيكوس." أي نيسان من عام 252 الميلادي.

ويُكَرِّمُ هذا النص الملكَ المقبل لتدمر والذي كان مازال يشغل منصب الإكسرخوس أي الوالي المُعَيَّن من السلطة الرومانية.

ومن أذينة إلى حيران ابنِه الذي يُكَرِّمُهُ نص من شارع الأعمدة مُشوه في قسمه العلوي المنقوش بالإغريقية وسليم في قسمه السفلي المنقوش بالتدمرية والنص مكون من ستة أسطر قراءتها :

"صلما دنه دي سبطميوس حيرن بر أدينت سنملطيما نهيرا ورش تدمور دي أقيم له أورليوس يوليوس بر مريافلينا رعي فلحا رب لجيونا دي بحرا ليقره بيرح تشري شنت 563." أي 251م.

وتعريب الكتابة:

" هذا التمثال هو لسبطيميوس حيران بن أذينة المعظم الباهر ورئيس تدمر الذي أقامه له أوريليوس يوليانوس بن مريافلينا قائد الجند وآمر حامية البحر تكريماً له في شهر تشرين الأول من عام 563." أي 251م.

حتى الآن كنا نقرأ تكريمات خاصة بالأسرة الملكية الحاكمة، وسنكتفي بهذا القدر منها لنرى مَنْ مِنَ المواطنين التدمريين حظي بتكريمات مماثلة.

نبدأ من التكريمات في معبد بعل شمين:

أولاً. مالئ أو أغريبا بن يرحاي الأمين العام :

من إحدى قنصليات معبد بعل شمين يأتينا هذا النص التكريمي العائد للعام 131 الميلادي، وهو مكون من اثني عشر سطراً يونانياً وثمانية أسطر تدمرية:

[انظر النص رقم "1"]

كما رأينا يتحدث النص عن زيارة الإمبراطور هادريان إلى مدينة تدمر التي تمت عام 129م أي قبل تاريخ نقش هذا النص بعامين تقريباً. ونُلاحظ ظاهرة العدوى الثقافية- اللغوية بين اللغتين اليونانية والآرامية التدمرية ففي هذا النص لوحده توجد سبعة ألفاظ تشهد على هذه الظاهرة.

ثانياً. مُكَرَّمون بقيت تماثيلهم وذهبت أسماؤهم:

من المُكَرَّمين في معبد بعل شمين هذا المواطن الذي نرى تمثاله على أحد الأعمدة من الرواق الشمالي الشرقي وقد نُحِتَ من أصل بدن العمود ضماناً لإدامة التمثال، ولكن ذلك لم يَحُلْ دون فقد رأسه، ولا نعرف اسمه ولا صفته لأنه لا يوجد نص يعرف به.

وثمة مواطن آخر مثله على عمود مجاور نجهل اسمه وصفته والسبب الذي من أجله كُرِّمْ.

ثالثاً. تكريمات موجزة جداً على أبدان الأعمدة:

تُقرأ هذه الكتابة التدمرية كما يلي: "مطللتا ده كله قرب عليشا برلشمش بر زبدبل " وترجمتها :" هذا الرواق كله قدمه عليشا بن لشمش بن زبدبل."

ومن معبد بعل شمين إلى معبد بل وهو المعبد الأهم والأضخم في تدمر حيث التكريمات بالعشرات وسنقف على عينات منها فقط:

رابعاً. عزيزو التدمري الغيور:

تحمل قنصلية أحد الأعمدة في معبد بل إحدى أقدم الكتابات التدمرية المكتشفة والعائدة للعام 19 الميلادي أي أنها معاصرة للسيد المسيح في دور الإمبراطور طيبيريوس.

[انظر النص رقم" 2 "]

يلاحظ من هذا النص أن قوافل التجارة التدمرية كانت تصل إلى سلوقية بابل على الدجلة، وهي المُعَرَّفَة اليوم بالمقابلة لطيسفون على الضفة الغربية لدجلة

بينما طيسفون هي على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وتشكل معها ما يعرف بالمدائن، عند تقارب نهري دجلة والفرات إلى أصغر مسافة بينهما في العراق اليوم.

خامساً. رئيس قوافل تجارية قَدِمَ من البصرة والكوفة :

يُكَرِّمُ هذا النص رئيس قوافل التجارة نسا بن رفائيل بن عبسي الذي قَدِمَ مع جماعته من مدينة "فرات" والتي أخذت فيما بعد اسم البصرة ومن مدينة " ألغشيا " التي أخذت فيما بعد اسم الكوفة. وقد كَرَّمَتْهُ قوافله بإقامة تمثال له في أحد أروقة معبد بل :

[انظر النص رقم " 3 "]

سادساً. وتاجر آخر يُكَرِّمُه تجار مدينة بابل ومجلس الشعب بدون مجلس الشيوخ:

يأتي هذا النص من قنصلية على العمود الثالث من الرواق الجنوبي لمعبد بل وهو مكون من ستة أسطر تدمرية وثلاثة يونانية ويُكَرِّم بموجبه تجار مدينة بابل (حسب النص التدمري) ومجلس الشعب التدمري (حسب النص اليوناني) [انظر الصورة رقم " 2 "] التاجر ماليكو الملقب حشاش من بني كمرا نظراً لإنفاقه المال على بناء هيكل بل. والنص مؤرخ في شهر تشرين الثاني من عام 24 الميلادي وهو من أقدم النصوص ويشير إلى التجارة الواسعة المدى التي كانت تقوم بها تدمر. جدير بالذكر أن بني كمرا(ولفظة كمرا آرامية تعني الكاهن) هم الذين بنوا معبد بل.

سابعاً. ومدينة تدمر تُكَرِّمُ مقيمو بن عجيلو لأنه جادَ بتقدماتٍ عينية حُدِّدَت قيمتها في النص التكريمي نفسِه:

على القنصلية الثانية من الرواق الشرقي نقرأ عليكم تعريب النص اليوناني (لأنه الأكمل):

"مدينة تدمر أقامت هذا التمثال لمقيمو بن عجيلو بن فصئيل والملقب هوكايشو لأنه كان محبوباً لديها ولدى الآلهة نظيرَ تقدماته التي قربها للهيكل من كيسه الخاص وهي كأس القرابين والمبخرة الذهبية بقيمة 150 ديناراً والقُرَب الأربع الذهبية المنقوشة بقيمة 120 ديناراً وغطاء ووسادة السريرالمشتراة

بمبلغ(كذا) ديناراً فضياً، وذلك تكريماً له وشهادة لإحسانه عام 362 في شهر آذار ." أي عام 50 الميلادي.

لاحظوا أن هذا المواطن استحق تمثالاً لعطاءاته التي كانت قيمتها تفوق بقليل مبلغ 270 ديناراً.

ثامناً. تكريم من مجلس الشيوخ فقط دون مجلس الشعب:

سبق أن وقفنا في معبد بل على تكريم لأحد المواطنين من قبل مجلس الشعب دون مجلس الشيوخ، والآن سنرى معاً تكريماً لشخص آخر من قبل مجلس الشيوخ دون مجلس الشعب. فعلى قاعدة تمثال محفوظة في باحة متحف تدمر القديم نصّان يوناني وتدمري نُعَرِّبُ التدمري فيما يلي:

" هذا التمثال هو لأبجر بن فطروقليس الملقب عستورغا بن لقيشو من بني ميثا أقامه له مجلس الشيوخ تكريماً له نظير محبتهم له في شهر آذار من عام 395." أي عام 84 الميلادي.

ننتقل إلى شارع الأعمدة حيث الكثير من التكريمات، ونكتفي بمثالين منها مقتصرين على ذكر الأسماء والألقاب والمناصب والتواريخ فقط تجنباً للإطالة.

تاسعاً. تكريم يوليوس أوريليوس زبيدا بن مقيمو من قبل تجار قافلته الذين أتَوا معه من ألغشيا (الكوفة فيما بعد). في شهر نيسان من عام 558 أي 246م.

وإلى محطتنا الأخيرة في باحة الأغورا أو السوق العامة حيث نقتطف بضعة أمثلة نختتم بها هذا البحث.

عندما يدخل أحدنا إلى الأغورا من بابها الرئيسي ويصبح من جهة الداخل، فإنه إذا استدار بكليته نحو الباب الذي دخل منه لتَوِّهِ فيرى إلى يساره هذا الإفريز اللافت والذي يحمل كتابتين مطولتين : يونانية إلى اليسار وتدمرية إلى اليمين. ونستقرئُ من هاتين الكتابتين أن هذا الإفريز الطويل كان يحمل أربعة تماثيل تُكَرِّمُ شخصاً واحداً، أي أربعة تماثيل لشخص واحد. وهذه سابقة في تدمر لا نجد مثيلها إلا في مصر الرعامسة.

عاشراً:

يبدأ النص اليوناني على النحو التالي:

Προστάγματι βουλής και δήμου

أي بأمر مجلس الشيوخ والشعب. والنص التدمري المقابل." بتوحيت بولا ودموس ." أي بإيحاء أو بتوجيه من مجلس الشيوخ والشعب. والنص طويلٌ لا مبرر لقراءة ترجمته بشكل كامل ولكنه يتلخص بأنه يُكَرِّمُ شخصاً واحداً اسمه عجيلو بن مقي عجيلو شويرا بأربعة تماثيل له قدَّمَتْ كلَّ واحد منها إحدى العشائر الأربع الرئيسة في تدمر (دون ذكر اسمها) وذلك للحماية الأمنية التي كان يوفرها لقوافل التجارة بخفرها ولإنفاقاته السخية وقيامه بأعمال مجيدة ومشرفة لمدينته على حد ما جاء في النصين اليوناني والتدمري وكان تكريمُهُ بشهر طبت من عام 510 أي كانون الثاني من عام 198 الميلادي [أي إبان فترة حكم الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس الذي تزوج من الأميرة الحمصية جوليا دومنا] ونقول هنا أن العشائر التدمرية الأهم كانت بني متبول و بني معزين وبني ميثا وبني كمرا وبني يديعبل وبني إيلاهبل وبني زبدبول وبني زبود ..وأرجح الظن أن العشائر الأربع الأولى هي التي كَرَّمَت المواطن عجيلو هذا.

حادي عشر. ضابط يحظى بتكريمين مستقلين كلٌّ على حدة:

اسم الضابط ماكيليوس أكيليوس مقيمو بن سرغيا أثينوذوروس وهو برتب قائد ألف وكان يشغل منصب آمر الحامية الفرتية العاشرة ومنصب مرزبان منطقة البتراء وقد أقامه له مولبيوس ماليكوس تكريماً له.

وقنصلية أخرى تحمل تكريماً مماثلاً للضابط نفسه من قبل شخص أو جه لم نعرفها بسبب اختفاء بقية النص.

طبعاً، كل الأمثلة التي سقتُها كانت نماذجَ فقط اخترْتُها بعناية من جه النصوص التكريمية التدمرية.وأرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في اختيارها. ولا شك أ سلَّطتِ الضوء على زوايا مُعْتِمَةٍ من تاريخ مدينتنا العظيمة تدمر وأوْضَحَت كم الاهتمام والاعتبار كانت هذه المدينة توليه لمواطنيها على اختلاف شرائ

ومراكزهم واختصاصاتهم، كما سلَّطت بعض الضوء أيضاً على نشاطات وفعاليات المجتمع التدمري في القرون الميلادية الأولى.

وأنا، في خاتمة هذا البحث، لا أعلم بالضبط ما هي الانطباعات التي تولدت لديكم أيها الحضور الكريم لجهةِ معاني ومداليل هذه القراءات التكريمية من الوجهة الحضارية والإنسانية التي حملتها هذه المدينة السورية الأعجوبة كما يوحي اسمُها بالآرامية. إلا أنني أقدِّر أنَّ هذه الانطباعات هي إيجابية ومفيدة لنا جميعاً على الصُّعُدِ المعرفية والحضارية والقومية على حدٍّ سواء.

دمتم ودامت سورية العظيمة نبراساً مضيئاً في تاريخ الإنسان. وشكراً لحضوركم واهتمامكم

المراجع

1-Seyrig, AAAS,13,1963, p, 161.

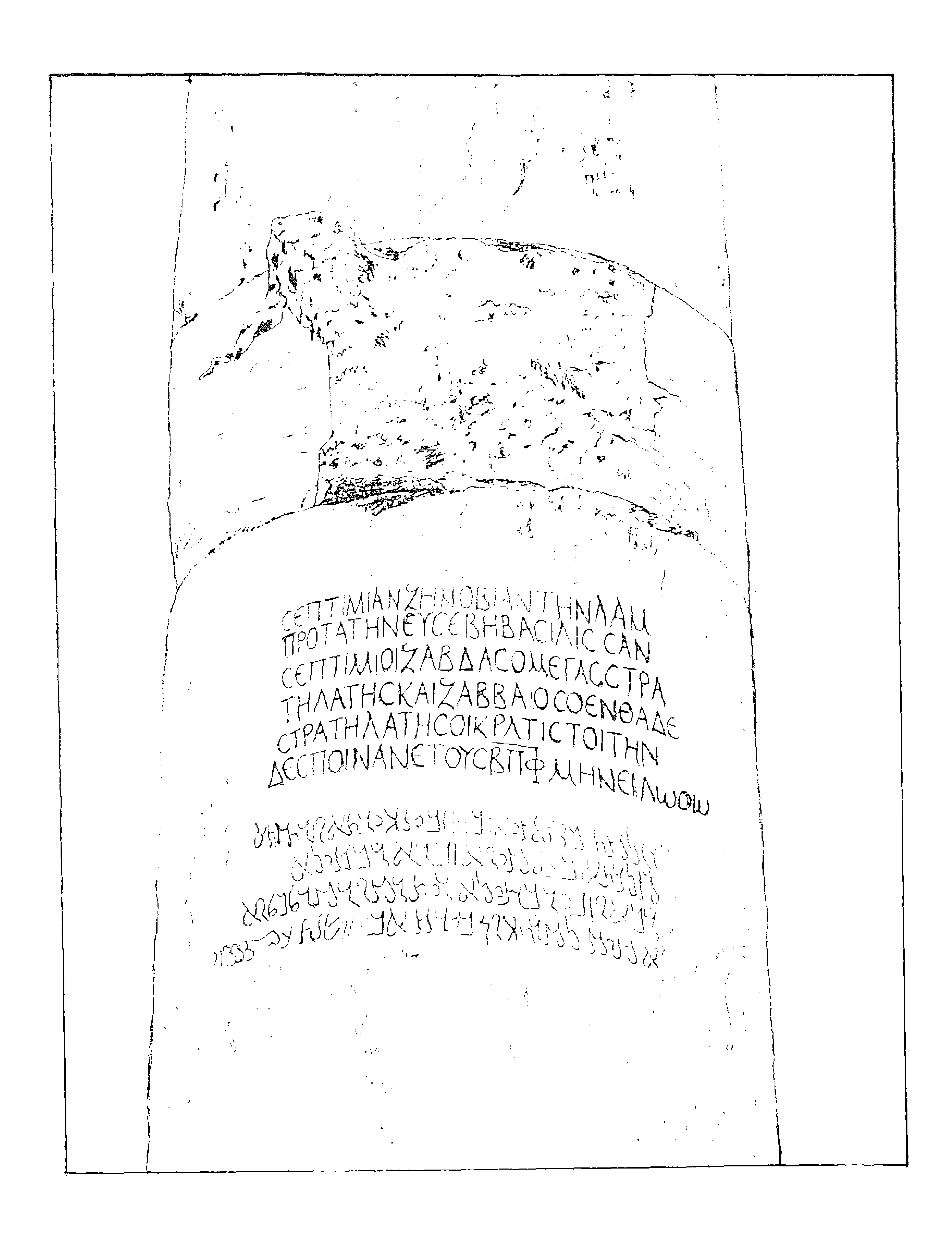
2-Gawlinkoski, AAAS, Vol. XXXVI-XXXVII, 1986-1986, P.169.

3-IGRR III, 1054, Inv. 1.2, CIs 3959, BS No.44 (Pat 0305).

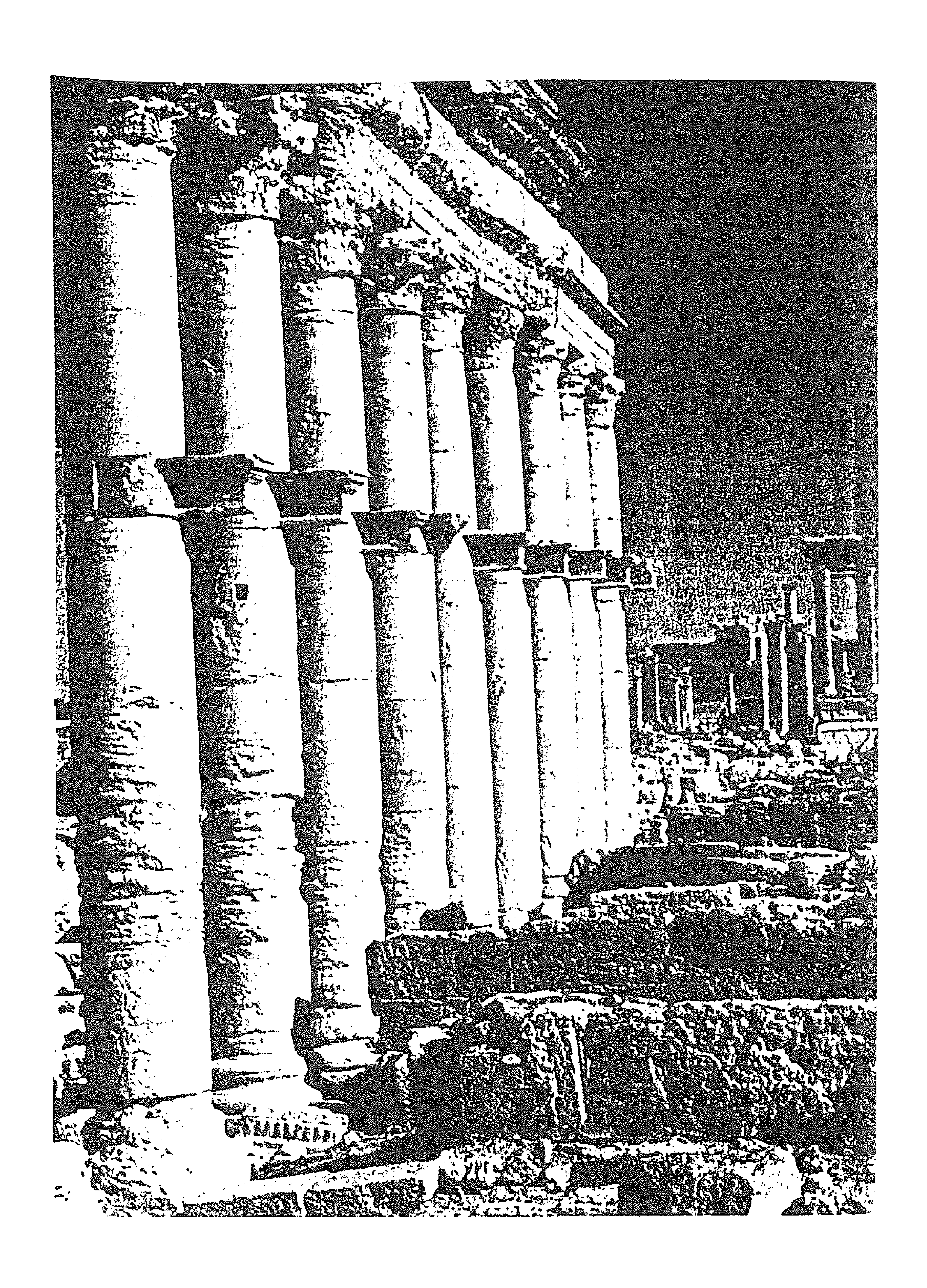
4-Inv. V, 44 (Pat 1378)

5-Cantineau, 1931, P. 122 (Inv. IX, 11;Pat 1352).

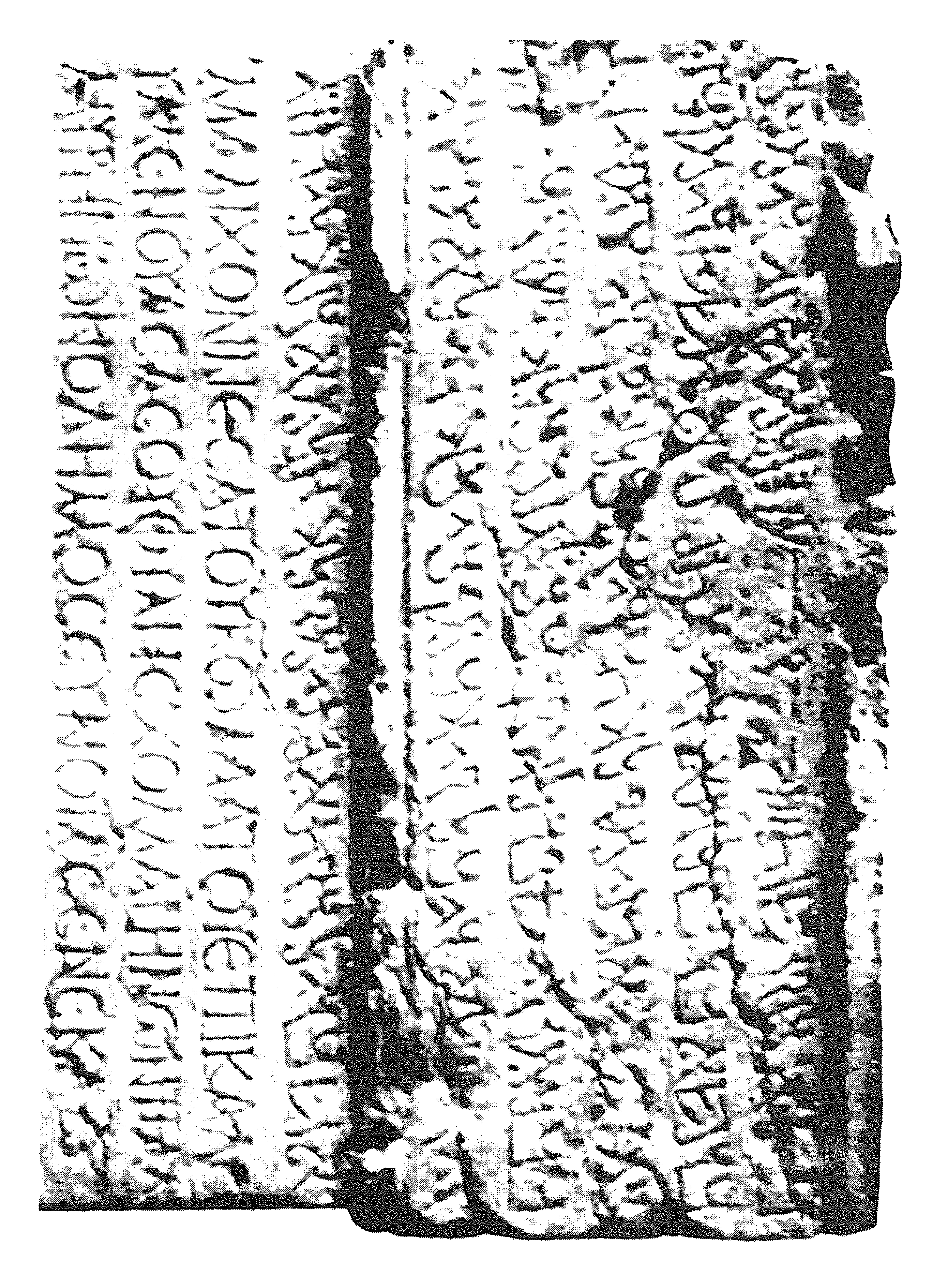
6-Sauvaget, 1931, P.143, No.1 (Inv. IX, 54).



الشكل رقم (1) الرسم من إعداد الكاتب استناداً للأصل.



الصورة رقم (1)



الصورة رقم (2)

.ن قنطيه اهد العمود معبد بعل شمين (...) ١١ ...

1 [Ἡ [βουλὴ] καὶ] ὁ [δῆ[μος]] ١ - بقرار من مجلس الشيوخ [أو الشورى] ومجلس الشعب

2 Μαλῆν τὸν καὶ Ἀγρίππα[ν] ٢ - مالئ والمدعو أيضاً أغريبّا

3 Ἰαραίου τοῦ Ῥααίου, [γραμμ[α]- ٣ - بن يرحاي بن راعي ، الأمين

4 [τέα] γενόμενον τὸ δεύτε- ٤ - العام للمرة الثانية

5 ρον ἐπιδημίᾳ θεοῦ Ἀδρ[ι]- ٥ - (الذي) عند قدوم هادريان الإله

6 ανοῦ, ἄλιμμα παρασχό[ν]- ٦ - قدّم الزيت

7 τα [ξένοις] τε καὶ πολείτα[ις], ٧ - للأجانب و للمواطنين

8 ἐν πᾶσιν ὑπηρετήσαντα ٨ - وساعد مع فائة الأصعدة

9 τῇ τ[ῶν] [στρατευμάτων] ٩ - في استقبال الجيوش [أو الجند أو العسكر]

10 ὑπο[δοχ]ῇ καὶ τὸν ναὸν ١٠ - وفي بناء معبد

11 τὸν [τοῦ] Διὸς σ[ὺ]ν τῷ [π[ρὸ]- ١١ - الإله في بهوه (الرئيس)

sur le côté droit

12 [ναίῳ] [καὶ σὺν τ]αῖς ἄλλα[ις αὐ]τ[οῦ [στοαῖς] ἐκ τῶν] ἰδ[ίων] ١٢ - وفي فائة أروقته من ممتلكاته

---

1 [illegible]

من توهيت بولا و دموس اتيعبد صلما دنه لملا

بقرار مجلس الشيوخ ومجلس الشعب أقيم هذا التمثال لملا

2 [illegible]

بر يرحي لسمش رعي دي هوا غرمطوس دي تريتا

بن يرحي بن سمش بن راعي الذي هو الأمين (العام) للمرة الثانية

3 [illegible]

وكدي إتا مرن هدرينا ألها يهب مشحا

والذي عندما أتى سيدنا هادريان الإله وهب الزيت

4 [illegible]

لبني مدينتا و لاسطرطوسا و لأكسنيا دي اتا

لأبناء مدينته و للجيوش [أو الجند] و للغرباء (الأجانب) الذين أتوا

5 [illegible]

عمه وفرنس مشريته بكل مدعم و بنا هيكلا

معه و فرش معسكره بكل شيء و بنى الهيكل

6 [illegible]

و فرنا و تصبيرته كله من كيسه لبعل شمن

و بهو (الرئيس) و زخرفته كلها من كيسه لبعل شمين

7 [illegible]

ولدد حلونا . . . . . . هد . . . . . من بني يديعبل

وادد حلون . . . . . (هد ؟) . . . . . من بني يديعبل

8 [illegible]

بيرح . . . . . ن شنت ٤٤٢

بشهر نيسان سنة ٤٤٢ (نيسان عام ١٣١ ميلادي)

النص رقم (1)

من قنطليت أحد الأعمدة في معبد بل (العام ١٩ الميلادي)

تعريب النص اليوناني :

	1	[. . . . οἱ ἐν Σελευ-]
أقام تجار سلوقيه	2	[κείᾳ ἔμπ](ο)[ρ](οι Πα)[λμυρηνοὶ].
التدمريون واليونانيون	3	[καὶ Ἕλλην](ε)ς ἀνέ(σ)[τη](σ)[αν]
هذا التمثال ليديعبل بن	4	[τὸν ἀνδριάν]τα Ἰεδειβ[ήλῳ]
عزيزو التدمري من قبيلة	5	[Ἀζίζου Παλ](μ)υρηνῷ (φ)[υλῆς]
المتبوليين لأنه	6	[Μανθαβω](λ)είων ἐπεὶ
أبدى غيرة شديدة تجاه	7	[κατεσπο]ύδασεν ε(ἰς τὴ)ν
بناء معبد بل .	8	[κτίσιν τ]οῦ ν(αο)ῦ (Β)ήλ(ου).

1
بيرح اب شنت ٣٣٠ . صلما دنه دي
بشهر آب سنة ٣٣٠ (آب ١٩م). هذا التمثال لـ (هو تمثال)

2
يديعبل بر عزيزو بر يديعبل دي من
يديعبل بن عزيزو بن يديعبل (الذي) من

3
بني متبول دي أقيمو له تدمريا
بني متبول (و) الذي أقامه له التدمريون

4
و يونيا دي بسلوكيا بديل دي
و اليونانيون الذين بسلوقيا لأنه (لذي)

5
قمم و شمش بمحسا ربا لبت بل
ترأس(هم) وساعد(هم) بالعطاء الجليل لبيت بل

النص رقم (2)

نص من تفصيلية عمود في معبد بل (عام ١٤٢م)

1 Νεσῆ 'Αλᾶ τοῦ Νεσῆ τοῦ 'Αλᾶ τοῦ 'Ρεφαέλου
2 τοῦ 'Αβισσέου συνοδιάρχην, οἱ συναναβάν-
3 τες μετ' αὐτοῦ ἔμποροι ἀπὸ Φοράθου κὲ
4 'Ολαγασιάδος, τειμῆς καὶ εὐχαριστείας
5 ἕνεκεν, ἔτους γνυ', μηνὸς Ξανδικοῦ.

نسي بن حلا بن نسي بن حلا بن رفائيل بن عبيي، رئيس القوافل.
التجار الذين صعدوا معه من فرات وألجشيا، من أجل تكريمه وشكره.
سنة ٤٥٣ شهر نيسان (= نيسان عام ١٤٢م)

---

1 [illegible]
صلما دنه دي نشا بر حلا بر نشا بر حلا بر
هذا التمثال هو لنشا بن حلا بن نشا بن حلا بن

2 [illegible]
رفائل بر عبيي دي أقيم له بني شيرتا دي سلقو
رفائيل بن عبيي الذي أقامه له جماعة الذين صعدوا

3 [illegible]
عمه من فرت ومن ألجشيا بديل دي شفر لهون
معه من فرات (البصرة) ومن ألجشيا (الكوفة) لأنه قام محبوباً لديهم

4 [illegible]
يقر برشهون وعدرنون بكل صبو كلها ليقره
وقام برئاستهم وساعدهم بكل أمر لتكريمه

5 [illegible]
بيرح نيسن شنت ٤٥٣
بشهر نيسان سنة ٤٥٣ (نيسان عام ١٤٢ ميلادي)

[النص رقم "٣"]

* [illegible] ⇐ من السريانية ܫܝܪܬܐ = جماعة الناس وغيرهم راجع كتاب لطفي 1154
** [illegible] ⇐ من السريانية حزر ب حفوز لا = نفعه أو ساعده وأعانه 857
*** [illegible] ⇐ " " رصوبا = الشيء والشأن والأمر المصدر نفسه 1.972
وسترد أيضاً رشابا = الصباؤوت من الأسماء الحسنى بالعبرانية ومعناه الرب القدير

401

النص رقم (3)

VIII. Vallée de l'Euphrate

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Abou Hamad (nécropole)	M. Khalaf et W. Orthmann	1990	BA

VIII/a. Lac du barrage du Tabqa

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Meskéné-Emar	Sh. Sha'ath	1990-1991 et 1994	BR
Tell al-'Abd	A. Bounni	1971-1972	BA III et BM
Tell Fray	A. Bounni	1972	BR
	Sh. Sha'ath et T. Carter	1972	BR
	A. Bounni et P. Matthiae	1973	BR

Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Lac du barrage du Tabqa	A.-K Rihaoui	1963	BA, BM et BR

VIII/b. Lac du barrage de Tishrine

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell 'Abr	H. Hamadé	1989-1992	début BA fin Uruk

IX. Région de Jezireh

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell Beidar	H. Hamadé et M. Lebeau	1994	BA
Tell Chuera	N. Saliby (Coll. J. Lauffray)	1955	BA
Thadiayyn (tombes)	Sh. Sha'ath	1971	BM

IX/a. Lacs des barrages de Hassakeh

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell Abou Hjaira	A. Souleiman	1987-1989	BA
Tell Kashkashouk III	A. Souleiman et A. Taraqji	1986-1992	BA

Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Lac du barrage du Khabour	A. Bounni	1984	BA
Lac du barrage Hassakeh Ouest	A. Bounni	1985	BA

VI. Région de Damas			
Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell Sakka	A. Taraqji	1989-	BM et BR
Tell es-Salihyah	A. Bounni et N. Saliby	1972	BR et BM
Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Deir Khabiyyah	M. Al-Maqdissi et A. Taraqji	1993	BM
Hijané	J. Nasrallah	1949	BM
Kasrain	J. Nasrallah	1949	BM
Maghayir	J. Nasrallah	1949	BM
Tell Doulab	J. Nasrallah	1949	BM
	M. Al-Maqdissi	1988	BA II-III, BM et BR
Tell Sultan (tombes)	N. Saliby	1967	BM
Tulailat Shawaqa	M. Al-Maqdissi A. Taraqji	1992-1993	BA II-III, BM et BR (début)

VII. Syrie du Sud			
Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Khirbet el-Umbashi	A. Taraqji et F. Braemer	1991-1994	BA et BM
Mtouné	M. al-Maqdissi	1984-1985	BA III et BM
Tell al-Ash'ari (tombe)	M. Fandi	1991	BA IV, BM et BR (début)
Tell Ashtarah	A. Abou Assaf	1966-1967	BM et BR II/III
Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Der'a (tombe)	J. Nasrallah	1948	BM
	M. Fandi	1992	
Dhibin (tombe)	H. Hatoum	1983	BM
Ledja (lisière orientale)	M. Al-Maqdissi	1984-1985	BA et BM
Taybah (tombe)	A. Abou Assaf	1957	BM

III. Région d'Alep			
Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Al-Ansari	A. Souleiman	1973, 1977-1978 1985	BA IV et BM
Alep	R. Saba	1981 et 1983	cf. AAAS
Tell Jinderes	A. Souleiman et D. Sürenhagen	1993-	BM et BR

IV. Région d'Idlib et de Hama			
Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Qal'at al-Mudik	A. Zaqzouq	1970-1972	BA
Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell Denit (région de)	Sh. Sha'ath	1973	BA, BM et BR
Saraqeb (tombe)	A. Souleiman	1982	BA IV
Selemiyé (tombe)	A. Zaqzouq	1980	BM
Zalaquiyate (nécropole)	A. Joundi	1960	BA IV

V. Région du Qalamoun			
Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Moumassakhin	A. Bounni	1987-1988	BA IV
Yabroud	A. Abou Assaf	1964	BA IV, BM et BR (début)
Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell al-Hammam	A. Saliby	1986	BA III

MISSIONS DE LA DGAM PRESENTEES PAR REGIONS
«ÂGE DU BRONZE»
(1945-1995)

I. Côte syrienne

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
'Amrit (Tell)	N. Saliby (coll. M. Dunand)	1954-1955	Fin BA, BM et BR
Ras Ibn Hani (tombe)	K. Toueir	1973	
Ras Ibn Hani	A. Bounni et J. Lagarce	1975-1984 1986-1994	BA II/III et BR II/III
Ras Shamra	A. Bounni et J. Lagarce	1974	BR
Tell Abou Ali	N. Saliby (coll. M. Dunand)	1955	BR
Tell Barsouné	H. Safadi	1958	BR
Tell Kazel	N. Saliby (coll. M. Dunand)	1956	BR
	A. Bounni et N. Saliby (coll. M. Dunand)	1960-1962	BM et BR
	A. Bounni et L. Badre	1985	BR
Tell Sianu	A. Bounni et M. Al-Maqdissi	1990	BA IV, BM et BR

Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Trouée de Homs	J.-P. Thalmann et M. Al-Maqdissi	1986-1987	BA, BM et BR
Tell Bisnada (Tell Sheikh Nabhan)	M. Al-Maqdissi	1992	BA III

II. Région de Homs

Site	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Homs (citadelle)	M. Mousli	1975	BA IV, MB et BR
Mishrifé	M. Al-Maqdissi	1994	BA, BM et BR
Tell al-Sur	M. Mousli	1984-1986	BA IV et BM
Tell Safinat Nouh	M. Mousli	1981-1982	BM
Zara'ah (tombe)	N. Saliby	1949	BM

Prospection	*Directeur*	*Campagne*	*Occupation*
Tell Dar al-Kabir	M. Mousli	vers 1980	BA IV et BM
Tell Sh'airat	M. Al-Maqdissi	1982	BA IV
Tell al-Tin	M. Mousli	1981	BM
Tell al-Wawiyah	M. Mousli	1981	BA II-IV, BM et BR

briques crues et sur 1,50 m de largeur en moyenne. De plus, la fouille a révélé la présence des unités architecturales importantes datées de la première moitié du IIIème millénaire av. J.-C.[24]

Non loin de ce site, la même mission a exploré de 1987 à 1990 inclus, sous la direction d'Antoine SOULEIMAN, Tell Abou Hjaira. C'est un petit centre du IIIème millénaire av. J.-C., marqué par la présence de plusieurs types de constructions en briques crues[25]. Le matériel trouvé comporte des figurines anthropomorphes en terre cuite, des sceaux cylindres décorés de motifs géométriques et une série de vases de la production dite «Ninive 5»[26].

VI. CONCLUSION

Il va sans dire que les travaux engagés par la DGAM depuis les années cinquante devront êtres poursuivis et que l'exploration des données va permettre d'évaluer l'importance des résultats mis au jour.

Plus d'un volet de l'archéologie syrienne reste mystérieux et les nouvelles orientations engagées par les autorités syriennes en Syrie du nord (responsable Antoine SOULEIMAN), à Mishrifé-Qatna (directeur Michel AL-MAQDISSI) et à Tell Beidar (co-directeur Antoine SOULEIMAN), vont permettre aux équipes syriennes ou conjointes d'éclaircir plusieurs points et d'intervenir dans trois zones géographiques et culturelles distinctes : à la frontière nord de la Syrie, dans la région d'Alep et la vallée du 'Afrine ; au centre de la Syrie dans la capitale d'un royaume amorréen ; et dans la Haute Jézireh au cœur de la révolution urbaine du milieu du IIIème millénaire av. J.-C.

ABREVIATIONS

AAAS	= Annales Archéologiques Arabes Syriennes.
AASOR	= Annual of the American Schools of Oriental Research.
AfO	= Archiv für Orientforschung.
CRAI	= Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions & Belles-Lettres.
DGAM	= Direction Générale des Antiquités et des Musées de la RAS.
DT	= Dirasat Tarikhiyyah.
OBO/SA	= Orbis Biblicus et Orientalis/Series Archaeologica.
SDB	= Supplément au Dictionnaire de la Bible.
SHAP	= Studies in the History and Archaeology of Palestine.
SMEA	= Studi Micenei ed Egeo-Anatolici.

[24] Nous signalons à titre d'exemple le temple du niveau IV composé d'une seule piece rectangulaire (6 x 8 m) associé à des niches et d'une banquette en briques crues.

[25] Signalons la présence d'un temple du type «barlong coudé» suivant la terminologie proposée récemment par Jean-Claude MARGUERON dans son article : Sanctuaires sémitiques, *SDB*, XI/fasc. 64B-65, 1991, col. 1225-1226.

[26] A. SOULEIMAN : Tell Abu Hjaira (fouille syrienne), *Syria*, LXXII, 1995, pp. 183-190.

mission syro-américaine, dirigée par Shawqi SHA'ATH et Theresa CARTER s'est porté sur le versant occidental du site afin de pouvoir réaliser plusieurs sondages en escalier et dresser l'évolution stratigraphique du site ainsi que la nature de l'occupation des niveaux allants du Bronze moyen jusqu'à l'époque arabo-islamique[19].

V. CAMPAGNE DE SAUVETAGE DANS LA REGION DU KHABOUR

Quittons l'Euphrate et transportons-nous maintenant vers l'extrémité orientale de la Syrie dans la région de la moyenne vallée du Khabour où le gouvernement syrien décida récemment d'aménager deux barrages ce qui devait avoir pour conséquence la construction de deux lacs de rétention[20]. Ainsi naquit un autre programme de sauvetage d'un patrimoine culturel riche condamné à disparaître sous les eaux.

Les travaux de prospection réalisés par des équipes syriennes en 1984 et en 1985[21], sous la direction de Adnan BOUNNI, permirent dans un premier temps de repérer plus de 65 sites[22].

Des recherches syriennes furent ensuite menées sur deux sites situés à l'emplacement du Lac du barrage Hassakeh ouest.

Pour le Tell Kashkashouk III, une mission dirigée par Antoine SOULEIMAN et Ahmed TARAQJI a mené de 1986 à 1991 inclus plusieurs campagnes de travaux archéologiques[23]. Les efforts de la fouille ont porté sur le chantier principal implanté dans la moitié nord du site. Dans ce dernier ont été mis au jour plusieurs niveaux d'occupation allant du sixième au troisième millénaires av. J.-C. Notons la présence, dans le niveau de la période dite «Ninive 5», d'une partie d'un grand bâtiment de plan circulaire qui couronne le sommet du tell avec un mur d'enceinte conservé sur plusieurs assises de

av. J.-C., *Archéologia*, 140, 1980, pp. 30-39 ; P. MATTHIAE : Ittiti ed Assiri a Tell Fray, lo scavo di una città medio-siriana sull'Eufrate, *SMEA*, XXII, 1980, pp. 35-51 et A. BOUNNI: Tell Fray, *L'Eufrate e il tempo*, le civiltà del medio Eufrate e della Gezira siriana, éd. O. ROUAULT et M. G. MASETTI-ROUAULT, Milano, 1993, pp. 199-202.

[19] Sh. SHA'ATH : Tell Fray, *Antiquités de l'Euphrate*, Exposition des découvertes de la campagne internationale de sauvetage des antiquités de l'Euphrate, éd. A. BOUNNI, Damas, 1974, p. 41.

[20] Le premier lac se situe au sud de la ville de Hassakeh tandis que le deuxième est au nord-ouest de cette même ville.

[21] Pour les rapports préliminaires cf. A. BOUNNI : La Djéziré syrienne, pays aux mille Tells, *Les Dossiers d'Archéologie*, 155, 1990, pp. 2-3 ; *idem.* : Sauvegarde des antiquités menacées par le projet du Habour, *Les Dossiers d'Archéologie*, 155, 1990, pp. 16-17 ; *idem.* : The Khabur and the Haseke Dam Projects and the Protection of Threatened Antiquities in the Region (A Preliminary Report), *Tall al-Hamidiya 2*, Recent Excavations in the Upper Khabur Region (Berne, December 9-11, 1986), Vorbericht 1985-1987, éd. S. EICHLER , M. WÄFLER et D. WARBURTON (= OBO/SA 6), Göttingen, 1990, pp. 19-29 et M. AL-MAQDISSI : Poterie de Tell Kachkachouk (Moyen Khabour), *Syria*, LXVII, 1990, pp. 456-459.

[22] Outre le travail réalisé par les missions syriennes, cette région fut prospectée par une mission allemande et une autre française, cf. H. KÜHNE : Zur historischen Geographie am Unteren Habur, Vorläufiger Bericht über eine archäologische Geländebegehung, *AfO*, XXV, 1974-77, pp. 249-255 ; *idem* : Zur historischen Geographie am Unteren Habur, Zweiter vorläufiger Bericht über eine archäologische Geländebehung, *AfO*, XXVI, 1978-79, pp. 181-195 ; W. RÖLLIG et H. KÜHNE : The Lower Habur, Second Preliminary Report on a Survey in 1977, *AAAS*, XXXIII/2, 1983, pp. 187-199 ; J.-Y. MONCHAMBERT : Le Moyen Khabour, prospection préliminaire à la construction d'un barrage, *AAAS*, XXXIII/1, 1983, pp. 233-237 ; *idem* : Le futur lac du Moyen Khabour, repport sur la prospection archéologique menée en 1983, *Syria*, LXI, 1984, pp. 181-218 ; *idem.* : Prospection archéologique sur l'emplacement du futur lac du Moyen Khabour, *Akkadica*, 39, 1984, pp. 1-7.

[23] A. SOULEIMAN et A. TARAQJI : Tell Kashkashuk à l'époque de Halaf, *Syrie, mémoire et civilisation*, Paris, 1993, p. 48 et *idem* : Tell Kashhkashuk III, *Syria*, LXXII, 1995, pp. 172-183.

depuis 1990, sous la direction de Adnan BOUNNI, ont montré que le site fut occupé au Bronze ancien IV. Il s'agit d'un quartier résidentiel composé, pour le moment, de cinq ensembles de bâtiments séparés par deux ruelles d'une largeur variable (fig. 2).

Le matériel céramique trouvé comporte des éléments variés : gobelets à fond plat ou en disque plat et à surface finement peignée ; jarres à surface peignée suivant des lignes horizontales, verticales et obliques et à fond plat ; cruches de forme ovoïde, à ouverture simple, à fond en bouton et à anse de section circulaire ; lampe coupelle à quatre becs et à fond plat ou aplati...

IV. CAMPAGNE INTERNATIONALE DE SAUVETAGE DES ANTIQUITES DE LA MOYENNE VALLEE DE L'EUPHRATE

Voici trente ans qu'a débuté, à l'occasion de la construction du barrage du Tabqa sur la moyenne vallée de l'Euphrate une collaboration internationale dans le domaine de l'archéologie de sauvetage entre des savants de plusieurs nationalités.

Cette collaboration apparaît comme exemplaire à la fois par les résultats scientifiques obtenus et par le rythme des publications préliminaires et définitives[15]. Les fouilles d'une trentaine de sites ont permis d'esquisser un nouveau tableau de l'histoire de la Syrie allante du IXème millénaire av. J.-C. jusqu'aux époques arabo-islamiques les plus récentes.

Les premières recherches de prospection réalisées par la DGAM ont permis de dresser, dès 1963, un inventaire détaillé des sites menacés[16]. La période suivante vit l'exploration méthodique de plusieurs sites de l'Âge du bronze ; ainsi, Adnan BOUNNI réalisa des fouilles à Tell al-'Abd (1971-1972) et dégagea des niveaux des structures domestiques et funéraires du milieu du IIIème millénaire av. J.-C .[17]. L'étape suivante devait naturellement être l'ouverture d'autres chantiers et la DGAM a invité, entre 1972 et 1973 inclus, deux équipes, l'une italienne et l'autre américaine, à collaborer avec elle sur le site important de Tell Fray.

L'objectif essentiel de la mission syro-italienne, dirigée par Adnan BOUNNI et Paolo MATTHIAE, fut porté sur le niveau IV, daté de la deuxième moitié du Bronze récent. C'est ainsi que furent dégagés des ensembles architecturaux importants qui nous renseignent sur plusieurs aspects de la vie à cette époque[18]. Par contre, l'effort de la

[15] Je cite à cette occasion les synthèses publiées dans *Le Moyen Euphrate, zone de contacts et d'échanges*, Actes du Colloque de Strasbourg, 10-12 mars 1977, éd. J.-Cl. MARGUERON, Leiden, 1980.

[16] A.-K. RIHAOUI : Étude préliminaire sur la sauvegarde des monuments dans les régions du barrage de l'Euphrate, *AAAS*, 15/1, 1965, pp. 99-111 et 15-28 (la partie arabe) ; *idem* : Aperçu sur la civilisation de al-Jazira et de la vallée de l'Euphrate à l'époque arabe-musulmane, *AAAS*, XIX, pp. 77-100 et 49-76 (la partie arabe) et A. BOUNNI (éd.) *Antiquités de l'Euphrate*, Exposition des découvertes de la campagne internationale de sauvetage des antiquités de l'Euphrate, Damas, 1974.

[17] Pour les rapports préliminaires, cf. A. BOUNNI : Tell al-'Abd, *Antiquités de l'Euphrate*, Exposition des découvertes de la campagne internationale de sauvetage des antiquités de l'Euphrate, éd. A. BOUNNI, Damas, 1974, pp. 29-32 ; *idem* : Preliminary Report on the Archaeological Excavations at Tell al-'Abd and 'Anab al-Safinah (Euphrates) 1971-72, *AASOR*, 44, 1979, pp. 49-61 (= Archaeological Reports from Tabqa Dam Project Euphrates Valley, Syria) et A. BOUNNI *et al.* : Rapport préliminaire sur les fouilles à Tell al-'Abd et à 'Anab al-Safinah (Euphrate) 1971-1972, *AAAS*, 24, 1974, pp. 53-74 (la partie arabe).

[18] Pour les rapports préliminaires, cf. A. BOUNNI et P. MATTHIAE : Tell Fray, *Antiquités de l'Euphrate*, Exposition des découvertes de la campagne internationale de sauvetage des antiquités de l'Euphrate, éd. A. Bounni, Damas, 1974, pp. 33-40 ; *idem* : Tell Fray, ville frontière entre hittites et assyriens au XIIIe siècle

III. ÉTUDE DES SITES DU ROYAUME OUGARITIEN

Dans la bande côtière qui s'étend du Jabal al-Aqra' au nord[10] jusqu'à la plaine du Jablé au sud, les recherches épigraphiques et les prospections archéologiques pionnières de Gabriel SAADE, réalisées depuis la fin des années cinquante, ont fait connaître l'existence de plusieurs agglomérations dont Ougarit (actuellement Ras Shamra) fut la métropole[11]. Ultérieurement, grâce à la collaboration de divers spécialistes syriens et étrangers dans les domaines archéologique, épigraphique et historique, un ensemble important de données ont permis de reconstituer des éléments économiques, sociaux et culturels de ce royaume qui éclairent d'une manière éclatante un mode d'occupation typique pour la Syrie au Bronze récent[12].

À partir du milieu des années soixante-dix, les recherches archéologiques ont pris une ampleur nouvelle et la volonté de la DGAM d'une collaboration internationale a permis la mise en place d'un programme de recherches concernant l'Âge du Bronze ; ainsi en est-il des opérations syro-françaises, sous la direction de Adnan BOUNNI et Jacques LAGARCE menées sur deux sites majeurs : Ras Shamra en 1974 et Ras Ibn Hani à partir de 1975.

La fouille a, en effet, mis au jour sur le cap d'Ibn Hani les vestiges d'une grande ville marquée par un ensemble palatial important (Palais Nord et Palais Sud) construit au milieu du XIIIème siècle et détruit lors du passage des Peuples de la Mer au début du XIIème siècle av. J.-C.[13]

À une trentaine de kilomètres plus au sud, au milieu de la plaine fertile de Jeblé, le site de Tell Sianu témoigne aussi d'une occupation importante. Ce site constitue un rare témoin, sur la côte levantine, de la fin du IIIème millénaire av. J.-C.[14]. Les travaux menés

[10] *Sapon* dans les textes ougaritiques du Bronze récent et Monts *Cassius* et Anti *Cassius* dans les textes classiques.

[11] G. SAADE : *Histoire de Lattaquié*, I, Ramitha problème des origines, Damas, 1964, pp. 91-101 ; *idem* : *Ougarit, métropole cananéenne*, Beyrouth, 1979, pp. 55-61 ; *idem* : A la recherche des villes et des villages du royaume ougaritien, *AAAS*, XXIX-XXX, 1979-1980, pp. 215-230 (= Actes du Colloque international des études ugaritiques 1979) ; *idem* : Note sur les tells archéologiques du royaume ougaritien, *Syria*, LXVII, 1990, pp. 195-199.

[12] Signalons à ce propos les fouilles du Dr Hicham SAFADI en 1958 à Tell Barsoumé.

[13] Pour la bibliographie récente, cf. A. BOUNNI et J. LAGARCE : Ras Ibn Hani, *Contribution française à l'archéologie syrienne 1969-1989*, Damas, 1989, pp. 91-97 ; A. BOUNNI : New Light on the Eastern Mediterranean After Fifteen Years of Excavations at Ras Ibn Hani (Syria), *Near Eastern Studies* Dedicated to H. I. H. Prince Takahoti Mikasa on the Occasion of His Seventy-Fifth Birthday, éd. M. Mori (= *Bulletin of the Middle Eastern Culture Center in Japan*, V), Wiesbaden, 1991, pp. 1-8 ; J. et E. LAGARCE : The Intrusion of the Sea Peoples and Their Acculturation, A Parallel between Palestinian and Ras Ibn Hani Data, *SHAP*, III, Proceedings of the First International Symposium on Palestine Antiquities, Alep, 1988, pp. 137-169 ; J. et E. LAGARCE, A. BOUNNI et N. SALIBY : Les dixième et onzième campagnes de fouilles (1984 et 1986) à Ras Ibn Hani (Syrie), *CRAI*, 1987, pp. 274-288 et A. Bounni, E. et J. Lagarce : *Ras Ibn Hani I, le palais nord du Bronze récent, fouilles 1979-1995, synthèse préliminaire*, BAH CLI, Beyrouth, 1998.

[14] Pour les rapports préliminaires, cf. A. BOUNNI et M. AL-MAQDISSI : Tell Sianu, un nouveau chantier syrien, *Studies in Honour of Vassos Karageorghis*, éd. G. C. Ioannides, Nicosia, 1992, pp. 129-140 ; *idem* : Tell Sianu, *Syria*, LXX, 1993, pp. 444-447 ; A. BOUNNI : Les fouilles archéologiques syriennes à Tell Sianu, *DT*, 45-46, 1993, pp. 151-164 et A. BOUNNI et M. AL-MAQDISSI : La céramique peignée à la lumière des fouilles syriennes à Tell Sianu, *Beiträge zur Altorientalischen Archäologie und Altertumskunde*, Festschrift für Barthel Hrouda zum 65. Geburtstag, éd. P. CALMEYER, K. HECKER, L. JAKOB-ROST et C.B.F. WALKER, Wiesbaden, 1994, pp. 19-29.

- Étude systématique de la plaine du 'Akkar ;
- Étude de plusieurs sites du royaume ougaritien ;
- Organisation de la campagne internationale de sauvetage des Antiquités de la région moyenne de l'Euphrate à l'emplacement de l'actuel lac du barrage de Tabqa ;
- Organisation des campagnes de sauvetage dans la région du Khabour (Lac du barrage du Khabour et Lac du barrage Hassakeh ouest).

II. ÉTUDE SYSTEMATIQUE DE LA PLAINE DU 'AKKAR

Non loin de la ville de Tartous dans la plaine fertile du 'Akkar qui dessine, au débouché sur la mer de la Trouée de Homs, un triangle de quelque 25 km de côté, les reconnaissances préliminaires menées, dès 1954, dans cette région par Nessib SALIBY, ont fait connaître l'existence de vestiges importants du Bronze récent[4]. Elles furent suivies de l'exploration méthodique de plusieurs sites majeurs par Adnan BOUNNI et Nessib SALIBY. Leur travail, d'une importance majeure, permit l'étude simultanée des niveaux du Bronze récent et moyen à Tell Abou Ali-Simirian (1955)[5] et à Tell Kazel (1956, 1960-1962 et 1985)[6], des structures funéraires de la fin du Bronze ancien et du début du Bronze moyen à Tell 'Amrit (1954-1955)[7], ainsi qu'une vaste enquête à la recherche de la ville antique de *Sumur* citée principalement dans les textes de Tell al-'Amarna en Egypte[8].

Tout récemment, un programme syro-français de recherches et de prospections, sous la responsabilité de Jean-Paul THALMANN et Michel AL-MAQDISSI (1986-1987), a été amorcé pour l'étude de la nature de l'occupation de la plaine aux IIIème et IIème millénaires av. J.-C. Il a permis de définir un type d'occupation régionale, avec une implantation des sites très particulière, probablement née dans cette région et due vraisemblablement à des facteurs économiques et commerciaux. Les travaux de fouilles ponctuelles ont porté surtout sur les deux sites de Tell Bseisa et de Tell Laha[9]. Le premier comporte une séquence stratigraphique dense de plusieurs mètres de niveaux superposés datant de la fin du Bronze ancien III et du Bronze ancien IV, associés à une architecture domestique en briques crues ; le second de nature presque identique avec des niveaux de la fin du IIIème millénaire av. J.-C. bouleversés par un silo en pierre de forme presque ovoïde, du Bronze moyen II. Le matériel céramique atteste la présence d'ateliers locaux marqués par des contacts étroits avec la région de Jbeil (Byblos) d'un côté et la région de Tell Nebi Mend de l'autre.

[4] C'est notamment le travail réalisé à Tell 'Amrit et à Tell Kazel.

[5] M. DUNAND et N. SALIBY : A la recherche de Simyra, *AAAS*, VII, 1957, pp. 7-8

[6] *Ibid.* pp. 3-16 et M. DUNAND, A. BOUNNI et N. SALIBY : Fouilles de Tell Kazel, rapport préliminaire, *AAAS*, XIV, 1964, pp. 1-14.

[7] M. DUNAND, N. SALIBY et A. KIRICHIAN : Les fouilles d'Amrith en 1954, rapport préliminaire, *AAAS*, 1954-1955, IV-V, pp. 189-204 ; M. DUNAND et N. SALIBY : Rapport préliminaire sur les fouilles d''Amrith en 1955, *AAAS*, VI, 1956, pp. 3-8 ; N. SALIBY : 'Amrit, *Archéologie et Histoire de la Syrie II.* La Syrie de l'époque achéménide à l'avènement de l'Islam, éd. J. M. DENTZER et W. ORTHMANN, pp. 19-30, Saarbrücken, 1989 et *idem* : Le site d'Amrit, *International Meeting of History and Archaeology*, Delphi 6-9 Nov. 1986, Athènes, 1991, pp. 417-428.

[8] Cf. W. L. MORIN : *Les lettres d'El-Amarna*, Correspondance diplomatique du Pharaon, Paris, 1987 : les textes nos 59-62, 67-68, 149, 155, 157, 159, 160-161.

[9] J.-P. THALMANN : Prospection de la plaine du 'Akkar syrien 1986-1987, *AfO*, XXXVI-XXXVII, 1989-1990, pp. 344-346 et J.-. P. THALMANN et M. AL-MAQDISSI : Prospection de la trouée de Homs, les sites de la plaine du 'Akkar syrien, *Contribution française à l'archéologie syrienne, 1969-1989*, Damas, 1990, pp. 98-101.

- En deuxième lieu, nous souhaitons présenter un résumé sous forme de tableaux, donnant les informations suivantes :

- Nom du site ;
- Nom du directeur ;
- Campagnes de fouilles réalisées ;
- Période d'occupation.

- Enfin, en dernier lieu, notre but était d'analyser la stratégie appliquée, c'est-à-dire la politique menée par la Direction Générale des Antiquités et des Musées pour l'étude et la fouille des vestiges de l'Âge du Bronze.

Il m'est agréable de dédier cette contribution à nos prédécesseurs dont les noms demeurent liés à l'archéologie syrienne. Ce sont l'Émir Djafar Abd El-Kader AL-HASSANI, le premier directeur syrien du Musée National de Damas et responsable des antiquités de la Syrie de 1947 à 1950 inclus et le Dr Sélim ABDULHAK, fondateur du premier Service des Antiquités pluridisciplinaire et Directeur Général des Antiquités et des Musées de 1950 à 1964 inclus.

I. INTRODUCTION

Dès les premières années de l'indépendance, l'objectif essentiel de la Direction Générale des Antiquités et des Musées de la Syrie fut la fouille des grands sites ou ensembles archéologiques[2]. C'est ainsi que les équipes syriennes ont entamé une série de campagnes fructueuses dans des sites arabo-islamiques ou classiques : Raqqa (1950-1958) entre l'Euphrate et le Balikh, Tell Nebi Mend (1950) au sud-ouest de Homs, Palmyre (depuis 1952) au centre de la steppe syrienne, Rasafé (1956) au nord de Badiyat al-Sham, Tell Oumm Hauran et Zakir au sud de Damas (1955 et 1956), Homs-les catacombes (1957) dans la moyenne vallée de l'Oronte...

De la même manière, la DGAM a tenté de mener une action touchant les sites de l'Âge du bronze. C'est ainsi que nous prenons 1954 pour une année importante[3] où Nessib SALIBY a donné le premier coup de pioche sur le tell de 'Amrit ; événement qui marque le point de départ d'une série d'actions successives à la recherche de la ville amarnienne de *Sumur* (Bronze récent).

En réalité, l'intérêt porté par la DGAM aux IIIème et IIème millénaires av. J.-C. n'est pas un fait du hasard. Il est vrai que les résultats spectaculaires des fouilles françaises à Ras Shamra (depuis 1929) et à Tell Hariri (depuis 1933) ont beaucoup animé l'esprit des jeunes chercheurs syriens et révélé l'importance de la région au IIème millénaire av. J.-C. En effet, il semble que la DGAM a élaboré une politique de recherches orientée selon les quatre axes suivants :

[2] Dans un article intitulé «Notre politique archéologique au présent et au futur» publié dans la partie arabe des *AAAS* (VIII-IX, 1958-1959, pp. 3-24), le Dr Sélim ABDULHAK présente l'orientation générale de la DGAM; nous pouvons ainsi, résumer la politique de fouilles appliquée par les équipes syriennes dans les trois points suivants (pp. 8-9) :
- Exploration systématique des grands centres arabo-islamiques : Qasr al-Hir al-Sharqi, Jabel Seis et Rasafé pour l'époque omeyyade et Raqqa pour l'époque Abbasside.
- Reprise de la fouille de Palmyre et dégagement et restauration de plusieurs monuments publics et religieux.
- Étude systématique des sites de la plaine du 'Akkar au sud de la ville de Tartous et fouille de plusieurs sites du IIème et du Ier millénaires av. J.-C.

[3] Notons à cette occasion que le Service des fouilles et des études archéologiques fut fondé la même année sous la responsabilité du Dr Adnan BOUNNI (information communiquée aimablement par le Dr Adnan BOUNNI).

Bilan des activités archéologiques de la Direction Générale des Antiquités et des Musées de Syrie (1945-1995)
I. Sites de l'âge du Bronze [1]

Michel AL-MAQDISSI
DGAM - Damas

«Il nous suffit de savoir maintenant, grâce à la communication de M. BOUNNI, que la Syrie contribue à la science de son passé d'une manière digne de celui-ci»
A. CAQUOT : Séance du 27 mai 1988 de l'Académie des Inscriptions & Belles-Lettres, *CRAI*, 1988, p. 380.

En formant le projet de cette présentation, mes collègues de la Direction Générale des Antiquités et des Musées ont proposé trois buts principaux :

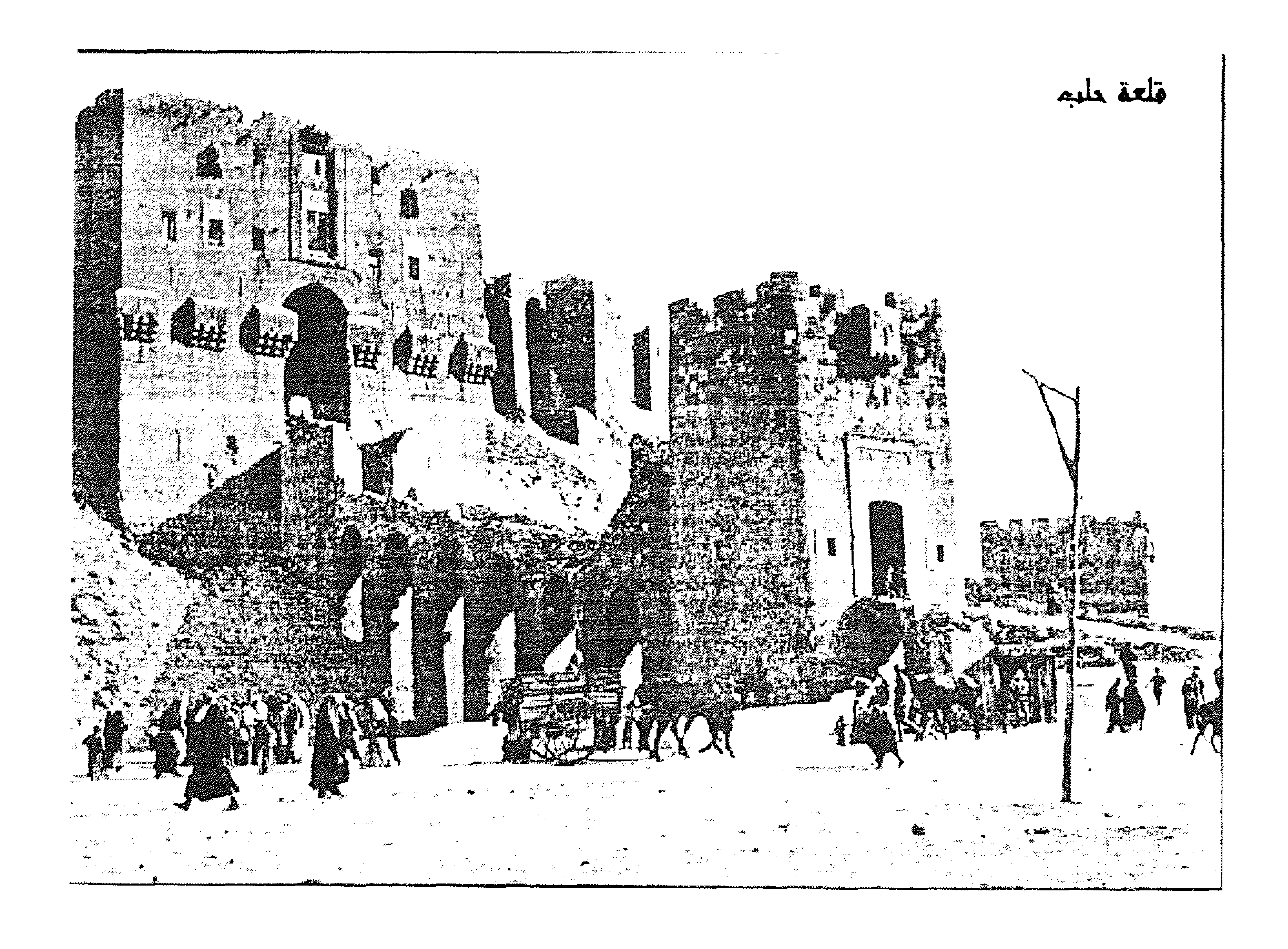
- Il s'agissait en premier lieu de donner au monde scientifique une vue d'ensemble des activités archéologiques nationales, aux III^{ème} et II^{ème} millénaires av. J.-C., depuis la création du premier Service national des Antiquités vers le milieu des années quarante jusqu'à nos jours.

---

[1] Mes plus vifs remerciements vont au Dr Adnan BOUNNI, alors directeur du Service des fouilles et des études archéologiques à la Direction Générale des Antiquités et des Musées de Syrie pour son aide, et à feu Nessib SALIBY, alors Directeur adjoint du même service, pour son appui au cours de la préparation de cette présentation.

Ce texte est une version modifiée d'un article publié en italien sous le titre : L'attività delle missioni archeologiche nazionali siriana, *Ebla alle origini della civiltà urbana*, éd. P. MATTHIAE, F. PINNOCK et G. SCANDORE-MATTHIAE, Milan, 1995, pp. 62-71.

Contents:



Most of these subjects contained in the book were chosen from tenths of lectures delivered in Al Adiyat Society , to be the general axle of this book.

* * *

With the help of god , we plan to contain in the next book , a vast file of ' ALEPPO ON THE PAGES OF HISTORY " consequently, we invite the concerned researchers to address to us their studies , to be arbitrated and published in the next book .

At the end , we have to address our thanks, to all those who contributed in issuing this book , the committee of editors, researchers , administrators and artists, specially, Prof .Dr. Rector of Aleppo University, Pro. Dr. Dean of the Institute if scientific legacy , Aleppo university printing house management, and all who extended services in publishing this book.

establishment , specially, with the Institute of The Arab scientific legacy in the university , which is a sole pattern of scientific legacy caring , attesting , investigating , studying and publishing , among the universities in the Arab Homeland , in addition to concentrating on conferences , forums related to the Arab scientific legacy.

The annual book "ADIYAT OF ALEPPO " , is a fruit of this cooperation , in addition to cooperation in other scientific and academic fields .

Al Adiyat society performed the following international scientific conferences during the last two years, in cooperation with Aleppo University :

1- Conference on the great sheikh " MUHYEL AL DIN IBN ARABI"
2- Conference on "" THE INTELECTUAL LIFE IN SEIF AL DAWLEH AL HAMADANY PALACE'
3- Conference on " KHALED IBN AL WALID ' in his death occasion before 14 centuries .
4- Confrrence on ' MODERN READING IN THE HISTORY OF THE OTTOMAN STATE".
5- Conference on 'IBN HAZEM OF ANDALOUSIA " in cooperation with Serpantith Spanish Institute and Aleppo University, in which forty researchers have contributed.

We planned that this tenth book will provide a group of subjects, ranging between the Diamond Jubilee celebration , studies and researches in the old history , antiquities, legacy and civilization , including research on The Code of Hamourabi , Cartage , the Canaanite Civilization, The bible concepts in the science of archeology , The Oguritian Kert Myth and the Towers of the hermits.

Other studies , were related to the Islamic History, as Jerusalem, the Mamloukite period, the Zenkis period , relations of Venice with Aleppo, Ibn Arabi, and studies related to the social history , as public games in Aeppo, and the economical transitions in Aleppo, The role of the Arab in logic, the female role in the history of civilization and the image of Aleppo great travelers .

PREFACE

The tenth book of "THE ADIYAT OF ALEPPO" is a continuous addition to this concrete annual book issued by the University of Aleppo and Aladiyat Society.

By publishing this book, Al Adiyat Society is adjacent to its eightieth year since its establishment on 2.8.1924, by elite of Aleppians , who care to preserve the legacy and the antiquities . It continued through its long course to represent the civilized phase of the Arab society, as a civil volunteer organization , polarizing the selected cultured persons defending the legacy of their nation .

What signalize this book is, the contained file of the diamond jubilee of the society, which has been celebrated for one week in the throne hall of Aleppo Citadel as from 2.8.1999 , and the speeches rendered have proved the high level occupied by the society , and its effects on the cultured class of the community , also legacy exhibitions and art festivals in addition to acquaintance meetings held in this occasion.

Celebrating the said occasion in the throne hall of Aleppo citadel , which has witnessed during its long history great events , signifies the importance of the occasion.

Aleppo Citadel is the greatest and the oldest citadel in the world , and the archeological excavations carried out in it proved the presence of flint stone aging to the seventh millenium B.C., and temples of the third millenium B.C. , in addition to the defensive , historical and architectural distinctions which have built its fame amidst and in the heart of the oldest city in the world which remained inhabited through thousands of years , in spite of all forms of destruction , wars, earth quakes and catastrophes.

Even the society was found in Aleppo, to be the high voice defending its antiquities and legacy , its activities did not remain limited within the scope of Aleppo, and have expended to cover all Syrian antiquities , the bright phase of the Arab Legacy and the wide horizon of the permissive fields of the Islamic civilization.

The wide scope of the various society's activities are supported through tied cooperation with Aleppo University, The giant Academic

UNIVERSITY OF ALEPPO
ARABIC SCIENCE HERITAGE
INSTITUT

ALEPPO ARCHAEOLOGICAL
SOCIETY
1924

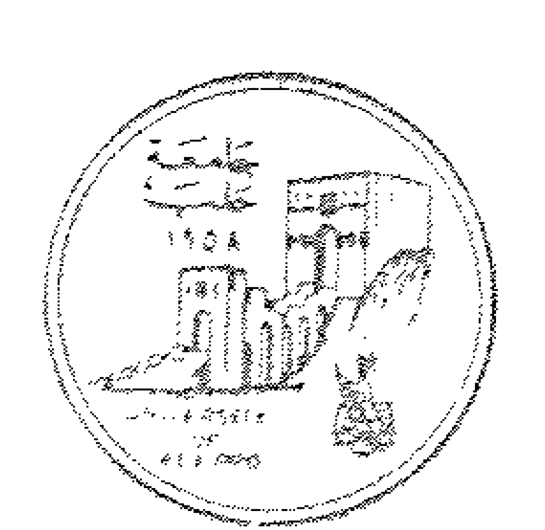
ADYAT HALAB

An annual book devoted to the study of Arabic Science and civilization issued by Aleppo university in collaboration With Aleppo Archaeological society

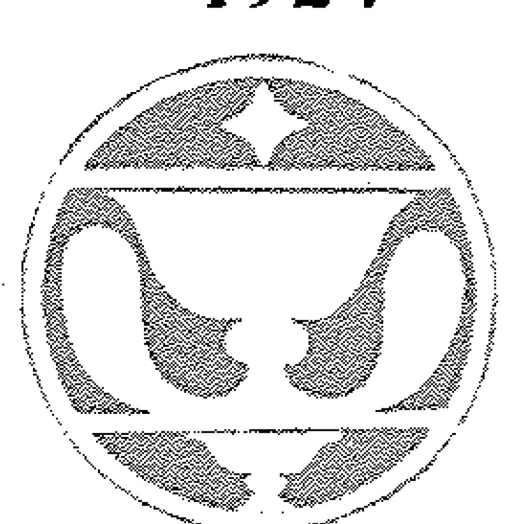
Volumes Tenth
2003

مطبعة جامعة حلب

UNIVERSITY OF ALEPPO
ARABIC SCIENCE HERITAGE
INSTITUTE



ALEPPO ARCHAEOLOGICAL
SOCIETY
1924



ADIYAT HALAB

An annual book devoted to the study of Arabic Science and civilization issued by Aleppo University in collaboration with Aleppo Archaeological society.

مطبعة جاه

Volumes Tenth
2003